

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الأمير عبد القادر

لِلعلوم الإسلامية

قسنطينة

أمثال القرآن الكريم والحديث الشريف

دراسة بلاغية

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

الشعبة الأدبية

إشراف الأستاذ الدكتور

رابح دوب

إعداد الطالب

أحمد كامش

أعضاء لجنة المناقشة

الجامعة الأصلية	الرتبة	الاسم واللقب	أمام اللجنة
جامعة الأمير عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	رابح دوب	الرئيس المقرر
			العضو
			العضو
			العضو

السنة الجامعية 1430 / 1431 هـ - 2009 / 2010 م.

إهداء وشكر

بين يدي سيدي رسول الله ﷺ وحده، أتقدم بجهد المقلّ هذا، مستشفعا به، وأسأله،
إن رضي، إهداءه

إلى والدي الطاهر- رحمه الله رحمة واسعة - ووالدتي الزهراء.
إلى أستاذي الفاضل؛ الأستاذ الدكتور رابح دوب ، الذي رعى هذا العمل
ووجهه، ولولا عنايته ما كان له أن يظهر.
إلى أستاذي المحترم ؛ الأستاذ الدكتور الأخضر عيكوس الذي أدين له بالفضل
الكبير . فكلّ واحد منهما:

له أيادي عليّ سابعة أعدّ منها ولا أعدّها
إلى التي اختارها الله رفيقة دربي وأمّ أولادي، والتي هيأت لي جوا علميا هون
عليّ مشاق البحث، إلى أم عبد الله نعيمة.

إلى أبنائي وبناتي؛ مدلل العائلة أيمن وريان وفداء الإسلام وأنفال و عبد الله.
إلى أخويّ وأخواتي بوخميس (الرزقي) و مسعود والطاوس - رحمها الله -
وعائشة وحدة ، و أحفادي جميعهم ، وكلّ اقواسم.

إلى زملائي الذين لم يبخلوا عليّ بعونهم الماديّ والمعنوي، أذكر منهم أخي
الدكتور حميد حوسو وأبناء عمّوتي سعد ومحمد وحسان وبن جدّي مصطفى
والظريف وجميع الزملاء كلّ في موقعه.

إلى كلّ رجال ونساء مهنة المتاعب، مهنة الأنبياء والرّسل، عليهم السلام، مهنة
التربية و البحث العلمي.

إلى كلّ هؤلاء أتقدم بهذا الجهد المتواضع، سائلا سيدي أن يرضى وراجيا من
ربي أن يتقبّله مني بقبول حسن.

أحمد

17 - 01	المدخل: الأمثال بين الدراسات الأدبية واللغوية.			
	الفصل الأول: المثل، قضايا عامّة			
19	المبحث الأول: الدلالة اللغوية للمثل			
29	المبحث الثاني: الدلالة الاصطلاحية للمثل			
	المبحث الثالث الأنماط التعبيرية التي تجرى مجرى المثل:			45
	المبحث الرابع معنى ضرب المثل في اللغة ومن حيث وروده في النصوص الدينية			56
69	الفصل الثاني: الأمثال في القرآن الكريم			
77	المبحث الأول: الاستعمال القرآني للمثل			
القرآني.	المثل	أحكام	الثاني:	المبحث
				87
				. المثل والمثل في الاستعمال القرآني.
				. اتصال كاف التمثيل بـ " مثل " في القرآن.
				. حكم التمثيل بالقرآن والحديث [الاقتباس] وضوابطه.
				. أنواع التمثيل [الاقتباس] بالقرآن وحكمه.
97				المبحث الثالث: أهمية الأمثال القرآنية.
99				المبحث الرابع: قضايا الأمثال القرآنية.
				المبحث الخامس: أنواع الأمثال من حيث التصريح بلفظ المثل أو ما يدل عليه وعدم التصريح.
				103

أ . الأمثال المصرّح فيها بلفظ المثل " أمثال التّمثيل "

- ب . الأمثال غير المصرّح فيها بلفظ المثل .
- 115 المبحث السادس: مقاصد ضرب الأمثال في القرآن .
- 119 المطلب السابع: مصنّفات الأمثال القرآنيّة؛ عرض وتقويم .
- 125 الفصل الثالث الأمثال في الحديث النبوي الشريف
- 126 توطئة
- 127 المبحث الأول: معنى المثل النبوي .
- 128 المبحث الثاني: أنواع الأمثال الواردة في السنة .
- 140 المبحث الثالث: قضايا الأمثال النبويّة .
- 143 المبحث الرابع: بين الأمثال القرآنيّة والأمثال النبويّة .
- 145 المبحث الخامس: مصنّفات الأمثال النبويّة؛ عرض وتقويم .
- أ . كتب أمثال الحديث
- ب . كتب غريب الحديث .
- 178 الفصل الرابع أمثال العهد القديم والعهد الجديد
- 179 توطئة
- 181 المبحث الأول: اليهوديّة والنصرانية عند العرب قبل الإسلام .
- . اليهوديّة والنصرانيّة بين العرب قبل الإسلام .
- . كتب أهل الكتاب [التوراة والإنجيل] عند العرب بعد الإسلام .
- . تعريب التوراة والإنجيل .
- . التعريف بالتوراة والإنجيل .
- 195 المبحث الثاني: أمثال العهد القديم والعهد الجديد .

. أمثال العهد؛ عرض وتقويم.

. أمثال الجديد؛ عرض وتقويم.

210 المبحث الثالث: بين الأمثال الإسلامية وأمثال أهل الكتاب.

212 الفصل الخامس: صور البيان في النصوص العربية الدينية

213 توطئة

214 المبحث الأول: إعجاز القرآن وبلاغة رسول الله ﷺ وأخويه موسى والمسيح عليهما السلام.

. توطئة.

. إعجاز القرآن الكريم.

. بلاغة الرسول ﷺ.

. بلاغة موسى والمسيح عليهما السلام.

232 المبحث الثاني التشبيه في النصوص الدينية.

. التشبيه في البيان القرآني.

. التشبيه في التمثيلات الدينية.

ا. في أمثال القرآن.

ب. في أمثال الحديث الشريف.

ج. صور البيان في العهد القديم والعهد الجديد.

المبحث الثالث المجاز والاستعارة في النصوص الدينية.

249

. توطئة.

. المجاز والاستعارة في البيان القرآني.

. المجاز والاستعارة في اللغة والنصوص الدينية.

. المجاز والاستعارة في تمثيلات القرآن والحديث.

. منزلة الاستعارة من التمثيل.

257

المبحث الرابع الكناية في النصوص الدينية.

. الكناية في البيان القرآني.

. الكناية في التمثيلات الدينية.

. كنايات القرآن الكريم.

. كنايات الحديث النبوي الشريف.

ج . في العهد القديم والعهد الجديد.

المبحث الخامس التمثيل في النصوص الدينية

267

توطئة.

بين التمثيل والتشبيه.

بين التمثيل والمجاز والاستعارة.

بين الكناية والتمثيل.

ملخص ما يراه علماء البلاغة في التمثيل.

الفصل السادس: تحليل تطبيقي بياني لتمثيلات دينية.

281

282

المبحث الأول: تحليل ودراسة لبعض تمثيلات القرآن الكريم.

المبحث الثاني: تحليل ودراسة لبعض تمثيلات الحديث الشريف.	310
المبحث الثالث: تحليل ودراسة لبعض تمثيلات العهد القديم والعهد الجديد.	338
الخاتمة.	351
المصادر	كشف
والمراجع.	355
373	المحتويات.

الله رب العالمين، أحمده حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على سيد المرسلين وخاتم النبيين

محمد ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق وخصه بجوامع الكلم وبعد:

عني بدراسة الأمثال كثير من الباحثين، قديما وحديثا، واستطاعوا الإحاطة بعدد هائل منها عبر العصور مع بعد نظر بمضامينها، وإذا ما تصقحنا عناوين الكتب القديمة الخاصة بالأمثال فإننا نجد كمًا هائلًا منها من أشهرها أمثال العرب للضبي، ومجمع الأمثال للميداني، جمهرة الأمثال للعسكري، والمستقصى للزمخشري كتاب الأمثال لأبي عبيد، ومعظم هذه الكتب تطرقت للمثل الديني، أعني بذلك المثل القرآني ومثل الحديث النبوي أمّا أمثال أهل الكتاب فغائبة، فأفردت له بعضها بابا خاصًا كما هو الحال عند الميداني، وجاء في بعضها مبنوثا في ثنايا الأبواب كما هو الحال في الأمثال لأبي عبيد.

أمّا تصنيف كتب الأمثال الدينية فكانت العناية فيه بأمثال القرآن كبيرة، خاصة والذي انبرى له مجموعة من العلماء الأكفاء، فألف الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري كتابه " أمثال القرآن" وهو أقدم كتاب يصلنا عنوانه في هذا الباب ثم توالى التأليف تباعا، وأثريت المكتبة العربية بكم زاهر منها، بعضها مطبوع وسأذكر بعض ما تيسر لي الاطلاع عليه، وبعضها الآخر لمّا ير النور إلى حدّ الآن؛ بسبب تأخر المحققين عن تحقيقه أو بسبب ضياعه، شأنه في ذلك شأن كثير من تراثنا.

وجاءت أمثال الحديث في ثنايا كتب الحديث وخصّص الترمذي لها بابا في جامعه، دون غيره من علماء الحديث الذين جاءت الأمثال عندهم مورّعة في ثنايا كتبهم، بعدها انبرت مجموعة أخرى من العلماء للتصنيف في أمثال الحديث النبوي، ظهر لي اهتمام الكثير من علماء اللغة بهذا الضرب، وتيسر لي، بعون الله وتوفيقه الاطلاع على بعض الكتب التي بالرغم من كونها طبعت فإنّ العثور عليها كان ولا زال، مطلبا عزيزا ككتابي " أمثال الحديث للرامهرمزي" و" الأمثال في الحديث النبوي" لأبي الشيخ الأصفهاني، كما تيسر لي الاطلاع على بعض الكتب التي لم أقف على من ذكرها من الباحثين في باب أمثال الحديث وعلى رأسها المجتني لابن دريد، وكذلك الحال بالنسبة لكتب غريب الحديث والتي تحتوي على مادّة مثليّة وبلاغية مهمّة، ممّا جعلني أعتبرها من

مصادر المثل النبوي. وحاولت على ضوء ذلك أن أقدم إضافة لما تقدّم به غيري وأسأل الله أن أكون قد وقّفت.

أمّا أمثال التوراة والإنجيل فلم يتيسّر لي الإطلاع على كتاب في هذا الباب، عند القدماء والمحدثين على السواء،¹ والذي وجدته كتابان لا غير، أولهما " أمثال المسيح " للقسّ منيس عبد النور، والثاني " أمثال وأقوال في حياة اليهود " لسليمان سيّد أطلعني عليه الأستاذ المشرف، شكر الله سعيه، واطلعت كذلك على دراسة أخرى عنيت بالجانب التاريخي لليهود العرب في العراق موسومة بـ " نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق " للباحث العراقي اليهودي يوسف رزق الله غنيمّة، لكنّها لم تقدّم لي كبير فائدة.

وأمام شحّ المصادر والمراجع اضطررت أن أعود مباشرة إلى النصّين المعتمدين حالياً عند اليهود والنصارى، وأعني بهما العهد القديم والعهد الجديد.

والذي جعلني أخصّص جانباً من بحثي للحديث عن أمثال التوراة والإنجيل، راجع إلى كون كتب التراث بأنواعها، كانت تذكر، عند الحديث عن أمثال القرآن الكريم، أنّ كتاب اليهود والنصارى كانت الأمثال من موضوعاتها الظاهرة، فحقّزني ذلك على دراستها ومعرفة مدى قربها من أمثال القرآن بشكل خاص.

لذلك من المهمّ أن أبيّن في بداية هذا البحث أنّي لست بصدد عقد مقارنة بين أمثال القرآن الكريم وأمثال الحديث الشريف من جهة وأمثال العهد القديم والعهد الجديد من جهة ثانية، لأنّ هذه العملية باطلة ولا تستقيم لعدّة عوامل:

كونها تجعل من القرآن الكريم وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أجمعت أمة الإسلام وعقلاء مفكري البشرية في كلّ مكان وزمان على أنّه كذلك، تجعله وما يسمّى بالكتاب المقدّس في منزلة واحدة، وهو أمر لا يستقيم لما ثبت في حق التوراة والإنجيل، الحاليّة، من تحريف وتزييف بيّنهما القرآن وهو آخر الكتب المنزلة في كثير من الآيات، وأظهر ذلك كثير من علماء هذه الأمة قديماً وحديثاً، بل وشهد به العقلاء من أتباع الكتابين على مرّ العصور.

¹ أقصد لا توجد بين أيدينا نسخة في أمثال التوراة والإنجيل، أمّا المصنّفات القديمة فسنجد في الفصل الرابع إشارة في الفهرست إلى كتاب أمثال سليمان.

عدم تطابق نصوص الأمثال في الكتابين، فأمثال القرآن الكريم نزلت باللغة العربية الفصحى، وخطبت العقلية البشرية جمعاء، وحافظت، إلى يومنا هذا، على صورتها التي أنزلت بها أول مرة، بينما جاءت أمثال التوراة والإنجيل بلسان غير عربي، وتوجّهت بالخطاب إلى جماعة بشرية معينة، ثم خرجت تلك النصوص، بمرور الزمن، عن أصلها، لأنها في الغالب اعتمدت على الرواية الشفهية، وبعضها لم يكتب إلا بعد وفاة النبي الموحى إليه بالكتاب الذي يتضمنها بزمن طويل، ولذلك قد نجد بينهما توافقا في بعض العناصر واختلافا كبيرا في التفاصيل.

من الناحية الفنية، فالأمثال القرآنية وحتى أمثال الحديث الشريف، خارجة عن الطبيعة البشرية لأنها وحي إلهي لم تشبه شائبة التحريف أو التزييف بالزيادة أو النقصان، بل وجاءت في لغة امتازت عن لغات الدنيا بجمال بنائها وتركيبها، حتى غدت لغة آخر رسالة سماوية. بينما جاءت أمثال التوراة والإنجيل في لغات، غالبيتها اليوم لغات ميتة، النصوص المترجمة إلى العربية تفتقر إلى مسحة الوحي بسبب اختلافات كثيرة بين نسخها المطبوعة في أيّامنا. لذلك فإنني لا أعول كثيرا على المطابقة الحرفية بين النوعين.

حديثي، إذن، عن أمثال أهل الكتاب يرجع إلى تطلي لأن تكون في بحثي إضافة وابتكار، خاصة أنني لم أصادف دراسة أكاديمية تحدّثت عن هذا الموضوع من جهة، ولكون هذه الأمثال تمثّل جانبا من جوانب تفكير طائفة ناطقة بالعربية ممثلة في اليهود والنصارى العرب.

من جانب آخر فالذي يدقّق النظر في مكتبة البلاغة العربية يتبيّن له بوضوح أنّ الأبحاث والدراسات التي عنيت بالجانب البياني في الأمثال العربية الدينية، تستوي في ذلك أمثال القرآن الكريم وأمثال الحديث الشريف، قليلة بل وتكاد أن تكون نادرة قديما وحديثا، وما تعرّض منها لهذا الجانب جاء مبنوثا في بعض كتب التفسير أو كتب شرح الحديث، أمّا أمثال التوراة وأمثال الإنجيل فلم أعر لهذا النوع على أثر، لذلك رأيت لزاما على الباحثين الالتفاتة إلى هذا الموضوع من الدراسات، ومن هنا جاءت هذه الدراسة، والموسومة بأمثال القرآن الكريم والحديث الشريف دراسة بلاغية، عنيت فيها بدراسة أمثال القرآن وأمثال الحديث الشريف وأمثال التوراة والإنجيل]

² كتبت جميع أسفار العهد القديم باللغة العبرية، باعتبارها لغة بني إسرائيل، بينما كتبت أجزاء قليلة منه بالأرامية. عزرا: 4 / 8 إلى 6 / 18، 7 وإرميا 10 / 11 ودانيل 2 / 4 إلى 7 / 28. أمّا أسفار العهد الجديد فكتبت باللغة اليونانية [الكونية Koine] العامة التي كان يتحدث بها ويفهمها الناس المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية حيث أمّا كانت لغة العلم في ذلك الوقت في القرون المسيحية الأولى.

العهد القديم والعهد الجديد] من جانبها الوصفي والبياني، والحديث عن أمثال التوراة والإنجيل توسّع وإضافة تطلّبها البحث، لأنه تبيّن لي من خلال الدّراسة أنّ الموضوع قد اتّسع ليصبح الحديث عن الأمثال في العهد القديم والعهد الجديد من لوازمه، خاصّة أنّ ذكرها مع الأمثال الإسلاميّة قديم في تراثنا، ويصبح الحديث بذلك عن الأمثال العربيّة الدينيّة ممثلة في أمثال القرآن الكريم والحديث الشّريف وأمثال التوراة والإنجيل من كتب التراث ومن نصوص العهدين القديم والجديد، وحقّ لهذه الإضافة أن تحتلّ مكانها من البحث ليصبح؛ الأمثال العربيّة الدينيّة، دراسة وصفية بيانيّة.

ولطبيعة الموضوع فقد اعتمدت منهجين تطلّبهما البحث؛ المنهج الوصفي، في عرض النصوص والقضايا والتعليق عليها والمنهج التحليلي، حيث اقتضته الدراسة التطبيقية للنصوص موضوع الدّراسة.

واقترنت الدراسة البلاغية على البيان دون غيره من أساليب البلاغة، لكون صورته التي هي المجاز والتشبيه والكناية من مكونات المثل التي تحضرنا كلّما ذكرناه، وهو ما سنراه واضحا في الفصل الخامس من هذا البحث.

وقد جاءت الدراسة في ستّة فصول؛ تعرّضت بالحديث في الفصل الأوّل إلى قضايا عامّة تتعلّق؛ من حيث مفهومه ودلالته عند علماء اللغة وعلماء البلاغة، وبعض الأساليب القريبة منه. وفي الفصل الثاني تحدّثت عن أمثال القرآن الكريم، ولمّا كان هذا الموضوع قد تمّ تناوله من الدّارسين على مرّ العصور، فإنّ إضافاتي في هذا الفصل قليلة لكنّها مهمّة في تقديري، لأنني نحوت فيها منحى مخالفا للذين سبقوا إلى دراسة هذا الموضوع، فأضفت بعض الجديد خاصّة عند ذكر المصنّفات التراثية المطبوعة في الباب، كإشارتي إلى أماكن وجود بعض مخطوطاتها على ضوء ما وجدته في الفهارس التي صدرت حديثا، كما قمت بذكر أرقام الآيات القرآنية وسورها، وحتى تلك التي وردت في نصوص استشهاد بها أصحابها وذكروها دون عزو.

وخصّصت الفصل الثالث لأمثال الحديث الشّريف، ولمّا كانت دراسات أمثال الحديث قليلة، إذ لم اطلع منها سوى على دراسة محمد جابر فياض العلواني الموسومة بـ " الأمثال في الحديث النبوي الشريف." ودراسة كمال عزّ الدين الموسومة بـ " الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية."

وكتاب مصطفى صادق الرافعي الموسوم بـ " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " ولاحظت أنّ لكلّ دارس زاويته التي ينظر من خلالها إلى الموضوع، وثم حاولت أن أركز على القضايا التي لم أجد لها أثرا في أبحاثهم؛ فبّهت على جملة من المصادر الحديثية التي يمكن أن نثري بها المدونة المثالية كالمجتبى لابن دريد والمجازات النبوية للشرّيف الرضا، ونبّهت على بعض أخطاء العلماء في تعاملهم مع بعض المصادر كالذي ذكره عبد العليّ عبد الحميد الأعظمي محقق كتابي أمثال الحديث للرامهرمزي والأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ الاصبهاني حين جزم بنسبة كتاب أمثال الحديث النبوي المذكور في مقدّمة الميداني لأبي هلال العسكري والصّحيح أنّه لأبي أحمد العسكري كما هو مبين في موضعه من البحث، وحرصت، في حدود الإمكان على تخريج غالبية الأحاديث المذكورة، مع حرصي على تقديم ما صحّ منها، إذ تبين أنّ معظم الأحاديث التي ذكرتها كتب أمثال الحديث أو كتب الأدب ضعيف عند علماء الحديث.

أمّا الفصل الرابع فكان لأمثال التوراة والإنجيل. ولما كان هذا الفصل ومعه الدراسة التطبيقية لبعض أمثال العهد القديم والعهد الجديد في المبحث الثالث من الفصل السادس من الإضافات التي ذكرتها منذ حين، وكنت قد أشرت إلى قلة، بل وافتقار المكتبة العربية إلى دراسات من هذا القبيل، فقد جاء هذا الفصل أقلّ حجما مقارنة ببقية الفصول، وما قدّمته فيه لا يعدو أن يكون اجتهادا خاصا أسأل الله السداد والتوفيق فيه.

وفي الفصل الخامس تعرضت أوّل الأمر إلى الحديث عن إعجاز القرآن والبلاغة في النصوص الدينية، لكون غالبية علوم العربية، ومنها البلاغة، وضعت للدود عن القرآن وبلاغة نبيه ﷺ، وليكون مفهوما أن الحديث عن بلاغتهما هو حديث عن بلاغة الأمثال، ثم تطرقت إلى ذكر صور البيان الرئيسية، ذات الصلة بالأمثال، فتحدّثت عن التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وأخيرا عن التمثيل وصلته بهذه الصور. واقتضى البحث التّعريض لبعض النصوص التطبيقية، وهو إضافة لما سأذكره في الفصل الموالي.

وفي الفصل السادس قدّمت دراسة تطبيقية للصور البيانية المذكورة عن أمثال القرآن وأمثال الحديث وبعض أمثال العهد القديم والعهد الجديد، مستعينا في ذلك بما قدّمه علماء السلف في هذا المضمّار، وأذكر بشكل خاصّ ما قدّمه الرّمخشري والطّيبي وغيرهم من أعلام البلاغة.

فيما يتعلّق بالدراسة التّطبيقية للأمثال الدنيّة، ولكثرة الصور في التّمثيل الواحد كنت أعرض التّمثيل من القرآن أو الحديث وحتى من العهد القديم أو العهد الجديد، وأقدّم له شرحا عامّا ييسّر الإمام بمضمونه، ثم أذكر ما ييسّر الإطلاع عليه من الصور البيانيّة مجتمعة، فيأتي التّمثيل الواحد وفيه التّشبيه والمجاز وغيرهما من الصّور، وهذه الظاهرة مع أمثال القرآن والحديث، بسبب ثرائهما بالمادّة البلاغيّة، أمّا أمثال العهد القديم أو العهد الجديد فالمادّة البلاغيّة فيهما قليلة، ممّا جعلني أقتصر على التّشبيه في بعض التّمثيلات، أمّا بقية الصور فتكاد لا تظهر، لأنّ التوراة والإنجيل لم يكن التحدّي باللّغة والبيان ممّا نزلا به.

في فهرس مصادر البحث ومراجعته، فما سوى القرآن الكريم والتوراة السّامريّة والعهد القديم والعهد الجديد التي جاءت في البداية، فقد رتبته بحسب حروف المعجم ترتيبا ألفبائيا، على اسم الشهرة للمؤلف، ثم أتبعه باسمه كقولي؛ الجاحظ: عثمان بن بحر، مع إهمال ألف ولام التعريف وهمزة الوصل في ابن، وإذا كان للكاتب الواحد أكثر من كتاب فقد رتبته هي الأخرى ترتيبا ألفبائيا بعد ذكر اسمه.

حرصت في هذه الدراسة أن أولى الأمثال ما لها من حق وعناية، فتناولت مصطلح المثل وأصلته من الناحية اللغوية، وتتبع تطور دلالاته من الناحية الأدبية، والبلاغية، معتمدا على أهم ما ذكره علماء التفسير، وشرّاح السنّة النبويّة، وما ذكره علماء اللّغة والأدب، مع دعم ذلك ببعض ما قاله الفقهاء وعلماء الأصول، وحددت فيها أهمّ القضايا البلاغيّة التي رأيتها جديرة بالدراسة، وأهمّها البيان، لأنّ مباحثه ممثلة في الإيجاز والتشبيه والاستعارة والكناية هي لبّ التّمثيل، أمّا بقية قضايا البلاغة فهي ممّا يتصل بالتّمثيل من الخارج لا الداخل.

ويبقى هذا باب المعارف البلاغيّة في القرآن والحديث مشرّعا على مصراعيه أمام الباحثين والدّارسين، إذ لا يمكن لأيّ كان أن يلمّ بكل جوانبه، وقديما قال حازم القرطاجني: " وكيف يظنّ إنسان أنّ صناعة البلاغة يتأتّى تحصيلها في الزّمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها، وإنّما يبلغ الإنسان منها ما في قوّته أن يبلغه."³ وهي شهادة من علم من أعلام هذا الفنّ على كون صناعة البلاغة تتطلب المواظبة عليها، ومها كانت معارف

³ القرطاجني: حازم بن محمد، أبو الحسن. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تح محمد الحبيب بن الخوجة. دار الغرب الإسلامي. د ت. 88.

المرء فلا يمكنه التحصيل إلا بقدر معلوم ولو أنفق في ذلك عمره، لأنها بحر لم يتيسر لأحد سبر كل أغواره، أو الكشف عن كل درره.

وأخيرا فهذا البحث جهد متواضع أريد من خلاله أن أغرس فسيلة في روضة المعارف القرآنية الواسعة، إذ أسأل الحديث عن أمثال القرآن حبرا كثيرا، بينما الدراسات التي تعنى بأمثال الحديث النبوي الشريف قليلة، أما الدراسات عن أمثال الكتب القديمة ومقارنتها بالأمثال القرآنية وأمثال الحديث، فهذا ما لم أجده في مكتبتنا العربية، ولذلك فأمل أن يكون هذا الجهد المتواضع فاتحة لخير كثير أت. بالله در القائل:

من نخب العلم التي تلتقط
وإنما السيل اجتماع النقط

اليوم شيء وغدا مثله
يحصل المرء بها حكمة
والله أسأل العون والسداد.

المدخل
الممثل بين
الدراسة
اللغوية
والبلاغية.

تكتسب الأمثال أهميتها من ذبوع مادتها وانتشارها بين الناس، ومن امتزاجها البالغ بلغاتهم، وارتباطها الشديد بمختلف جوانب حياتهم، فهي أبسط الأشكال الأدبية الفنية وأجزؤها عند معظم الشعوب، لأنها تعكس مشاعرهم، وأفكارهم وتصوراتهم لحياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، ومعظم مظاهر أنشطتهم الأخرى.

وتعبّر الأمثال عن واقع هذه الشعوب بصورة حيّة، لأنها تصدر عن مختلف مستويات الجماعات الإنسانية بكافة المعايير التصنيفية لمستويات البشر على اختلاف حضاراتهم، فهي من المصادر الأساسية للمؤرخ الاجتماعي والأخلاقي لأنها تمثل الإنسان عبر مراحل تاريخ كل شعب، وهي من المصادر الأساسية للذي يريد دراسة خصائص اللغة، ولذلك غالباً ما نجد المثل الواحد عند شعوب مختلفة ناطقة بلغات مختلفة.

وللأمثال منزلة رفيعة بين أضرب الكلام؛ قال الماوردي¹ في شأنها: " وللأمثال من الكلام موقع الأسماع وتأثير في القلوب لا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها وثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجّة على خلقه، لأنها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة." ²

ولما كانت الأمثال بهذه المنزلة، فقد كانت ملاذ كلّ عاقل؛ قال ابن عباس في تعظيم شأنها: " كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل." ³ وقال الجاحظ: " وإذا مرّ بك الشّعر الذي يصلح للمثل والحفظ فلا تنس حظك من حفظه." ⁴

وقد ورد لفظ المثل في معظم اللغات السامية القديمة، واشتق من جذر متقارب فيما بينها على النحو الآتي: في العربية مَثَل وفي العبرية *masal* وفي الآرامية *matla* وفي

¹ الماوردي: علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي، من أشهر قضاة عصره، ولد في البصرة ومات في بغداد، كان فقيهاً، أصولياً، مفسراً، أدبياً، سياسياً بارعاً. له مصنّفات كثيرة منها؛ تفسير القرآن الكريم وكتاب الأحكام السلطانية وأدب الدنيا والدين وكتاب قوانين الوزارة و أعلام النبوة والأمثال والحكم وغيرها توفي عام 450 هـ. انظر الأعلام للزركلي. 4 / 327.

² الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. أدب الدنيا والدين. المطبعة الأميرية. القاهرة. ط 16. 1925. ص 258.

³ ابن عبد ربّه: أحمد بن محمد. العقد الفريد. تحقيق د. مفيد محمد قميحة. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1997. 2 / 78.

⁴ الجاحظ: عمرو بن بحر، أبو عثمان. الحيوان. تحقيق فوزي عطوي. بيروت. دار صعب. ط 1. 1968. 1 / 547.

السريانية *metala* وفي الحبشية *mesl* وفي الأمهرية *Masala* و *Messale* وفي الأكادية *meslum* وفي الآشورية *masala*.¹

وتعدّ الأمثال العربية من أقدم الأشكال التعبيرية التي عرفها العربيّ؛ فهي تحمل إichاءات ودلالات حضارية مختلفة، كما تحمل وجوها كثيرة من المشترك في وعي المجتمع العربيّ والإنسان العربي وتُصوره عن الكون وعن علاقاته مع البشر. فقد سجّل في الأمثال شعوره وتفكيره بتكثيف وإيجاز فيما يشبه القوانين النافذة أو السائرة، التي لا يملك الفرد لها ردّاً، فهي ملاذه ومرجعه في فهم الظواهر التي يواجهها في حياته أو يعجز عن تفسيرها، لكونها خلاصة الخبرة وأنماط الوعي المشترك والمعرفة المبكرة، فضلاً عمّا تعكسه من تطور للوعي وتحولات المجتمع العربي القديم.

يضاف إلى ذلك ما تمتاز به الأمثال من سرعة في سيرورتها بين الناس ودورانها على الألسن من جيل إلى جيل، وأحياناً من جماعة إلى جماعة أخرى مختلفة، وعبورها من لغة إلى أخرى عبر الأزمان والأمكنة، وما لها من أثر السحر في التأثير في الناس وإقناعهم، رغم بساطة معانيها، وسذاجة صياغتها في معظم الأحيان.

كما تبرز الأمثال المعقول في صورة الملموس، لأنّ المعاني المعقولة لا تستقرّ في الدّهن إلا إذا صيغت في صورة حسية تقربّ الفهم فيتقبّلها العقل. كما تقوم بكشف الحقائق وعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع المعنى البديع في عبارة موجزة؛ قال الزركشي² في بيان ذلك " والمثل أعون شيء على البيان، فإن قلت: لماذا كان المثل عوناً على البيان، وحاصله قياس معنى بشيء من عرف ذلك المقيس فحقّه الاستغناء عن شبيهه، ومن لم يعرفه لم يحدث التشبيه عنده معرفة. والجواب أنّ الحكم والأمثال تصور المعاني تصوّر الأشخاص، فإنّ الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان، لاستعانة الدّهن فيها بالحواس بخلاف المعاني المعقولة، فإنّها مجردة عن الحسّ ولذلك دقّت، ولا

¹ زهلم: رودلف. الأمثال العربية القديمة. ترجمة رمضان عبد التّوّاب. مؤسسة الرسالة. بيروت. طبعة 2. 1982. ص 21.

² الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله بن محمّاد، أبو عبد الله، فقيه وأصولي ومحدث وأديب، أخذ العلم عن جمال الدين الأسنوي وسراج الدين البلقيني، من مصنفاته: البحر في أصول الفقه، شرح التنبيه للشيرازي، شرح جمع الجوامع للسبكي، شرح علوم الحديث البرهان في علوم القرآن وغيرها من المصنّفات المفيدة. توفي بالقاهرة عام 794 هـ. انظر: كحالة: عمر رضا. معجم المؤلفين. مؤسسة الرسالة. ط 01 / 1993 ص 174 / 175. والموسوعة الميسرة. في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة. جمع وإعداد مجموعة من العلماء منهم: وليد بن أحمد الحسين الزبيري. ط 01. 2003. إصدار سلسلة الحكمة. بريطانيا. 3 / 2189. 2190.

ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجرّباً مسلماً عند السامع.¹

ويقول عنها محمد رشيد رضا في تفسير المنار: "إنّ المعاني الكليّة تعرض للذهن مجمّلة مبهمّة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرّها، والمثل هو الذي يفصل إجمالها ويوضّح إبهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، ومشكاة الهداية ونبراسها، ورحم الله عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغة والواضع الأول لعلمي المعاني والبيان،² ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لتحقيق إعجاز القرآن، حيث قال في كتابه الأوّل: واعلم أنّ ممّا اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستنار لها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيتها محبة وشغفا."³

وقد تفتن لهذه الميزة في المثل علماؤنا على مرّ العصور؛ قال الرازي:⁴ "المقصود من ضرب الأمثال أنّها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأنّ الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أنّ الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مُثل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبّحه في العقول، كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين،

¹ الزركشي. بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث. القاهرة. 1 / 488.

² ليس الجرجاني هو واضع علمي المعاني والبيان بل هو من نظّمهما في كتابيه الأسرار والدلائل، وكانا عند سابقه مسائل متفرقة.

³ رضا: محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار. دار المنار. القاهرة. ط 02. 1947. 1 / 227.

⁴ الرازي: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، أبو المعالي فخر الدين. تتلمذ على الكمال السمناني والمجد الجيلي وغيرهما. من

تلامذته تاج الدين الأرموي وشمس الدين الحسروشاهي وغيرهما. توفي عام 604 هـ. من مصنّفاته؛ مفاتيح الغيب ولوامع البيان في شرح

أسماء الله تعالى والصفات ومعالم أصول الدين. انظر: الموسوعة الميسرة. في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة. جمع وإعداد

بمجموعة من العلماء منهم: وليد بن أحمد الحسين الزبيري. ط 01. 2003. إصدار سلسلة الحكمة. 3 / 2305. 2314.

وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ)¹ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال.²

وبمثل قوله قال ابن قيم الجوزية:³ " فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله ﷺ لتقريب المراد وتفهم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه صورة المثل الذي مثل به، فإنه فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتتفر من الغربية والوحدة وعدم النظير. ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجده أحد، ولا ينك، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً، ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي (كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه)⁴ وهي خاصية العقل ولّبه وثمرته."⁵

وفي حديثه عن علمي الأمثال والحكم عدّهما اليوسي من العلوم المعتبرة وقال في بيان فضلها: " وهذان العلمان [علم الأمثال والحكم] من أجلّ العلوم وأنفعها للخاصة والعامّة صقلاً للألباب، وزينة في الخطاب. ففيهما مصلحة القلوب والألسنة. وأحوج الناس إليهما أهل المحاضرات والمكاتبات والمراسلات، والشعراء والخطباء. وليس للأمثال والحكم واضع معيّن، وإّما ينطق الله تعالى بها من شاء من عباده. فمنها من عبّر به على لسان حال الجمادات والعجاوات كما مرّ. ومنها ما تكلم الناس به في الوقائع والوصايا. وصدر كثير من ذلك عن حكماء العرب وحكامهم ورؤسائهم كأثم بن صيفي، وقسّ بن ساعدة، وعامر العدوانى، وأوس بن حارثة، وهند بنت الخسّ، وسيف بن ذي

¹ العنكبوت. 43

² الرازي: محمد فخر الدين. مفاتيح الغيب. دار الفكر للطباعة والنشر. ط 01 . 1981 . ج 02 . ص 80.

³ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، أبو عبد الله شمس الدين الشهير بابن قيم الجوزية. أحد أكابر العلماء وتلميذ ابن تيمية، وقيم الجوزية هو والده الذي كان قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، وأشتهر بذلك اللقب ذريته وحفدهم من بعد ذلك. ابن القيم مصنفات عديدة في مختلف العلوم الدينية منها إعلام الموقعين، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، شفاء العليل. توفي عام 751 هـ. انظر الأعلام للزركلي. 6 / 56.

⁴ الفتح / 29.

⁵ ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله. إعلام الموقعين عن ربّ العالمين. تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن جزى. المملكة العربية السعودية. طبعة 1 . 1423 هـ. 2 / 425.

يزن، وغيرهم. وقد اشتهر لقمان بذلك وذكره الله في كتابه. وناهيك بذلك مزية للحكمة. ونبينا ﷺ قد أوتي من ذلك ما لم يوته غيره. فله الأمثال التي ابتكرها، كقوله: " حمي الوطيس " وقوله: " لا ينتطح فيها عنزان " وغير ذلك.

أمّا الحكمة فبحر لا يدرك غوره، ولا ينزف غمره، كيف وهو ﷺ ينبوع الحكمة، وسراج الهدى، ومدينة العلم، وإمام المتقين، وقودة العارفين، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.¹

وتعرض له من المحدثين الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، حين قال: " والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم."² فهذه الخاصية في المثل هي التي أهلته ليكون حكمة العرب في جاهليتها وإسلامها، وضرب من ضروب بديعها وجوامع كلمها، والتي بها تستميل القلوب وتتصرف في كثير من وجوه الكلام. قال ابن عبد ربه في بيان أهميتها " هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها في كل لسان، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، ولم يسر شيء مسيرها ولا عمّ عمومها، حتى قيل: " أسير من مثل."⁴

ولمّا كان للأمثال مثل هذه الأهمية، فإن الأمثال العربية تكاد لا يخلو منها أيّ مصدر من مصادر التراث العربي، إذ نجد لها حضوراً ظاهراً في كتب التفسير، ومعاجم اللغة، وأمّات كتب الأدب والمسامرات، وكتب اللغة والنحو، والتاريخ والسير، وكتب البلاغة والموسوعات الثقافية، إضافة إلى مصنفات الأمثال البحتة.

فبداية من منتصف القرن الأول للهجرة بدأت حركة جمع الأمثال العربية، وتوجّهت أوّل الأمر للعناية بالأمثال بمختلف أشكالها، المأثورة عن العرب أو الناشئة عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وشملت في امتدادها رقعة جغرافية واسعة من مساحة

¹ اليوسي: الحسن بن مسعود، أبو عليّ. فهرسة اليوسي. تحقيق زكريا الخنيزي. جامعة محمد الخامس. الرباط. ص 34.

² ابن عاشور: محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. 1984. م 01. ص 302

³ أحمد بن محمد بن عبد ربه، أبو عمر. أديب وشاعر من أهل قرطبة، له شعر كثير في شتى الأغراض. وهو صاحب العقد الفريد واحد من

أشهر كتب الأدب، توفي عام 324 هـ. انظر الأعلام للزركلي. 1 / 207.

⁴ ابن عبد ربه. العقد الفريد. 3 / 03.

الدولة الإسلاميّة، وأضاءت تنوّعا حضاريا كشف في جانب أساسي منه حياة العربي وتجاربه وهي تتعكس على مرآة المثل لتتطبع في ذاكرة الإنسان ضمن رصيد خبراته وتجليات معارفه.

لقد فتحت حركة جمع الأمثال وتدوينها جانبا مهماً من اهتمام بني أمية بما كان شائعا على أيّامهم من حكايات وقصص ومسامرات؛ ولذلك فإنّ الرعيل الأوّل من العلماء الذين عنوا بها وجمعها، وأهمّهم شأنها كانوا من مؤدّبي الخلفاء وأبناءهم أو من ندماءهم؛ فمعاوية بن أبي سفيان أحضر عبيد بن شرية الجرهمي¹، وهو من أوائل من صنّفوا في هذا الفنّ إلى جواره بعاصمة الخلافة دمشق ليقصّ عليه قصص الأولين.

وقد شكّلت أحداث الأمثال وتجارب شخصيّاتها مصدرا مهماً من مصادر القصص التي تميّز رواتها بالبراعة في الحفظ، بحسب وصف ابن النديم لصحار بن عياش العبدي²، ولعلّ هذا ما يفسّر تركيز المفضّل الضبّي في كتابه " أمثال العرب " على الأمثال الجاهليّة التي ترتبط بالقصص إلى درجة أن أوصله ولعه هذا إلى ذكر قصص بلا أمثال.

لقد حظيت الأمثال بعناية علماء الأدب واللغة والتفسير العرب منذ وقت مبكر؛ جمعا وتصنيفا وتبويبا وشرحا، وجعلوا منها مادة تأديبية وتعليمية وتربوية، وزينوا بها آدابهم ودعموا أقوالهم، وعلّوا أفعالهم، بحيث بقيت جزءا مهماً من تراثهم على مرّ العصور، فاهتمّوا بجمعها وترتيبها وتبويبها في فترة مبكرة من عمر حركة التّأليف، وكان أوّل من ألف كتباً في الأمثال صحار العبدي وعبيد بن شرية الجرهمي وعلاقة بن كرشم الكلابي³، من علماء القرن الأوّل للهجرة، جمعوا فيها ما انتهى إليهم من أمثال، غير أنّ

¹ عبيد بن شرية الجرهمي. رواية من المعمرين، عاش في الجاهليّة وأدرك الإسلام، يقال أنّه أوّل من صنّف الكتب، عاش إلى أيّام عبد الملك بن مروان توفّي عام 67 هـ على الراجح. انظر الأعلام للزركلي 4 / 189.

² صحار بن عياش العبدي. خطيب مفرّج، كان من شيعة عثمان بن عفّان، وله صحبة. سكن البصرة ومات فيها عام 40 هـ. انظر الأعلام 3 / 201.

³ علاقة بن كرشم الكلابي، فاضل له علم بالأنساب والأخبار وأحاديث العرب القديمة وقد أخذ عنه من ذلك شيء كثير، وكان يزيد بن معاوية قد جعله من ندماءه. له كتاب في الأمثال. كان حيّاً قبل 64 هـ. انظر معجم المؤلفين لرضا كحالة. 2 / 384.

تلك الكتب ضاعت ولم تظهر لحدّ الساعة، ولم يصلنا ممّا جمعوا سوى بعض الأمثال التي ذكرت في كتب الميداني² وأبي عبيد³ والمفضّل وغيرهم.

ويعدّ كتاب " أمثال العرب " للمفضّل الضبّي أقدم كتاب وصلنا في بابهِ، فعُدّ بذلك أهم وأقدم مصدر للمثل الجاهلي، لذلك اعتمد عليه أغلب الذين جاءوا من بعده؛ كالميداني وأبي عبيد وغيرهم.⁴

ولكتاب الضبّي قيمة بالغة في رصد الحياة العربية، والجاهليّة منها بصورة خاصّة، لأنّه معروف لدى العلماء ألاّ وجود لمثل جاهلي مدوّن في مصدر جاهلي⁵، بينما كان الضبّي لا يذكر في كتابه المثل فحسب بل يتعدّاه إلى سرد ما يتّصل به من أحداث وأخبار، ممّا يوفرّ للدارس مجالاً واسعاً يكتشف من خلاله جوانب متعدّدة من هذه الحياة قد لا نجدّها في الشعر الجاهلي، فهو بذلك يعالج إلى حدّ ما أمثالا جاهلية، أو بعبارة أدق، أمثالا تصور في صياغتها وموضوعها نزعة جاهلية.

بعد ذلك نصادف كتاب " الأمثال " لأبي فيد مؤرّج بن عمرو السدوسي⁶، وقد عدّه الميداني من مصادره عند تأليفه لمجمعه⁷، والذي يحتلّ هو الآخر مكانة خاصّة، لأنّه أقدم أقدم ما وصلنا من الكتب في بابهِ، بعد كتاب المفضّل، لكنّ طريقتَهُ في ذكر المثل مخالفة لطريقة غيره، إذ ينصبّ اهتمامه بالدرجة الأولى على عبارات المثل ومضمونه، فيعنى عناية خاصّة من المثل بالقضايا اللغوية، ويستشهد لها بالأشعار وأساليب العرب.

¹ عفيف عبد الرحمن. مكتبة العصر الجاهلي وأدبه. ط 1. دار الأندلس. بيروت. 1984. ص 31. 37.

² أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أو الفضل الميداني النيسابوري. أخذ العلم عن الواحدي المفسر واختص بصحبته، وعن يعقوب بن

أحمد النيسابوري وغيرهما. قال عنه السمعاني: "كان أدبياً فاضلاً عارفاً بأصول اللغة". توفي عام 518 هـ. من مصنفاته؛ كتاب

الأمثال، والسامي في الأسامي، والأمموزج في النحو وغير ذلك. انظر الموسوعة الميسرة. في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة.

جمع وإعداد مجموعة من العلماء منهم: وليد بن أحمد الحسين الزبيري. ط 01. 2003. إصدار سلسلة الحكمة. بريطانيا. 1 / 315.

³ أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقّه، أقام بمكة آخر أيامه إلى أن توفي سنة 224 هـ وقد بلغ

من العمر سبعا وستين سنة. من مؤلفاته: الغريب المصنّف وغريب الحديث. انظر الأعلام للزركلي. 5 / 176.

⁴ الضبّي: المفضل بن محمد. أمثال العرب. تج د. إحسان عباس. دار الراشد العربي. بيروت. ط 01. 1981. من مقدمة المحقق. ص 05.

⁵ عفيف عبد الرحمن. السابق. ص 27.

⁶ أبو فيد مؤرّج بن عمرو السدوسي. ولد بالبادية، درس بالبصرة مذاهب النحاة واللغويين، وعني بجمع النوادر من اللغة والأنساب، توفي

بالبصرة سنة عام 195 هـ على أرجح الأقوال. انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان. 2 / 138.

⁷ الميداني: أحمد بن محمد بن أحمد. مجمع الأمثال. تج سعيد محمد اللّحّام. دار الفكر. بيروت. 2002. من مقدمة الكتاب. ص 04.

ويمكننا أن ندرج كتاب " الفاخر " للمفضل بن سلمة¹، وكتاب " الزاهر في معاني كلمات الناس " لأبي بكر محمد بن القاسم بن الأنباري² في هذا الباب مع بعض التوسّع في المفهوم.

بعد ذلك استهوى جمع الأمثال وشرحها مجموعة كبيرة من العلماء كالأصمعي³ وابن الأعرابي⁴ الذي صنّف " تفسير الأمثال " وأبو عبيد القاسم بن سلام الذي صنّف كتابا في الأمثال نحا فيه منحى جديدا لم يسبقه إليه أحد؛ فرتبّه وفق الموضوعات، فصار عمله هذا مدعاة لإعجاب العلماء به والثناء عليه في كل عصر، قال الميداني في معرض الحديث عن منهجه في تصنيف كتابه مجمع الأمثال: " ... وأفتتح كلّ باب بما في كتاب أبي عبيد ... " ⁵ وقد شرّحه أبو عبيد البكري⁶ بعد ذلك وسمّى شرحه " فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ".

وصنّف حمزة بن الحسن الأصفهاني⁷ كتاب " الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة " ونظر فيه إلى صيغة المثل " أفعل من كذا "، فجمع ما جاء على هذه الصيغة من أمثال،

¹ المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب. عالم بالأدب واللغة، من خاصّة الفتح بن خاقان وزير الخليفة العبّاسي المتوكّل؛ له كتب كثيرة منها البارع وغاية الأرب في معاني ما يجري على ألسن العامّة من كلام العرب، والفاخر وغيرها من المصنّفات. توفي عام 290 هـ. انظر الأعلام للزركلي. 7 / 279.

² محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين، أبو بكر بن الأنباري. عالم باللغة والأدب من علماء الكوفة، له مصنّفات كثيرة. منها غريب الحديث والأضداد وكتاب المذكر والمؤنث وكتابه في الأمثال وغير ذلك من المصنّفات، توفي عام 328 هـ. انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي. 6 / 2614.

³ أبو سعيد عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي، كان صاحب لغة ونحو، وإماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب. سمع شعبة بن الحجاج والحمّادين ومسعر بن كدام وغيرهم وروى عنه عبد الرحمن بن أخيه وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني. توفي عام 217 هـ. على خلاف في تاريخ وفاته. ابن خلّكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر أبو العبّاس شمس الدين. وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. دار صادر. بيروت. 3 / 170 . 175.

⁴ محمد بن زياد، أبو عبد الله المعروف بابن الأعرابي. عالم باللغة والأدب والأنساب، كان من أهل الكوفة وبها تعلم وعلم، وهو ربيب المفضل الضبي، توفي عام 231 هـ. له مصنّفات عديدة منها أسماء الخيل والنوادر والفاضل وتفسير الأمثال وغيرها. انظر الأعلام. 6 / 131.

⁵ الميداني. السابق. 1 / 17.

⁶ عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، أبو عبيد. عالم بالأدب واللغة، له مصنّفات عديدة منها؛ المسالك والممالك ومعجم ما استعجم والتنبية على أغلاط أبي علي في أماليه وفصل المقال وغيرها كثير، توفي عام 487 هـ. انظر الأعلام للزركلي 4 / 98.

⁷ حمزة بن الحسن الاصفهاني، مؤرخ وأديب من أهل اصفهان، زار بغداد مرّات وكان متّصلا بعضد الدولة بن بويه، له مصنّفات عديدة منها؛ تاريخ اصفهان، والأمثال الصادرة عن بيوت الشعر، والتماثيل في تبشير السورور، وكتاب الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة وبعضهم يسمّيه الأمثال على أفعل من كذا، وغيرها من الكتب. توفي عام 360 هـ. أنظر الأعلام 2 / 277.

وقد اعتمد الميداني على كتابه في المجمع حيث عقد فصلا في نهاية كل باب من أبواب كتابه للأمثال التي جاءت على صيغة " أفعل من ... "، وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب حين قال: " ونقلت ما في كتاب حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب، إلا ما ذكره من خرزات الرقي وخرافات الأعراب والأمثال المزوجة لاندماجها في تضاعيف الأبواب."¹

وصنّف أبو هلال العسكري² " جمهرة الأمثال " وأبو الحسن علي بن محمد الواحدي³ الواحدي³ " الوسيط في الأمثال " وأبو الفضل أحمد بن محمد الميداني " مجمع الأمثال"، ويعدّ هذا الأخير أوسع معجم للأمثال العربية، وأشهر كتب الأمثال طرّا، فقد حظي بالقبول والديوع، حتّى صار عمدة الباحثين، ومرجع القراء والمتابعين للأمثال العرب القديمة. كما ألف الزّمخشري⁴ كتابه الجامع " المستقصى في الأمثال "، سار فيه على النظام الأبجدي؛ إذ يذكر الملاحظات والقصص التي تتعلق بالمثل، وطريقة فهمه واستخدامه، كما يذكر بعض الشواهد والرواة الذين رووه والمصادر التي يرجع إليها، وقد احتلّ كتابا الميداني والزّمخشري مكانة سامية عند العلماء والدارسين، غير أنّنا نلمس ميلهم إلى كتاب الميداني وتقديمهم له على كتاب الزّمخشري.

ويعدّ ما ذكره الميداني في مقدمة كتابه " مجمع الأمثال " أوفى ما استعرض في مجال المصنّفات في هذا الباب حيث قال: " فطالعت من كتب الأئمة الأعلام ما امتدّ في تقصّيه نفس الأيام، مثل كتاب أبي عبيدة، وأبي عبيد والأصمعي وأبي زيد وأبي عمرو وأبي فيد، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد، والمفضل بن سلمة، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا، ونخلت ما فيها فصلا فصلا وبابا بابا ... ونقلت ما في كتاب

¹ الميداني. المصدر السابق، الصفحة نفسها

² أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. من مشايخه أبو أحمد العسكري وغيره، قال عنه صاحب روضات الجنات: " هو تلميذ أبي أحمد العسكري ... توافقا في الاسم واسم الأب والسنة، وكان موصوفا بالعلم والفقه، والغالب عليه الأدب والشعر، وكان يتبرّز احترازا من الطمع والدناءة". وكانت وفاته سنة 395 هـ. من مصنّفاتة؛ " التلخيص " في اللغة و" المحاسن " في تفسير القرآن و" معاني الأدب ". الموسوعة الميسرة. 1 / 675.

³ علي بن أحمد بن محمد الواحدي، أبو الحسن. عالم بالأدب والتفسير؛ له مصنّفات عديدة منها؛ البسيط والوسيط والوجيز وكلّها في التفسير وله شرح ديوان المتنبّي وشرح أسماء الله الحسنى وغيرها. مات عام 468 هـ. انظر الأعلام للزركلي 4 / 255.

⁴ جار الله محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزّمخشري، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، من أئمة المعتزلة المجهزين، شهيد الإنكار على المتصوفة. توفي عام 538 هـ. من مصنّفاتة؛ الكشاف وأساس البلاغة والفائق. الزركلي. الأعلام. 7 / 178.

حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب، إلا ما ذكره من خرزات الرقى وخرافات الأعراب؛ والأمثال المزدوجة؛ لاندماجها في تضاعيف الأبواب. وذكرت في كلّ مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغلق، ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ويسيع الشرق، مما جمعه عبيد بن شريه، وعطاء بن مصعب، والشرقي بن القطامي، وغيرهم ...¹ ومن استعراضنا لحياة هؤلاء المصنّفين وأعمالهم تظهر لنا العناية المبكرة والمستمرّة بالأمثال، إذ نجدهم من عصور مختلفة، وهو ما أتاح للميداني أن يتصّحّح أكثر من خمسين كتابا، كما ذكر، عند تأليفه مجمع الأمثال.

هذا ولم تقتصر عنايتهم بالأمثال على القديمة منها فحسب، بل قاموا في الفترات اللاحقة بتدوين المحدثّة منها وأضافوها إلى مواضعها من كتب الأمثال والأدب كما فعل الميداني في مجعته، أو أفردوا لها المصنّفات الخاصّة كما فعل الخوارزمي في كتابه " الأمثال " وهذا يظهر مدى إدراكهم لأهمية هذا الجنس الأدبي، الذي يمثل صفة اللغة المحكية، وما يجمعه في ثناياه من إضاءة لبعض جوانب حضارة العرب وثقافتهم وتطورهم الفكري.

ولم يكن الاهتمام بالأمثال عند المؤلفين الذين جمعوها وأفردوا لها المصنّفات الخاصّة فحسب، بل تعدّاه إلى علماء اللغة والبلاغة الذين وجدوا فيها مادة غنيّة لاستنباط الأحكام ووضع القواعد النحوية والبلاغيّة مستندين إلى أن الأمثال كلام لا يُغيّر، وهو قول مال إليه وقال به كثير من علماء اللغة، منه ما جاء في باب ما جرى مثلا أو كالمثل من كتاب شرح الفصيح للزمخشري: " اعلم أنّ من شرط المثل أن يضرب كما وقع في الأصل، ولا يغيّر من لفظه شيء، سواء خاطبت واحدا أو جمعا، أو مذكرا أو مؤنثا."²

لقد استعملت الأمثال كشواهد لاستنباط قواعد النحو منذ فترة مبكرة من عمر هذا العلم، فاستعمل سيبويه في كتابه مجموعة كبيرة من الأمثال استشهد بها في مواطن متفرقة، وكانت مصدرا مهمّا من المصادر التي استقى منها مادّته، لكنّ هذا العدد إذا ما

¹ الميداني. السابق. 1 / 17.

² الزمخشري: جار محمود بن عمر، أبو القاسم. شرح الفصيح. تحقيق ودراسة د. إبراهيم بن عبد الله بن جمهور الغامدي. معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي. مكة المكرمة. 1417 هـ. 615.

قيس بحجم الكتاب فإنه لا يشكل إلا مادة قليلة نسبيا بالنسبة إلى حجم الكتاب، وقد يرجع اختيار سيبويه لهذه الأمثال بحسب المادة التي يُعرض لها، أي ليس من الضروري أن يستشهد على كلّ قاعدة بمثل، وليس من الضروري أن يكون يحفظ كلّ الأمثال ويوظفها في كتابه، وأظنه أفاد من الأمثلة التي كانت شائعة أكثر من غيرها أو تلك التي كانت حاضرة في الذهن.

كما يخصّص مصنّفو المعاجم حيّزا كبيرا لدراسة معنى " مثل " واستقصاء معانيه، وذكر الأصول التي أخذت منها تلك المعاني، وما يتصل بها من شواهد.

وتعبر الأمثال، من جهة ثانية، مادّة لغويّة هامّة يعتمد عليها واضعو المعاجم لتوثيق مفردات اللغة العربيّة وشرح غريبها، ولا نجد معجما يخلو منها كشواهد. ومن حيث التوثيق فإنّ منهجهم في استعمالها لا يختلف عن منهجهم المتبع في استعمالهم للشاهد الشعري.¹

أمّا كتب الأمثال الدينيّة، ممثّلة في الكتب التي عنيت بأمثال القرآن الكريم والحديث الشريف، فلم تلق ما كان يجب لها من حقّ، وجاء الحديث عنها في الكتب التي عنيت بعلوم القرآن والحديث الشريف كما سنرى تفصيله لاحقا بعون الله، ومع ذلك فقد وصلنا بعضها وطبع، أمّا بعضها الآخر فضاع ولم يبق منه إلا ما نقلته الكتب الأخرى التي سلمت من غوائل الدهر، أمّا كتب أمثال التوراة والإنجيل فلم أجد لها ذكرا سوى بعض النتف أو الإشارات بالرغم من الحضور الكبير لليهود والنصارى وثقافتهم في المجتمع العربي وهو ما سنتطرّق له لاحقا هو الآخر.

وإذا كان للأمثال هذا القدر الكبير من التأثير في حياة الناس تفكيراً وسلوكاً وأخلاقاً ومعاملات فإنّ كتاب الله أولى باستعمالها من أجل الموعظة والتوجيه والاعتبار، لأنّ رسالة الإسلام جاءت من أجل إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكلّ وسيلة تبلغ الإنسان إلى هذه الغاية كان كتاب الله يستعملها.

ويعد علم أمثال القرآن من أعظم تلك العلوم التي نشأت في رحاب القرآن الكريم، فهو بابٌ عظيم من معارف القرآن، حيث اشتمل على كثير من الأمثال.

¹ التميمي: صبيح. عرض الألفاظ وتفسيرها وتوثيقها في المعاجم العربيّة. مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية. عدد 02. 1991. ص 25.

كما جاء الحديث عن الأمثال الدينيّة، وبخاصّة أمثال القرآن الكريم، ضمن اجتهادات الفقهاء وبدت من خلال زاوية فقهية تتحدّث عن مشروعية أن يضمّن الجنب كلامه شيئاً من القرآن، لا على أنّه قرآن بل على أنّه كلام عادي، كأن تقول لمن سأل عن أمر تمّ وانتهى " قضي الأمر الذي فيه تستفتيان " ولا تريد بذلك التلاوة، فمن أجاز هذا التضمين أجاز التمثّل بآيات القرآن، وأمثال القرآن بعض آياته، ومن حرّم ذلك حرّم اقتباس الآيات واستعمالها بدلا من الكلام العادي.

وقد شغلت المسألة علماء الشرع بمختلف اختصاصاتهم؛ فأجازه بعض العلماء اعترض، بل ثمة من حرّم، ذلك آخرون، ثم فصلت المسألة في كتب الفقه¹ وكتب علوم القرآن² وكتب آداب التلاوة.

كما تنبّه الأدباء إلى أنّ هذا الموضوع ضرب من البلاغة، وفن من فنون البيان،³ فقاموا يلتقطون من أفواه الفصحاء والبغاة ما يجري على ألسنتهم مجرى الأمثال من آيات القرآن الكريم وعباراته ويسجلونه لنا في كتبهم القيمة، بل إنهم شرعوا في مقارنة نال العرب بما يماثلها من عبارات القرآن على أنها أحسن وأبلغ، ومن أقدم ما نصادفه في هذا الباب ما ذكره ابن القيم عن سفيان ابن عيينة فقد قال لأحدهم: " لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جنتكم به من القرآن. فقال له قائل: فأين في القرآن: أعط أخاك تمرّة؛ إن لم يقبل فأعطه جمرة ؟ فقال: في قوله: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين.)"⁴

ويعدّ الثعالبي⁵ من أقدم من عني بذلك في كتابيه [التمثيل والمحاضرة] و[خاص الخاص] ففي الأول عقد فصلا تحت عنوان " أنموذج من أمثال العرب يتمثل من ألفاظ

¹ انظر مثلا: المجموع شرح المهذب. باب الغسل، والقروع لابن مفلح.

² انظر كتاب: البرهان في علوم القرآن للزركشي، وكتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وغيرهما.

³ سأفصل الحديث عن هذه المسألة في مبحث لها تحت عنوان الاقتباس في الفصل المخصّص لأمثال القرآن في الفصل الثاني من الدراسة.

⁴ الزخرف / 35.

⁵ ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله. الفوائد... محمد عزيز شمس. دار عالم الفوائد. جدة. ص 121.

⁶ الثعالبي: هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور. ولد ونشأ بنيسابور، من أئمة اللغة والأدب، له أكثر من تسعين كتابا من أهمها

تيممة الدهر وفقه اللغة ولطائف المعارف والتمثيل والمحاضرة وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، توفي عام 430 هـ.

القرآن بأحسن منها وأبلغ " وقد جاء في أوله: " العرب تقول فيمن يعير عن غيره بما هو فيه: عير بجير بجره، نسي بجير خبره "1 وفي القرآن الكريم: (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه.)² ويتابع الثعالبي استعراض بعض ما يتمثل به العرب من كلام بلغائهم ويقارنه بما نأثله من عبارات القرآن وجمله على أنها أحسن منها وأبلغ، ثم يكرر هذه المقارنة، بين بعض أمثال العامة والعجم مع ألفاظ من القرآن، ثم ينهي الموضوع بذكر أربع عشرة عبارة قرآنية مما يجري مجرى الأمثال من غير مقارنة.³

وفي كتابه " خاص الخاص " عقد الثعالبي فصلا مماثلا لما في كتابه " التمثيل والمحاضرة " تحت عنوان " في أمثال العرب والعجم والخاصة والعامة جاءت في معانيها ألفاظ من القرآن فهي أحسن وأبلغ وأشرف وأولى بالاعتباس والتمثيل بها " إلا أنه قد وسع البحث هاهنا في الأمثلة والتنويع وبسط المقارنة حتى مع كلام بعض الخواص من غير أن يكون له أشتهار وانتشار، ولهذا نستطيع القول: إن الثعالبي قد تمحل في بعض المقارنات وتكلف، مع أن الأصل في المسألة عدم المقارنة، لأنه من المسلمات عندنا؛ أن كلام الله لا يماثله ولا يشبهه كلام مخلوق، أما وقد أراد إظهار المعنى الذي تستعمل فيه العبارة القرآنية فلا حرج في ذلك.⁴

ثم جاء من بعده الماوردي والحصري،⁵ فأما الأول فقد نقل عنه السيوطي في كتابه " الإتيان " نقلا مأثورا عن الحسن بن الفضل يذكر فيه عبارات من القرآن الكريم مقارنة بال لدى العامة، وأما الثاني فهو صاحب كتاب " زهر الآداب وثمر الألباب " حيث أورد فيه فصلا تحت عنوان؛ أمثال للعرب والعجم والعامة وما يماثلها من كتاب الله تعالى مما هو أجل منها وأعلى.⁶

¹ المقطع الأول من المثل في كتاب مجمع الأمثال للميداني بلفظ بجرة. 2 / 10.

² يس / 78

³ الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. التمثيل والمحاضرة. أطروحة دكتوراه مقدمة من طرف زهية سعدو. جامعة الجزائر. ص 116.

⁴ الثعالبي.. كتاب خاص الخاص. تقديم حسن الأمين. دار مكتبة الحياة. بيروت. ص 17 وما بعدها.

⁵ الحصري: إبراهيم بن علي، أبو إسحاق، شاعر تونسي، اشتهر بكتابه زهر الآداب وثمر الألباب وكتاب المصون في الهوى.

⁶ الحصري. زهر الآداب. ضبط وشرح د. صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية. صيدا. ط 01. 2001. 4 / 222.

ثم ظهر الحريري¹ صاحب المقامات وصنّف كتابا في الموضوع سمّاه " توشيح البيان بالملقط من القرآن " وقد ذكره السيوطي في رسالته² " رفع الباس وكشف الالتباس "، ولا يزال هذا الكتاب في جملة الذخائر المفقودة من تراثنا.

وبعد ذلك بزمن يظهر جعفر بن شمس الخلافة³ صاحب كتاب " الآداب النافعة " وأورد فيه فصلا بعنوان " فصل في ألفاظ يمثّل بها من القرآن الكريم " وذكر فيه مجموعة من العبارات القرآنية، من غير أن يعقد مقارنة بينها وبين كلام أحد من البشر، ولعل عزوفه عن عقد المقارنة يعود إلى إدراكه أنه لا وجه للمقارنة في هذا المضمار.⁴

ثم جاء الإمام النووي⁵ بحث الموضوع من زاويته الفقهية في أكثر الكتب التي ألفها⁶ ألفها⁷ ثم الزركشي⁷ فتعرض، هو الآخر، للموضوع في كتابه " البرهان في علوم القرآن." ثم تبعهما السيوطي⁸ حيث انبرى لبحث الموضوع من الناحية الشرعية في رسالة خاصة في مجموع كتابه " الحاوي للفتاوى " ثم عقد فصلا مستقلا للموضوع

¹ الحريري: أبو محمد، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، ولد في البصرة، كان ذكيا فطنا ذميما قبيح المنظر، نعت بالبخل أيضا، اشتهر له غير المقامات الأدبية كتاب درة الغواص في أوهام الخواص وملحة الإعراب وهي أرجوزة رائعة في النحو.

² الثعالبي: عبد الملك بن محمد. الشعر والشعراء وأنواع اقتباساتهم من ألفاظ القرآن ومعانيه. تحقيق د. مجاهد مصطفى بحجة، جزء منشور في مجلة المورد العراقية. عدد 04. 1988. من مقدمة المحقق ص 204.

³ جعفر بن شمس الخلافة: أبو عبد الله محمد بن مختار، أديب بارع، له تصانيف عديدة تدلّ على جودة اختياره، توفي عام 622 هـ. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1 / 362.

⁴ السيوطي. الإتيان في علوم القرآن. 2 / 133.

⁵ النووي: أبو زكريا، يحيى بن شرف بن مري، فقيه شافعي مشهور، حاز السبق في العلم والعمل، تولى سنة 665 هـ مشيخة دار الحديث بدمشق، وكان لا يقبل راتباً من السلطان على هذا المنصب، اشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زمن الظاهر بيبرس، له مؤلفات كثيرة منها: رياض الصالحين وكتاب الأذكار والمنهاج في شرح صحيح مسلم و المجموع شرح المهذب وغيرها. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي. 7 / 618.

⁶ منها: المجموع شرح المهذب و البيان في آداب حملة القرآن.

⁷ البرهان للزركشي 483/1.

⁸ السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين، جلال الدين. عالم موسوعي؛ أخذ علمه عن الكثير من علماء عصره، كان متعدد المواهب، فهو مفسر ومحدث وفقه ونحوي وبلاغي وأديب ومؤرخ. له كتب كثيرة في مختلف الفنون منها؛ الدر المنثور في التفسير بالماثور والإتيان في علوم القرآن والألفية في مصطلح الحديث والمزهر في اللغة وغيرها كثير. توفي عام 911 هـ. الأعلام 3 / 301.

ذاته في كتابه " الإِتقان في علوم القرآن " بعنوان " فصل في الاقتباس وما جرى مجراه."¹

بعد ذلك نصادف كتاب الأَبشيهي² " المستطرف في كل فنّ مستظرف " وما ذكره في كتابه من آيات القرآن التي تجري مجرى الأمثال أكثر مما نقله السيوطي في إتقانه عن كتاب الأداب؛ جاء فيه: " إنّ الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلّى بجواهره كتابه، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخلُ كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها، وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بياناً، فكم في إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كلّ بطل ... فمن أمثال كتاب الله، قوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ.) و (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ.) و (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) إلى آخر ما ذكره في كتابه وهو كثير.³

ثمّ جاء العاملي⁴ صاحب كتاب الكشكول والمخلاة وأسرار البلاغة فأورد فصلاً خاصاً في كتاب أسرار البلاغة سمّاه؛ فصل فيما ورد من كتاب الله تعالى مناسباً لكلام العرب.⁵ وبدأ يعقد المقارنات، وعرج على ذلك في كتابه المخلاة. أمّا المحدثون فلم يستهوهم تناول هذا الموضوع ببحث مستقل، إلا أنّ بعض الدّراسات القرآنية أو الحديثية الحديثة قد ألمحت إليه أو عرضت لبعض قضاياها. منها على سبيل الذكر؛ كتاب " بلاغة القرآن " للشيخ محمد الخضر حسين،⁶ وكتاب " الصورة الفنية في

¹ السيوطي. الإِتقان. عالم الكتب. بيروت. 1 / 111.

² محمد بن أحمد بن منصور الأَبشيهي، أبو الفتح، عالم بالأدب والأخبار، له من الكتب المستظرف في كل فنّ مستظرف وكتاب في صناعة الترسّل وأطواق الأزهار وتذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين. توفي عام 852 هـ. الأعلام 5 / 332.

³ الأَبشيهي؛ شهاب الدين محمد بن أحمد، أبو الفتح. المستظرف في كل فنّ مستظرف. شرح وتحميش د. مفيد محمد، فنيحوق دار الكتب العلمية. بيروت. ص 34.

⁴ العاملي: محمد بن حسين بن عبد الصمد، بهاء الدين. أديب وشاعر وصوفي وعالم بالرياضيات، وأحد مشاهير الشيعة، من أشهر تصانيفه؛ خلاصة الحساب و الكشكول و المخلاة، و أسرار البلاغة وغيرها. توفي بأصفهان عام 1031 هـ. الأعلام 6 / 102.

⁵ العاملي: محمد بن حسين، بهاء الدين. كتاب أسرار البلاغة. مطبوع آخر المخلاة. طبع بالمطبعة الميمنية. مصر. ص 02.

⁶ الشيخ محمد الخضر حسين بن علي التونسي، عالم إسلامي كبير، وأديب باحث شاعر، كان سفير الدولة العثمانية أيام الحرب العالمية الأولى إلى برلين، أقام في دمشق مدة، ثم تركها مع دخول الفرنسيين إليها، وانتقل إلى القاهرة فنال فيها الشهادة العالمية، ثم درس في الأزهر، ثم صار شيخاً له واستقال بعد سنتين، عمل في تحرير مجلات عديدة، كان هادئ الطبع وقوراً، قاوم الاستعمار بالكلمة والقلم والعلم. من كتبه حياة اللغة العربية و الدعوة إلى الإصلاح وبلاغة القرآن. توفي في القاهرة عام 1377 هـ / 1958 م. الأعلام للزركلي 6 / 113.

المثل القرآني، دراسة نقدية وبلاغية " للدكتور محمد حسين علي الصغير. وكتاب " الأمثال في القرآن الكريم " للدكتور الشريف منصور بن عون العبدلي، وكتاب " الأمثال في القرآن الكريم " للدكتور محمد جابر الفيّاض، وكتاب " الأمثال العربيّة ومصادرّها " في التراث لمحمد أبو صوفة، وبعض الدّراسات كالدّراسة الموسومة بـ " المثل في القرآن الكريم " ¹ لمنير القاضي، وكتاب الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية للدكتور كمال عزّ الدين وغيرهم. وغير ذلك.

¹ منشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي. م 07 عام 1379 هـ / 1960 م.

الفصل الأول

المثل

قضايا عامة

المبحث الأول: الدلالة اللغوية للمثل

تعتبر الأمثال من الفنون الأدبية، وقد احتلت صدور المعاجم العربية القديمة لذكرها وضبطها وتفسيرها. وكذلك ألفت في جمعها وتفسيرها وبيان مواردها وأصولها طائفة من الكتب أشهرها جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ومجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني والمستقصى لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري.

كانت الأمثال شائعة عند العرب القدماء، وكانت سائرة على ألسنة كل الناس، ثم التقطت من أفواه الفصحاء ودوّنت في كتب اللغة والأدب فيما سجّل من الألفاظ والأشعار والأقوال والحكم والخطب وأشباهها، ثم غدت بأنواعها، وبخاصّة في عصرنا، موضوع دراسات لغوية واجتماعية ونفسية واجتماعية وهو ما يحتم علينا تسليط الأضواء على دلالتها.

لذلك توسّع العلماء في تفسير دلالة المثل وذكروا له مجموعة من المعاني العامّة،
نذكر منها:

المثل بمعنى الشبه

المثل بهذا المعنى هو أكثر المعاني استعمالاً وأكثر الدلالات وروداً في مختلف كتب التراث. فقد ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم، ذكر ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" أنّ "المثل: بمعنى الشبه؛ يقال مثل الشيء ومثله، كما يقال شبه الشيء وشبهه، قال تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً.)¹ أي شبه الذين كفروا شبه العنكبوت. وقال: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا.)² أي شبّههم بالحمار.³ وفي قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً.)⁴

كما ورد بهذا المعنى في كلام رسول الله ﷺ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: " مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكبير الحدّاد لا يعدمك من صاحب المسك إمّا تشتريه أو تجد ريحه. وكبير الحدّاد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة "⁵

قال الكرمانى: المشبّه به الكير أو صاحب الكير لاحتمال عطف الكير على الصاحب وعلى المسك فأجاب بأنّ ظاهر اللفظ أنّه الكير، والمناسب التشبيه أنّه صاحبه.⁶ وكلام الكرمانى يبيّن أن المشابهة هي المعنى المراد من " مثل ".
كما ذكر المثل بهذا المعنى في العهد القديم " هو ذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً مثل الأم بنتها. "⁷

¹ العنكبوت / 41.

² الجمعة / 05.

³ ابن قتيبة: أبي محمد عبد الله بن مسلم. تأويل مشكل القرآن. تح إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01 2002. ص 269.

⁴ البقرة / 16 . 17.

⁵ صحيح البخاري ص 499. حديث رقم: 2101.

⁶ العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد. عمدة القاري شرح صحيح البخاري. ضبط وتصحيح عبد الله محمود محمد عمر. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01. 2001. 11 / 314.

⁷ سفر حزقيال 16 / 44. وانظر: عليان: سيد سليمان. أمثال وأقوال في حياة اليهود. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط 01. 1997.

ويعلق سيد سليمان عليان على هذه الفقرة قائلاً: وقد جمعت هذه الفقرة خصائص
وسمات المثل في العهد القديم فهو قول، وتشبيه، وحكاية تروى.¹

ويقول الراغب الأصفهاني: " المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر
بينهما مشابهة، يبين أحدهما الآخر ويصوره."² وهذا القول منه يظهر أنه يرى أنّ المثل
بهذا المعنى يشبه المشابهة في عدّة أمور هي: الجوهر، والكيفية، والكمية، والقدر،
والمساحة.

وعرّفه الفخر الرازي بالقول: " المثل: قول يشبه به حال الثاني بالأول، ويجوز أن
يكون المراد من المثل الصّفة."³

وينقل الميداني عن المبرد أنّ المثل " مأخوذ من المثل؛ وهو قول سائر يشبه به حال
الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه."⁴ وهو تعريف يقف فيه المبرد من المثل عند حدّ
التشبيه، لكنّه يعترف بخاصية مهمّة فيه وهي كونه " قول سائر".

ويتبيّن لنا من هذا التعريف أنّ التعبير غير المباشر أمر ضروري في معرفة الممثل،
أي أنّ وجه الشبه والمناسبة التي صارت سبباً لإلقاء هذا المثل غير مختصة بمورد دون
مورد، وإن وردت في مورد خاص يكون المثل آية وعلامة أو علماً للمناسبة الجامعة بين
مصاديق مختلفة.

المثل بمعنى الصّفة

ورد بهذا المعنى في بعض آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: (مثل الجنة التي
وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لّذة للشاربين
وأنهار من عسل مصفّى ولهم فيها من كلّ الثّمرات ومغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار وسقوا ماء

ص 07.

¹ عليان: نفسه. ص 07.

² الراغب الأصفهاني حسين بن محمد بن الفضل . مفردات ألفاظ القرآن . تحقيق عدنان داودي . دار القلم دمشق 1997 . ط 02.

ص 759.

³ تفسير الفخر الرازي. 17 / 77.

⁴ الميداني . مقدمة المجمع . ص 18.

حميماً فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ.)¹ ذهب إلى ذلك أبو عمرو بن العلاء، فقد ذكر صاحب اللسان قول " عمر بن أبي خليفة: سمعت مُقَاتِلًا صاحب التفسير، يسأل أبا عمرو بن العلاء، عن قول الله عزَّ وجلَّ: (مَثَلُ الْجَنَّةِ) ما مَثَلُها ؟ فقال: ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ قال: ما مَثَلُها ؟ فسكت أبو عمرو. قال: فسألت يونس عنها فقال: مَثَلُها صفتها قال محمد بن سلام: ومثل ذلك قوله: (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ).² أي صفتهم. قال أبو منصور " ونحو ذلك روي عن ابن عباس."³

وهو ما يفهم كذلك من كلام الزركشي عندما يقول: إنّ ظاهر كلام أهل اللغة أن المثل هو الصفة، ولكن المنقول عن أبي علي الفارسي أنّ المثل بمعنى الصفة غير معروف في كلام العرب، إنّما معناه التمثيل.⁴ وذكر ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن " أنّ المثل: الصورة والصفة، كقوله: (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار).⁵

وورد المثل بمعنى " الصفة " في كلام رسول الله ﷺ، ففي حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: " مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديد فله أجران."⁶

قال ابن حجر رحمه الله: " قوله مثل بفتحيتين أي؛ صفته وهو كقوله (مثل الجنة) " .⁷

وفي قوله ﷺ: " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجبب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي

¹ محمد / 16.

² الفتح / 29.

³ ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، جما الدين أبو الفضل. لسان العرب. دار المعارف. د ت. مادة مثل. 6 / 4133.

⁴ الزركشي. البرهان في علوم القرآن: 1 / 490.

⁵ محمد / 16.

⁶ صحيح البخاري. ص 1264. حديث رقم 4937.

⁷ ابن حجر: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. فتح الباري بشرح البخاري. تحقيق عبد القادر شيبه الحمد. ط 01.

2001. 8 / 574.

قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به
فَعَلِمَ وعَلِمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.¹
قال ابن حجر:² " مثل بفتح المثناة، والمراد به الصفة العجيبة لا القول السائر. " وقال
السيوطي: " مثل: بفتحتين، أي صفة."³

المثل بمعنى العبرة و بمعنى الأمر الغريب والعجيب و الأمر الأغرب من الغريب
والأعجب من العجيب
ذكر المثل بهذه المعاني في الكثير من آيات القرآن الكريم منها؛ قوله تعالى عن
فرعون وأتباعه: (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين.)⁴
قال صاحب اللسان: " ومعنى قوله ومثلاً أي عبرة يعتبر بها المتأخرون. ويكون
المثل بمعنى الآية، قال الله عزّ وجلّ في صفة عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام
(وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل.) أي آية تدلّ على نبوته.⁵
وقوله تعالى في شأن المسيح الصلوات: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمٌ مِنْهُ يَصِدُونَ *
وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل.)⁶

¹ الحديث في صحيح البخاري تحت رقم 79 [كتاب العلم]

² فتح الباري. 1 / 211.

³ السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن أبي الفضل. التوشيح شرح الجامع الصحيح. تحقيق رضوان جامع رضوان. مكتبة الرشد. الرياض.
ط 01. 1998. 1 / 257.

⁴ الزخرف / 56.

⁵ ابن منظور. لسان العرب. مادة مثل. 6 / 4134.

⁶ الزخرف / 59.

وقوله تعالى في شأن آدم عليه السلام: (إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.)¹ إذ أمر آدم الذي خلقه الله من غير أب وأم أعجب من أمر المسيح الذي خلق من غير أب فقط.

وذكر ابن قتيبة أن " المثل: العبرة؛ كقوله تعالى:² (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) أي: عبرة لمن بعدهم. وقوله:³ (وجعلناه مثلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) أي: عبرة.⁴

المثل بمعنى النظير والمشكلة، والمماثلة:

جاء المثل بمعنى النظير في كتاب الله عزَّ وجلَّ عند قوله تعالى:⁵ (قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) إذ سأل ابن الأزرق عبد الله بن عباس عن معنى " أندادا " في الآية فقال: الأشباه والأمثال.⁶

وقال أبو عبيدة⁷ في " مجاز القرآن " عند تفسير قوله تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاَّ العالمون)⁸ مجازها: هذه الأشباه والنظائر نحتج بها.⁹ وذكر بهذا المعنى في الكثير من معاجم اللغة؛ قال الخليل بن أحمد في معجم العين: " ونظير الشيء: مثله لأنه إذا نُظِرَ إليهما كأئهما سواء في المنظر وفي التأنيث نظيرة، وجمعه نظائر."¹

1 آل عمران / 58.

2 الزخرف 56

3 الزخرف 59

4 ابن قتيبة. تأويل مشكل القرآن. ص 269 . 270.

5 فصلت / 08.

6 بنت الشاطيء: عائشة عبد الرحمن. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. دار المعارف. ط 03. ص 357.

7 أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري . تعلّم على يد هشام بن عروة وأبي عمرو بن العلاء. من مصنفاته؛ " مجاز القرآن " و" غريب الحديث " وغير ذلك. توفي عام 209 هـ على أرجح الأقوال. الموسوعة الميسرة. 2 / 2669 . 2971.

8 العنكبوت / 43.

9 أبو عبيدة: معمر بن المثنى. مجاز القرآن. تحقيق د / محمد فؤاد سزكين. مكتبة الخانجي. مصر. 2 / 116.

وفي المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده "النظير: المِثْل، والجمع: نظراء والأنثى: نظيرة."²

وقال صاحب لسان العرب: " والنظير: المِثْل، وقيل المِثْل في كلّ شيء. وفلان نظيرك أي مثلك لأنّه إذا نظر إليهما الناظر رأهما سواء."³

المثل بمعنى التسوية و المماثلة

أمّا التسوية فهي أن يقوم الممثل به مقام الممثل يقول الزّمخشري في الأساس: " مثل الشيء بالشيء إذا سوّى به وقدّ تقديره."⁴ ويرى ابن منظور أن:⁵ " مثل كلمة تسوية. يقال: هذا مثله ومثله، كما يقال شبيهه وشبّهه بمعنى." و فرق ابن العربي بينهما إذ يرى أنهما متقاربتان في المعنى؛ فالمثل " عبارة عن شبه المحسوس، والمثل عبارة عن شبه المعاني المعقولة "⁶.

وفي استعمال المثل بمعنى التسوية خلاف بين العلماء، فهذا أبو هلال العسكري يقرر في الفروق أنّ: " الفرق بين المساواة والمماثلة أنّ المساواة تكون في المقدارين الذين لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص عنه. والتساوي التكافؤ في المقدار، والمماثلة أن يستد أحد الشئيين مسد الآخر كالسوادين."⁷

¹ الفراهيدي: الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن. كتاب العين. تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. سلسلة المعاجم والفهارس. 156 / 08.

² ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل. المحكم والمحيط الأعظم. تحقيق الدكتور عبد الحميد هندواي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 16 / 10 . 2000

³ لسان العرب. مادة نظر. 4467 / 6

⁴ الزّمخشري . جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. أساس البلاغة. دار صادر بيروت 1979. ص581.

⁵ لسان العرب. مادة مثل. 4132 / 6.

⁶ ابن العربي: أبو بكر المالكي. عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي. دار الكتب العلمية. بيروت. د ت. 10 / 296 . 297.

⁷ أبو هلال العسكري. الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى. الفروق اللغوية. تح محمد إبراهيم سليم. دار العلم والثقافة. بيروت. ص 155.

ومثله ما نقله ابن منظور عن ابن برّي الذي قال بأنّ " الفرق بين المماثلة والمساواة، أنّ المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتّفقين؛ لأنّ التّساوي هو التّكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأمّا المماثلة فلا تكون إلا في المتّفقين، تقول نحوه كنحوه وفقهه كفقّه ولونه كلونه وطعمه كطعمه، فإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه أنّه يسدّ مسدّه، وإذا قيل له مساو له في جهة دون جهة." ¹

إنّ المماثلة، من منظور هؤلاء العلماء، هي التّطابق الكلّي بين الممثل والممثل له، وهي درجة لا يبلغها التّساوي الذي معناه التّطابق في الكمّ دون النوع، وإلى هذا يذهب الرّاعب في المفردات حين يتعرّض إلى الفرق بين المثل [بفتح الميم] والمثل [بالكسر]، وهي مسألة سنفصّل فيها الحديث لاحقاً، قال: " المثل ... عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعية للمشابهة، وذلك أنّ النّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط والمساوي يقال فيما يشارك في الكميّة فقط. والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عامّ في جميع ذلك ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشّبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال: ² (ليس كمثل شيء) " ³

وتعريف الرّاعب هذا يحسم الخلاف ويبين أنّ المثل شامل، بينما لا تدلّ المماثلة إلاّ على جانب واحد هو اشتراك الطرفين في الجانب الكمي لا غير.
المثل بمعنى المشاكلة

قال الخليل في كتاب " العين " : " الشكل: المثل، يقال: هذا على شكل هذا، أي: على مثل هذا. وفلان شكل فلان، أي: مثله. ⁴

وقال ابن سيده في المحكم " الشكل: الشّبه والمثل، وجمعه: أشكال وشكول " ⁵.

وذكر صاحب اللسان أنّ " الشكل، بالفتح: الشّبه والمثل، والجمع أشكال وشكول " ¹.

¹ لسان العرب. مادة مثل. 6 / 4132.

² الشورى / 09.

³ الرّاعب. المفردات. ص 759.

⁴ الفراهيدي: الخليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق الدكتورين مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي. 5 / 295.

⁵ ابن سيده. المحكم. 6 / 427.

المثل بمعنى القصة

جاء المثل بهذا المعنى في بعض الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون).² قال النيسابوري في تفسيره لهذه الآية: " وأما ههنا فاستعير المثل للحال أو الصفة أو القصة التي فيها غرابة ولها شأن."³

وسبقت الإشارة إلى ذكر أنّ المثل بمعنى الحكاية الرمزية من المعاني التي وردت في العهد القديم.⁴

المثل بمعنى العذاب و بمعنى السنن

ذكر المثل بهذه المعاني في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (وضرنا لكم الأمثال).⁵ وضعنا لكم العذاب.⁶ وفي قوله: (ولما ياتكم مثل الذين خلوا)⁷ يعني السنن.⁸

المثل بمعنى الحديث والحجة

قال أبو البقاء الكفوي⁹ في كليّاته أنّ " المثل، محرّكة: الحجة والحديث "¹⁰.

¹ لسان العرب. مادة شكل. 4 / 2310.

² البقرة / 16.

³ النيسابوري. نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القميّ. تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان. [مطبوع على هامش تفسير الطبري] 164 / 1.

⁴ سفر حزقيال 16 / 44.

⁵ إبراهيم / 47.

⁶ الدماغاني: الحسين بن محمد، أبو عبد الله. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. تحقيق عبد العزيز سيّد الأهل. دار العلم للملايين بيروت. 1985. ط 05. ص 429.

⁷ البقرة / 212.

⁸ الدماغاني. نفسه. ص 428. 429.

⁹ الكفوي: أيوب بن موسى الحسيني، أبو البقاء. قاض حنفي، تولى القضاء بتركيا والقدس وبغداد، ثم عاد إلى اسطنبول وبها كانت وفاته عام 1094 هـ. أشهر مصنّفاته كتابه " الكليات ". انظر الموسوعة الميسرة. 1 / 544. 547. والأعلام. 2 / 38..

¹⁰ الكفوي. الكليات. تح عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1998. ص 852.

وجاء في اللسان أن " المثل: محرّكة: الحُجّة والحديث...¹ ومثله ابن سيده في المحكم: " والمثل الحديث نفسه "²، وذهب ابن منظور والفيروز أبادي إلى أن هذه الدلالات من غيات ضرب المثل ولوازمه، وليست من معانيه.

المثال، والحدو، والشاهد، والانتصاب:

جاء الأساس: " ومثل قائماً: انتصب."³ وجاء في اللسان: " مثل الشيء يمثل ومثل: قام قام منتصباً... وفي الحديث: " من سرّه أن يمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار. أي يقوموا له قياماً وهو جالس."⁴ كما جاء في المفردات: " أصل المثل الانتصاب، يقال مثل الشيء أي انتصب وتصوّر."⁵ المثل بمعنى الفراش

قال الزمخشري في أساس البلاغة: "... ونام على المثال وهو الفراش."⁶ وفي اللسان: " والمثال الفراش وجمعه مثل."⁷ ويؤيد ابن السكيت⁸ والمبرد⁹ هذه المعاني. ولا يدلّ لفظ المثل في القرآن، عند فريق من العلماء، على هذه المعاني، وإنما هو لفظ مستعار لها ولغيرها، للحال أو الصفة، أو القصة، إذا كان لها شأن وفيها غرابة.¹⁰

¹ الفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. تقديم وتعليق الشيخ أبو الوفا نصر الموريني. دار الكتب العلمية. ط 01. 2004. ص 1068.

² لسان العرب. مادة مثل. 6 / 4133.

³ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز أبادي. زار الكثير من البلاد طلباً للعلم، ذاع صيته في الآفاق حتى صار مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير. توفي عام 1415 م. من مؤلفاته: البحر المحيط، تنوير المقياس في تفسير ابن عباس، سفر السعادة. وغيرها من المصنفات لمفيدة. انظر الأعلام. 7 / 146. 147.

⁴ الزمخشري. الأساس. ص 581.

⁵ لسان العرب. مادة مثل. 6 / 4135.

⁶ الراغب. المفردات. ص 758.

⁷ الزمخشري. الأساس. ص 582.

⁸ اللسان. مادة مثل. 6 / 4136.

⁹ الميداني. مجمع الأمثال. مقدمة المؤلف ص 18.

¹⁰ المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد. المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق. عزيمة. القاهرة. 1994. 3 / 225.

وامتازت صيغته بأنها لم تنقل عن حادثة معينة، أو واقعة متخيلة، وإنما ابتدع المثل القرآني ابتداءً، وكان صبغة فنية مبتكرة في الأداء والتركيب والإشارة. وليست العبرة والحجة والآية والحديث معاني للمثل وإنما هي غايات من سوقه؛ وقد يُعطفُ على المثل ما يؤدي نتائجها نفسها، لأن المثل سمي كذلك لأنه " مائل بخاطر الإنسان أبداً، أي شاخص، فينأسى به، ويتعظ، ويخشى ويرجو².

المبحث الثاني: الدلالة الاصطلاحية للمثل

هناك اتجاهات عديدة في تحديد المراد من دلالة كلمة المثل في الاصطلاح عند الأدباء والنقاد والمفسرين القدماء، وقد بلغت حدًا جعل الاتفاق على مفهوم واحد أمراً عسيراً، غير أنّ أبرزها اتجاهان؛ أدبي تفسيري، يُعنى بإبراز جوانب من خصائص المعنى المصطلح عليه، ويؤكد هذا الاتجاه على اعتبار المورد والمضرب، والغرابية والسيروية فيه، واتجاه بلاغي يتجاوز ذلك إلى الجوانب البلاغية والتصويرية في المثل. والذي جعلني أقتصر على تفصيل الحديث عن هاتين الدالتين دون غيرهما هو طبيعة الموضوع، لأنّ التعريف الأدبي واللغوي للمثل ضروري ولا يمكن للبحث أن يكون بدونها، بينما يرجع تفصيل الحديث عن الجانب البلاغي إلى كونه من مقاصد هذه الدراسة.

دلالة المثل عند أصحاب الاتجاه الأدبي

يركز أصحاب هذا الاتجاه على السمات الأساسية التي تجعل من المثل جنساً أدبياً متميّزاً عن غيره من الأجناس من جهة، كما يعنون بمواضع استعماله من جهة ثانية. وممن يمثل هذا الاتجاه ابن السكيت والمبرد والزّمخشري والرازي.

أما ابن السكيت فعرف المثل بقوله: " لفظ يخالف المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ؛ شَبَّهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره¹."

¹ نصّ على ذلك الزّمخشري والرازي والبيضاوي في تفاسيرهم.

² نفسه. 487 / 01.

ويظهر من هذا التعريف أنّ التعبير غير المباشر أمر ضروري في معرفة الممثل، أي أنّ وجه الشبه والمناسبة التي صارت سببا لإلقاء هذا المثل غير مختصة بمورد دون مورد، وإن وردت في مورد خاص يكون المثل آية وعلامة أو علما للمناسبة الجامعة بين مصاديق مختلفة. فهو بذلك تعريف يلتفت فيه إلى مضرب المثل، ومخالفة لفظه له، واتحادهما في المعنى.

واللتفت المبرّد في تعريفه للمثل إلى وجه المشابهة بين الحالين، مع ملاحظة السيرورة فقال عنه: " المثل مأخوذ من المثال؛ وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه."² وهو تعريف لا يقف فيه المبرد من المثل عند حدّ التشبيه، بل يذكر له خاصية مهمّة فيه وهي السيرورة، أي هو " قول سائر".

واشترط الزمخشري التمثيل بالمورد، وربط غرابة المثل وندرته بتداوله وقبوله وسيرورته، فقال:³ " ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلا، ولا رأوه أهلا للتسيير، ولا جديرا بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثمّ حوفظ عليه وحمي من التغيير." أما الرازي فجمع بين رأيي المبرد والزمخشري فيما يتعلق بندرة المثل وغرابته وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون).⁴ حيث قال: " ... المثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظر، ويقال مثل ومثل ومثيل كشبهه وشبهه وشبيهه، ثم قيل للقول الثائر⁵ الممثل مضربه بمورده: مثل، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه."⁶

1 الميداني . . تحقيق سعيد محمد اللحام. من مقدمة المؤلف ص 18.

2 السابق، الصفحة نفسها.

3 الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. مكتبة العبيكان. الرياض. ط 01. 1998. 191. 190 / 01.

4 البقرة / 16.

5 كذا في التفسير وصوابه: السائر والله أعلم.

6 الرازي. مفاتيح الغيب. 80 / 02.

ولمّا كانت السيرورة ممّا يلزم المثل كما هو ظاهر في كلام الذين ذكرناهم من العلماء، فمن المفيد، في تقديري، أن نقف على دلالتها في بعض المعاجم التي بين أيدينا. جاء في معجم المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده " وسار الكلام والمثل في الناس: شاع."1

وقال ابن منظور في اللسان: " وسار الكلام والمثل في الناس: شاع. ويقال: هذا مثل سائر؛ وقد سيّر فلان أمثالا سائرة في الناس."2

وجاء في معجم تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي: " وسيّر المثل: جعله سائرا، شائعا في الناس، وكذلك الكلام، ويقال: هذا مثل سائر، وقد سيّر أمثالا سائرة، وهو مجاز."3

ويبدو ممّا تقدّم أن السيرورة تعني ضمنا أن المثل في سيرورته بين الناس عبر أجيالهم وأزمانهم ومواطنهم أصبح تراثا شعبيا، من نتاج جماعي عفوي، يصعب على أن يبدعه قصدا عن سابق نية وتصميم، فهو قول نطق به الكثير من الناس وصاغه أحدهم بصورة ذكية مؤثرة، أي أنّ المثل يصبح بمجرد استعماله وشيوعه على السنة الناس، تراثا قوميا، يفقد نسبته لقائله وإن كان معلوما، ويصبح من حق الجميع استعماله.

ذكر ابن عبد ربه في عقده قصيدة لراشد بن عبد ربه، أحد شعراء الإسلام، ضمّنها بيتا من قصيدة للمقعر البارقي قالها يوم " شعب جبلة " حين هزمت عامر وعبس ذبيان وتميم دون أن ينبه على ذلك، ولا نسبه لقائله:

فألقت عصاها و استقرت بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

1 ابن سيده: أبو الحسن علي بن اسماعيل. المحكم والمحيط الأعظم. تحقيق د. عبد الحميد هندراوي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01.

573 / 8 . 2000

2 لسان العرب. مادة مثل . 2170 / 3.

3 الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. ط حكومة الكويت. 1965.

وقد علل صاحب العقد استعمال راشد لهذا البيت من غير التنبيه على قائله بالقول: " ولا أحسبه استجاز ذلك إلا لاستعمال العرب له و تمثلهم به."¹ وجعل ابن رشيق صنعة الأمثال، مقصورة على الأمثال الشعرية، وجاء بأمثلة لذلك بعضها من نظمه.² ويشترط علماء هذا الاتجاه في المثل؛ عدم التغيير في الصيغة، أو التركيب، أو البناء، وأن يستعمل المثل في المضرب، تماما مثلما أرسل في مورده.

يؤكد الفارابي ذلك في كتابه " ديوان الأدب " بقوله: " المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتدأوه فيما بينهم وقأهوا به في السراء والضراء واستدروا به الممتنع من الدرّ ووصلوا به إلى المطالب القصية وتفرّجوا به عن الكرب والمكربة وهو من أبلغ الحكمة لأنّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة."³

يبرز الفارابي في هذا التعريف مسألة ثبات الأمثال وتداولها، وإمكانية التعبير بها عن قضايا، لا يعبر عنها إلا بصعوبة. كما يثير قضية على قدر كبير من الأهمية؛ هي تأثيرها النفسي الفعّال، ليؤكد في الأخير على السمة اللغوية التي تكون لها، ودليله على ذلك ما تلقاه من قبول واستحسان عام. ثم يؤكد ذلك بقوله في كتابه شرح الفصيح: " المثل جملة من القول، مقتضبة من أصلها، أو مرسلّة بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتتقل كما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوحيه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جُهات أسبابها التي خرجت عنها"⁴

فهذا التعريف توضيح لحقيقة المثل، إذ هو قول موجز يضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي وإن جهل أصله، ولا يُغيّر لفظه في أية حالة من حالات استعماله. قال أبو عمرو بن العلاء: " والأمثال تؤدّي على ما فرط به أول أحوال وقوعها."⁵

¹ ابن عبد ربّه. العقد الفريد. 6 / 13 - 14.

² ابن رشيق: العمدة. 1 / 284 - 285.

³ السيوطي. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. ضبط وتصحيح فؤاد علي منصور. ط 01 / 375.

⁴ نفسه: 1 / 375.

⁵ لسان العرب. مادة زول. 3 / 1892.

ويؤكد الزجاجي¹ هذه الخاصية في المثل في شرحه لأدب الكاتب بالقول: " قال سيبويه لا يجوز إظهار الفعل في نحو أمّا أنت منطلقا انطلقت. وأجازه المبرد. والقول ما قال سيبويه لأنّ هذا كلام جرى كالمثل والأمثال قد تخرج عن القياس، فتحكى كما سمعت."² أي أنّها لا تتغير بل تجري كما جاءت.³

ويعرّف المرزوقي المثل في شرح الفصيح بالقول:⁴ " المثلُ جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسله بذاتها فتنسّم بالقبول وتشتهر بالتداول فتتقلّ عما وردت فيه إلى كلّ ما يصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعما يُوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها واستجيز من حذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يُستجاز في سائر الكلام."⁵

ففي هذا التعريف توضيح لحقيقة المثل، وتبيين أنّه حالة مشابهة لمورده الأصلي. ويبقى المثل يضرب، وإن جهل أصله، ولا يجوز التغيير في لفظه في أيّ حالة من حالات استعماله.

ويلتقي المرزوقي في تعريفه هذا بما ذكره الفارابي عن الاستحسان العام الذي تلقاه الأمثال ، كما يشير إلى ثباتها وعدم تغييرها على مرّ الزمن، وإلى انتشارها بين الناس ، منتهيا إلى أنّ المثل يضرب في حالات مشابهة لما ضرب له في الأصل وإن جهل هذا الأصل.

فالمثل عند هذا الفريق يقوم مقام التشبيه بل هو طرف من طرفيه يستعمل في الكلام لتأكيدهِ وتعزيز الحكم، مع محافظته على لفظه دون أن يعثر به أي تغيير.

¹ أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق النهاوندي الزجاجي، شيخ العربية في عصره [ت 338 هـ]. معجم الأعلام . ص 395.

² السيوطي. المزهري. 1 / 375.

³ نفسه. 1 / 375.

⁴ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، أبو علي. أخذ العلم عن أبي علي الفارسي وعبد الله بن جعفر بن فارس وغيرهما. وأخذ العلم عنه سعيد البقال، وأبو الفتح محمد الزجاج وغيرهما. كانت وفاته عام 421 هـ. من مصنفاته؛ كتاب شرح النحو، وشرح الموجز وشرح الحماسة والأزمنة والأمكنة وغيرها. الموسوعة الميسرة. 1 / 300 - 301.

⁵ السيوطي. المصنوع نفسه. 1 / 375.

أما السيوطي فيرى أن الأمثال لا تتغير بل تجري كما ضربت، ولا يستعمل فيها الإعراب¹. وذهب إلى هذا الرأي في ثبات الأمثال على الحكاية واتسامها بالغرابة من المفسرين البيضاوي حيث يقول في تحديد معنى المثل " قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده، ولا يضرب إلا ما فيه غرابة، ولذلك حُوِّفَظَ عليه من التغيير."²

يحدد هؤلاء العلماء أهم ركائز المثل في الاصطلاح الأدبي بإيجاز اللفظ، وكثافة الدلالة، والمضرب، والمورد، والثبات على الحكاية في استعماله وعدم تغييره، ثم السيرورة والانتشار بين الناس من جيل إلى جيل، ومن مكان إلى آخر، وأخيراً عزة المثل وغرابته وندرته.

فالمثل عندهم عبارة موجزة شائعة، مركزة الدلالة، تشي بمهارة الصنعة الأدبية، المتسمة بالخبرة والندرة أو الغرابة، ذات معنى حاد، يلتصق بظروف الناس، وحياتهم المتكررة.

جاء في كتاب الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد³: " المثل يطلق على نوعين: أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظة أفعال، كقولهم: أشغل من ذات النّحيين، والثاني كلّ كلام وجيز منشور أو منظوم قيل في واقعة مخصوصة تضمن معنى وحكمة، وقد تهيأ بتضمّنه ذلك لأن يستشهد به في نظائر تلك الواقعة."

وقد أجمل ابن رشيق هذه الصفات في حديثه عن المثل السائر بقوله: " المثل السائر في كلام العرب كثير نظماً ونثراً، وأفضله أوجزه، وأحكمه أصدقه، وقولهم: " مثل شرود وشارد " أي سائر لا يُردُّ، كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد، وزعم قوم أن الشرود ما لم يكن له نظير، كالشاذ والنادر... وقد تأتي الأمثال

¹ السيوطي: المزهري 375/1.

² البيضاوي: أبو سعيد عبد الله بن عمر، ناصر الدين أنوار التنزيل وأسرار التأويل. ومعه حاشية محي الدين شيخ زادة. ضبط محمد عبد القادر شاهين. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 1999. 311 / 1. 312.

³ ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين. الفلك الدائر على المثل السائر. تقديم وتحقيق وتعليق أحمد الحوفي و بدوي طبانة. دار تحفة مصر للطبع والنشر. الفجالة. القاهرة. ص 53. مطبوع في آخر كتاب " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " لفضياء الدين بن الأثير.

الطوال المحكمة، إذا تولاها الفصحاء من الناس.¹ ويزيد في هذه السمات إمكان الإتيان بالأمثال طوال المحكمة، وربطها بفصاحة قائلها وقدرته على إحكامها.

ويشير الكفوي إلى سيرورة المثل وانتشاره بين الناس من العامة والخاصة واستحسانهم له بقوله. " والمثل بفتحيتين، لغة، اسم لنوع من الكلام، وهو ما تراضاه العامة والخاصة، لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ ويستعمل في السراء والضراء ... وهو أبلغ من الحكمة "² وهو يعتمد في رأيه هذا على ما ذكره الفارابي في هذا الشأن، دون الإشارة إليه، كما يلحظ تجنبه الإشارة إلى البعد المجازي في استخدام الأمثال والربط بينها وبين التشبيه التمثيلي أو الاستعارة.

كما نستنتج مفهوم السيرورة من كلام الخوارزمي في تعريفه المثل وبيان حدّه حين قال: " وليس كلّ نعت صائب، ولا كل كلام فصل يسمى مثلاً، وإنما المثل ما استعمله غير واضعه وهو يقبله، ووضعه في أثناء كلامهم الخاصّة والعامة، فقد قال قوم في الجاهليّة و صدر الإسلام أقوالاً لو استعملت لكانت أمثالاً، بل كانت تربي على كثير ممّا استعملوه، فدفنت تحت النسيان وماتت في أثناء الدفاتر، وليس لهذا الباب حدّ معلوم، ولا رسم مرسوم، وإنما هو على حسب ما يعرض للبحت، وينفق في الوقت."³

ويبالغ ابن القيم في إفراد خاصية العقل للأمثال فيقول: " الأمثال شواهد المعنى المراد تزكيّته ... وهي خاصيته ولبه وثمرته."

ويطالعنا القلقشندي⁴ برأي فيه طرافة وإضافة جديدة إذ يعتبر الأمثال رموزاً وإشارات يلوح بها على المعاني تلويحاً، ولها مقدمات وأسباب، وتختص ألفاظها بالاختصار والإيجاز.⁵ وأخيراً يرى التهانوي⁶ أن معنى المثل في الأصل هو النظير، ثم نقل إلى

1 ابن رشيّق. العمدة في محاسن الشعر. 281 / 280 / 01.

2 الكفوي: الكليات. ص 852.

3 الخوارزمي أبو بكر محمد بن العباس. الأمثال. تحقيق محمد حسين الأعرجي. موفم للنشر 1993. من مقدمة الكتاب. ص 6/5 .

4 ابن القيم. إعلام الموقعين. 2 / 425.

5 عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل بن علي بن الحسن بن علي القلقشندي. من شيوخه؛ أبوه وخاله الشهاب بن العلاميّ وجماعة. من مصنفاته " تفسير سورة الفاتحة " و " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء " وغير ذلك. توفي عام 826 هـ. الموسوعة الميسرة. 2 / 1194.

6 القلقشندي: الشيخ أبي العباس أحمد. كتاب صبح الأعشى. دار الكتب المصرية. القاهرة. د.ت. 296/1.

7 محمد بن علي بن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، باحث هندي، من مصنفاته؛ كشاف اصطلاحات الفنون وسبق الغايات في نسق الآيات. توفي عام 1745 م. الأعلام للزركلي. 6 / 295.

القول السائر المتمثل مضربه بمورده. يقول: " المثل في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منه إلى القول السائر، أي الفاشي، المتمثل بضربه ومورده، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها، وبالمضرب الحالة المشبهة بها التي ورد فيها الكلام، وهو من المجاز المركب، بل لُفْتُو استعمال المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة سمي بالمثل.¹"

وقال ابن عاشور في بيان أنّ العرب لم تكن تسيّر من الأقوال إلا قولاً فيه خصوصية: " فالظاهر أنّ إطلاق المثل على القول البديع السائر بين الناس الصّادر من قائله في حالة عجيبة هو إطلاق مرتّب على إطلاق اسم المثل على الحال العجيبة، وأنهم لا يكادون يضربون مثلاً ولا يرونه أهلاً للتسيير وجديراً بالتداول إلا قولاً فيه بلاغة وخصوصية في فصاحة لفظ وإيجازه ووفرة معنى، فالمثل قول عزيز غريب ليس من متعارف الأقوال العامّة بل هو من أقوال فحول البلاغة فلذلك وصف بالغرابة أي العزّة.²"

وقد لاحظ الباحثون أهمية الصورة المجازية في مدلولات المثل، فربطوا بينها وبين بعض معاني اللفظ في اللغة، ورجحوا أن أصل المثل يرجع إلى معنى المجاز والتشبيه، كما أن التشبيه يعدّ عنصراً أساسياً في تعريف اللغويين العرب للمثل.³

وبهذا يكون المفهوم الاصطلاحي للمثل قد بني، عند الذين سبق ذكرهم، على الأسس الآتية: المورد، والمضرب والنقل على الحكاية وعدم التغيير في الرواية، والسيرورة، والغرابة، إضافة إلى الإيجاز، والتكثيف.

دلالة المثل عند أصحاب الاتجاه البلاغي

ينظر أعلام هذا الاتجاه إلى المثل باعتباره حالة خاصة من حالات التمثيل، أي التشبيه أو الاستعارة، أخذ وجه الشبه فيها من أشياء متعددة ومختلفة، أي باعتباره جملة استعارية.

¹ التهاوني: محمد علي. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تقاسم وإشراف د رفيع العجم، مكتبة لبنان. ط 1. 1996.

1149 / 02

² ابن عاشور: محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. 1 / 303.

³ السيوطي: المزهري. 1 / 374. 375.

فالمثل عند القزويني وشراح التلخيص هو التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقا قال: " وهذا يسمّى التمثيل على سبيل الإستعارة، وقد يسمّى التمثيل مطلقا، ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا، ولهذا لا تغير الأمثال.¹"

ويعتبر أبو عبيد القاسم بن سلام أول من أشار إلى السمة البلاغية في المثل حين وصف الأمثال في مقدمة كتابه بقوله: " هذا كتاب الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه.²" فهو بهذا يشير إلى أن المثل حكمة ناتجة عن التجربة، وأن التعبير بالمثل كناية بطريقة غير مباشرة، مشيرا إلى دلالاته، ويقرب بذلك بين مصطلح المثل والمماثلة. والتعبير غير المباشر في المثل يصاغ غالبا في أسلوب التمثيل، وذكر من سماته؛ إيجاز اللفظ، وكثافة المعنى وإصابته، ثم يشير إلى حسن التشبيه في المثل، وإلى الجانب التصويري الذي تظهر فيه أبرز عناصر المثل الجمالية. ومع أن أبا عبيد اعتبر حسن التشبيه من سمات الأمثال التصويرية على ما يظهر من قصده، فقد ضم كتابه كثيرا من الأمثال غير التصويرية.

وبمثل رأيه قال النظام الذي وافقه على السمات البلاغية حين عدّ المثل نهاية البلاغة فقال: " يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام؛ إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.³" وقد نقل عنه ابن رشيق هذا الرأي في العمدة في معرض حديثه عن تأصيل معنى لفظ المثل، حيث يلتفت إلى جوانب جماليات المثل الأدبية والبلاغية، فيحصرها في ثلاث سمات، بعد أن يبرز الجانب التربوي الوعظي في وظيفته، فيقول: " إنما سمي مثلا لأنه مائل لخاطر الإنسان أبدا،

¹ القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. التلخيص في علوم البلاغة. ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي. دار الفكر العربي. ص 323 / 324. وانظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. لعبد المتعال الصعيدي. مكتبة الآداب. مصر. 1999. 3 / 130.

² البكري: أبو عبيد. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. تحقيق الدكتورين إحسان عباس وعبد المجيد عابدين. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 3. 1983. ص 4 / 5.

³ الميداني. مجمع الأمثال. 1 / 18.

يتأسى به، ويعظ، ويأمر، ويزجر ... وقال بعضهم: في المثل ثلاث خلال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه¹.

وذهب أبو عبيدة إلى أن المثل يراد به المثل بمعناه العام، أو يراد به التشبيه وما يتصل به من تمثيل حيث قال عن قوله تعالى: " وتلك الأمثال نضربها للناس " مجازها؛ هذه الأشباه والنظائر، نحتجّ بها². كما استعمل الجاحظ " المثل " بمعنى الاستعارة، فقال في معرض حديثه عن قول الشاعر " هم ساعد الدهر الذي يتقى به. " " قوله هم ساعد الدهر " إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع³ " و " ساعد الدهر " في البيت استعارة أو تشبيه بليغ.

ويؤكد ابن فارس ما في المثل من السمات المجازية القائمة على التشبيه والمماثلة والتورية فيقول: " المثل، المثل ... والمثل المضروب مأخوذ من هذا، لأنه يذكر مورى به عن مثله في المعنى. "

وألمح الميداني إلى ما يتسم به المثل من التمثيل والتشبيه، بكلام مقتضب مزج فيه بين الملامح اللغوية واللامح البلاغية للمثل فقال: " فالمثل ما يمثل به الشيء، أي يشبهه ... فصار المثل اسما مصرحا لهذا الذي يضرب، ثم يرد إلى أصله الذي كان له من الصفة. "⁵

وظل المثل عند البلاغيين مرتبطا بالتشبيه، وما يتصل به من استعارة أو تمثيل، فقال الرازي: " المثل تشبيه سائر " وقال في موضع آخر: " المثل قول يشبه به حال الثاني بالأول. "

وقد اعتنى البلاغيون بالمثل بوصفه تعبيراً للإيضاح والمشابهة، ولو من بعض الوجوه، بين الخفي والجلي، والمعنوي والمحسوس، ويبرز الراغب الأصفهاني سمة

¹ ابن رشيق: العمدة 280/1.

² ابن المثنى: أبو عبيدة معمر. مجاز القرآن. تعليق د فؤاد سركين. مكتبة الخانجي. القاهرة. 2 / 116.

³ الجاحظ. البيان والتبيين. تج جويدي. 620 / 03.

⁴ ابن فارس: أبو الحسين أحمد. معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون. دار الفكر. 1979. 296/5.

⁵ الميداني. نفسه. 19 / 1.

⁶ الرازي. مفاتيح الغيب. 80 / 3.

المشابهة بين مورد المثل ومضربه، فيقول: " المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره. نحو قولهم: الصيف ضيقت اللبنة " فإن هذا القول يشبه قولك: " أهملت وقت الإمكان أمرك."¹؛ أي أنّ هذا المثل يضرب لمن لا يطلب الشيء وهو ميسور قريب المنال وهو حال العسر متى كان متعذراً، قال المبرّد معلقاً عليه " أصل المثل إنّما كان لامرأة، فإنّما يضرب لكلّ واحد على ما جرى في الأصل. فإذا قلته لرجل فإنّما معناه: أنت عندي بمنزلة التي قيل لها هذا " ².

ووصف الزمخشري الأمثال بالفصاحة، والبلاغة، والمنطق، والإيجاز المعبر، والتلويح المصرح، والكناية المفصحة، ونعتها بجوامع الكلم، ونوادير الحكم، مشيراً إلى أنّها يتكلم بها كما هي، فقال يذكر الأمثال " هي قسارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادير حكمها، وبيضة منطقتها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع إلى ذرابة اللسان وغرابة اللسان، حيث أوجزت اللفظ وأشبعت المعنى، وقصرت العبارة وأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح، فأغنت عن الإفصاح " ³.

ثم يقول في ثبات نقل الأمثال على الحكاية وتفسير معنى التمثيل والمضرب " والأمثال يتكلم بها كما هي، فليس لك أن تطرح شيئاً من علامات التأنيث ... ولا أن تبدل اسم المخاطب ... والتمثل تطلب المماثلة، والضرب البيان. " ثم يشير إلى علاقة المماثلة والمشابهة بين المورد والمضرب، فيقول: " سميت هذه الجملة من القول المقتضبة من وصلها أو المرسله بذاتها، المتسمة بالقول، المشتهرة بالتداول، مثلاً؛ لأن المحاضر بها يجعل موردها مثلاً ونظيراً لمضربها " وهو بذلك يجمل أهم سمات المثل الأدبية والبيانية

¹ الراغب الأصفهاني: المفردات. ص 759.

² المبرد: محمد بن يزيد، أبو العباس. المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة. القاهرة. 1994. 2 / 143.

³ الزمخشري. المستقصى في أمثال العرب. عناية د محمد عبد المعيد خان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدرآباد. الهند. ط 01. من مقدمة المصنف 1 / ب. وانظر حاشية الشهاب المسمّاة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي. دار صادر. ب. بيروت.

بإيجاز اللفظ، وكثافة المعنى، وندرة القول، وعزته وغرابتة، سيرورة المثل وشيوعه، وتداوله على الحكاية، ولوحظ علاقة المشابهة والمائلة بين مورده ومضربه.¹

كما ذهب إلى أن " لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيّل في صورة المحقق، والمتوهّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبيكيت للخصم الألدّ، وقمع لسورة الجامح الأبّي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء."²

ويؤكد الرازي أثر الأمثال التصويري والإيضاحي في القلوب والعقول والحواس، فيقول: " إن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيؤكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح."³

ويركز البيضاوي على الإيضاح الحسي للمثل عن المعنى الممثل به، بحيث يسهل تخيله أو تصديقه، فيقول: أراد ههنا أن يكشف عنها كشفاً تاماً ويبرزها في معرض المحسوس المشاهد، فعقبها بضرب المثل مبالغة في البيان، لأنّ ضرب المثل أوقع في القلب وأقمع، أي أشدّ قهراً وإذلالاً للخصم الألدّ أي الشديد الخصومة. فإنّ الوهم لا يساعد العقل في إدراك المعقول الصرف بل ينازعه ويمنعه عن إدراكه، وبضرب المثل يبرز المعقول في صورة المحسوس فيساعد الوهم العقل في إدراكه لأنّ شأن الوهم إدراك المعاني المنتزعة من المحسوسات، فلذلك كان ضرب المثل أبلغ في بيان حالهم بالنسبة إلى مجرد تقرير الحجّة عليهم."⁴

وقال ابن قيم الجوزية في تبیین أن الأمثال تقوم على تشبيه الشيء بالشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر،

¹ الرّمحشري : المستقصى . من مقدمة المصنف . ص 03 .

² الرّمحشري . الكشاف . 01 / 190 ، 191 .

³ الرازي : مفاتيح الغيب 2 / 80 .

⁴ القوجوي : محمد بن مصلح الدين مصطفى . حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي . تحقيق محمد عبد القادر شاهين . دار

الكتب العلمية . بيروت . ط 01 . 1999 . 1 / 310

وأن وظيفة المثل البلاغية تقوم على إزالة اللبس وإشاعة الوضوح والإفهام: " وأن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها شبيهة شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر."¹

وقد ذهب أبو حيان الأندلسي إلى أبعد من ذلك في جعله المثل نوعا من التشبيهات المعقدة بعيدة المغزى، تهدف إلى إيضاح المجهول بالمعلوم، والخفي بالجلي، فيكشف بذلك عن غرابة المعاني وغموضها، فيزيدها جلاء ووضوحا. فالمثل بذلك " ذكر وصف ظاهر محسوس، وغير محسوس، يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه، فيه نوع من الخفاء، ليصير في الذهن مساويا للأول في الظهور من وجه دون وجه "².

ويعتبره الكفوي في كليته نوعا من أنواع المجاز المرسل لتعريف الحقائق بألفاظ لم توضع لها في الأصل، فاستعملت للتعبير عنها في موارد الحاجة، فيقول: " والمثل، بفتحيتين لغة؛ اسم لنوع من الكلام، وهو ما تراضاه العامة والخاصة، لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ، يستعمل في السراء والضراء."³

وقد مزج البلاغيون بين المثل والتمثيل، فقد مال عبد القاهر الجرجاني إلى توحيد مفهوم كلمتي المثل والتمثيل، لأنهما يدلان على معنى واحد، فيقول: " وكل ما لا يصلح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضا."⁴ فهو يعتبر المثل والتمثيل شيئا واحدا منتزعا من مجموعة تشبيهات عالقة بمواضع متعددة، وبضم بعضها إلى بعض يحدث تشبيه مركب، من خلال امتزاج عدة صور في إحداث صورة واحدة، فيكون سبيل الشيين يمزجان، فيكونان حقيقة تمثيلية موحدة، لا تدرك بانفصالهما، لأنها تحصل من توافر عدة جمل وعبارات، فيقول: " ينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو

¹ ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب. الأمثال في القرآن الكريم. تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب. دار المعرفة. بيروت. 1981. ص 173.

² أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي. تفسير البحر المحيط. دراسة وتحقق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ومشاركة مجموعة من العلماء. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01. 1993. ج 01 ص 207

³ أبو البقاء الكفوي. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. ص 852.

⁴ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أخذ العلم أبي الحسن محمد بن الحسن بن أخت أبي علي الفارسي، كان من كبار أئمة العربية والبيان، قال عنه صاحب الأعلام: " واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة ... ". توفي عام 471 هـ. من مصنفاته؛ " إعجاز القرآن " و " أسرار البلاغة " وغير ذلك. الموسوعة الميسرة. 2 / 1284 . 1285.

⁵ الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. أسرار البلاغة. قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر. دار المدني بجدة. ص 97.

الأولي بأن يسمى تمثيلاً، لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام، أو جملتين، أو أكثر.¹ ويظهر أنّ الجرجاني يجعل المثل يختلط بالتمثيل بصورة يصعب التفريق بينهما. وممن ذهبوا إلى هذا الرأي في تطابق مصطلحي التمثيل والمثل الكفوي حيث يقول: " ويسمى الكلام الدائر في الناس للتمثيل مثلاً ؛ لقصد إقامته ذلك مقام غيره، والشرط في حسن التمثيل هو أن يكون على وفق الممثل لهمن الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والخسة والشرف وإن كان الممثل أعظم من كلّ عظيم."²

ويفرق الجرجاني بين التشبيه والتمثيل الذي هو المثل، من حيث إن التمثيل تشبيه في الأصل، غير أن تشبيه شيء بشيء آخر يكون عنده على ضربين " أحدهما أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأوّل، والآخر أن يكون الشبه محصّلاً بضرب من التأوّل "³ فما حصل بلا تأوّل أو تخيل فهو التشبيه عنده ومعنى ذلك أن الشبه موجود في المشبه به في وضوح وإبانة دون ضم شيء آخر إليه، وكان الشبه نتيجة لامتزاج صورة بصورة واحدة أو بصورة متعددة، ولتداخل معنى بمعنى، أو بمعان متعددة، يكون في ضمهما وجمعهما حصول الشبه المراد مركباً في المشبه والمشبه به، ولا يحصل ذلك إلا بضرب من التأوّل والتخيل، فالكلام تمثيل، وهو لديه المثل، وهنا يتجلى معنى قوله: " فاعلم أنّ التشبيه عمّ، والتمثيل أخصّ منه، فكلّ تمثيل تشبيه، وليس كلّ تشبيه تمثيلاً."⁴

وقد جرى العلوي⁵ الجرجاني في مزج مفهوم المثل بالتمثيل، والتفريق بين التمثيل والتشبيه، فقال: " وإنما تقع التفرقة من جهة أن الوجه الجامع إن كان متفرعاً من عدة أمور فهو التمثيل، وإن كان مأخوذاً من أمر واحد فهو الاستعارة "⁶ غير أن التشبيه عند الجرجاني يقابل الاستعارة عند العلوي.

¹ نفسه. ص 108.

² الكفوي. الكليات. ص 852.

³ الجرجاني أساس البلاغة. ص 90.

⁴ نفسه. ص 95.

⁵ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، أحد أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن. ولد في صنعاء، وأظهر الدعوة بعد وفاة المهدي محمد بن المطهر سنة 729 هـ. وتلقّب بالمؤيد بالله واستمرّ إلى أن توفي سنة 745 هـ في حصن هران " قبليّ دمار". انظر الأعلام 8 / 142

⁶ العلوي. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. مطبعة المقتطف. مصر. 1914. 03 / 344 - 345.

وسبق لي أن أشرت إلى رأي القزويني وشرّاح التلخيص، وهم يؤيدون الجرجاني فيما رآه، فالمثل عندهم هو التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقاً، قال القزويني: "ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلاً، ولذلك لا تغير الأمثال."¹

وأما ابن رشيق فيكتفي بجعل المثل كالتمثيل والاستعارة شكلاً من أشكال التشبيه، تفرق عن التشبيه بالأداة والأسلوب، فيقول: "والتمثيل والاستعارة من التشبيه، إلا أنهما بغير أداته، وعلى غير أسلوبه والمثل المضروب ... راجع إلى ما ذكرته ... وتسمية المثل دالة على ما قلته، لأن المثل والمثل الشبيه والنظير."²

ومن جهة أخرى فقد ألمح كل من أبي عبيد القاسم بن سلام والنظام في تعريفهما للمثل أن المثل نوع من الكناية غير الصريحة، كان العرب يعارضون بها كلامهم.³ ويذهب بعض المستشرقين ومنهم رودلف زلهام إلى هذا الرأي، معتمداً في ذلك على التفاضل في تحديد معنى المثل عند البلاغيين، فيقول: "أما البلاغيون، الذين لا يمكننا التعرض لتعريفاتهم بالتفصيل، فإن المثل عندهم حالة خاصة من حالات التمثيل، وهو تشبيه أو استعارة، أخذ وجه الشبه فيها من أشياء مختلفة، أي أنه بعبارة أخرى جملة استعارية، فإذا شاع مثل هذا التمثيل على الألسنة، سمي مثلاً."⁴

وهذا يقرب بين مفهوم المثل والمماثلة، وهي ضرب من الاستعارة، أطلق عليه الباقلائي المماثلة، وعرفها بقوله: "وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظاً تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه، مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه."⁵ وهي ضرب من المجاز يقع بين الكناية والاستعارة التمثيلية أو التشبيه التمثيلي، ولا صلة بين المفهومين من ناحية الدلالة الاصطلاحية أو البلاغية. ويجتمع أصحاب الاتجاهين على السمات التالية في مفهوم المثل:

* إيجاز العبارة، وتكثيف المعنى، إضافة إلى الندرة والغرابة.

¹ القزويني. التلخيص في علوم البلاغة. ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي. ص 323. 324. وانظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في

علوم البلاغة. لعبد المتعال الصعيدي. مكتبة الآداب. مصر. 1999. 3 / 130.

² ابن رشيق: العمدة 280/1.

³ فصل المقال للبكري. ص 04. / وانظر الميمني 1 / 18.

⁴ زلهام: رودلف. الأمثال العربية القديمة. ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب. مؤسسة الرسالة. ط 02. 1982. ص 26.

⁵ الباقلائي: أبي بكر القاضي. إعجاز القرآن. عالم الكتب مطبوع على هامش الإتيان في علوم القرآن للسيوطي. 1 / 115.

* المورد وممثل إصابة الدلالة في تصوير جانب من خبرات الحياة الواقعية أو المتخيلة المتكررة الحدوث.

* المضرب، ويتجلى من خلال وجود علاقة المشابهة القائمة على الاستعارة أو الكناية أو التشبيه بين حالة المورد وحالة المضرب، من خلال إسقاط تجربة سابقة على تجربة لاحقة.

* السيرورة والتداول بين الناس باعتبار المثل فنا شعبيا وجماعيا تتناقله الألسن عبر الأزمان والأمكنة.

* الثبات في صياغته وعدم تغيير لفظه الموضوع له، ونقله على الحكاية كما أرسل عند المورد.

* علاقة المشابهة أو التمثيل بين المورد والمضرب.

المبحث الثالث الأنماط التعبيريّة التي تجرى مجرى المثل:

قام علماء الأمثال في التراث العربي القديم بجمع كل ما له علاقة بجوامع الكلم والتعبير الموجز السائر، في مصنفات الأمثال، ووسموه بما يجرى مجرى الأمثال، فجاءت مصنفاتهم جامعة لضروب عديدة من العبارات الموجزة البليغة السائرة النادرة، ممّا يوحي بتوسّعهم في فهم دلالة مصطلح المثل الأدبي السائر، بحيث شمل عندهم كافة أصناف جوامع الكلم الموجز السائر.

الحكمة

الحكمة ضرب من الكلام الرفيع الذي يجري مجرى المثل، لكنه يصدر عن ذي تجربة في الحياة، فيلخص بعبارات موجزة تجربة مرت به، أو يدلي برأي سديد في مسألة استعصى حلها فيصير حكمه، بعدها، مثلاً سائراً أو قانوناً معتمداً. وقد عرف بها الكثير من العرب منهم امر بن الظرب وأكثم بن صيفي وغيرهم. قال ﷺ: " لا حلیم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة."¹

والحكمة أرفع شأنًا من المثل عند الكثير من المحققين، لأنّ المثل يمثل ثقافة عامة الشعب بجميع طبقاته، بينما الحكمة تهذيب وصلل لتلك الثقافة، وهو ما جعلها وثيقة الصلة بالنبوة، حتّى قيل في تعريفها: " الحكمة لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع."² وممّا يظهر أهميّتها؛ ثناء الله عليها وعلى المتحلّي بها، فرغّب فيها بالقول: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة."³ نى على صاحبها فقال: " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا."⁴

وبهذا فأعلى المراتب للرسول، ثم للأنبياء، ثم للحكماء؛ والكل يخرج من مشكاة واحدة؛ حتى أن لقمان الذي قال تعالى في حقه: ﴿ وآتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ﴾⁵ خيّر بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة.¹

¹ البخاري. الأدب المفرد. دار البشائر الإسلامية. ط. 4. 1997. ص 199.

² ابن كثير. المصدر نفسه. 1 / 571.

³ النحل / 125.

⁴ البقرة / 269.

⁵ لقمان/ 12

والحكمة كلمة شاع ذكرها واستعمالها في القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الفصحاء. عرفها ابن عباس رضي الله عنه بأنها علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله.² وقال عنها ابن قتيبة: " هي العلم والعمل به, ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما ".³ أما عند الراغب في المفردات فهي: " إصابة الحق العلم لعقل، والحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ومن الإنسان رفة الموجودات وفعل الخيرات ".⁴ كما نجد لها ذات بعد أخلاقي عند ابن دريد الذي عرفها بالقول: " كل كلمة وعظمتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ".⁵ وقد عرف النوري الحكمة تعريفا شاملا وبديعا من المفيد ذكره لأهميته البالغة، قال: " الحكمة فيها أقوال كثيرة مضطربة، اقتصر كل من قائلها على مقتضى صفة الحكمة، وقد صفا لنا منها أنها عبارة عن العمل المتّصف بالإحكام، المشتغل على المعرفة بالله تعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به، والصدّ عن اتّباع الهوى والباطل؛ والحكيم من له ذلك. وقد تطلق الحكمة على القرآن، وهو مشتغل على ذلك. وقد تطلق على العلم فقط، وعلى المعرفة فقط، ونحو ذلك."⁶

وقد وردت الحكمة في القرآن الكريم في آيات كثيرة وبدلالات مختلفة نقتصر منها على ما قاله الدامغاني بأنّ مادة (ح ك م) وردت في القرآن على خمسة أوجه:⁷

" * الحكمة بمعنى الموعدة. قال تعالى: ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به. ﴾⁸

يعني المواعظ التي في القرآن من الأمر والنهي.

¹ الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن. دار المعرفة. بيروت. 1986. 1 / 54. وانظر: ابن العربي. أحكام

القرآن. تح علي محمد الجاوي. دار المعرفة. بيروت. 1987. 3 / 1495.

² البغوي. أبو محمد الحسين بن مسعود. تفسير البغوي المسمّى " معالم التنزيل ". ط 1. دار ابن حزم. بيروت. ص 172. وانظر ابن كثير.

تفسير القرآن العظيم. تصحيح لجنة من العلماء. ط 3. دار الأندلس. بيروت. 1981. 1 / 571. ونسبه لابن عباس وحده.

³ البغوي. نفسه. ص. 65.

⁴ الراغب. مفردات ألفاظ القرآن. ص. 249.

⁵ محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. من أئمة اللغة والأدب. (ت 231 هـ). معجم الأعلام. ص 693.

⁶ البغوي. نفسه. ص. 65.

⁷ اليوسي. زهر الأكم. 1 / 26.

⁸ الدامغاني. السابق. ص 141. 142.

⁹ البقرة / 231.

* الحكم يعني الفهم والعلم. كقوله تعالى في سورة مريم ﴿ وآتيناه الحكم صبيا. ¹ يعني الفهم والعلم.

* الحكمة يعني النبوة. قوله تعالى في سورة النساء ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة. ² يعني النبوة مع الزبور.

* الحكمة يعني تفسير القرآن. قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء. يعني تفسير القرآن ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا. ³

* الحكمة القرآن. قوله تعالى في سورة النحل ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. ⁴ يعني القرآن.

وورد ذكر الحكمة في أحاديث نبوية شريفة كثيرة منها قوله ﷺ:

- " الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحقّ بها " ⁵.
- " لا حسد إلا في اثنتين. رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " ⁶.
- " مثل الذي يجلس يسمع الحكمة، ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشرّ ما يسمع، كمثل رجل أتى راعيا، فقال: يا راعي، أجزرني شاة من غنمك. فقال: اذهب فخذ بأذن خيرها. فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم. ¹

¹ مريم / 12.

² النساء / 54.

³ البقرة / 269.

⁴ النحل / 125.

⁵ الترمذي. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. سنن الترمذي . ضبط صدقي جميل العطار. ط2 . دار الفكر بيروت 2002.

ص 771. و ابن ماجه. أبو عبد الله محمد بن يزيد سنن ابن ماجه. ضبط صدقي جميل العطار. ط 1. دار الفكر بيروت 2001

ص951. كلاهما عن أبي هريرة.

⁶ مسلم. الصحيح. ص. 371 و ابن ماجه. 958.

وليست التفرقة بين المثل والحكمة بالأمر الهين، لأنّ كلاّ منهما يُصاغ في عبارة موجزة، فأشكل الأمر على بعض العلماء وعدّوهما ضرباً واحداً.

قال أبو عبيد¹ في تعريفه للأمثال: " الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وقد ضربها النبي ﷺ وتمثل بها هو ومن بعده من السلف"².

ال أبو هلال العسكري: " جعل كل حكمة سائرة مثلاً، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنّه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً."³

لرغم من التقارب الشديد بين الحكمة والمثل، بل إنّ الفوارق بينهما تزول وتمحي في بعض الأحيان، فقد ذكر العلماء لهما بعض الفروق البسيطة، وأبرزها تلك التي ذكرها اليوسي في قوله: " وقد أتضح من هذا الفرق بين المثل والحكمة، وذلك فيما يحضر فكري الآن من ثلاثة أمور؛ أحدها أنّ الحكمة عامّة في الأقوال والأفعال، والمثل خاصّ بالأقوال. ثانيها أنّ المثل وقع فيه التشبيه، أما المثل، دون الحكمة. ثالثها أنّ المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ."⁴

ولهذا فالحكمة، في تقديري، عصارّة خبرة صاحبها من أجل فهم أسرار الحياة، يدبجها ذهن وفاد وفكر نير، تصدر عن المفكرين وأضرابهم، أما المثل فعلى قربه الشديد منها إلا أنّه ذو طابع حسّي مرتبط بالواقع أشدّ الارتباط، كما أنّه لا يقصد في الكلام بل يأتي عرضاً نتيجة لواقعة معيّنة، ويصدر عن كافّة طبقات النّاس الاجتماعية والفكرية، وهذا ما يجعلنا نقول عن أمثال القرآنية بأنّها حكم جرت مجرى الأمثال.

وعلى كثرة الكتب المصنّفة في الأمثال منذ فترة مبكّرة، فإنّ الحديث عن الحكمة وجمعها كان دوماً مقروناً بالأمثال، ومن أقدم ما وصلنا في بابها كتاب الأمثال والحكم

¹ ابن ماجه. السنن.ص952.عن أبي هريرة. رقم 4172.

² أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي. من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقّه (ت 224 هـ) معجم الأعلام . ص 602.

³ أبو عبيد البكري. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ص4

⁴ العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل. جبهة أمثال العرب. مخطوط الميرزا محمد ملك الكتاب الشيرازي. حيدرآباد. ص 03.

⁵ اليوسي. زهر الأكم. 1 / 29.

لأبي بكر الرازي ت 313 هـ وهو كتاب مطبوع بتحقيق الدكتور عبد الرزاق حسين عام 1986 م، ولكن لم يتيسر لي الإطلاع عليه. كما نجد بعض الكتب القديمة تذكر الحكم دون الأمثال رغم أنّ موضوعها هو الأمثال، من ذلك ما يقوله ابن دريد ت 321 هـ في مقدمة كتابه " المجتنى " هذا كتاب يشتمل على فنون شتى من الأخبار الموثقة والألفاظ المسترشقة والأشعار الرائقة والمعاني الفخمة والحكم المتناهيّة والأحاديث المنتخبة ... " كما نجدها تذكر كثيرا في كتب الأدب العام كالبيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربّه وغيرها.

أمّا الحكمة فلم ترد فيها كتب مستقلة إلا في زمن متأخر، وأوّل ما نصادفه هو كتاب " الفرائد والقلائد " لأبي الحسن الأهوازي [ت 330 هـ]² ثم ظهر بعد ذلك كتاب³ " الحكم والأمثال المروية عن رسول الله ﷺ وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها " لأبي أحمد العسكري ت 382 هـ. ثم كتاب " الفريدة في الأمثال والأدب " لشمس المعالي قابوس بن أبي طاهر وشكمير الجيلي قتل 403 هـ. بعدها بفترة يظهر كتاب " الأمثال والحكم " للماوردي ت 450 هـ.⁵

ويذكر القضاعي ت 454 هـ في مقدمة كتابه الشهاب: " وقد جمعت في كتابي هذا ممّا سمعته من حديث رسول الله ﷺ ألف كلمة من الحكمة في الوصايا والمواعظ والأمثال " .⁶

وفي كتاب " فرائد الخرائد " لتلميذ الميداني أبي يعقوب يوسف بن طاهر الخويّ ت 549 هـ تقسيم بديع مخالف للذي عليه كتاب أستاذه الميداني؛ فيذكر في الباب الواحد

¹ ابن دريد. المجتنى. ص 12.

² ذكره الثعالبي في كتابه خاص الخاص، وذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي أنّه نسب خطأ إلى قابوس بن وشكمير، توفي عام 403 هـ. انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 2 / 118.

³ ذكره بهذا التفصيل ابن خير الإشبيلي ؛ انظر فهرسة ابن خير لأبي بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة. تحقيق محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 1998. ص 171. وسنفضل الحديث عن الكتاب ومضمونه لاحقا.

⁴ انظر تاريخ الأدب العربي. بروكلمان 2 / 121. وذكر أنّ له نسخة في [آيا صوفيا 26, 70 WZKM]

⁵ سنفضّل الحديث عن الكتاب وموضوعه عند الحديث عن أمثال الحديث النبوي الشريف.

⁶ القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر. مخطوط كتاب شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث المروية عن الرسول المختار. من مقدمة المصنف. ص 01.

الأمثال السائرة، ثم نبذ من الحكم، ثم الأبيات السائرة، ثم الأمثال السائرة على وزن

أفعل، وأخيرا أمثال المولدين.

النادرة

النادرة أو النَّادر مفرد جمعه النَّادر، جاء في الصَّاح: ¹ ندر يندر ندورا: سقط وشدّ ومنه النوادر. " وجاء في اللسان: ونوادير الكلام تندر، وهي ما شدّ وخرج من الجمهور، وذلك لظهوره. ² أي خرج من السهل المستعمل على ألسنة الناس. وهو ما يقول به صاحب تاج العروس: ومن المجاز: أسمعني النوادر: " نوادر الكلام " تندر وهي: " ما شدّ وخرج من الجمهور " لظهوره. ³ وقال كذلك ومن المجاز: فلان نادرة الزمان أي وحيد عصره، كما يقال نسيح عصره. ⁴ وندر الكلام ندارة: غرب. ⁵ وجاء في الأساس: ⁶ " وهذا كلام نادر: غريب خارج عن المعتاد "

من هنا فالنَّوادر عبارات تستعمل بمعنى الشَّوارد، وترد في كتب اللغة ومعجمها بمعنى المخالف للفصيح الشَّائع، قال الجرجاني في التعريفات: ⁷ " النادر ما قلّ وجوده وإن لم يخالف القياس. " وقد صنّفت في هذا الضرب مصنّفات كثيرة، أشهرها كتاب النَّوادر لأبي زيد الأنصاري.

والنَّوادر عبارات موجزة تتفق في بعض سماتها مع الأمثال والحكم، فهي موجزة صائبة المعنى، تعبر عن تجربة، ونظر ثاقب في تدبير الأمور، ترسل إرسال المثل وهي قريبة منه إن لم تكنه، لأنها لم تتل حضا وافرا كغيرها من الأقوال المثلية في السيورة والشيوخ، ومع ذلك فقد حشد العلماء قدرا منها في كتب الأمثال.

¹ الجوهري. الصحاح. 2 / 825.

² لسان العرب. مادة ندر. 6 / 4382.

³ الزبيدي. تاج العروس. 14 / 195.

⁴ نفسه. 14 / 196.

⁵ نفسه. 14 / 197..

⁶ الزمخشري. أساس البلاغة. ص 625.

⁷ التعريفات للجرجاني. ص 258.

نقل الرَّاغِب في بيان فضلها أنَّه " قيل النَّوادر تفتح الأذان وتنبّه الأذهان ". وقال أبو عبيدة: الملح مروءة تنفق عند الأشراف فارتادوا لها وانظروا عند من تضعونها¹. ويعتبر الفارابي، على ضوء المصادر التي بين يديّ، أوّل من أشار إلى هذا النمط من التعبير، ثم فرّق بينه وبين المثل فقال: " والنادرة حكمة تؤدي ما يؤدي عنه المثل إلا أنّها لم تشع في الجمهور ولم تجر إلا بين الخواص، وليس بينها وبين المثل إلا الشيوخ وحده²". وقد أكّد أبو هلال العسكري، من بعده، على هذه الخصائص في هذا الضرب من الكلام، وأشار إلى أنّ هذه الأقوال النادرة في مبانيها ومضامينها، هي ضرب من الحكم غير الشائعة أو السائرة، فإذا سارت على الألسن والأسماع، أصبحت أمثالا، وذلك في قوله: " أصل المثل من التماثل بين الشّيئين في الكلام كقولهم كما تدين تدان، وهو من قولك هذا مثل الشّيء ومثله كما تقول شبهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يمثل به، إلا أنّه لا يتفق أن يسير، فلا يكون مثلا³". إنّ الشيوخ والانتشار وكثرة الدوران على الألسنة هي أبرز الفوارق بين المثل والنادرة، حيث القول الصائب الصّادر عن ذي التجربة يسمى نادرة متى عزّ استعماله، ويسمّى مثلا متى كثر استعماله وشاع على الألسن في مناسبات ومواقف مختلفة. وإذا كان الشيوخ والانتشار وكثرة الدوران على الألسن هو الفارق بينهما؛ فمسألة الشيوخ، في تقديري، نسبية لا يمكن ضبطها لاختلاف البيئات والمجتمعات، إذ قد يشيع قول ما في بيئة معيّنة ويخمل في أخرى وهكذا.

الأقوال المأثورة

أريد بالأقوال المأثورة تلك لعبارات والأقوال الموجزة، التي استعملتها العرب في مناسبات ومواقف معيّنة وكرّروا استخدامها في مواقف حياتهم المختلفة كعبارات الدعاء والتّهنية، والتّحية، والتّعجب، والتّمني، والترجّي، والسؤال والإغراء، والسخرية،

¹ الأصفهاني: الرَّاغِب. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. تهذيب وإخراج إبراهيم زيدان. مطبعة الهلال. مصر. 1902. ص 16/15.

² السيوطي. المنهر. 1/ 486.

³ العسكري. جهرة أمثال العرب. مخطوط الميرزا محمد ملك الكتاب الشيرازي. حيدرآباد. ص 03.

والتهديد، وغيرها، وصاروا يستخدمونها بصورة آلية مع تكرار دواعيها في المواقف المختلفة، حتى أصبحت إشارات اصطلاحية متكررة على ألسنتهم في تلك المواقف، لا غنى لهم عنها، رغم آلية استخدامها العفوي، ولما شاع استعمالها، أوردوها في كتب الأمثال دون تفرقة بينهما أو بينها وبين الحكمة، لتضمّنها بعض سمات المثل، كالإيجاز، والسيرورة، لذلك أدخلها العلماء في مفهوم المعنى الواسع للمثل، لأنها كالعلم لما تدل عليه، وإن كانت أقل جمالا من المثل من الناحية الفنية. وهذا الضرب من الكلام على أربعة أقسام:

كلمات مفردة نقلت عن الفصحاء:

هي الكلمات المفردة التي جمعها العلماء مع الأمثال ودونوها في مصنفاتهم، ثم شرحوها مركزين في شروحهم لها، على جانبها اللغوي. ويعدّ أبو فيد مؤرّج بن عمرو السدوسي أشهر المصنّفين عناية بهذا الضرب، حيث ذكر في كتابه " الأمثال " الكثير منها، وسنقتصر على ذكر بعضها، ومنها:

- الرَّعْلَاء: قال في شرحها: وهي المشقوقة الأذن.¹

- التَّعْتَه: وقال: هو التَّنوق والتَّحذلق.²

- المَبْسَل: المسلم. قال الله عزّ وجلّ:³ (أَسْلُوا بِمَا كَسَبُوا.)⁴

وهذا النوع من الكلمات كثير في كتاب الأمثال للمورّج بل هو الغالب في كتابه، ولكّنه، قليل، عند غيره كالמידاني والمفضّل الضّبي، إذا ما قورن بما في كتابيهما من أمثال. كما نجد، في معاجم اللّ ، أنّ لبعض العبارات التي شرحها المورّج معاني تختلف عن تلك التي ذكر، ومنها:

¹ قال ابن دريد: " الرَّعْلَاء ... وناقّة رعلاء، إذا قطعت أذنها فتركت منها قطعة " / ص 309 / وفي موطن آخر: واشتقاق " الرَّعْلَاء " من قولهم: ناقّة رعلاء، وهي التي تقطع قطعة من أذنها وتترك تنوس... " ص 486. وانظر ابن دريد. أبو بكر بن الحسن. الإشتقاق. تحقيق عبد السلام هارون. ط 1 دار الجليل. بيروت. 1991.

² عرفه ابن دريد بالقول: "...التعته، وهي المبالغة في الملابس والمأكّل... والعته أيضا: شبه البله في الإنسان من قولهم: عته الرجل فهو معتوه. " الإشتقاق. ص 208.

³ الأنعام / 6.

⁴ أبو فيد. مؤرّج بن عمرو السدوسي. كتاب الأمثال. تحقيق د/ رمضان عبد التّوّاب. دار النهضة العربية بيروت 1983. ص 53. 54.

- الرعلة فقد جاء في اللسان: " ... والرعلة جلدة من أذن الشاة والناقة تشق فتعلق في مؤخرها وتترك ناسئة، والصفة رعلاء."¹

- التعتة: حيث جاء في اللسان: التعتة " التجنن و الرعونة... الدهش."²

ظهر من هذا العمل أنّ المؤرّج كان يُعنى بالتفسير اللغوي للمثل قبل أي شيء آخر؛ ويتضح ذلك من المثل " أوشم البرق ". فبعد ذكره المثل تعرّض بالشرح لـ " الوشم"، فبيّن أنّ الوشم يقال للعنب الأسود إذا لان وهمّ أن يطيب، ولا يقال للعنب الأبيض أوشم ولكن أرق.³

وفي شرحه للمثل [كلمة سائرة] " التعتة " يستشهد بمثل سائر: " سري [سيري] على غير شجر فإني على غير متعتة له ".⁴

كلّ هذا يجعل من كتابه، على صغر حجمه وقلة أمثاله، أقرب إلى المعجم منه إلى كتاب الأمثال لأنّ شرح العبارة عنده مقدّم على ذكر المثل.

عبارات قالتها العرب في مناسبات معيّنة

هي العبارات التي سمعت عن العرب، قالوها في مناسبات خاصّة كالدعاء والتّحية والتّهنية. وهذا النوع كثير في كتب الأمثال. ومنه قولهم:

- " بالرّفاه و البنين".⁵

وهو دعاء للمرء بالرّاحة والتّعيم. جاء في الأساس: " رافه و مترّفه أي مستريح متنعم."⁶ وفي المثل كذلك دعاء بكثرة البنين دون البنات، لأنّ العربي أدري بنفسية أخيه العربي وبرغبته في الذكر دون الأنثى من الولد ، ولذلك عندما هنأه في موطن آخر قال له: " بالرّفاه والنّبات والبنين لا البنات ".⁷

¹ لسان العرب. مادة رعل. 03 / 1674.

² نفسه. مادة عته. 04 / 2803.

³ المؤرّج . الأمثال . ص55

⁴ المؤرّج . المصدر نفسه الصفحة نفسها.

⁵ الميداني . المجمع . 1/130.

⁶ الرّمحشري . الأساس. ص 243.

⁷ الميداني . السابق. الصفحة نفسها.

- " عقرا حلقا " 1.

يقال في الدّعاء على المرء، ويصوّر حالة الغضب الشّديد التي يكون عليها قائله عليها عندما يكتشف رغبة المرغوب فيه عنه. وقد دعا به رسول الله ﷺ على صفة عندما أراد الدخول بها فقيل له: " إنّها حائض. فظنّ أنّها قالت ذلك لتمنعه. ومعناه: أصابها الله بوجع في حلقها. كما يستعمل المثل " تعسا لليدين والقم " 2 في الموطن نفسه. الكنى التي كنى بها العرب عن حالات ومواقف

من المفيد في هذا المقام الإشارة إلى أنّ ولع العرب بالكناية معروف قديما وحديثا لأنها عندهم أبلغ في الدلالة ولا تخلو من إيماء، ويلجؤون إليها لأنها تغني عن كشف الشّيء والتّصريح به، ويستعملونها حين يعرضون عن ذكر المستقبح من الكلام ويكفون عنه بالحسن.

عقد الثّعالبي في كتابه " فقه اللّغة " فصلا خاصا لبعض الكنايات عمّا يستقبح ذكره بما يحسن لفظه وذكر فيه أمثلة من القرآن الكريم ومن السنّة ومن كلام البلغاء. فمن كنايات القرآن قوله تعالى: ﴿ فَأَتُوا حَرَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ كنى بالحرث عن الجماع. ومن كنايات الرّسول ﷺ قوله لحادي الإبل عليها نساؤه: " رفقا بالقوارير. " فكنى عن الحرم بالقوارير. ومن الكناية في كلام البلغاء قولهم: " به حاجة لا يقضيها غيره. " كناية عن الحدث. 3 وجاء في الأساس " أنّ العرب تسمّي الملدوغ سليما. " 4 وهو ، التفاؤل الذي يرجى به برءه.

وذكر ابن السكّيت " أنّ العرب يكتفون عن الحرب بثلاثة أشياء أحدها عطر منشم ثاني ثوب محارب والثالث برد فاخر. " 5 وكانوا يكتفون عن الصّدى بـ " بنت الجبل " وعن الشّدّة والشرّ بـ " بنت برح " ، وسنفضّل الحديث عنها في الباب الثالث. الأقوال التي استعملها علماء اللّغة في توثيق اللّغة

1 نفسه. 43/2.

2 نفسه. 168/1.

3 الثّعالبي. أبو منصور عبد الملك بن محمد. فقه اللّغة. مصر. المكتبة التجاريّة. 1938. ص 598.

4 الرّمحشيري . الأساس . ص 306.

5 الميداني المجمع 1/ 469.

المراد بهذا الضرب أقوال الفصحاء التي اعتمدها علماء العربية في توثيق معاني الكلمات في المعاجم أو التي استعملوها في تقعيد القواعد. وهي ضربان:

أ - ضرب على مستوى عال من الفصاحة: وقد جاءت هاته الأقوال في ثنايا خطب الفصحاء أو أثناء وصف الأعراب للأشياء. وتدرج في هذا الباب أقوال الأحنف، وابن الزبير وزياد ومعوية وغيرهم. وسنفصل الحديث في دراستنا للجانب اللغوي للمثل.

ب - أقوال من كلامهم العام: وقد وصفها علماء اللغة بقولهم: " في كلام بعضهم " و " من قولهم " ونظائرهما، بل كانوا يستعملونها والمثل تحت قول واحد " جاء منه شيء في الكلام قالوا... / حكي من كلامهم ... " ¹

المبحث الثالث معنى ضرب المثل في اللغة ومن حيث وروده في القرآن
التركيب اللغوي " ضرب " وصلته بالأمثال

استعمل التركيب اللغوي " ضرب " في معاجم اللغة بدلالات مختلفة منها ما جاء في لسان العرب " وضرب الله مثلا أي وصف وبيّن، وقولهم: ضرب له المثل بكذا، إنّما معناه بيّن له ضربا من الأمثال، أي صنفا منها. وقد تكرر في الحديث ضرب الأمثال، وهو اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به " ²

وجاء في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده " وقولهم: ضربت له المثل بكذا. إنّما معناه بيّنت له ضربا من الأمثال، أي صنفا منها " ³

وجاء في تاج العروس ⁴ " ومعنى قوله عزّ وجلّ (واضرب لهم مثلا) ⁵ أي انكر لهم ومثّل لهم. يقال عندي من هذا الضرب شيء كثير أي من هذا المثال، وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال. قال ابن عرفة: ضرب الأمثال: اعتبار الشيء بغيره، قال

¹ ابن عصفور. ضرائر الشعر. ص152/155.

² لسان العرب. مادة ضرب. 4 / 2569

³ المحكم لابن سيده. 8 / 191.

⁴ الزبيدي. 3 / 242. 243.

⁵ الكهف / 32.

شيخنا وفي شرح نظم الفصيح: ضرب المثل: إيراده ليتمثل به ويتصور ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب. يقال: ضرب الشيء مثلا، وضرب به. وتمثله وتمثل به. ثم قال: وهذا معنى قول بعضهم: ضرب المثل: اعتبار الشيء بالشيء وتمثيله به. وقوله تعالى: (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية)¹ قال أبو إسحاق: معناه اذكر لهم مثلا.

وهذه الأشياء على هذا الضرب أي على هذا المثال، فمعنى اضرب لهم مثلا: مثل لهم مثلا ... وفي الكشف: ضرب المثل: اعتباره وصنعه. وقال الراغب: الضرب: إيقاع شيء على شيء. قلت: وقيد بعضهم بأنه إيقاع بشدة، وبتصور اختلاف الضرب خولف بين تفاسيره. وقال شيخنا: ويرد ضرب بمعنى: وصف، وبين، وجعل، وضرب له وقتا: عينه، وضرب إليه: مال، وضرب مثلا: ذكره. وعبارة الجوهري: ضرب الله مثلا أي وصف وبين.

وتوسّع الراغب الاصفهاني في مفرداته في ذكر دلالة هذه الكلمة فقال: " الضرب: إيقاع شيء على شيء، ولتصور اختلاف الضرب خولف بين تفاسيرها، كضرب الشيء باليد، والعصا والسيف ونحوها... وضرب المثل هو من ضرب الدراهم، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره قال تعالى: (ضرب الله مثلا.)² (واضرب لهم مثلا.)³ (ضرب لكم مثلا من أنفسكم.)⁴ (ولقد ضربنا للناس.)⁵ (ولما ضرب ابن مريم مثلا.)⁶ (ما ضربوه لك إلا جدلا.)⁷ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا.)⁸ (أفنضرب عنكم الذكر صفحا.)⁹ " ¹⁰

من دلالات التركيب اللغوي ضرب في القرآن

1 يس / من الآية 12.

2 الزمر / 28.

3 الكهف / 32.

4 الروم / 27.

5 الروم / 57.

6 الزخرف / 57.

7 الزخرف / 58.

8 الكهف / 44.

9 الزخرف / 05.

10 الاصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن. ص 505. 506

وجاء الضرب في القرآن الكريم مضافا إلى جملة من الألفاظ منها قوله تعالى:

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.)¹

(ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة.)²

(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيّنوا.)³

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان.)⁴

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال.)⁵

(ولقد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم في البحر طريقا يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى.)⁶

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن.)⁷

(أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين.)⁸

1 البقرة / من الآية 60.

2 آل عمران / من الآية 112.

3 النساء / من الآية 93. ومثلها الآية 100.

4 الأنفال / 12. ومثلها الآية 51.

5 الرعد / 19.

6 طه / 76.

7 النور / من الآية 31.

8 الزخرف / 04.

(فـضـرـب بـيـنـهـم بـسـور لـه بـاب بـاطـنـه فـيـه الرـحـمـة وـظـاهـره مـن قـبلـه العـذـاب)¹

كـمـا وـرد الـضـرـب فـي الـقـرآن بـدلالـات مـخـتـلـفـة ذـكـرتـها كـتـب الـتـفـسـيـر وـمـعـاـجـم الـلـغـة، نـذـكـر مـنـها قـولـه تـعـالـى:

﴿ إذا ضربتم في سبيل الله فتيّنوا ﴾² قال القرطبي: الضرب السير في الأرض.³

﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾⁴ قال الزمخشري: الضرب

الضرب في الأرض هو السفر.⁵

﴿ فـضـرـبنا عـلى آذـانـهـم فـي الكـهـف سـنـين عـددا ﴾⁶ قال الزجاج: منعناهم السمع أن يسمعوا،

والمعنى أنماهم ومنعناهم أن يسمعوا.⁷

﴿ أفـنـضـرـب عـنـكـم الذـكـر صـفـحا أن كـنـتـم قـوما مـسـرفـين ﴾⁸ قال الضحّاك في تفسير معناها:

أفـنـضـرـب عـنـكـم العـذـاب و لا نـعـاقـبـكـم عـلى إـسـرافـكـم و كـفـركـم ؟⁹

﴿ و ليـضـرـبـن بـخـمـرـهـنّ عـلى جـيـوبـهـنّ ﴾¹⁰ جـاء فـي تـفـسـيـر الكـشـف و البـيـان للـثـعـلـبـي: ﴿ و ليـضـرـبـن (

و ليـلـقـين .¹¹

﴿ و ضـرـبـت عـلـيـهـم الذلّة و المسكنة ﴾¹² و في تـفـسـيـر الثـعـلـبـي ﴿ و ضـرـبـت (جـعـلت .¹³

¹ الحديد / من الآية 13.

² النساء / 94.

³ القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. 07 / 45.

⁴ النساء / 101.

⁵ الكشاف / 2 / 140.

⁶ الكهف / 11.

⁷ لسان العرب / 4 / 2569.

⁸ الزخرف / 5.

⁹ القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. 19 / 07.

¹⁰ النور / 31.

¹¹ الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق. الكشاف والبيان. تح أبو محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي. لبنان. ط 01.

2002. 7 / 87.

¹² البقرة / 61.

¹³ الثعلبي. الكشاف والبيان. 1 / 206.

والمعاني التي ذكرت لدلالة الضرب في القرآن كثيرة، كما سبق أن ذكرت، وقد أحصى منها أحد الباحثين ما يزيد على عشرة معان، ومنها: " التبيين، التمثيل، الجعل، الوصف، الذكر، الوضع، الاعتمال، الاتخاذ، الإيراد..."¹

كما ذكر هذا التركيب اللغوي مقترنا بالمثل في آيات قرآنية كثيرة وبمعان مختلفة ذكرها المفسرون، منها قوله تعالى:

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال.﴾²

(تُوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)³

(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.)⁴

(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فآبى أكثر الناس إلا كفورا.)⁵

(ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا.)⁶

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبینات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين.)⁷

(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا.)⁸

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.)⁹

¹ الفياض: محمد جابر. الأمثال في القرآن الكريم. الدر العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. ط 02. 1993. ص 67.

² الرعد / 19.

³ إبراهيم / 27. ومثلها الآية 47 من الآية نفسها.

⁴ النحل / 60.

⁵ الإسراء / 89.

⁶ الكهف / 53.

⁷ النور . 34. وانظر الآية 35 من السورة نفسها.

⁸ الفرقان . 33.

⁹ العنكبوت / 43.

(وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز

الحكيم.)¹

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون.)²

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس

أمثالهم.)³

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس

لعلمهم يتفكرون.)⁴

وخلاصة القول في هذا المقام؛ هو أن العلماء اختلفوا في تفسير لفظ الضرب، فبعد

اتفاقهم على أنه في اللغة بمعنى " إيقاع شيء على شيء... كضرب الشيء باليد،

وبالعصا، والسيف " ⁵ قال تعالى: ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ.﴾⁶ ذكروا له وجوها أخرى

مرجعها إلى أربعة معان:

الأول: إن الضرب في هذه الموارد بمعنى المثل، والمراد هو التمثيل. قال

الزمخشري في الأساس: " ... ومنه قولهم: هو ضربه وخريبه. أي مثله." ⁷ ومنه قوله

تعالى: ﴿ واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾. ⁸ أي مثل لهم مثلا وهو حال

أصحاب القرية. ⁹ وقال تعالى: ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾. ¹⁰ أي يمثل الله الحق والباطل.

¹ الروم / 26. ومثلها الآية 57 من السورة نفسها 57.

² الزمر / 26.

³ محمد / 03.

⁴ الحشر / 21.

⁵ الراغب. المفردات. ص 505.

⁶ الأعراف / 60.

⁷ الزمخشري. الأساس. ص 373.

⁸ يس / 13.

⁹ البغوي. التفسير. ص 1076.

¹⁰ الرعد / 17.

الثاني: إنّ الضرب بمعنى الوصف والبيان، كما في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ

مَثَلًا 1. أي وصف وبيّن. 2 قال ابن جرير: " وأما معنى قوله أن يضرب مثلا فهو أن يبيّن
بيّن و يصف. كما قال جلّ ثناؤه: ضرب لكم مثلا من أنفسكم بمعنى وصف لكم. وكما
قال الكميّ:

وذلك ضرب أخماس أريدت لأسداس عسى أن لا تكونا

بمعنى وصف أخماس " 3.

الثالث: إنّ الضرب بمعنى الاعتماد والتثبيت. قال النيسابوري: " وضرب المثل

اعتماده وصنعه من ضرب اللبن، وضرب الخاتم. وفي الحديث ضرب رسول الله ﷺ
خاتما من ذهب " 4.

الرابع: إنّ الضرب في المقام من باب الضرب في الأرض وقطع المسير، وضرب
المثل عبارة عن جعله سائرا في البلاد كقولك: ضرب الرجل في الأرض إذا خرج يطلب
الرزق⁵ ومنه سُمّي الضارب مضاربا. فإذا كان الضرب بمعنى قطع الأرض وطّيها،
فضرب المثل عبارة عن جعله شيئا سائرا بين الأقسام والشعوب يمشى ويسير حتى
تستوعبه العقول. ومعلوم أنّ الله ضرب لعباده الأمثال وضربها الرسول ﷺ لأُمَّته،
وضربها الحكماء والعلماء والمؤدّبون لعامة الناس. ما معنى ضرب المثل؟ قد يكون
الضرب مشتقا من قولك " ضرب في الأرض " أي سار فيها. فمعنى ضرب المثل جعله
ينتشر ويذيع ويسير في البلاد.

وقد يكون معنى " ضرب المثل " نصبه للناس بإشهاره لتستدلّ عليه خواطرهم كما
تستدلّ عيونهم على الأشياء المنصوبة. واشتقاقه حينئذ من قولهم: " ضربت الخباء " إذا

¹ إبراهيم / 24

² الجوهري. الصحاح 1 / 168.

³ الطبري. التفسير. 139/1.

⁴ النيسابوري. التفسير. 179 / 1.

⁵ ابن قتيبة. أدب الكاتب ص341.

نصبته. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾¹ أي ينصب منارهما ويوضح

أعلامهما ليعرف المكثفون الحق بعلاماته فيقصدوه، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه. وقد يفهم من ضرب المثل صنعه وإنشاؤه، فيكون مشتقاً من ضرب اللبّن وضرب الخاتم. أو قد يكون الضرب بمعنى: إبقاء شيء على شيء. ومنه ضرب لدراهم: أي إيقاع النموذج الذي به الصكّ على الدراهم لتنتبّع به، فكأنّ المثل مطابق للحالة، أي للصفة التي جاء لإيضاحها.

من دلالات التركيب اللغوي ضرب في الحديث

أمّا عن ذكر هذا التركيب اللغوي في الحديث الشريف فقد ورد في مواضع كثيرة وبدلالات مختلفة، توسّع علماء غريب الحديث، بوجه خاصّ، في جمعها وتبيين معانيها، ويأتي كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري وكتاب المجموع المغيبي في غريب القرآن والحديث² في صدارة هذه الكتب، وباطلاعي على الكثير من هذه الكتب رأيت أنّ ما ذكره ابن الأثير هو أشمل ما ذكر في هذا الباب، ولذلك فمن المفيد، في تقديري، ذكر ما ورد في كتابه، إذ فيه الكثير من الإضافات على المعاني التي وردت في القرآن، والتي جاء بها الرسول ﷺ لكونه الحديث الشريف تفسير وتبيين لما جاء في الذكر الحكيم، وأضيف بعض الشروح التي وجدتها في كتب غريب اللغة ولم تذكرها كتب غريب الحديث، قال ابن الأثير: " قد تكرّر في الحديث " ضرب الأمثال " وهو اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به. والضرب المثل.

وفي صفة موسى ﷺ " أنه ضرب من الرجال " هو الخفيف اللحم الممشوق المستنق. [قال أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي القرطبي في كتابه كتاب المسلسل في غريب لغة العرب: " القصد من الرجال: الضرب، والضرب السحل، والسحل: الصبّ، والصبّ المشتاق."³]

¹ الرعد /17

² المديني الاصفهاني: محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى. المجموع المغيبي في غريب القرآن والحديث. تح عبد الكريم العزباوي. جامعة أم القرى.

مكة المكرمة. ط 1988. 01. 318. 316 / 2.

³ التميمي: محمد بن يوسف بن عبد الله، أبو الطاهر. المسلسل في غريب لغة العرب. تح محمد عبد الجواد. وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

الإقليم الجنوبي. د ت. ص 67.

وفي رواية " فإذا رجل مضطرب، رجل الرأس " هو مفتعل من الضرب، والطاء بدل من تاء الافتعال. [وجاء في كتاب المنتخب من كلام العرب لكراع النمل: " يقال للرأس: الضرب لكثرة اضطرابه."¹]

ومنه في صفة الدجال " طوال ضرب من الرجال." وفيه " لا تضرب أكباد الإبل إلا إلى ثلاثة مساجد " أي لا تتركب ولا يسار عليها. يقال: ضربت في الأرض، إذا سافرت.

ومنه حديث علي " إذا كان كذا ضرب يعسوب الدين بذيبه " أي أسرع الذهاب في الأرض فرارا من الفتن.

ومنه حديث الزهري " لا تصلح مضاربة من طعمته حرام " المضاربة أن تعطي مالا لغيرك يتجر فيه فيكون له سهم معلوم من الربح، وهي مفاعلة من الضرب في الأرض والسبر فيها للتجارة.

وفي حديث المغيرة " أن النبي ﷺ انطلق حتى توارى عني ف ضرب في الخلاء ثم جاء." يقال ذهب يضرب الغائط، والخلاء، والأرض، إذا ذهب لقضاء الحاجة.

ومنه الحديث " لا يذهب الرجلان يضربان الغائط يتحدثان." وفيه " أنه نهى عن ضراب الجمل " وهو نزوه على الأنثى. والمراد بالنهي ما يؤخذ عليه من الأجرة، لا عن نفس الضراب. وتقديره: نهى عن ثمن ضراب الجمل، كنهيه عن عسب الفحل؛ أي عن ثمنه. يقال: ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها، وأضرب فلان ناقته؛ أي أنزى الفحل عليها.

ومنه الحديث الآخر " ضراب الفحل من السحت " أي أنه حرام، وهذا عام في كلّ فحل. وفي حديث الحجاج " كم ضريبتك؟ " الضريبة: ما يؤدى العبد إلى سيده من الخراج المقرّر عليه، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، وتجمع على ضرائب.

ومنه حديث الإمام " اللاتي كان عليهنّ لمواليهنّ ضرائب " وقد تكرّر ذكرها في الحديث مفردا ومجموعا.

¹ كراع النمل: علي بن الحسن النهائي، أبو الحسن. المنتخب من كلام العرب. تح د محمد بن أحمد العمري. جامعة أم القرى. ط 01.

وفيه " أنه نهى عن ضربة الغائص " هو أن يقول الغائص في البحر للتاجر: أغوص غوصة، فما أخرجته فهو لك بكذا، نهى عنه لأنه غرر.

وفيه " ذاك الله في الغافلين كالشجرة الخضراء وسط الشجر تحات من الضريب. " هو الجليد.

وفيه " إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام بحسن ضريبته " أي طبيعته وسجيته.

وفيه " أنه اضطرب خاتما من ذهب " أي أمر أن يضرب له ويصاغ، وهو افتعل من الضرب: الصياغة، والطاء بدل من التاء.

ومنه الحديث " يضطرب بناء في المسجد " أي ينصبه ويقيمه على أوتاد مضروبة في الأرض.

وفيه " حتى ضرب الناس بعطن " أي رويت إبلهم حتى بركت وأقامت مكانها.

وفيه " ف ضرب على آذانهم " هو كناية عن النوم، ومعناه حجب الصوت والحس أن يلجا آذانهم فينتبهوا، فكأنها ضرب عليها حجاب.

ومنه حديث أبي ذر " ضرب على أصمختهم فما يطوف بالبيت أحد "

وفي حديث ابن عمر " فأردت أن أضرب على يده " أي أعقد معه البيع، لأن من عادة المتبايعين أن يضع أحدهما يده في يد الآخر عند التبايع.

وفيه " الصداع ضربان في الصدغين " ضرب العرق ضربانا وضربا إذا تحرك بقوة.

وفيه " ف ضرب الدهر من ضربانه " ويروى " من ضربه " أي مر من مروره وذهب بعضه.

وفي حديث عائشة " عتبوا على عثمان ضربة السوط والعصا " أي كان من قبله يضرب في العقوبات بالدرّة والنعل، فخالفهم.

وفي حديث ابن عبد العزيز " إذا ذهب هذا وضرباؤه " هم الأمثال والنظراء، واحدهم: ضريب.

وفي حديث الحجاج " لأجزرتك جزر الضرب " هو بفتح الراء؛ العسل الأبيض الغليظ. ويروى بالصاد، وهو العسل الأحمر.¹

¹ ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر. 81. 78.

وقال أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي القرطبي [538 هـ] في كتابه " كتاب المسلسل في غريب لغة العرب: " والضرب: المطر الضعيف."¹ وجاء في كتاب المنتخب من كلام العرب لكراع النمل: " والديمة: مطر يدوم مع سكون، والضرب فوق ذلك قليلا."² وجاء في غريب الحديث للحربي: " والضرب: الجليد."³ وجاء في المنتخب من كلام العرب: " فإن كان بعض اللبن على بعض فهو الضرب ولا يكون ضربيا حتى يكون من عدة من الإبل فمنه الرقيق والخائر، فإن كان قد حقن أياما حتى اشتد حمضه فهو الضرب والضرب."⁴ ونقل كراع النمل عن هشام بن السائب الكلبى أنّ " سهام الميسر أحد عشر سهما ... والثالث الضرب."⁵

أ: يمكن القول بأنّ " ضرب المثل " تعبير شائع الاستعمال، مبني على المجاز في أصل الكلام، ولكنه لما شاع ساوى الحقيقة، قال الشهاب في عناية القاضي وكفاية الرّاضي: " وهو مجاز متفرّع على مجاز آخر ملحق بالحقيقة لاشتهاره أو هو حقيقة عرفية."⁶ وقال محي الدين زاده في حاشيته على تفسير البيضاوي: " والضرب في أصل اللغة استعمال آلة الضرب، وإيقاعه على المضروب ثم استعمال في صيغ هذه الأشياء بحيث صار كأنه حقيقة فيه استعير منه لصيغ المثل وتكوينه لاشتراكهما في معنى الصيغ والتكوين، وإن الصيغ في أحدهما باستعمال آلة الضرب لا في الآخر."⁷ سيرورة المثل

¹ التميمي: محمد بن يوسف بن عبد الله، أبو الطاهر. المسلسل في غريب لغة العرب. ص 189.

² كراع النمل. المنتخب. 443 / 2.

³ الحربي: إبراهيم بن إسحاق، أبو إسحاق. غريب الحديث. د سليمان بن إبراهيم بن محمد العابد. دار المدني. جدة. ط 01. 1985. 600 / 2.

⁴ كراع النمل. المنتخب. 383 / 1.

⁵ نفسه 762 / 2.

⁶ الشهاب. عناية القاضي وكفاية الرّاضي على تفسير البيضاوي. دار صادر. بيروت. 88 / 2.

⁷ القوجوي: محي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى، المعروف بشيخ زاده. حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي. تح محمد عبد القادر شاهين. دار الكتب العلمية. لبنان. ط 01. 1999. 445 / 1.

بالإضافة إلى الضرب فإنه يقترن بالمثل تركيب لغوي آخر هو السيرورة، فنقول مثل سائر. وإذا كان هذا التركيب لم يقترن بالمثل في القرآن الكريم، فاقتترانه به قد ورد في الكثير من معاجم اللغة وكتب الأدب ومجامع الأمثال، ولذلك فمن المفيد التطرق له. جاء في تهذيب اللغة " ويقال هذا مثل ساير، وقد سِير فلان أمثالا سائرة في الناس ... فإن أهل اللغة اتفقوا على أنّ سائر في أمثال هذا الموضع بمعنى الباقي.¹ وجاء في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده " وأرسل الشيء: أطلقه وأهمله.² وسار الكلام والمثل في الناس: شاع.³ وفي اللسان " وسار الكلام والمثل في الناس: شاع. ويقال ويقال هذا مثل سائر، وقد سِير فلان أمثالا سائرة في الناس.⁴ وفي تعريفه للمثل ذكر الرازي أنّ " المثل؛ تشبيه سائر، وتفسير السائر أنه يكثر استعماله على معنى أنّ الثاني بمنزلة الأول، والأمثال لا تغير، لأنّ ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعيّنة أنّها بمنزلة من قيل هذا القول، فالأمثال كلّها حكايات لا تغير.⁵ وجاء في حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي " والسائر هو الفاشي المشهور الدائر بين الناس، ولا يكفي فشوه في تسميته مثلا بل لابدّ مع فشوه من أن يكون مستعملا على سبيل الاستعارة التمثيلية في حال شبهه بما ورد فيه أو لا تشبيها تمثليا.⁶ ومثله في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي⁷ " المراد بالسائر الشائع المشهور على الألسنة وهو مجاز مشهور فيه صار كالحقيقة وحقيقته قطع المسافة، فشبه تداول الألسنة بتنقل الأمكنة، وقد أفصح عن هذا المعنى القائل في صفة تنقله في البلدان وعدم استقراره في الأوطان:

لا أستقرّ بأرض قد نزلت بها كأني بكر معنى سار في مثل "

¹ التهذيب . 13 / 47.

² المحكم. 8 / 474.

³ المحكم. 8 / 573.

⁴ ابن منظور. اللسان. مادة سير. 4 / 2170.

⁵ الرازي. نهاية الإيجاز. ص 132.

⁶ حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي. 1 / 311.

⁷ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي. 1 / 363.

أما البغوي فقال في تفسير قوله تعالى: ¹ ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ (مثلهم) شبههم، وقيل: صفتهم، والمثل قول سائر في عرف الناس يعرف به معنى الشيء، وهو أحد أقسام القرآن السبعة.²

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ البقرة 17

² البغوي. معالم التنزيل المعروف بتفسير البغوي. ص 19.

الفصل
الثاني
الأمثال في
القرآن
الكريم

جامعة الأمير
العلماء
الإسلامية

توطئة

صقل القرآن الكريم الذوق العربي فانصرف الناس إلى دراسته، وانشغلوا بأمثاله عن غيره من الأمثال، وفقد الشعر والنثر بريقهما وأخليا له وللسنة النبوية المجال، فظهر نوع جديد من التعبير غير ألفوف عندهم هو القرآن الكريم. قال الدكتور شوقي ضيف في بيان ما حدث: "ينبغي أن نعرف أن الأمثال لم يعد لها منذ ظهور الإسلام خطورتها، النثر العربي، فقد تغيرت الحياة العربية من قواعدها، ولم تعد تحتكرها الأمثال، إذ أخذ العرب يشغلون عنها بتلاوة القرآن ورواية الحديث، واتخذوا منها عبرتهم وموعظتهم، وحتى الشعر كفت كثير من شعرائهم عن نظمه."¹

ويتبين للمطلع على أمثال القرآن أنها من أعظم وأهم علومه، هذه العلوم التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن القرآن نزل على خمسة أوجه؛ حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال."²

¹ ضيف: شوقي. الفن و مذاهبه في النثر العربي ص 51

² الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 1 / 486. والإتقان للسيوطي. 2 / 131. ونص الحديث في شعب الإيمان للبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: "أعربوا القرآن وآتبعوا غرائبه، وغرائبه: فرائضه وحدوده، فإن القرآن نزل على خمسة أوجه؛ حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال؛ فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، وآتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال." 03 / 548 حديث رقم 2095. ذكر الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها على الأمة 03 / 523 حديث رقم 1346 ولم يشر إلى وروده في الشعب، وقال عنه: "ضعيف جداً. رواه ابن جرير المعدل في الفوائد العوالي (1 / 28 / 1) والثقفى في الثقفيات (ج 9 رقم 14) نسختي عن معارك بن عباد: حدثني عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري: حدثني أبي عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً. ومن هذا الوجه رواه الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في جزء له بخطه (ق 2 / 43) وسكت عليه، وهو ضعيف جداً كما تقدم في الذي قبله، لكن الراوي عنه هنا معارك. بضم الميم. ضعيف أيضاً كما قال الدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث. لكن قال الحافظ ابن ناصر: له شاهد عن عبد الله بن مسعود. ثم ذكره مرفوعاً بلفظ: كان الكتاب الأول ينزل... فذكره بنحوه، لكن ليس فيه طرفه الأول إلى قوله: وحدوده، وهو من نصيب الكتاب الآخر (589) والحمد لله تعالى." قلت: وقد ذكر الحديث بألفاظ قريبة وطرق أخرى في كنز العمال عزاها الهندي إلى الديلمي؛ عن أبي هريرة 01 / 529. حديث رقم 2369. وأبي سعيد 01 / 529. حديث رقم 2370. وهي طرق ترجح، في تقديري، قيمة هذا الحديث، يضاف إليها ما أخرجه الحاكم في المستدرک 01 / 751 حديث رقم 2083 وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زاجراً وأمراً، وحلالاً وحراماً، ومحكماً ومنشأماً، وأمثالاً

والآيات التي جاء فيها التصريح باستعمال المثل كوسيلة من وسائل الإيضاح لتبليغ قواعد الإيمان وأحكام الشريعة كثيرة ومنها قوله تعالى:1

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أوديةً بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال.2

(تُوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)³

(وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال.4

(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.5

(ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً.6

(ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً.7

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبینات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين.8

وقد اتبع المسلمون هذا المنهج، كيف لا، وقد قال الله تعالى: (وتلك الأمثال نضربها

للناس وما يعقلها إلا العالمون.9

فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه، فافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بحكمه وأمنوا بنشأته وقلوا آمناً به كل من عند ربنا. "

¹ بالإضافة إلى هذه الآيات يمكن الرجوع إلى الآيات التالية: النور / 35. الفرقان / 33. العنكبوت / 43. الروم / 26 و 57.

الزمر / 26. الحشر / 21.

² الرعد / 19.

³ إبراهيم / 27.

⁴ إبراهيم / 47.

⁵ النحل / 60.

⁶ الإسراء / 89.

⁷ الكهف / 53.

⁸ النور . 34.

⁹ العنكبوت / 43.

وقال تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله وتلك الأمثال

نضربها للناس لعلّهم يتفكرون.)¹

وفي حديث الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زاجرا وأمرا وحلالا وحراما ومحكما ومتشابهها وأمثالا، فأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عمّا نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: أمثا به كلّ من عند ربّنا."² وإذا كان هذا هو شأن الأمثال، فجدير بالمسلم العادي، فضلا عن المتخصص، أن يعلمها ويعقلها.

كما تعتبر الأمثال في القرآن الكريم من تصريف الآيات الذي ورد في قوله تعالى: (انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون.)³ وفي قوله: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبى أكثر الناس إلاّ كفورا.)⁴

ويشمل تصريف الآيات تنويع الحجج والبراهين على القضية الواحدة، فيؤتى لها بأكثر من دليل وبرهان، ثمّ تتابع الحجج وتضرب لهم الأمثال والعبر. كما يشمل تصريفها تنويع الأساليب، فيؤتى بالدليل الواحد بأكثر من أسلوب؛ فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحيانا بضرب الأمثال أو القصص، ونحوها. وكلّ ذلك ممّا جاءت به أمثال القرآن.

فالأمثال جزء من البيان الإلهي، تسهم في إبراز الحقائق الإيمانية من خلال أسلوبها المتميّز الفعّال في تشخيص الحقائق، والإقناع، والفصل عند الاشتباه والخلاف. وخاصة الإيمان التي وقع فيها الخلاف؛ كالأصول التي يبنى عليها الإيمان بالله، وأسباب الهدى والضلال، وتوحيد الألوهية وما يضافه من الشرك، وحقيقة الأنبياء والأولياء وأن

¹ الحشر / 21.

² الحاكم: الحافظ أبي عبد الله. المستدرک علی الصحیحین. دار الحرمین للطباعة والنشر والتوزیع. ط 01. 1997. 1 / 751.

³ الأنعام / من الآية 47.

⁴ الإسراء / 89.

ليس لهم ولا فيهم من خصائص الألوهية شيء، وحال الدنيا وسرعة زوالها وسوء عاقبة الاغترار بها، ونحو ذلك من القضايا الهامة.

إنها مما ورد في القرآن لتفصيل الآيات كما في المثل الذي جاء لبيان حال الدنيا وما تؤول إليه، قال تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون.)¹

وقد أشاد الله سبحانه بالأمثال القرآنية وبيّن أنّ كلّ مثل مشتمل على ما يحتاجه الناس من الحقّ، وأنّ السبيل قد اّضح بتلك الأمثال، وما بقي على الناس سوى التفكّر فيها وتدبّر معانيها. قال تعالى: (ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً.)²

وقال: (تُؤتي أكلها كلّ حينٍ بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكّرون)³
وقال سبحانه: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون.)⁴

كما بيّن سبحانه أنّ الأمثال من حجّته البالغة على عباده. وأنّه لم يعدب أمة بتكذيبها إلا بعد أن ضرب لها الأمثال. قال تعالى: (وأنذر الناس يوم ياتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربّنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبّع الرّسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال. وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال.)⁵

¹ يونس / 24.

² الكهف / 53.

³ إبراهيم / 27.

⁴ الحشر / 21.

⁵ إبراهيم / 46 . 47.

ويبيّن سبحانه أنّ الأمثال المضروبة في القرآن من أسباب الهداية، وأنه يهدي بها كثيرا ممن تدبّرهما وانتفع بها، ويضلّ كثيرا ممن أعرض عنها. قال تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقّ من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضلّ به إلا الفاسقين.)¹

وبيّن أنّه ضرب للناس الأمثال التي يتعرّفون بها على الهدى والضلال، والخير والشرّ، وما آل إليه أهلها من العواقب الحميدة، أو النهايات السيئة الوخيمة. قال تعالى: (ذلك بأنّ الذين كفروا اتّبعوا الباطل وأنّ الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم.)²

وأعظم أمثال القرآن أهميّة، وأرفعها شأنًا ومنزلة الأمثال الإيمانيّة، التي تبين أركان الدين، وتبين أسس الدين، وتعرّف بالله ربّ العالمين، وبحقّه على عباده، وغير ذلك من المطالب الإيمانيّة.

ولذلك لا جرم أن كانت أكثر أمثال القرآن مضروبة للقضايا الكبيرة، والمطالب السامية، والمسائل الجليّة المتعلقة بأصول الدين، لذلك اختصّ أهل العلم بفهمها ودرايتها مصداقا لقوله تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون.)³

كمّا نبّه سبحانه على أنّ السبيل إلى إدراك كنه الأمثال المضروبة هو التفكير، قال تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون.)⁴

ويكون التفكير بإعمال أهل العلم عقولهم في صورة الممثل به، وفهم أجزائه، وما يقابلها من حال الممثل له، فيحصل بذلك فهمها، وإدراك كنهها، واستخلاص العبرة منها.

¹ البقرة / 25.

² محمد / 03.

³ العنكبوت / 43.

⁴ الحشر / 21.

فإنه عز وجل لم يضرب الأمثال في كتابه العزيز، بل في كل كتبه السماوية، إلا لما لهذه الأمثال من أثر بالغ في تفهيمهم وتعليمهم، فضربها لهم رحمة بهم، ليفهموا عنه مقاصد الكتاب. قال تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون.)¹

ويكشف عن المنزلة الرفيعة التي تحتلها الأمثال القرآنية كذلك ما يقوله في شأنها حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس، إذ جعلها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ورسوله والراسخون في العلم، فقد ذكر عنه الطبري في تفسير قوله تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب.)² قوله: " المحكمات؛ ناسخه، وحلاله وحرّامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به. والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به. " ³ ويجعل معرفتها في مقام آخر من الحكمة التي يؤتاها المسلم، فقد روى الطبري بسنده عن ابن عباس قال في قوله: (يوتي الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا.)⁴ يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرّامه، وأمثاله " ⁵.

فالأمثال باب عظيم من معارف القرآن الكريم، وقد نبّه على هذا الأمر الرعيل الأول من علماء هذه الأمة؛ فهذا عمر بن الخطاب يرعّب في معرفتها، ويأمر واليه على القياس عليها لاستنباط أحكام يستعصي أمرها على القاضي، وذلك في رسالته الشهيرة إلى أبي موسى الأشعري حين قال: " ... ثم اعرف الأشياء والأمثال فقس الأمور عند ذلك ... " ⁶

¹ الزمر / 26.

² آل عمران / 07.

³ تفسير الطبري. 3 / 115.

⁴ البقرة / 269.

⁵ تفسير الطبري. 3 / 60.

⁶ المبرد . الكامل في اللغة و الأدب . 1 / 09.

وفي قول الشافعي: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم العربية رقى طبعه، ومن لم يصب نفسه لم ينفعه عمله.¹

لقد زخر القرآن الكريم بالأمثال الموجزة والمطولة، وما تتميز به أمثاله عن الأمثال الأدبية العادية هو كونها مرسله من الله على غير مورد، أو حدث ترتبط به. وقد تعرض لها العلماء بالدراسة وألوهها عناية بالغة، وصنفوا فيها العديد من المؤلفات المستقلة، أو تعرضوا لها ضمن مؤلفاتهم الأدبية أو الدينية في أبواب خاصة بها.

لقد مرّ بنا في الباب الأول من هذا البحث أنّ الدلالة الأصليّة للفظ المثل هي النظير والمشابه، غير أنّ كثرة الدلالات التي استعملت له تجعل الحسم باختيار تعريف دون لآخر أمرا عسيرا، والمثل القرآني لا يخرج في مجمله عن الحدود التي وضعت للمثل الوضعي، لكنّه يختلف عنه في جملة من القضايا الرئيسيّة الخاصّة به باعتباره قرآنا موحى به من الله عزّ وجلّ، وهي القضايا التي سنستعرضها، بإذن الله في هذا البحث.

المبحث الأول: الاستعمال القرآني للمثل

أكثر القرآن الكريم من التمثيل لأنّ فيه سرّا لطيفا وحكمة عالية؛ إذ به يصير الوهم مغلوبا للعقل، والخيال مجبورا على الانقياد للفكر، وبه يتحوّل الغائب حاضرا، والمعقول محسوسا، والمعنى مجسّما، وبه يجعل المتفرّق مجموعا، والمختلط ممتزجا، والمختلف متّحدا، والمنقطع متصلا، والأعزل مسلحا.

وإذا كنّا نعرف أنّ المثل السائر في كلام العرب هو الكلام الذي ألقى في واقعة مناسبة اقتضت إلقاءه، ثمّ سار بين الناس وفشا في كلامهم، فتداولوه عبر الزمان في

¹ الماوردي: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب. كتاب أدب الدنيا والدين. المطبعة الأميرية. القاهرة. ط 16. 1925. ص 23.

الوقائع التي هي على غرارها، فإنّ صيغة المثل القرآني امتازت بأنّها لم تنقل عن حادثة معيّنة، أو واقعة متخيّلة، بل ابتدع المثل القرآني ابتداعاً، دون حذو احتذاه، وبلا مورد سبقه، فهو تعبير فني جديد ابتكره القرآن حتى عاد صبغة متقرّدة في الأداء والتركيب والإشارة.

وعلى هذا فالمثل في القرآن الكريم ليس من قبيل المثل الاصطلاحي الذي عرفه علماء اللغة والأدب، أو من جنس ما يعادله لفظاً ومعنى، بل هو ضرب جديد من الكلم لم تألفه العرب، أسماء القرآن مثلاً من قبل أن يعرف علماء العربيّة " المثل " أو يسمّوا به ضرباً معيّناً من الكلام. وإلى هذا المعنى أشار بعض المفسّرين، فقد جاء في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ما نصّه: " فالحاصل أنّه إنّما يشترط في المثل أن يكون كلاماً بليغاً شائعاً مشهور الحسنة أو لا لاشتماله على حكمة بالغة وأمّا ما ذكره فلا يلزم أنّ ما نحن فيه من أمثال القرآن أيضاً ليس داخلاً في تعريفهم لأنّ الله ابتدأها وليس لها مورد قبله "1.

لذلك فقد جاءت دلالة المثل في القرآن أكثر اتساعاً ممّا ذكرت في غيره من الكلام، فقد ذكر العلماء أنّ المثل القرآني ضرب من القياس، وهو استعمال انفرد به كما نتبيّنه فيما قالوا به.

وأول إشارة إلى أنّ ضرب المثل قياس هي تلك الموجودة في رسالة سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهيرة، والتي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد أبان فيها عن الصلّة الوثيقة التي تربط بين معرفة الأمثال والقياس وذلك حين قال: " ... ثم اعرف الأشياء والأمثال فقس الأمور عند ذلك ... "2

وعند ابن تيميّة فـ " المثل هو الشببيه وهو نوعان، لأنّ القضية المعيّنة إمّا أن تكون شبيهاً معيّناً أو عامّاً كليّاً، فإنّ القضايا الكلية التي تعلم وتقال هي مطابقة مماثلة لكلّ ما يندرج فيها، وهذا يسمّى قياساً في لغة السلف واصطلاح المنطقيين، وتمثيل الشيء

1 حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي. 1 / 364.

2 المراد . الكامل في اللغة و الأدب . 1 / 09.

المعيّن بشيء معيّن هو أيضا يسمّى قياسا في لغة السلف واصطلاح الفقهاء، وهو الذي يسمّى قياس التمثيل.¹

ومعنى هذا أنّ القياس يتضمّن المثل من حيث وضعه اللغوي، وأسلوبه الذي يقوم على التشبيه كما في الأمثال التمثيلية، أو أنه يستلزم القياس حيث لا يتمّ قصد المتكلم ولا اعتبار المخاطب إلا بإجراء القياس.

والمثل عنده هو الشبيه وهو نوعان؛² أحدها الأمثال المعينة، والثاني الأمثال الكلية؛ أمّا الأمثال المعينة فهي " التي يقاس فيها الفرع بأصل معيّن موجود أو مقدّر وهي في القرآن بضع وأربعون مثلا، كقوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا.)³ إلى آخره وقوله: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة.)⁴ وقوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل كمثل صفوان عليه تراب.)⁵ الآية (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتبئنا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين.)⁶ فإنّ التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم الذين يذكرهم من المنافقين، والمنفقين والمخلصين منهم والمرائين، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال هو من جنس قياس التمثيل، الذي يقال فيه مثل الذي يقتل بكودين القصار كمثل الذي يقتل بالسيف ومثل الهرة تقع في الزيت كمثل الفأرة تقع في السمّ ونحو ذلك، ومبناه على الجمع بينهما، والفرق في الصفات المعتمدة في الحكم المقصود إثباته أو نفيه ...

¹ ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، تقي الدين أبي العباس . مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المدينة المنورة. 2004. 54 / 14.

² ابن تيمية. التفسير الكبير. تح د عبد الرحمن عميرة. دار الكتب العلمية. بيروت. د ت. 18 / 03.

³ البقرة / من الآية 16.

⁴ البقرة / من الآية 260.

⁵ البقرة / من الآية 263.

⁶ البقرة / من الآية 264.

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع، كقوله: (أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبير).¹ إلى قوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون).² فإنّ هذا يحتاج إلى تفكّر، ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي أَرْضاه.

ونظير ذلك ذكر القصص؛ فإنّها كلّها أمثال هي أصول قياس واعتبار ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها، لأنّ كلّ إنسان له في حالة منها نصيب، فيقال فيها: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).³ ويقال عقب حكايتها: (فاعتبروا يا أولي الأبصار).⁴ ويقال: (قد كان لكم آية في فتنين التقتا).⁵ إلى قوله: (إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار).⁶

والأمثال الكلّية، يقول عنها ابن تيميّة: " وهذه التي أشكل تسميتها أمثالا، كما أشكل تسميتها قياسا، حتّى اعترض بعضهم قوله تعالى: (يا أيّها النّاس ضرب مثل فاستمعوا له).⁸ فقال: أين المثل المضروب؟ وكذلك إذا سمعوا قوله: (ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كل مثل).⁹ ييقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا وأربعين مثلاً.¹⁰

¹ البقرة / من الآية 265.

² البقرة / من الآية 265.

³ يوسف / من الآية 111.

⁴ الحشر / من الآية 02.

⁵ آل عمران / من الآية 13.

⁶ آل عمران / من الآية 13.

⁷ ابن تيميّة. التفسير الكبير. 03 / 21 - 22. بتصرف.

⁸ الحج / من الآية 71.

⁹ الروم / من الآية 57.

¹⁰ ابن تيميّة. التفسير الكبير. 03 / 22.

فهذه الأمثال استشكل تسميتها قياسا وأمثالا لخلوها من أسلوب التشبيه وكثرة حذف
القضييتين والنتيجة من هذه الأمثال، وهو ما يجعلها في حاجة إلى تدبر وتفكر أكثر.

ويرى ابن تيمية أنّ الأمثال جاءت بنوعين من القياس؛ القياس التمثيلي، والقياس
الشمولي، ويذكر أنّ هذا مذهب السلف، قال: " والصواب ما عليه السلف من اللغة
الموافقة لما في القرآن، كما سأذكره أنّ كلاهما قياس وتمثيل واعتبار، وهو في قياس
التمثيل ظاهر، وأمّا قياس التكليل والشمول فلائنه يقاس كلّ واحد من الأفراد بذلك المقياس
العامّ الثابت في العلم والقول، وهو الأصل، كما يقاس الواحد بالأصل الذي يشبهه،
فالأصل فيهما هو المثل والقياس ضرب المثل.¹"

أمّا قياس التمثيل فهو الحكم على شيء بما حكم به على غيره بناء على جامع مشترك
بينهما.² وهو النوع الذي وردت به الأمثال التي بمعنى المشابه والنظير، حيث يمثل فيه
الشيء المعين وهو الفرع، بنظيره المعين، وهو الأصل لتتحقق اشتراكهما في العلة
المؤثرة ثم إلحاق الفرع بحكم الأصل. فهو قياس يقوم على التشبيه حيث يدلّ على القياس
أسلوب المثل التشبيهي. ومن القياس التمثيلي " مثل المغتاب " في قوله تعالى: (يا أيها
الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب
أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم).³ وهذا من أحسن القياس
التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولمّا كان المغتاب يمزق عرض
أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولمّا كان
المغتاب عاجزا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمّه كان بمنزلة الميت الذي يقطع
لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولمّا كان مقتضى الأخوة التّراحم والتّواصل
والتناصر فعلق عليها المغتاب ضدّ مقتضاها من الدّم والعيب والطّعن كان ذلك نظير
تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذبّ عنه، ولمّا كان المغتاب ممّعا
بعرض أخيه متفكّها بغيبته وذمّه متحلّيا بذلك شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولمّا كان

¹ ابن تيمية. مجموع الفتاوى. 55 / 14.

² نفسه. 120 / 09.

³ الحجرات / 12.

المغتاب محبًا لذلك معجبا به شبّه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، ومحبتّه لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التّشبيه والتّمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمّل إخباره عنهم بکراهة أكل لحم الأخ ميتا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحبّ أحدهم ذلك، فكما أنّ هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبّون ما هو مثله ونظيره؟ فاحتجّ عليهم بما كرهوه على ما أحبّوه، وشبّه لهم ما يحبّونه بما هو أكره شيء إليهم، وهو أشدّ نفرة عنه؛ فهذا يوجب العقل والفترة والحكمة أن يكونوا أشدّ نفرة عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق.¹

وقياس الشمول هو " انتقال الدّهن من المعين إلى المعنى العام المشترك الكلّي المتناول له ولغيره، والحكم عليه بما يلزم المشترك الكلّي بأن ينتقل من ذلك الكلّي اللّازم إلى الملزوم الأوّل وهو المعين، فهو انتقال من خاصّ إلى عامّ، ثم انتقال من ذلك العام إلى الخاصّ، من جزئي إلى كليّ ثم من ذلك الكلّي إلى الجزئي الأوّل فيحكم عليه بذلك الكلّي".²

وإذا كان قياس التّمثيل يقوم على أسلوب التّشبيه، سواء أكان ذلك بأداة من أدواته أو بدونها، فقياس التّممول لا يكون بأسلوبه، بل بإبراز المعاني الكلّية المشتركة المقيدة بأوصاف معلومة لدى المخاطب يشترك فيها الأفراد، ولا يكتمل مراد المتكلم ولا فهم المخاطب إلا بمقايضة الفرع على المعاني الكلّية ثم إلحاقه بها في الأحكام.

وقياس التّمثيل أقوى في تحقيق المطلوب من قياس التّممول وأكثر استعمالا عند غالبية النّاس لأنّ مقايضة معلوم معين بمعلوم معين يسهل إدراك التّشابه أو الاختلاف بينهما وييسره، بينما إفادة الظنّ أو اليقين فلا علاقة بنوع القياس ولكن من المعطيات التي تجعل من القياس باطلا أو مفيدا للظنّ أو اليقين. قال ابن تيميّة: "... وأنهم يعظمون قياس التّممول ويستخفون بقياس التّمثيل ويزعمون أنّه إنّما يفيد الظنّ، وأنّ العلم لا يحصل إلا بذاك، وليس الأمر كذلك، بل هما في الحقيقة من جنس واحد، وقياس التّمثيل

¹ ابن القيم. إعلام الموقعين. 02 / 296 . 297.

² ابن تيميّة. مجموع الفتاوى. 09 / 119.

الصحيح أولى بإفادة المطلوب علما كان أو ظنا من مجرد قياس الشمول، ولهذا كان سائر العقلاء يستدلون بقياس التمثيل أكثر مما يستدلون بقياس الشمول، بل لا يصح قياس الشمول في الأمر العام إلا بتوسط قياس التمثيل، وكل ما يحتج به على صحة قياس الشمول في بعض الصور فإنه يحتج به على صحة قياس التمثيل في تلك الصورة.¹

وهناك نوع آخر وردت به بعض الأمثال القرآنية هو قياس الأولى هو القياس الذي كان السلف يسلكه اتباعا للقرآن الكريم وطريقة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، في استدلالهم على الخالق سبحانه وتعالى وأفعاله. قال ابن تيمية: " ولهذا كانت طريقة الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الربّ تعالى بذكر آياته، وإن استعملوا في ذلك " القياس " استعملوا قياس الأولى، لم يستعملوا قياس شمول تستوي أفراده، ولا قياس تمثيل محض، فإنّ الربّ تعالى لا مثيل له، ولا يجتمع هو وغيره تحت كليّ تستوي أفراده، بل ما ثبت لغيره من كمال لا نقص فيه، فثبوت له بطريق الأولى، وما تنزّه غيره عنه من النقص فتنزّهه عنه بطريق الأولى."²

وقد ورد هذا النوع في بعض الأمثال القرآنية كما في قوله تعالى: (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم).³ وقوله تعالى: (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون).⁴

قال ابن تيمية في دقائق التفسير: " وأما الاستدلال بطريق الأولى فكقوله: (والله المثل الأعلى).⁵ ومثل قوله: (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في

¹ ابن تيمية. مجموع الفتاوى. 203 / 09.

² ابن تيمية. مجموع الفتاوى. 141 / 09.

³ النحل / 60.

⁴ الروم / 27.

⁵ النحل / من الآية 60.

ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم.¹ وأمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث والمخلوق الممكن فهو للتقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل.²

ولم يبتعد ابن القيم كثيرا عن شيخه بل قرّر هو الآخر أن ضرب الأمثال في القرآن قياس، قال: " وضرب الأمثال، وصرّفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية ينبّه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به؛ وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم.

وقال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).³ فالقياس وضرب الأمثال من خاصّة العقل، وقد ركّز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما.⁴

وبعد تفصيل الحديث في المسائل المذكورة آنفا يقول ابن تيمية: " وهذا الذي ذكرناه جاء به القرآن هو ضرب الأمثال من جهة المعنى، وقد يعبر في اللغة عن ضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة؛ لكن لا يستفاد منه الدليل على الحكم كأمثال القرآن، وهو أن يكون الرجل قد قال كلمة منظومة أو منثورة لسبب اقتضاه فشاعت في الاستعمال، حتى يصار يعبر بها عن كل ما أشبه ذلك المعنى الأوّل، وإن اللفظ في الأصل غير موضوع لها، فكأنّ تلك الجملة المثليّة نقلت بالعرف من المعنى الخاص إلى العام كما تنتقل الألفاظ المفردة فهذا نقل في الجملة مثل قولهم: " يداك أوكتا وفوك نفخ " هو مواز لقولهم: " أنت جنيت هذا " لأنّ هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت جنائته بالإيكاد والنّفخ، ثم صار مثلا عاما، وكذلك قولهم: " الصيف ضيّعت اللبّن " مثل قولك: " فرطت وتركت الحزم، وتركت ما يحتاج إليه وقت القدرة

¹ الروم / من الآية 27.

² ابن تيمية. دقائق التفسير. تح محمد السيّد الجليلند. مؤسسة علوم القرآن. دمشق. ط 02. 1984. 05 / 217.

³ العنكبوت / 43.

⁴ ابن القيم. إعلام الموقعين. 02 / 248.

عليه حتى فات " وأصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص. وكذلك " عسى العويرا بؤسا "1 أي تخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن رديء ؟

فهذا نوع من البيان يدخل في اللغة والخطاب، فالمتكلم به حكمه حكم المبين بالعبارة الدالة، سواء كان المعنى في نفسه حقاً أو باطلاً، إذ قد يتمثل به في حق من ليس كذلك فهذا تطلبه في القرآن من جنس تطلب الألفاظ العرفية، فهو نظر في دلالة اللفظ على المعنى لا نظر في صحة المعنى ودلالته على الحكم، وليس هو المراد بقوله (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل.)² فتدبر هذا فإنه يجلو عنك شبهة لفظية ومعنوية.

وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجودة في القرآن منها أجناساً، وهي معلنة ببلاغة لفظه ونظمه وبراعة بيانه اللفظي، والذين يتكلمون في علم البيان وإعجاز القرآن يتكلمون في مثل هذا، ومن الناس من يكون أول ما يتكلم بالكلمة صارت مثلاً، ومنهم من لا تصير الكلمة مثلاً حتى يتمثل بها الضارب فيكون هذا أول من تمثل بها، كقوله ﷺ: " الآن حمي الوطيس " " مسعر حرب " ونحو ذلك، لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمّن معنى الإنكار هو نفي مضمّن دليل النفي، فلا يمكن مقابله بمنع، وذلك أنه لا ينفي باستفهام الإنكار إلا ما ظهر بيانه أو ادعى ظهور بيانه فيكون ضاربه إما كاملاً في استدلاله وقياسه وإما جاهلاً، كالذي قال: ﴿ من يحيي العظام وهي رميم. ﴾³ إذا تبين ذلك فالأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرّح فيه بتسميته مثلاً ومنها ما لا يسمّى بذلك (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً.)⁴

والذي يليه (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها.)⁵

(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق.)¹

¹ المثل عند أبي عبيد [شرح البكري] ص 424 والميداني 02 / 19 بلفظ : " عسى العويرا بؤسا. " وأظنّ أنّ الذي في تفسير ابن تيمية تصحيح، أو أنّ للمثل رواية أخرى.

² الروم / من الآية 57.

³ يس / من الآية 77.

⁴ البقرة / من الآية 16.

⁵ البقرة / من الآية 25.

(ولَمَّا يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)²

(مِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)³

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ)⁴ الْآيَةَ .

(وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ)⁵

وَالَّذِي بَعْدَهُ لَيْسَ فِيهِ لَفْظٌ مِثْلُ (كَدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ)⁶ فِي الثَّلَاثَةِ

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ)⁷

(مِثْلَ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)⁸

وَقَوْلُهُ: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ)⁹ ¹⁰ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

¹ البقرة / من الآية 170 .

² البقرة / من الآية 212 .

³ البقرة / من الآية 260 .

⁴ البقرة / من الآية 263 .

⁵ البقرة / من الآية 264 .

⁶ آل عمران من الآية 11 .

⁷ آل عمران / من الآية 13 .

⁸ آل عمران / من الآية 117 .

⁹ الأنعام / من الآية 47 .

¹⁰ ابن تيمية . التفسير الكبير . 03 / 27 . 29 .

المبحث الثاني: أحكام المثل القرآني.

- المثل والمثل في الاستعمال القرآني.

استعمل القرآن الكريم لفظي " المثل " و " المثل " في الكثير من السور والآيات القرآنية، والأمثال جمع لكليهما، ويميزان بالقرائن. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)¹ وقال جلّ من قائل: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)²

وجاء في كلام غير واحد من علماء الأدب واللغة أنّ المثل والمثل سيان، كالشبه مع ذلك نلاحظ أنّ القرآن الكريم ينفي المثل [بكسر الميم] لله حين يقول: (فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه لئس كمثله شيء وهو السميع البصير)³ ويثبت له، في مقام آخر، المثل [بفتح الميم] حين يقول: (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)⁴

وذكر الزركشي أنّ الزمخشري من القائلين بأنّ معناهما واحد، ولا فرق بينهما، قال: " المثل [بفتح الميم والثاء] في الأصل بمعنى المثل [بكسر الميم وسكون الثاء] أي التّظير. " ثم تعقب كلامه وردّ عليه⁵.

¹ الأعراف / 194

² الحشر / 21.

³ الشورى / 09.

⁴ النحل / 60.

⁵ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 01 / 490.

وأول محاولة، في تقديري، للتفريق بين اللفظين وجدتها عند الخليل بن أحمد كما في اللسان، قال ابن شميل: قال الخليل يقال هذا عبد الله مثلك وهذا رجل مثلك، لأتلك تقول أخوك الذي رأيتَه بالأمس، ولا يكون ذلك في مثل "1. وهو يشير بذلك إلى أنّ المماثلة تعقد بمثل [بكسر فسكون] ولا يمكن أن تعقد بمثل [بفتحين] إذ مثل [بالتحريك] لا يمكن أن يوضع موضع مثل [بكسر الميم] في المماثلة بين الأشياء المتشابهة.

ومن العلماء السبّاقين بالإشارة، كذلك، إلى أنّ ثمة فرق بين اللفظين؛ أبو بكر بن العربي في كتابه عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي حيث قال: "2 المثل بفتح الميم والمثل عبارة عن تشابه المعاني المعقولة والمثل بكسر الميم وإسكان الثاء عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة ويدخل أحدهما على الآخر، وقد أفضنا فيها في المشكلين وفي قانون التأويل ما يكفي لكلّ امرئ له قلب في ري الغليل "

ومعنى هذا أنّه يفرّق بينهما، فما كان مثل [بفتح الميم] فهو في المعقولات، وما كان مثل [بكسر الميم] فهو في المحسوسات، وهذا يقتضي ألاّ ناة بين نفي المثل لله واثبات المثل له؛ أمّا الأول، فهو عبارة عن وجود فرد لواجب الوجود يشاركه في الماهية، ويخالفه في الخصوصيات، فهذا أمر محال ممتنع في حقّه. وأمّا المثل فهو صفات محمودة يُعرف بها الله سبحانه كأسمائه الحسنی، وعلى هذا، المثل في هذه الآية وما يشابهها بمعنى ما يوصف به الشيء ويعبّر به عنه، من صفات وخصوصيات.

ولعلّ هذا المعنى هو ما أراده الإمام فخر الدين الرازي حين فرّق بينهما بأنّ المثل [كسر الميم وسكون الثاء] هو الذي يكون مساويا للشيء في تمام الماهية، والمثل [بفتح الميم والثاء] هو الذي يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية. قال عند تفسير قوله تعالى: (فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير.)³ هذه الآية دالة على نفي المثل وقوله تعالى " وله المثل الأعلى " يقتضي إثبات المثل فلا بدّ من الفرق بينهما، فنقول المثل هو الذي

¹ لسان العرب. 6 / 4134.

² ابن العربي: أبو بكر المالكي. عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي. دار الكتب العلمية. بيروت. بدون تاريخ. 10 / 296، 297.

³ الشورى / 09.

يكون مساويا للشيء في تمام الماهية والمثل هو الذي يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفا في تمام الماهية.¹

وفرّق بينهما العسكري في الفروق بالقول: " الفرق بين المثل والمثل؛ أنّ المثلين ما تكافأ في الذات، والمثل بالتحريك: الصفة، قال الله تعالى: " مثل الجنة التي وعد المتقون."² أي: صفة الجنة. وقولك: ضربت لفلان مثلا معناه: أنك وصفت له شيئا، وقولك مثل هذا كمثل هذا، أي: صفته كصفته وقال الله تعالى " كمثل الحمار يحمل أسفارا."³ وحاملو التوراة لا يماثلون الحمار، ولكن جمعهم وإياه صفة فاشتركوا فيها.⁴

كما فرّق بينهما من علماء العصر الحديث النّهانوي في موسوعته كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم إذ عرّف المثل " بفتح الميم والثاء المثلثة في الأصل بمعنى النظر، ثم نقل منه إلى القول السائر أي الفاشي الممثل بمورده وبمضربه " .⁵ بينما المثل " بالكسر والسكون عند الحكماء هو المشارك للشيء في تمام الماهية، قالوا التماثل والمماثلة اتحاد الشيين في النوع أي في تمام الماهية " .⁶

ومن المتأخرين من يذهب إلى عدم التفريق بينهما؛ منهم العلامة الألوّسي حيث قال:
" تضرب الأمثال للكشف والبيان، والمثل، بفتحتين، كالمثل، بكسر فسكون، والمثل في الأصل النّظر والشبيه، والتفرقة لا أرتضيها."⁷

والتحقيق في هذه المسألة: أن [الميم، والثاء، واللام] أصل يدل على مماثلة الشيء للشيء، والمماثلة هي المساواة التامة بينهما، إما في تمام الذات، وإما في تمام الأحوال، والصفات. فإذا كان المراد بالمماثلة تمام الذات، استعمل لها لفظ [المثل] بكسر الميم، وإذا كان المراد بها تمام الأحوال والصفات، استعمل لها لفظ [المثل] بفتح الميم.

¹ مفاتيح الغيب للرازي 27 / 154

² الرعد / 35.

³ الجمعة / 5.

⁴ العسكري: الحسن بن عبد الله بن سها، أبو هلال. الفروق اللغوية تح محمد إبراهيم سليم. دار العلم والثقافة. القاهرة. د.ت. ص 154.

⁵ النّهانوي: محمد علي. موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تحقيق علي دحروج. مكتبة لبنان. ط 01. 1996. 2 / 1449.

⁶ نفسه. 2 / 1451.

⁷ الألوّسي. روح المعاني. 1 / 163.

وعلى هذا فالقول: هذا مثلُ هذا، بكسر فسكون، إذا كان مساويا له في تمام الحقيقة والماهية والقول: هو مثله، بفتحيتين، إذا كان مساويا له في تمام الأحوال، والصفات الخارجة عن الحقيقة والماهية، وليس في بعضها، وقد بين ذلك الفخر الرازي، كما أشرنا إلى ذلك، حين قال: " فإن قيل: هو مثله في كذا، فمعناه: أنه يساويه في جهة أو أكثر من جهات الحقيقة والماهية وإن قيل: هو مثله في كذا، فمعناه أنه يساويه في بعض الأحوال، والصفات الخارجة عنهما ... ويكون كلُّ واحد منهما مثلا، أو مثلا للآخر، وما بينهما يسمى: مماثلة."

- اتصال كاف التشبيه بـ " مثل " في القرآن.

من الظواهر التي تصادفنا في استعمال المثل القرآني اقتران هذا اللفظ بحرف الكاف في بعض الآيات وامتناع ذلك في أخرى، وهو ما يقتضي منا الوقوف عند ما قاله العلماء في هذه المسألة، ولنبدأ ذلك من الآية التي ذكرناها من قبل وهي قوله سبحانه وتعالى: (ليس كمثله شيء)¹ قال الأصفهاني في المفردات: " وأما الجمع بين الكاف والمثل فقد قيل: ذلك لتأكيد النفي تنبيها على أنه لا يصح استعمال المثل ولا الكاف، فنفي بليس الأمرين جميعا. وقيل المثل هنا هو بمعنى الصفة، ومعناه ليس كصفته صفة، تنبيها على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر."²

ويفهم من هذا أنه عز وجل في هذه الآية الكريمة عن ذاته الشريفة مشابهة الحوادث، ومماثلتها؛ لأنه تعالى لا شبه له، ولا مثل من مخلوقاته، في ذاته ثم أخبر سبحانه عن نفسه بأنه السميع البصير، فأثبت لها سمعا وبصرا، يليقان بجلاله، وكماله؛ كما أثبت لمخلوقاته سمعا وبصرا، يناسبان حالهما. وذلك نحو قوله جل جلاله: (إنا خلقنا الإنسان

من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)³

¹ الشورى / من الآية 09.

² الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن. ص 759.

³ الإنسان / 02.

وقد ذهب بعض النحاة والمفسرين إلى القول بأن كاف التشبيه في قوله سبحانه وتعالى: (كمثلُه) بمعنى؛ مثل. ولهذا فسروا الآية الكريمة على معنى؛ ليس مثل مثله شيء. ولما كان هذا القول يفضي إلى المحال، تأولوا الآية على زيادة الكاف، أو زيادة مثل، فقالوا: 1 ندير: ليس مثل الله شيء أو: ليس كالله شيء ومن أنكر منهم الزيادة، تأول الآية الكريمة على أن المراد بلفظ المثل: الصفة، أو: الذات، أو: الصفة، والذات معا.

هذا وللعلامة ابن جزى إشارة ذكية في تبیین سر اقتران الكاف بلفظ مثل في قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون* صم بكم عمى فهم لا يرجعون.)¹؛ قال: " إن كان المثل هنا بمعنى حالهم وصفتهم

فالكاف للتشبيه وإن كان المثل بمعنى التشبيه فالكاف زائدة."²

- التمثل بالقرآن والحديث بين المنع والجواز [الاقتباس] وضوابطه.

ثمّة قضية أخرى وثيقة الصلة هي الأخرى بالمثل القرآني، غير أنها قضية تتعلق بجانب بلاغي فيه، ولما كان حديثنا في الباب الثالث سينصبّ على البيان ممثلاً في صورته المعروفة لأسباب نعرفها، بإذن الله، هناك، فقد آثرت دراسة وتوضيح هذه المسألة في هذا المقام، وهي الحديث عن الإقتباس من القرآن وتسيير بعض آياته مسار المثل، فما هو الاقتباس؟

طرحت مسألة الاقتباس على بساط البحث، وسلّطت عليها الأضواء في اجتهادات الفقهاء والأدباء، وبدأت من خلال زاوية فقهية تتحدث عن مشروعية أن يتلو الجنب شيئاً من القرآن، لا على أنه قرآن، بل على أساس أنه نوع من الكلام العادي؛ كأن يقول لمن يستأذنه في الدخول ﴿ ادخلوها بسلام آمين. ﴾³ وهو لا يريد بذلك التلاوة، فمن أجاز ذلك أجاز التمثل بآيات القرآن، ومن حرّم ذلك فقد حرّم استخدام عبارات القرآن بدلا من الكلام العادي.

¹ البقرة / 16 . 17.

² ابن جزى: محمد بن أحمد، أبو القاسم. التسهيل لعلوم التنزيل. تح محمد سالم هاشم. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01. 1995. 1 / 54.

³ الحجر / 46.

وبعد أن شغل هذا الموضوع الفقهاء، وتعرّضوا له بالدارسة، حيث كان لا يزال جملاً متناثرة في أفواه بعض الناس، تنبّه الأدباء إلى أنه نوع من البلاغة، وفنّ من فنون البيان، فقاموا يلتقطون من أفواه الفصحاء والبلغاء ما يجري على ألسنتهم مجرى الأمثال من آيات القرآن الكريم وعباراته ويسجّلونها في كتبهم القيمة. ويشكل أغلب ما جمعه ما يسمّى بالأمثال السائرة، كما سنرى لاحقاً.

الاقتباس لغة؛ هو طلب القبس، وهو الشعلة من النار، ويستعار لطلب العلم.¹ أمّا في الاصطلاح فهو تضمين المتكلم كلامه، شعراً كان أو نثراً، شيئاً من القرآن أو الحديث، على وجه لا يكون فيه إشعار بأنه من القرآن أو الحديث.² وهو نوعان:

الأول ما لم ينقل فيه الكلام المقتبس عن معناه الأصلي، ومنه قول الشاعر:

قد كان ما خفت أن يكونا إنّ إلى الله راجعونا

إذ في البيت اقتباس فيه تغيير يسير، لأنّ نص الآية: (وإنا إليه راجعون).

والثاني ما ينقل فيه الكلام المقتبس عن معناه الأصلي للدلالة على معنى جديد ومنه قول ابن الرومي:

لئن أخطأت في مدحك ما أخطأت في منعي

لقد أنزلت حاجاتي " بواد غير ذي زرع "

ففي قوله " بواد غير ذي زرع " اقتباس من القرآن، وذكرت في الآية بمعنى " مغة المكرمة "، لكنّها استعملت في البيت الشعري بمعنى " لا خير فيه ولا نفع ".

لم ينصّ على حكم الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الرعيل الأوّل من علماء الأئمة مع شيوعه في إعصارهم واستعمال الشعراء له، فسكوتهم على ذلك وعدم نصهم على تحريمه يدل على أنهم رأوه جائزاً متى ضرب مثلاً. بل إنّ جماعة من أئمة المذاهب استعملوه في شعرهم ونثرهم.

¹ ابن منظور: لسان العرب. مادة قيس. 05 / 3510.

² الجرجاني: علي بن محمد الشريف. التعريفات. مكتبة لبنان. بيروت. 1985. ص 33.

ذكر الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه " طبقات الشافعية الكبرى " في ترجمة الأستاذ أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي، أحد كبار علماء الشافعية " بيتين من الشعر هما قوله:

يا من عدا ثم اعتدى ثم اعترف ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

ثم علق عليهما بقوله " استعمال مثل الأستاذ أبي منصور مثل هذا الاقتباس في شعره فائدة، فإنه قدوة في العلم والدين، وبعض أهل العلم ينهى عن مثل ذلك، وربما شدد وجنح إلى تحريمه، والصواب الجواز، ثم الأحسن تركه، تأدبا مع الكتاب العزيز، ونظيره ضرب الأمثال من القرآن، وتنزيله في اللكت الأدبية، وهذا فن لا تسمح نفس الأديب بتركه، واللائق بالتقوى أن يترك، وأكثر الناس رأيت تشددا في ذلك المالكية، ومع هذا فقد فعله كثير من فقهاءهم، حتى رأيت في كتاب " المدارك في أصحاب مالك " للقاضي عياض في ترجمة ابن العطار، وهو من قدماء أصحابهم أنه سئل عن مسألة من سجود السهو، فأفتى بالسجود فقال السائل: إن أصبغ لم ير علي سجودا، فقال: (لا تطعه واسجد واقترب)¹ وعدّ القاضي عياض ذلك من ملحه ونوادره.²

وذكر السيوطي هذا الخير وعلق عليه بالقول: " قلت: ليس هذان البيتان من الاقتباس لتصريحه بقول الله وقد قدمنا أن ذلك خارج عنه."³
أمّا عن الاقتباس من القرآن ففقهاء المالكية يفرقون بين الاقتباس في الشعر والاقتباس في النثر، فذهب جمع منهم إلى تحريمه أو كراهته في الشعر تنزيها للقرآن أن ينسب شيء منه للشعر وقد نفى الله تعالى عنه ذلك في قوله: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له. إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لتندر من كان حيا ويحق القول على الكافرين).⁴ وجوازه في النثر. قال

¹ العلق / 19.

² السبكي: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي. طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح

محمد الحلوة. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. 5 / 139.

³ السيوطي. الإتقان. 1 / 112.

⁴ يس / 68. 69..

السيوطي في الإتيان: " وهذا كله إنما يدل على جوازه في مقام المواعظ والثناء والدعاء وفي النثر، لا دلالة فيه على جوازه في الشعر وبينهما فرق، فإن القاضي أبا بكر من المالكية صرح بأن تضمينه في الشعر مكروه وفي النثر جائز.¹"

كما يمكننا أن نتبين هذا الموقف المجيز عند القاضي عياض في شرحه لحديث رسول الله ﷺ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ربي الله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ... " قال عياض: " وأنا من المسلمين وروي أول المسلمين على ما في التلاوة ... وجه قوله من أنه لم يرد تلاوة الآية هنا، بل الأخبار بالاعتراف بحاله.² فهو يشير بقوله هذا وينبّه على قواعد جلية من أنه يجوز أن يراد بشيء من كلمات القرآن غير التلاوة.

أمّا عند غير المالكية فقد ذكر السيوطي جوازه عند علماء الشافعية ومنهم العزّ بن عبد السلام إذ استدللّ على جوازه بما ورد عنه ﷺ من قوله في الصلاة وغيرها: " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ... " إلخ وقوله: " اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا أقض عني الدين وأغنني من الفقر. " كما استعمله فقهاء الحنفية في كتبهم الفقهية.⁴

ويستدعي الحديث عن الاقتباس أن نصله بشيء قريب الصلة به هو " إرسال المثل من القرآن والسنة ". فهناك آيات يضعها الناس في كلامهم موضع الأمثال ويسمى " إرسال المثل " كقوله تعالى: " إن الباطل كان زهوقاً. " ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله. " ولا ينبئك مثل خبير. "

¹ السيوطي. السابق. 1 / 112.

² القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى. إكمال المعلم بفوائد مسلم. تحقيق د / يحيى إسماعيل. دار الوفاء للطباعة والنشر. مصر. ط 01. 1998. 3 / 133.

³ السيوطي. السابق. 01 / 111.

⁴ الموسوعة الفقهية / وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / دولة الكويت / طبعة 2 / 1983 / مج 06 ص 16.

الفرق بين الاقتباس وإرسال المثل، وهو فرق لطيف، يظهر في أنّ الاقتباس تأتي فيه الجمل في ضمن كلام للمتكلم، أما إرسال المثل فلا يلفظ فيه، غالباً، إلا بنص الآية أو الحديث فحسب.

وينبغي أن يفرق بين إرسال المثل، وهو ما يأتي عرضاً في واقعة معينة، والتحدث بالقرآن أي جعل القرآن بدل الكلام كمن يقول لخادمه: "أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا." ومن يقول لرجل اسمه موسى: "وجئت على قدر يا موسى." وقد حرّمه غير واحد من العلماء كابن تيمية وابن مفلح.

واختلف العلماء في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعماله استعمال الأمثال! فرأه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: (لكم دينكم ولي دين)¹ "جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه."²

ورأى آخرون أنه لا حرج في ما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد كأن يأسف أسفا شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: "ليس لها من دون الله كاشفة" أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول "لكم دينكم ولي دين" والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح.

- أنواع التمثيل [الاقتباس] بالقرآن وحكمه.

ذكر السيوطي في الإتقان أنه جاء في شرح بديعية ابن حجة "الاقتباس على ثلاثة أقسام: مقبول ومباح ومردود؛ فالأول، ما كان في الخطب، والمواعظ، والعهود. والثاني، ما كان في الغزل والرسائل والقصص. والثالث، على ضربين؛ أحدهما: ما نسبته الله، عوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان: إنه وقع على مطالعة فيها

¹ الكافرون / 06

² الرازي. مفاتيح الغيب. 32 / 148.

شكاية عمّاله: " إنّ إلينا إياهم ثم إن علينا حسابهم." والآخر: تضمين آية كريمة في معرض هزل نعوذ بالله من ذلك كقوله:

أرخی إلى عشاقه طرفه
هيئات هيئات لما تواعدون
وردفه بنطق من خلفه
لمثل هذا فليعمل العاملون.¹

وأخيرا فعلماء البلاغة يرون أنّ المقتبس ليس قرآنا ولا حديثا بل هو من قبيل الموافقة أو المشابهة، ومع ذلك فمن العلماء من لا يجيز الاقتباس، والكثير منهم يجيزه ويستحبون أن يقع في النثر وفي الشعر العفّ الشّريف الغرض.² كما ذكروا أنّ في القرآن والحديث أشياء لا يجوز اقتباسها أبدا، لا في شعر ولا نثر، ويشتمل ذلك على الآيات التي ذكر فيها الله أشياء أضافها الله إلى نفسه، أو أحاديث نبويّة في الموضوع ذاته.³

وخلاصة القول في هذا الباب؛ إذا كان الاقتباس لتحسين الكلام ولتحقيق أغراض ومقاصد لا تخرج عن المقاصد الشرعية فقد نص على جوازه كثير أئمة المالكية والشافعية، أمّا إذا كان في كلام فاسد، ككلام المبتدعة وأهل المجون فإنّه غير جائز.⁴ ومثل هذا الخلاف يظهر أنّ الأمثال قد نالت عناية فائقة من الباحثين القدماء والمحدثين، إذ تناولوا دلالة مصطلح المثل وأصلوه من الناحية اللغوية، وتتبعوا تطور دلالاته من النواحي الأدبيّة، والبلاغيّة، والتفسيرية القرآنية، فحدّوا أهم سماته وحصرها على حدّ قول أبي سليمان المنطقي، شيخ أبي حيّان التوحيدي في: " أن يكون اللفظ مقتضبا والحذف محتملا، والصورة محفوظة والمرمى لطيفا، والتلويح كافيا والإشارة مغنيّة والعبارة سائرة."⁵ واشترطوا سيرورته بين الناس، وتناقله على الحكاية دون تغيير، وأنّسلمه بالغرابة والندرة.

¹ السيوطي. نفسه. 111 / 01.

² السابق. 1 / 113. انظر ما قاله ابن دقيق العيد للشريف تقي الدين الحسيني.

³ الموسوعة الفقهية / وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / دولة الكويت / طبعة 2 / 1983 / مج 06 ص 18.

⁴ نفسه. مج 06 ص 17.

⁵ أبو حيّان التوحيدي. الإمتاع والمؤانسة. دار مكتبة الحياة. بيروت. 2 / 141.

المبحث الثالث: أهمية الأمثال القرآنية.

اتفق أرباب الفصاحة والبلاغة على أن القرآن الكريم مُعجز في ألفاظه، باهر في أسلوبه، عظيم في بلاغته، حتى إن العرب على فصاحتهم وبلاغتهم، عجزوا عن أن يأتوا بآية من مثله.

وكان من جوانب بلاغة القرآن الكريم ما جاء فيه من ضرب الأمثال، والتي تمتاز بإبراز الحقائق والمبادئ في قالبٍ بديع قريب من الأذهان، ممّا يهيئ النفس لتقبلها، وتحويلها إلى سلوك بشري ينطلق من تلك المبادئ والحقائق، ولاشك أنّ أثر هذه الأمثال واضح في سلوك البشرية، فالناس يتفاعلون ويتعاملون معها كالأوامر والنواهي التي لا يُمكن تجاوزها. ولهذا أكثر الله من ضرب الأمثال في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، ونبّه على ذلك بقوله: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * توتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون.)¹ وتشتمل هذه الأمثال المضروبة على الخصال الحميدة، وتُستلهم منها السنن الإلهية التي لا يتفطن لها إلا أولوا الأبصار، قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.)² فخصّ الله سبحانه وتعالى هذه الفئة بالفهم لأنها تناولت القرآن متدبراً معانيه.

وجاء ضرب الأمثال في القرآن لأغراض كثيرة، فقد جاء أحيانا بهدف التذكير والوعظ والحث، قال تعالى في الحث على العمل الصالح: (يا أيّها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم

¹ إبراهيم / 26 . 27.

² العنكبوت / 43.

ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون.¹ وضربت الأمثال للزجر والتنفير من قبائح الأفعال كما في قوله تعالى: (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه.²) ويأتي أحياناً ضربها بغرض الاعتبار والتقريب وتقريب المراد للعقل، كالمثل الذي ضربه الله لبيان حقيقة الدنيا وزوالها في قوله: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً.³) وقد اشتمل القرآن الكريم على كل ضروب الأمثال وأشكالها، وتلك هي قمة الإبداع البلاغي، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون.⁴)

¹ الصف / 10-11

² الحجرات / 12

³ الكهف / 44.

⁴ الزمر / 26

المبحث الرابع: قضايا الأمثال القرآنية.

تعددت القضايا التي تعرّضت لها أمثال القرآن الكريم، ولأهميتها يمكن تلخيصها في كون الأمثال:

* تكشف عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر كما يظهر في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).¹ وهذه حقيقة آكل الربا، وكما في قوله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ).² فكان الحق وهو معنى مجرد، ولعظم شأنه قذيفة ثقيلة ترمى على الباطل الواهي فترديه جثة هامدة وقد وظفت في هذا المشهد القرآني صورة الصراع الدائم بين الحق والباطل.

* للترغيب في الممثل به؛ من ذلك قوله تعالى مرغبا في الإنفاق: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم).³ وقوله عز وجل مرغبا في الكلمة الطيبة: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * توتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).⁴

* تقبيح وذم خلق أو صفة في الممثل به؛ من ذلك ما قاله جل شأنه في حق أحد معارضي نبي الله موسى ﷺ بعدما عرف الحق وأعرض عنه: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا

¹ البقرة / 274.

² الأنبياء / 18.

³ البقرة / 260.

⁴ إبراهيم / 26 . 27.

فانسَلخَ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع

هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا

فأقصص القصص لعلمهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون.¹

ويمكننا أن ندرج في هذا الباب ما ذمّ الله به اليهود وما استتبعه من أعمالهم

وصفاتهم، وهو كثير في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم

يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم

الظالمين).² أو كما في تشبيهه لقلوبهم بالحجارة في قوله سبحانه: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ

ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ

مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).³ وفي القرآن الكريم

الكثير من الأمثال التي تقبح أعمال اليهود وتفضح أكاذيبهم.

* تعتبر الأمثال أبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع وأوقع في النفس،

لأنّ المرء عندما يعظ، ويحرص على أن يكون لموعظته وقع فإنه يستخدم الأمثال ليكون

ذلك أبلغ في الوعظ وأوقع في النفس، فتجده ينصح العاصي بالألا يكون في الحياة

كالبهيمة، ومثال ذلك قوله تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)⁴ وكذلك قوله: (ولا تكونوا كالتّي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون

أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنّما ييلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم

¹ الأعراف / 175 . 177.

² الجمعة / 05.

³ البقرة / 73.

⁴ الفرقان / 44.

فيه تختلّفون.)¹ وقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ

أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)²

فالقُرآن، كما هو ظاهر، يصور ببلاغة أسلوبه الحالات النفسية والمعنوية للنفس البشرية، وما أحوج البشرية إلى تأمل الأمثال وتدبر معانيها، وما وجّه القرآن الكريم الناس إلى هذا الأمر إلا لحكمة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسئَلْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)³ وقال عزّ وجلّ: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.)⁴

ولما كان للأمثال من الأهمية ما بينه تعالى، فإنّ بعض الجهلة والمكابرين أنكروا على القرآن التمثيل بالبعوض والعنكبوت والذباب، بالرغم من تصريفهم لها في شتى الأغراض، واستغربوا ما ليس بمستغرب ولا منكر، إذ التمثيل يكشف المعنى ويوضح المطلوب، والعاقل إذا سمع التمثيل استبان له الحقّ. فبين الله عزّ وجلّ أنّ العبرة بالمثل وليس بالمثل به ولذلك نزل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأما الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأما الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرَادَ اللَّهُ بهذا مثلا يضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضلّ به إلا الفاسقين* الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصل وَيَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ أولئك هم الخاسرون.)⁵

ذكر ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل والفراء أنّه لما ضرب الله الأمثال في كتابه بالعنكبوت والذباب والحجارة والتراب وغير ذلك ممّا يستحقر ويطرح، قال اليهود إنّ الله أعزّ وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقرات، فردّ عليهم بهذه الآية، وقال

¹ النحل / 92.

² الحج / 11.

³ الحج / 73.

⁴ العنكبوت / 43.

⁵ البقرة / 25 . 26.

الحسن ومجاهد والسدي وغيرهم: نزلت في المنافقين، قالوا: لَمَّا ضرب الله تعالى المثل بالمستوقد والصيب قالوا الله أعلى وأعظم [من] أن يضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء التي لا بال لها، فردّ الله عليهم بهذه الآية، وقيل نزلت في المشركين والكلّ محتمل، إذ اشتملت على نقض العهد وهو من صفة اليهود لأنّ الخطاب بوفاء العهد إنّما هو لبني إسرائيل، وعلى الكافرين، والذين في قلوبهم مرض وهم المشركون والمنافقون، وكلهم كانوا في إيدائه ﷺ متوافقين.¹

¹ أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف. تفسير البحر المحيط. تح الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1993. 1 / 263. 264.

المبحث الخامس: أنواع الأمثال من حيث التصريح بلفظ المثل أو ما يدل عليه وعدم التصريح.

يصادف الدارس لموضوع الأمثال، والباحث في مصنفات علوم القرآن ومراجع الأدب تقسيما للمثل القرآني يحتاج إلى كثير من المناقشة؛ فهذا الزركشي في البرهان¹ والسيوطي في الإتيان² يريان أنّ المثل ينقسم إلى قسمين؛ المثل الصريح والمثل الكامن، الذي لا ذكر للمثل فيه. ثم أضاف جماعة من العلماء قسما ثالثا هو الألفاظ الجارية مجرى الأمثال. وقد أورد السيوطي نقلا عن الماوردي كيف نسجت أمثال العرب والعجم وأقوال الناس مستوحاة من أي الذكر الحكيم في خبر سأذكره لاحقا.³

وبالنظر إلى الأمثال القرآنية وتدبر معانيها، نلاحظ أنّ المثل القرآني نزل لأول مرة على صيغة يتمثل بها إبداعا وابتكارا وإعجازا، كتبت لها الصيرورة أو لم تكتب، تداولها الناس أو أهملوها، ولا حالة سابقة يقاس عليها ولا نظائر يشار إليها، وهي، أي هذه الأمثال القرآنية، توقيف من الله لا يزداد عليها، ضربها للناس فاشتملت على جميع مناحي الحياة وما بعدها، والعبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأنّ العبارة القرآنية لا تقيس حالة على حالة بالرجوع إلى الوقائع، كما اعتاد الناس أن يفعلوا عند ذكر أمثالهم. ومما تذكره العامة في أمثالها قوله تعالى: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.)⁴ لكنّها نقلته من استعماله القرآني حيث ذكر في نصرة الله لأنبيائه إلى حوادث النصر غير المرتقب، وأصبح هذا النقل تنظيرا يضرب مثله للضعيف يكيد للأقوياء، والساذج البسيط يسלט عليه المتربصون فيؤخذ له بحقه دون توقع أو حساب.

وعلى ذكر هذا الضرب من المفيد الإشارة إلى طائفة يسيرة من الأمثال القرآنية التي لم يرد بها لفظ المثل أو مادته، لأنها من الوضوح والإبانة والقوة بحيث لا يحتاج معها أن يقول: مثل هذا كذا، كما في قوله تعالى: (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون

¹ الزركشي: البرهان. 1 / 86.

² السيوطي: الإتيان. 2 / 132.

³ السيوطي: الإتيان. 2 / 133.

⁴ آل عمران / 53.

أصابهم في آذانهم من الصواعقِ حذر الموتِ واللهِ محيطٌ بالكافرين* يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير.)¹ فهو معطوف على ما قبله من مثل، تبعا لأسلوب القرآن في القصر والإيجاز أو الحذف والتقدير. وأما قوله تعالى: (ولا تكونوا كالتّي نَقَضت غزلها من بعد قوّة أنكاثا تَتَّخِذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنّما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون.)² فمفاده أن مثل الذي نقض العهد كمثل الغزل الذي نقضته تلك المرأة الحمقاء أنكاثا، نقضا، فلا هو غزل ينتفع به، ولا هو صوف ينتفع به، فكذا الذي يعطي العهد ثم ينقضه، لا هو وقى بالعهد إذا أعطاه، ولا هو ترك العهد فلم يعطه، ويعلق الإمام الفخر الرازي على قوله تعالى: (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريّا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.)³، بقوله أنه ليس المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان، كما يرى أكثر المفسرين، فالإيمان لا يشتهه بالكفر في الحسن والنعمة كما يشتهه البحران: العذب الفرات والملح الأجاج. كذلك ثمة آيات فيها مادة " المثل " وقد اشتملت عليه صراحة، ولكنها ليست من الأمثال القرآنية بل فيها إشارة إلى الأمثال السابقة حيناً، وذكر لما صرفه الله من الأمثال بعض الأحايين، ومقايسة بما ضربه المشركون من أمثال وما ضربه الله أنفاً لذلك، كقوله تعالى: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً.)⁴

¹ البقرة / 18 - 19.

² النحل / 92.

³ فاطر / 12.

⁴ الكهف / 53.

ومن خلال الاستقراء يمكن تصنيف الأمثال في القرآن إلى ثلاثة أنواع: الأمثال الصريحة، والأمثال الكامنة، والأمثال المرسلة.

أ - الأمثال المصرّح فيها بلفظ المثل " أمثال التمثيل "

من المفيد في هذا المقام أن نشير إلى أن الأمثال القرآنية لا يمكن حصرها بعدد معين لما يعترى حصرها من عوارض ، كما أنه لا فائدة من حصرها ، والحكمة من ضربها هو ما فيها من التفكير والتذكر والاعتبار وتصور المعاني المعقولة وتقريبها للإفهام وتقدير الأصول العقديّة وغير ذلك من المقاصد وما قننا به هنا من باب تقريب المعنى لا غير.

الأمثال القياسية أو الصريحة وهي الآيات التي تضمنت سردا وصفيا أو قصصيا مطولا، وتضمنت لفظة " المثل " أو ما ينوب عنه من أدوات التشبيه، لتوضيح معنى ما عن طريق التشبيه المركب، أو الاستعارة التمثيلية، وهو النوع الذي يسميه علماء البلاغة " التمثيل " .

ورود هذا النوع كثيرٌ في كتاب الله، نحو قوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرّون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد.)¹
مثل ضربه الله تعالى لبيان حبوط أعمال من كفر بالله وعبد غيره، فشبّه ذلك برماد مجتمع عظيم الكيان لا وزن له، فجاءته ريح قوية في يوم عاصف ففرّقه في كل اتجاه، فأنى لهم أن يجمعوه ؟ كذلك لن ينتفع الكفار يوم القيامة بما أسلفوا من الأعمال الصالحة. وهذا المشهد يجسّم معنى ضياع الأعمال سدى.

ومن أمثله التي تتضمن سردا وصفيا قوله تعالى: (الله نور السّموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنّها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا

¹ إبراهيم / 21.

شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم.¹

ومن أمثلته التي تتضمن سردا قصصيا قوله تعالى: (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون* إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون* قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون* قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون* وما علينا إلا البلاغ المبين).²

وهذا الضرب من الأمثال القرآنية يتضمن صورا تشبيهية مركبة، تبرز مقاصدها الخفية، ومعانيها المضمرة بوسائل تعبيرية بليغة، في غاية الجمال والوضوح، وتبعث في النفس البهجة والانشراح وتثير فيها رهبة العظمة، وتهذبها بإرشادها إلى الخير، وتكشف لها عن أسرار الخلق وعظمة الخالق.

وسنرى لاحقا أنّ المثل السائر في كلام العرب غير التمثيل الوارد في القرآن الكريم، وأتت سبحانه عند ما يقول: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون).³ يريد التمثيل لا المثل السائر، وهذه التمثيلات هي نمط آخر من علوم القرآن وباب عظيم من معارفه.

ومن المفيد في هذا المقام أن أذكر مجموعة من الآيات القرآنية التي رأيت أنّ فيها أمثالا ظاهرة مصرحة مقتصرًا على ذكر بعضها ومنها الآيات التي اعتمدنا عليها في دراستنا البيانية كما سيظهر في موضعه من البحث بعون الله، مع الإشارة إلى مواضع أخرى من سور القرآن في الهامش، .

ومعظم هذه الآيات استنبطها العلماء الذين عنوا بدراسة الأمثال القرآنية. ومنها قوله

تعالى:

¹ النور / 35.

² يس / 12-16.

³ الحشر / 21.

(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فَلَمَّا أَضَاءتْ ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا

يُصرون* صمَّ بكم عُمى فَهَم لا يرجعون.)¹

(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون.)²

(مثل الَّذِينَ ينفقون أموالهم في سبيلِ اللَّهِ كمثلِ حَبَّةِ أَذِنَةٍ أُنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ في كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ

يضاعف لمن يشاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.)³

(ومثل الَّذِينَ ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاتِ اللَّهِ وتثبيتاً من أَنفُسِهِمْ كمثلِ جَنَّةٍ بَرِبَتْ أُصَابَهَا وَابِلٌ فَأَتَتْ

أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يصبها وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بما تعملون بَصِيرٌ.)⁴

(إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.)⁵

(أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

كَذَلِكَ زِينٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.)⁶

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ

تَتْرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ* سَاءَ مِثْلًا الْقَوْمِ

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ.)⁷

¹ البقرة / 16 - 17.

² البقرة / 170.

³ البقرة / 260.

⁴ البقرة / 264. وانظر الآيات الآتية من السورة نفسها: 18 / 19 / 25 / 26 / 212 / 258 / 263 / 265.

⁵ آل عمران / 58. وانظر الآية 117 من السورة نفسها.

⁶ الأنعام / 123.

⁷ الأعراف / 176 - 177. وانظر الآية 57 من السورة نفسها.

(إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى

إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها

حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفضل الآيات لقوم يتفكرون.)¹

(مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تدّكرون.)²

(له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه

وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال.)³

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرّون ممّا كسبوا على

شيء ذلك هو الضلال البعيد.)⁴

(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً

هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.)⁵

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه

الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا.)⁶

(يأيّها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن

يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب.)⁷

¹ يونس / 24.

² هود / 24.

³ الرعد / 15. وانظر الآيات 18 / 36. من السورة نفسها.

⁴ إبراهيم / 21. وانظر الآيات 26 / 27 / 28 / 47 من السورة نفسها.

⁵ النحل / 75. وانظر الآيات 60 / 76 / 92 / 112 من السورة نفسها.

⁶ الكهف / 44. وانظر الآيات 32 / 44 من السورة نفسها.

⁷ الحج / 71.

(الله نور السَّموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب

دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور

يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.¹)

(مثل الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.²)

(وهو الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ.³)

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.⁴)

(وما يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبَ فِرَاتٍ سَائِغٍ شَرَابِهِ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٍ وَمَنْ كَلَّ تَأْكُلُونَ لِحِمَا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.⁵)

(واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنتين فكذبوهما فعززنا بثالث

فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون *

قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم لكتفينا

لنرجمنكم ولنمسننكم من عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أنن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من

أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون *

¹ النور / 35. وانظر الآيات 38 / 39. من السورة نفسها.

² العنكبوت / 41.

³ الروم / 26.

⁴ الروم / 27.

⁵ فاطر / 12. وانظر الآيات 19 . 22 من السورة نفسها.

ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون * أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني
شفاعتُهُمْ شيئاً ولا يُنقذون * إني إذا لقي ضلالاً مبيناً * إني آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل
الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من
بعده من جند من السماء وما كُنَّا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون * يا حسرة
على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون.¹

(ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم
لا يعلمون.²)

(وإذا بُشِّرَ أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * أو من ينشأ في الحلية وهو
في الخصام غير مبين.³)

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس
أمثالهم.⁴)

(محمد رسول الله والذين معه أشدء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله
ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج
شطنه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً.⁵)

¹ يس / 12 . 29 . وانظر الآيات 76 . 78 من السورة نفسها.

² الزمر / 28 .

³ الزخرف / 16 . 17 . وانظر الآيات 55 . 56 / 57 . 59 .

⁴ محمد / 03 . وانظر الآية 16 من السورة نفسها.

⁵ الفتح / 29 .

(اعلّموا أنّما الحياة الدّنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزِينَةٌ وتفَاخُرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيْثٍ

أعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يكون حطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله

ورضوانٌ وما الحياة الدّنيا إلاّ متاع الغرور. ¹

﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم. ²﴾

(مثل الذين حملوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذبوا

بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين. ³)

(ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما

فلَمْ يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين. ⁴)

(وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكةً وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنةً للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا

الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم

مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود

ربّك إلاّ هو وما هي إلاّ ذكرى للبشر. ⁵)

وبعض هذه الأمثال عبارة عن قصة بأكملها جاءت على صورة مثل، وقصد بها

التأديب والإرشاد، ويلاحظ فيها الإطناب مقارنة بالأمثال السائرة، كما أنها تجمع عمق

الفكرة وجمال التصوير.

وتتجه الأمثال القياسية في موضوعها وجهتين؛ إحداها إلى السلوك الإنساني إزاء

رسالة الله ودعوته. والثانية إلى التأمّل في خلق الله.

¹ الحديد / 19.

² الحشر / 15. وانظر الآيات 16 / 21 من السورة نفسها.

³ الجمعة / 05.

⁴ التحريم / 10. وانظر الآيات 11 - 12.

⁵ المدثر / 31.

ومعظم الأمثال القياسية المصرحة من الضرب الأول بينما بقيّة الأمثال من الضرب الثاني، والظاهر أنّ ذلك جاء مصداقا لقوله تعالى: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا)¹

ب - الأمثال غير المصرّح فيها بلفظ المثل.

يجعل بعض العلماء هذا النوع قسما واحدا، قال الزركشي: " وهو قسمان: ظاهر وهو المصرّح به، وكامن وهو الذي لا ذكر للمثل فيه."² ولكنهم عند شرحهم لها يتحدثون عن الأمثال الكامنة ولا يذكرون السائرة منها، والتي هي في تقديري ضرب من المثل الكامن الذي شاع وانتشر، حتّى جمعه علماء الأمثال في مصنّفاتهم، كما سنرى في موضعه، ولعل ما جعل البعض يعزف عن ذكرها هو ذهاب بعض العلماء إلى أنّ في التمثّل بهذه الآيات الكريمة خروج عن أدب القرآن، لأنّ الله أنزله لتدبّر معانيه والعمل بها لا ليتمثّل به، وقد تطرقنا للموضوع عند الحديث عن الاقتباس، وهذا النوع قسمان:

النوع الأوّل: الأمثال الكامنة، ويقصد بها تلك الآيات القرآنية التي لم يصرح القرآن بأنها أمثال، لكنها تدل بالاستنباط على معنى المثل، بمعنى أن ذلك النص القرآني لم يُذكر فيه التمثيل صراحة، وقد عدّها العلماء أمثالا لاشتغالها على معان قريبة الشبه أو الصلة بأمثال عربية سائرة، فهي عندهم أمثال بمعانيها لا بألفاظها، ومن هنا جاءت تسميتها بالأمثال الكامنة، فهي بذلك أمثال بمعانيها لا بألفاظها، فلا يصرح بأنها مثل من الأمثال، ولكنّ مضمونها يدلّ على معنى يشبه مثلا من أمثال العرب السائرة ولذلك سميت أمثالا كامنة.

ومن أمثلة هذا الضرب ما نقله السيوطي عن الماوردي:³ " أن رجلا سأل الحسن بن الفضل أسئلة عن بعض أمثال العرب ووجود ما يقابلها في القرآن الكريم من آيات، منها سؤاله أين أجد في كتاب الله كقولهم: " خير الأمور أوسطها " فأجاب: تجده في أقواله

¹ الكهف / 53.

² الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 486 / 01. وهو قول السيوطي في الإتيان. 132 / 02.

³ السيوطي. الإتيان في علوم القرآن. 132 / 2.

تعالى: (لا فارض ولا بكرٌ عوانٌ بينَ ذلك.)¹ (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما.)² (ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط.)³ (ولا تجهر بصلاتك ولا تُخافتُ بها وَابِتغ بين ذلك سبيلا.)⁴

وقد ذكر السيوطي هذا الخبر في كتابه الإتقان في علوم القرآن، وابن خير في فهرست شيوخه أنّ الحسن بن الفضل ألف كتابا في هذا النوع من الأمثال، ثم ذكر السيوطي نقلا عن الماوردي ثلاثة عشر مثلا من هذا النوع. وسيأتي الحديث عن ذلك في موضعه.

النوع الثاني: الأمثال السائرة، وهي آيات أو أجزاء منها، جرت مجرى الأمثال، أي أنها أصبحت بلفظها مثلا ساريا، تضمّنت قيما دينية معينة، أو مبادئ خلقية سامية، لم تكن أمثالا في وقت نزولها، وإنما اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن، وانتشار آياته بين الناس، وهذه الآيات أو العبارات القرآنية لا تشمل نصوصها لفظ التشبيه أو التمثيل، ولسيرورتها بين المسلمين والعرب، صح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه أصلا من معنى أو تصوير، فتناقلتها الألسن والكتابات، وذكرها غالبية جماع الأمثال في مصنفاتهم كالميداني وأبي عبيد وغيرهما، وأقتصر في هذا المقام على ما فعله الخوارزمي في كتابه الأمثال، إذ عقد بابا لهذا النوع سمّاه " باب ما جاء من ذلك في القرآن فضربت به الأمثال " ⁵ وذكر أربعة وعشرين مثلا ومنها قوله: " يقرأون قوله عزّ وجلّ: (ظهر الفساد في البرّ والبحر.) ⁶ إذا رؤوا فسادا وهرجا.

وقوله عزّ وجلّ: (فخرج على قومه في زينته.) ⁷ لمن يظهر بزيّه ملكه.

¹ البقرة / 67.

² الفرقان / 67.

³ الإسراء / 29.

⁴ الإسراء / 109.

⁵ الخوارزمي: محمد بن العباس، أبو بكر. الأمثال. تح محمد حسين الأعرجي. مفهوم للنشر. 1993. ص 177.

⁶ الروم / 41.

⁷ القصص / 79.

- وفيمن يؤيس ممّا يريد: (وحيل بينهم وبين ما يشتهون.)¹
- وفيمن يراد به المكث: (إنكم ماكنون.)²
- وفيمن منع من مراده: (وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا.)³
- وفي سهولة مطلب الشّيء: (وكفى الله المؤمنين القتال.)⁴
- وفي المتلهّف على فائت: (ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما.)⁵
- وفي منزل الخليع الفاسق: (سأريكم دار الفاسقين.)⁶
- وفي البلدة والمنزل يتبرّم به: (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون.)⁷
- وما إلى ذلك ممّا هو مذكور عنده، وغيره ممّا لم يذكره في كتاب الله كثير.

المبحث السادس: مقاصد ضرب الأمثال في القرآن.

1 سبأ / 54.

2 الزخرف / 77.

3 الأحزاب / 25.

4 الأحزاب / 25.

5 النساء / 73.

6 الأعراف / 145.

7 المؤمنون / 107.

ضرب الله الأمثال في القرآن لما لها من قدرة على إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه جمالا ورونقا، كما أنه يخرج اللفظ الخفي في صورة الجليّ ويذني البعيد من القريب ويزيد المعاني رفعة ووضوحا، ويكسبها جمالا وفضلا ويكسوها شرفا ونبلا ومن أبرز فوائد ضربه على كثرتها:

* إن الحقائق الغيبية تحتاج إلى تقريب للذهن، ولا يتم ذلك إلا بضرب الأمثال التي تبرز المعقول في صورة المحسوس ليدركه الناس بحواسهم فيقبلوه، لأن المعاني رلة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة إلى الذهن. وبذا تكون الحقائق واضحة وجلية. قال الشيخ عزّ الدين: " إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرا ووعظا، فما اشتمل منها على تفاوت ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام."¹ وقال غيره: " ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحسن. وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، قال تعالى: (وضربنا لكم الأمثال).² فامتّن علينا بذلك لما تضمنه من الفوائد."³ وقال الزركشي في البرهان: " ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة "4 ونقل بعد ذلك عن الزمخشري قوله: " التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من الشاهد، فإن كان الممثل له عظيما كان المتمثل به مثله، وأن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك."⁵ بينما يرى الأصبهاني أنّ: " لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيل في صورة المتحقق والمتدّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفي ضرب الأمثال

¹ السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان في علوم القرآن. علم الكتب. بيروت. 2 / 131.

² إبراهيم / 47.

³ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 1 / 487.

⁴ نفسه والصفحة نفسها.

⁵ السابق. 1 / 488.

تبيكت للخصم الشديد الخصومة، وفيه أيضا من تقرير المقصود ما لا يخفى، فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه [الأمثال] ومن سور الإنجيل سورة تسمى [الأمثال] وفشت في كلام النبي ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.¹ ومثل هذا القول وهذا المذهب قال به وذهب إليه الكثير من العلماء.

* تبرز الأمثال المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيقبله العقل لأنّ المعاني المعقولة لا تستقرّ في الدّهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، وقد أشار إلى هذا الجانب فيها ابن عادل حين قال: " اعلم أنّ المقصود من ضرب المثل أنّه يؤثر في القلب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأنّ الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيّته، ويصير الحسّ مطابقا للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح في التّرجيب في الإيمان لذا مثل بالظلمة، فإذا أخبرت عن ضعف أمر ومثّله بضعف العنكبوت كان ذلك أبلغ في وقعه في القلب بالخبر مجردا.² وهو ما نجده في المثل الذي ضربه لحال المنفق رياء حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين.³)

وقال البيضاوي: " فإنّ التمثيل إنّما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فإنّ المعنى الصّرف إنّما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأنّ من طبعه الميل إلى الحسّ وحبّ المحاكاة ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء، فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان الممثل

¹ السيوطي. الإتيقان. 2 / 132.

² ابن عادل: عمر بن علي، أبو حفص. اللباب في علوم الكتاب. تحقيق الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. دار الكتب

العلمية. بيروت. ط 01. 1998. 1 / 370.

³ البقرة / 263.

أعظم من كلِّ عظيم كما مثَّل في الإنجيل غلَّ الصِّدر بالنخالة والقلوب القاسية بالحصاة ومخاطبة السِّفهاء بإثارة الزَّنابير، وجاء في كلام العرب أسمع من قراد وأطيش من فراشة وأعزَّ من مخِّ البعوض، لا ما قالت الجهلة من الكفار لَمَّا مثَّل الله حال المنافقين بحال المستوقدين وأصحاب الصِّيب وعبادة الأصنام في الوهن والضَّعف ببيت العنكبوت، وجعلها أقلَّ من الدَّباب وأخسَّ قدرا منه.¹

* وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر كقوله تعالى:

(الذين ياكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.)²

* وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلّة في الآيات السالفة الذكر.

* ويضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس كما ضرب الله مثلا لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير فقال تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثِّل حبةً أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.)³

* ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى في النهي عن الغيبة (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم.)⁴

* ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة (محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التّوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى

¹ حاشية الشَّهاب. 2 / 81 . 80 .

² البقرة / 275 .

³ البقرة / 260 .

⁴ الحجرات / 12 .

على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما.¹

وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلا، ثم اخذوا في النمو حتى استحکم أمرهم وامتألت القلوب إعجابا بعظمتهم.

* ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلا لحال من آتاه الله الكتاب، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحدر في الدنيا منغمسا فقال تعالى: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصد القصص لعلمهم يتفكرون.)²

* والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعظة وقد تقدم ما فيه الكفاية والغنى عما سواه.

المبحث السابع: مصنفات الأمثال القرآنية، عرض وتقويم.

أمثال القرآن عبارة عن أقيسة وأحكام، لأنها ضربت في الأصل لإحقاق الحق ومناصرة قضية عادلة، فهي بذلك أحكام لم ترد وفق ما ألفه الناس باعتماد أسلوب الأمر والنهي، فهي وسائل إيضاح لما جاء مجملا من آيات الكر الحكيم، ولعلّ هذا ما جعل

¹ الفتح / 29.

² الأعراف / 175. 176.

عالمًا كالشافعي¹ يقول في بيان أنّها ممّا يجب على المجتهد معرفته: " ثمّ معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدّوال على طاعته المبيّنة لاجتناب ناهيه."² وشبيه بهذا قول الماوردي: " من أعظم علم القرآن علم أمثاله."³

لذلك لا جرم أن شغلت أمثال القرآن الكريم بال العلماء والمصنّفين منذ فترة مبكرة من عمر التصنيف وجمع التراث عند هذه الأئمّة، والكتب المصنّفة في هذا الباب كثيرة، قديما وحديثا، بعضها مطبوع والبعض الآخر ما زال مخطوطا أو ضاع شأنه شأن الكثير من مصادر التراث في فترات حالكة الظلام من تاريخنا. وسنحاول أن نقدّم عرضا بحركة التّأليف في هذا الباب لضرورتها.

بعدّ كتاب أمثال القرآن للجنيّد بن محمد بن الجنيّد القواريري أقدم عنوان يصلنا في هذا الباب،⁴ وهذا الكتاب لم ينشر، في حدود علمي، لحدّ الآن ونتطّلع إلى اليوم الذي يرى فيه النور. ولم أجد في الكتب التي بين يدي اقتباسات منه، ولا نقولا عنه، وهو ما يحول دون اطلاعنا على منهجه ومضمونه. غير أنّ كون كاتبه من كبار الصوفيّة يربّح عندي أنّه في الحث على الفضائل ومكارم الأخلاق، إذ غالبا ما تكون غاية الأمثال عندهم لا تخرج عن هذا الضّرب.

ثاني كتاب يذكره العلماء في الباب، هو كتاب الأمثال من القرآن والسنة للحكيم الترمذي، فقد ذكره سزكين وذكر أنّ له نسخ كثيرة متفرّقة في مكتبات العالم، ويعتبر أوّل كتاب وصلنا في باب، ولم يتيسّر لي الحصول على نسخة منه، رغم أنّه طبع بعناية علي الجارم، والذي أتيح لي هو الإطلاع على صورة لنسخة مخطوطة، وظهر لي من دراستها أنّ الكتاب في ثلاثة أقسام: الأوّل لأمثال القرآن الكريم، والثاني لأمثال الحديث النبوي والخبر، والثالث لأمثال الحكماء.

¹ محمد بن إدريس الشافعي، أحد الأئمّة الأربعة. ت 204 هـ . انظر معجم الأعلام . ص 677.

² السيوطي . الإتقان. 2 / 132.

³ نفسه الصفحة نفسها.

⁴ النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق. كتاب الفهرست. تحقيق رضا تجدد. ص 239.

⁵ سزكين: فؤاد. تاريخ التراث العربي. تعريب محمود فهمي حجازي. طبعة صاحب السموّ الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز 1991.

وعنوان الكتاب أكبر من مضمونه، لأنه يوهم أنّ موضوع الكتاب في أمثال القرآن وأمثال الحديث الشريف، أو أنّ حظهما فيه وافر على أبعد تقدير، بينما الحقيقة خلاف ذلك، إذ لم يكن لأمثال القرآن الكريم وأمثال الحديث النبوي إلا نصيب قليل، والنصيب الأوفر كان للقسم الثالث، وهو ما يعرّز ما ذهب إليه الدكتور محمد جابر فيّاض حين قال: " جاء كتاب الحكيم الترمذي في ثلاثة أقسام: الأوّل لأمثال القرآن، والثاني للحديث والخبر، والثالث لأمثال العلماء، ولم يكن نصيب الأمثال من الكتاب والسنة أكثر من خمس الكتاب ممّا يرجّح أنّ الكتاب لم يختص بأمثال الكتاب والسنة. والأمثال من الحديث التي ذكرها قليلة، لم يذكر في غالب الأحيان راويها من الصحابة ولا درجة صحّتها."¹

أمّا الكتاب الآخر من كتب الأمثال فواضعه هو إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه.² ذكره ياقوت في كتابه معجم الأدباء.³

وكتاب أمثال القرآن للنيسابوري، محمد بن حسين السلمي، أبو عبد الرحمن. ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون،⁴ ولا أعرف عنه شيئاً كما لم أجد اقتباسات عنه، يمكنها أن تكشف عن منهج مصنّفه.

وكتاب الأمثال الكامنة في القرآن للحسن بن الفضل، نشر مؤخرًا، ذكره ابن خير الأندلسي في فهرسة شيوخه أسانيد مختلفة، إجازة وسماعا، عن إبراهيم بن مضارب عن أبيه أنّه سأل الحسن بن الفضل فقال: " إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله خير الأمور أو ساطها؟ قال: نعم، في أربعة مواضع، وساق الكتاب إلى آخره."⁵

¹ الدكتور محمد جابر فياض العلواني. الأمثال في الحديث النبوي الشريف. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن وم. أ. ط 1. 1993. ص 45 / 46. وقد أشار الدكتور جابر في الهامش إلى أنّ الكتاب مطبوع عام 1995 بتحقيق علي محمد الجاوي، ولم يتيسر لي

الإطلاع على نسخة مطبوعة، والذي عندي هو نسخة مصوّرة عن إحدى المخطوطات قمت بتحميلها من شبكة الانترنت.

² الأعلام للزركلي 1 / 61.

³ الحموي: ياقوت: معجم الأدباء. تحقيق د. إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. ط 01. 1993. 1 / 122.

⁴ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. عناية محمد شرف الدّين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. 1 / 168.

⁵ ابن خير: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بخليفة الإشبيلي. فهرسة ابن خير. تحقيق محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1998. ص 07.

ويذكر السيوطي في كتابه " الإِتقان في علوم القرآن " هذا الخبر عن الماوردي ولكن بتوسّع في الرواية، قال الماوردي: " سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسن بن الفضل، فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله : " خير الأمور أوسطها ؟ " قال: نعم في أربعة مواضع: قوله تعالى: (لا فَاْرِضْ وَلَا بَكْرِ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ.)¹

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)²

وقوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)³

وقوله تعالى: (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)⁴

قلت: فهل تجد في كتاب الله " من جهل شيئاً عاداه ؟ " قال: نعم، في موضعين:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ)⁵ (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ)⁶

قلت: فهل تجد في كتاب الله " احذر شر من أحسنت إليه ؟ " قال: نعم.

(وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)⁷

قلت: فهل تجد في كتاب الله " ليس الخبر كالعيان ؟ " قال: في قوله تعالى: (قَالَ أَوْ لَمْ

تَوْ مِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)⁸

قلت: فهل تجد " في الحركات البركات ؟ " قال: في قوله تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً)¹

¹ البقرة / 68.

² الفرقان / 67

³ الإسراء / 29

⁴ الإسراء / 110

⁵ يونس / 39

⁶ الأحقاف / 11

⁷ التوبة / 74

⁸ البقرة / 260

قلت: فهل تجد " كما تدين تدان ؟ " قال: في قوله تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ.)²

قلت: فهل تجد فيه قولهم " حين تقلي تدري ؟ " قال: (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ

أَضَلُّ سَبِيلًا)³

قلت: فهل تجد فيه: " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ؟ " قال: (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا

أَمُنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ)⁴

قلت: فهل تجد فيه " من أعان ظالما سلط عليه ؟ " قال: (كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّه يُضِلُّهُ

وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)⁵

قلت: فهل تجد فيه قولهم: " ولا تلد الحية إلا حية ؟ " قال: قوله تعالى: (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا

كَفَّارًا)⁶ قلت: فهل تجد فيه: " للحيطان آذان ؟ " قال: (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ)⁷

قلت: فهل تجد فيه: " الجاهل مرزوق والعالم محروم ؟ " قال: (مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ

لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا.)⁸

قلت: فهل تجد فيه: " الحلال لا يأتيك إلا قوتا، والحرام لا يأتيك إلا جزافا ؟ " قال: (

إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ)⁹ ¹⁰

1 النساء / 100.

2 النساء / 123.

3 الفرقان / 42.

4 يوسف / 64.

5 الحج / 4.

6 نوح / 27.

7 التوبة / 47.

8 مريم / 75.

9 الأعراف / 163.

¹⁰ السيوطي . الإتيان في علوم القرآن . 2 / 132 . 133

وهذا الكتاب كما سبق الذكر " الأمثال الكامنة في القرآن للحسن بن الفضل " نشره الدكتور علي حسين البوّاب في مجلة المجمع العلمي العراقي 36 / ج 1 سنة 1405 هـ عن نسخة مكتبة عارف حكمت، ثم أعاد نشره في مكتبة التوبة بالرياض عام 1412 هـ عن نسختين ولم يتيسر لي الحصول على نسخة منه.

وهناك كتاب " الأمثال الكامنة في القرآن " لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعي. ذكره ابن خير في فهرست شيوخه.¹

وكذلك " أمثال القرآن " لابن أبي الأصعب المصري،² ذكر فيه ما وقع في القرآن الكريم من الأمثال ثم ألحق بها أمثال الرسول ﷺ ممّا جاء في الكتب الستة وختمه بذكر أمثال العامة،³ ذكر ذلك في كتابه تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. وكتاب " أمثال القرآن " لابن أبي الأصعب من التراث الضائع إذ لم يظهر مطبوعا ولا مخطوطا إلى اليوم، وتظهر الاقتباسات التي ذكرها مؤلفه في كتابه القيم " تحرير التحبير " أنه من النفائس التي نسأل الله التعجيل بإظهارها.

بالنسبة لكتاب " أمثال القرآن الظاهرة " للماوردي، ما زال مخطوطا وتوجد صورة منه بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم: 1008 أدب، وهو مصور عن نسخة بباريس برقم: 9628. ومنه كذلك نسخة في مكتبة أولو جامع بمدينة بورصة في تركيا تحت رقم 1268 ضمن مجموع بعنوان " أمثال القرآن بأسره " من أول القرآن إلى سورة الجمعة. الفهرس الشامل / التفسير: 99. وهي نسبة تحتاج لمزيد توثيق، لتوجّه بعض الشكوك حول تصنيف الماوردي لكتاب في أمثال القرآن.

¹ فهرسة ابن خير ص 67.

² ابن أبي الإصعب: أبو محمد زكي الدين، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الأصعب العدواني البغدادي ثم المصري. قال عنه صاحب الوفيات: " الشاعر المشهور الإمام في الأدب له تصانيف حسنة في الأدب وشعر رائق ". من مصنفاته الشهيرة؛ " بديع القرآن " و " تحرير التحبير في البديع " و " البرهان في إعجاز القرآن ". توفي عام 654 هـ. له ترجمة في معجم المفسرين والنجوم الزاهرة والشذرات وفوات الوفيات. الموسوعة الميسرة. 2 / 1251 . 1253.

³ ابن أبي الأصعب. حرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. تح حفني محمد شرف. لجنة إحياء التراث الإسلامي. الجمهورية العربية المتحدة. ص 219.

⁴ حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. 1 / 168. وذكره السيوطي في الإتقان. 02 / 131.

بينما كتاب " أمثال القرآن " لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية؛¹ طبع في كتاب مستقل، وهو جزء من كتاب إعلام الموقعين.

وعلى ذكر كتاب إعلام الموقعين فقد ذكر فيه ابن القيم مجموعة كثيرة من أمثال القرآن الكريم، ثم شرحها شروحا واسعة كشفت عن علم غزير ودراية واسعة عند الرجل بعلوم الشرع واللغة على السواء.

هذا وعني الدارسون المعاصرون بالأمثال القرآنية، بعضهم جاء حديثه عنها في ثنايا دراساتهم كالأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية للدكتور عبد المجيد عابدين، والأمثال العامية في نجد لمحمد العبودي. وبعضهم الآخر خصّها بالدراسة، ومما يحضرنى في هذا المقام؛ الأمثال في القرآن الكريم للشريف منصور بن عون العبدلي وهو دراسة تقدّم بها لنيل شهادة الدكتوراه، والأمثال في القرآن الكريم لمحمد جابر الفيّاض وهي دراسة تقدّم بها لنيل شهادة الماجستير، وكتاب " أمثال القرآن " للدكتور محمود بن الشريف.

¹ نفسه. 1/ 168.

الفصل الثالث

الأمثال في

الحديث

النبوي

الشريف

إذا كانت الأمثال العربية، وخاصة أمثال العامة، قد لقيت عناية بالغة من قبل الدارسين، فلا غرابة أن تنال الأمثال النبوية عناية أكثر، إذ هي أوجز منها لفظاً، وأكرم معنى؛ كيف لا وهي من جوامع الكلم الذي أوتيّه سيّد الخلق ﷺ. يقول ﷺ عن الأمثال التي ضربت له: " نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم، وأوتيت الحكمة، وضرب لي من الأمثال مثل القرآن... " ¹ ويمكننا القول بأنّ كلّ ما وصلنا من أحاديثه الصحيحة، يندرج في هذا الباب. وقد سارت هذه الأحاديث على السنة المسلمين لمكانتها في التشريع والتراث عندهم، فهم يحتاجونها في كل شؤون حياتهم، وأحكام دينهم. إضافة إلى هذه الميزة فقد جرت على السنة الناس كثير من أقوال الرسول ﷺ الموجزة البليغة، أو أجزاء من تعبيراته، بسبب طبيعة صياغتها التصويرية العذبة، أو بسبب طبيعتها التجريدية التأملية الحكمية المتقنة، وشقت طريقها إلى الأقوال المثلية السائرة، فأدرجها بعض علماء الأمثال في كتبهم، لإعجابهم ببلاغتها وسيرورتها، أو للتبرّك بها، وإجلال قدرها. وجل هذه الأقوال المثلية النبويّة من أنواع المثل غير الصريح، لعدم ارتباطها بمورد محدد، أو سياق إخباري قصصي يفسرها، وهي في الغالب من الأقوال السائرة الواضحة كالحكم، والعبارات التقليدية، والعبارات الجاهزة، والنوادر، والعبارات التصويرية، وقد عني بأمثال النبي ﷺ نفر من العلماء جمعوها في مصنفات خاصة بها، إضافة إلى ورودها في كتب الأمثال المختلفة.

المبحث الأول: معنى المثل النبوي.

لا يذكر الرّاهرمزي في كتابه " أمثال الحديث النبوي " تعريفاً محدّداً للمثل النبوي، وإنما يشير إلى أن أمثاله ﷺ ضربان؛ ضرب مشاكل للأمثال المذكورة عن متقدّمي

¹ الرّاهرمزي: القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد. أمثال الحديث. تح د / عبد العلي عبد الحميد. الدار السلفية. بومباي.

الهند. ط 01. 1983. ص 21.

العرب، وهي تقع مواقع الإفهام باللفظ الموجز المجلّ، والضرب الآخر مخالف للأمثال المذكورة عن متقدّمي العرب، وهي بيان وشرح وتمثيل يوافق أمثال التنزيل التي وعد الله عزّ وجلّ بها وأوعد، وحرّم وأحلّ، ورجّى وخوّف، وقرع بها المشركين وجعلها موعظة وتذكيراً، ودلّ على قدرته مشاهدة وعيانا وعاجلا وأجلا.¹

وهو بهذا يبيّن أنّ المثل النبوي نوعان؛ الأوّل هو المثل السائر من كلامه ﷺ التشبيه والمشاكل لأمثال العرب السائرة. والثاني هو القياسي، إذ هو سرد وصفي أو قصصي أو صورة بيانيّة استعملها لبيان أو شرح فكرة ما، بوساطة التشبيه أو التمثيل، وهو الاستعمال الذي يسمّيه علماء البلاغة بالتمثيل المركّب، والذي يكون بتشبيه شيء بشيء لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين إلى الآخر. قال عبد القاهر في أسرار البلاغة: "ينبغي أن تعلم أنّ المثل الحقيقي، والتشبيه الذي هو الأوّل بأن يسمّى " تمثيلا " لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتّى إنّ التشبيه كلّما كان أو غل في كونه عقلياً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر."²

ومن هنا يمكننا القول بأنّ قسماً كبيراً من الأمثال النبويّة هي من قبيل النوع الأخير، أي المثل القياسي أو التمثيل القياسي، بينما النوع الأوّل فيمكن إطلاقه على مجموعة من الأحاديث التي شاعت على ألسنة النّاس، وسنقف بعون الله على مجموعة كبيرة من النوعين من خلال هذا البحث.

المبحث الثاني: أنواع الأمثال الواردة في السنة:

لما كانت أمثال الحديث الشريف للقرآن تبع؛ فهي في أنواعها لا تخرج عن الأنواع التي ذكرتها للقرآن سابقاً، لكن وبالعودة إلى ما قاله الرامهرمزي عن أمثال الحديث النبوي الشريف وتقسيمه لها إلى قسمين:

¹ الرامهرمزي. السابق. ص 05.

² الجرجاني. أسرار البلاغة. ص 108.

* أمثال مشاكلة لأمثال القرآن الكريم.

وأعني بهذا النوع الأمثال التي سار فيها سيّد الخلق على هدي أمثال القرآن؛ فهي بيان وشرح وتمثيل يوافق أمثال التنزيل التي وعد الله عزّ وجلّ بها وأوعد، وحرّم وأحلّ، ورجّى وخوّف، وقرع بها المشركين وجعلها موعظة وتذكيراً، ودلّ على قدرته مشاهدة وعياناً وعاجلاً وأجلاً.¹

ولجلال الدّين السيوطي جهود مشكورة في مجال جمع وترتيب الأحاديث النبويّة؛ ففي كتابيه الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير، جمع الأحاديث مرتّبة على حسب حروف الهجاء في الحرف الأوّل الذي يبدأ به الحديث، وبلغت الأحاديث التي تبدأ بـ " مثل أو مثلي أو مثلكم أو مثلت " واحد وثلاثين ومائة حديث [131] تبدأ بالرّقم 19689 وتنتهي بالرّقم 19820.² وهو عدد كبير من أحاديث التمثيل، لصاحبه الشكر الجزيل على ما قدّم من جهد. وهذا الضّرب ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: الأمثال الظاهرة أو القياسية وهي تلك الأحاديث التي صرّح فيها بلفظ المثل، أو ما يدلّ على التشبيه، ويلمح فيها معنى المثل وصورته، بشكل بيّن واضح. وهذا النوع عني بدراسته الدّارسون الذين بحثوا في بلاغة الرسول ﷺ لكونه يشمل تلك الأحاديث النبوية الشريفة التي ضمنها ﷺ صوراً بلاغية تمثيلية جميلة، تضمنت في الغالب ألفاظ المماثلة لتدلّ على التشبيهات المركبة، أو الاستعارات التمثيلية المفصلة، وهذا النوع كثير في كلامه ﷺ ومن أمثله الأحاديث الآتية:

* عن ابن عبّاس قال: قال النبيّ ﷺ: " ليس لنا مثل السّوء، الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه."³

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " مثل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين، عليهما جبّتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلاّ سبغت -

¹ الرامهرمزي. السابق. ص 05.

² السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن. جامع الأحاديث: الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير. جمع وترتيب عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد. دار الفكر. بيروت. 1994. 423 / 5.

³ صحيح البخاري. حديث رقم 2622. ص 147.

أو وفرت - على جلده، حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسّعها فلا تتسع.¹

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحيّ والميت ".²

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكبير الحدّاد، لا يعدمك من صاحب المسك إمّا تشتريه أو تجد ريحه، وكبير الحدّاد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة ".³

* عن ميمونة بنت سعد [وكانت خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم] قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الرافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها ".⁴

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم، يغتسل منه كلّ يوم خمس مرّات. " قال: قال الحسن: وما يبقي ذلك من الدّرن ".⁵

* عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه ".⁶

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل القلب مثل الريشة تقلّبها الرياح بفلاة ".⁷

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الذي يعتق عند الموت، كمثل الذي يهدي إذا شبع ".⁸

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل القرآن مثل الإبل المعقّلة، إن تعاهدها صاحبها بعقلها أمسكها عليه، وإن أطلق عقلها ذهبت ".¹

1 صحیح البخاری ص 343. حدیث رقمه 1443.

2 صحیح مسلم. ص 358. حدیث رقمه 1707.

3 صحیح البخاری ص 499 حدیث رقمه 2101.

4 سنن الترمذی. ص 356. ورقمه 1170.

5 صحیح مسلم ص 306. ورقمه 1408.

6 الطبرانی. المعجم الكبير. 2 / 166. حدیث رقم 1681.

7 سنن ابن ماجه ص 41 ورقمه 88.

8 سنن أبي داود. ص 739. حدیث رقمه 3968.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مثل الذي يتعلم العلم، ثم لا يحدث به، كمثل الذي يكنز الكنز، فلا ينفق منه " ².

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الذي يجلس يسمع الحكمة، ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بشرّ ما يسمع، كمثل رجل أتى راعياً، فقال: يا راعي اجزني شاة من غنمك، قال: اذهب فخذ بأذن خيرها، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم " ³.

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الذي يتكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، مثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: " أنصت " لا جمعة له " ⁴.

* عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه " ⁵.

* عن جبير بن نفير الحضرمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الذين يغزون من أمّتي ويأخذون الجعل يتقوّون به على عدوّهم، كمثل أمّ موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها " ⁶.

* عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن كمثل العطار، إن جالسته نفعك، وإن ماشيته نفعك، وإن شاركته نفعك " ⁷.

* عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مثل المؤمن مثل الثحلة، لا تأكل إلا طيباً، ولا تضع إلا طيباً " ⁸.

* عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " مثل المؤمن مثل النخلة ما أخذت منها من شيء نفعك " ⁹.

¹ سنن ابن ماجه ص 853. ورقمه 3783.

² الطبراني. الأوسط. 1 / 213. حديث رقم 689.

³ سنن ابن ماجه. ص 952. ورقمه 4172.

⁴ الطبراني. الكبير. 12 / 80. حديث رقم 12563.

⁵ الطبراني. الكبير. 2 / 166. حديث رقم 1681.

⁶ ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد. المصنف. تحقيق محمد عوّامة. دار قرطبة. بيروت. ط 01. 2006. 10 / 354. حديث رقم 19881.

⁷ الطبراني. الكبير. 12 / 418. حديث رقم 13541.

⁸ الطبراني. المعجم الأوسط. قسم التحقيق بدار الحرمين. دار الحرمين للطباعة والنشر. 1995. 3 / 110. ورقمه 2637.

⁹ الطبراني. الكبير. 12 / 411. حديث رقم 13514.

* عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مثل المؤمن كمثل النحلة، أكلت طيبًا، ووضعت طيبًا ووقعت طيبًا، فلم تفسد ولم تكسر، ومثل العبد المؤمن مثل القطعة الجيدة من الذهب نفخ عليها فخرجت طيبة ووزنت فلم تنقص."¹

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن مثل السنبله، تميل أحيانا، وتقوم أحيانا " ².

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مثل المؤمن مثل السنبله تستقيم مرّة، تخرّ مرّة، ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال مستقيمة حتى تخرّ ولا تشعر."³

* عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، تفيئها الرّيح، تصرعها مرّة وتعدها أخرى، حتى تهيج. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجدية على أصلها، لا يفيئها شيء. حتى يكون انجعافها مرّة واحدة."⁴

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ و لا ريح لها ومثل الجليس الصّالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه."⁵

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها، وطعمها حلوّ. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب،

¹ الحاكم النيسابوري. المستدرک علی الصحیحین. 1 / 137. حدیث رقمه 253.

² التميمي: أحمد بن علي بن المثنى. مسند أبي يعلى الموصلي. تح حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث. 406/5. حدیث رقم 3080.

³ الإمام أحمد. المسند. 12 / 85. حدیث رقم 15092.

⁴ صحيح مسلم ص 1382. ورقمه 6988.

⁵ سنن أبي داود ص 906. ورقمه 4829.

وطعمها مرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ریح وطعمها مرّ.¹

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مثل المؤمن كالبيت الخرب في الظاهر، فإذا دخلته وجدته موقفاً، ومثل الفاجر كمثل القبر المشرف المصّص، يعجب من يراه وجوفه ممتلئ نتنا.²

* عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.³

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: " مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى.⁴

* عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المرأة الصالحة في النساء، كمثل الغراب الأعصم." قيل: يا رسول الله وما الغراب الأعصم؟ قال: " الذي إحدى رجليه بيضاء.⁵

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرّة، وإلى هذه مرّة."⁶ وعند النسائي بزيادة " لا تدري أيهما تتبع.⁷

* عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مثل ابن آدم وإلى جنبه تسعة وتسعون منية، إن أخطأته المنايا وقع في الهرم حتى يموت.⁸

* عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل أصحابي في الناس كمثل الملح في الطعام." ثم قال الحسن: " هيهات ذهب ملح القوم.⁹

1 صحيح مسلم ص 364. ورقمه 1744.

2 البيهقي شعب الإيمان. 9 / 207. حديث رقم 6540.

3 صحيح مسلم ص 196. ورقمه 6481.

4 جزء حديث في صحيح مسلم ص 954. ورقمه 4762.

5 الطبراني. الكبير 8 / 238. حديث رقم 7817.

6 صحيح مسلم ص 1370. ورقمه 6937.

7 سنن النسائي. ص 1153. ورقمه 5047.

8 سنن الترمذي. ص 629. ورقمه 2157.

9 الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام. المصنف. تح حبيب الرحمن الأعظمي. منشورات المجلس العلمي. 11 / 221. حديث رقم

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " مثل أمّتي مثل المطر، لا يُدرى أوّله خير، أم آخره."¹

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: " مثل بلال كمثل نحلة غدّت تأكل من الحلو والمرّ، ثم هو حلو كله."²

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " مثلي ومثل الساعة كهاتين." وفرّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: " مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان"، ثم قال: " مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق الأح بثوبه: أنيتم أنيتم." ثم يقول رسول الله ﷺ: " أنا ذلك."³

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يدبّهنّ عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقاتلون من يدي."⁴

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً."⁵

وقد جاء هذا الضرب من الأمثال النبويّة على نسق الأمثال القرآنية القياسية.

النوع الثاني: الأمثال الكامنة؛ وهي التي لم يصرّح فيها بلفظ المثل، بل يلمح معناه بصورة خفية، وأكثر ما سار عنه من أمثال هذا النوع ما أتى به ﷺ من معين بلاغته وفصاحته، ولم يسمع من العرب قبله، كقوله ﷺ:

* اليد العليا خير من اليد السفلى.⁶

* مات حتف أنفه.⁷

¹ سنن الترمذي. ص 814. ورقمه 2878.

² الطبراني. المعجم الأوسط. قسم التحقيق بدار الحرمين. دار الحرمين للطباعة والنشر. 1995. 1 / 64. ورقمه 179.

³ الإمام أحمد. المسند 16 / 433. حديث رقم 22707.

⁴ صحيح مسلم ص 1145. ورقمه 5852.

⁵ البخاري ص 1528. رقم 6026.

⁶ هذا المثل ذكره ابن دريد في كتاب المجتبى ص 19 وهو جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ورقمه 1427 ص 340 عن

حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله."

⁷ هذا المثل ذكره ابن دريد في كتاب المجتبى ص 13 وهو جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده تحت رقم 16366 بسند صحيح،

* هذا حين حمي الوطيس.¹

وثمة مجموعة من الأمثال العربية الجاهلية التي عرفت قبل الإسلام، استعملها ﷺ وهذبها، فنسبت إليه وكاد أصلها الجاهلي أن ينسى، ومن أمثلة هذا الضرب:

* " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " ² ذكر الميداني أنّ أول من قاله جندب بن العنبر بن تميم بن عمرو. وقد ذكر الرسول ﷺ هذا المثل وهذبته، فعن أنس رضي الله عنه قال: " قال رسول الله ﷺ: انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا: يا رسول الله، هذا ينصره مظلوما فكيف ينصره ظالما؟ قال تمنعه من الظلم " ³ فالحديث يبيّن أنّ شروط النصرة في الحديث مخالفة للتي في المثل، وهو توضيح من رسول الله ما كان ليكون لولا إدراكه لأهمية الأمثال في حياة الناس وعنايتهم بها.

* " كلّ الصيّد في جوف الفرا " ⁴ وقائله عند الميداني أحد ثلاثة خرجوا للصّيد، فاصطاد أحدهم أرنباً والآخر ظبيا والثالث حمارا، فاستبشر صائدا الأرنب والظبي، وتطاولا على الثالث فقال: كلّ الصيد في جوف الفرا ". وقد قال رسول الله ﷺ هذا المثل لأبي سفيان يتألفه على الإسلام: " يا أبا سفيان أنت كما قيل: كلّ الصيّد في جوف الفرا. " ⁵ ويذكر الجاحظ هذا المثل في كلام الرسول ﷺ الذي لم يسبقه إليه أحد. ⁶

رجاله مشهورون برغم تدليس ابن إسحاق، قال حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن محمد بن عبد الله بن عتيك أحد بني سلمة عن أبيه عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله عز وجل، ثم قال: بأصابه هؤلاء الثلاثة: الوسطى والسبابة والإمام، فجمعهم وقال: وأين المجاهدون؟ فخرّ عن دابته ومات فقد وقع أجره على الله تعالى، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله عز وجل. والله أعلم لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ: فمات فقد وقع أجره على الله، ومن مات قعصا فقد استوجب المآب.

¹ ذكر هذا المثل عند الميداني في مجمع الأمثال 2 / 122، وابن دريد في المحتسب: باب ما سمع من النبي ﷺ ولم يسمع من غيره قبله ص 13. والجاحظ في كتابه البيان والتبيين عند ذكر " كلام رسول الله ﷺ " مما لم يسبقه إليه عربي ولم يشاركه فيه عجمي ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد، ممّا صار مستعملا ومثلا سائرا. وذكره الشريف الرضا في المحازات النبوية ص 26. وهو جزء من حديث العباس بن عبد المطلب الصحيح في غزوة حنين، أخرجه مسلم في صحيحه ص 897 ورقمه 4504، والإمام أحمد في مسنده 1 / 382 ورقمه 1775.

² الميداني . المصدر نفسه 2 / 392.

³ البيهقي. أبو بكر أحمد بن الحسين. الآداب. تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا. ط 1. دار الكتب العلمية. بيروت. 1986. ص 93

⁴ الميداني . مجمع الأمثال. 2 / 158.

⁵ الميداني. نفسه. 2 / 158.

⁶ الجاحظ. البيان. تح جويدي. 2 / 244.

* " الدالّ على الخير كفاعله " نقل الميداني عن المفضل أنّ أوّل من قاله اللّجيج بن شنيف اليربوعي في قصّة طويلة ذكرها في كتابه الفاخر.¹ وهذا المثل حديث أخرجه البخاري.²

* " من ير يوما ير به." ³ نقل الميداني أنّ أوّل من قاله كحلب بن شؤبوب الأسدّي لحارثة بن أم الطائي وقت أسره. والمثل حديث أخرجه مسلم ونصّه: " من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به." ⁴

* " من مأمنه يؤتى الحذر" ⁵ نسبه الميداني لأكتم بن صيفي وذكر بأنّ هناك حديثاً مثله وهو " لا ينفع حذر من قدر".

النوع الثالث: الأمثال السائرة، وتدعى أيضاً الأمثال المرسلّة؛ وهي أحاديث أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه، ثم جرت مجرى الأمثال ومنها قوله ﷺ:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله في خبر طويل عن فتن آخر الزمن: "هدنة على دخن." ⁶

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: " يسّروا ولا تعسّروا وسكنوا ولا تنفّروا." ⁷

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " إن من البيان لسحرا." ⁸

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: " إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى." ⁹

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " إنّما الناس كابل مئة لا تجد فيها راحلة." ¹⁰

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين." ¹¹

¹ الميداني. السابق. 1 / 330. وانظر الفاخر. ص 107.

² أخرجه مسلم ولفظه عنده: " من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله " الصحيح ص 960.

³ الميداني . السابق 2 / 356.

⁴ مسلم. المصدر نفسه. ص 1462

⁵ الميداني . السابق. 2 / 364.

⁶ سنن أبي داود. ص 788. حديث رقم 4226. وذكره البكري في فصل المقال. ونسبه إلى الرسول صلى الله عليه وآله. ص 9

⁷ البخاري ص 1549. رقم 6125.

⁸ صحيح البخاري. ص 1322. ورقمه 5146.

⁹ البيهقي. شعب الإيمان. تحت رقم 3603. 5 / 395.

¹⁰ سنن الترمذي ص 815. رقم 2882.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " ارفق يا أنجشة، ويحك، بالقوارير."²
 عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " المستشار مؤتمن."³
 عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: " إن الحياء من الإيمان."⁴
 عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث."⁵
 عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " الحرب خدعة."⁶
 عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " من لا يرحم لا يرحم."⁷
 عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: " المرء مع من أحب."⁸
 قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: الكلمة الطيبة صدقة.⁹
 عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: الظلم ظلمات يوم القيامة.¹⁰
 عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " الصبر عند الصدمة الأولى."¹¹
 عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " الذين النصيحة."¹²
 وغالبا ما يوظف هذا الضرب من الأمثال في الوعظ والإرشاد للاحتجاج والتأثير. وربما أدرجت في خلال القصص أو الخطب كعناصر استشهاد ودعم للتعبير جانبه الحجاجي والجمالي.

* أمثال مشاكلة للأمثال المذكورة عن متقدمي العرب.

-
- 1 صحيح مسلم. ص 1466. حديث رقم 7392.
 - 2 البخاري ص 1570. رقم 6209.
 - 3 سنن الترمذي. حديث رقمه: 2831 و 2832. ص 802.
 - 4 صحيح البخاري. ورقمه 24 ونصه: " دعه فإن الحياء من الإيمان." ص 26.
 - 5 صحيح البخاري ص 1536. رقم 6064.
 - 6 صحيح مسلم. ص 877. حديث رقم 4430. وله رواية أخرى عن أبي هريرة رقم 4431. وهو مثل من أمثال رسول الله ﷺ التي لم يسبق إليها كما ذكر ابن دريد في المحتسبي ص 15.
 - 7 صحيح البخاري ص 1525. رقم 6013.
 - 8 البخاري ص 1561. رقم 6170. وله طرق أخرى في صحيحه
 - 9 البخاري. ص 1527. أول ما افتتح به البخاري باب طيب الكلام من كتاب الأدب.
 - 10 البخاري ص 586. حديث رقم 2447.
 - 11 صحيح مسلم. ص 421. حديث رقمه 2023.
 - 12 صحيح مسلم. ص 55. حديث رقم 101.

والمقصود بالأمثال المشاكلة للمذكورة عن متقدمي العرب، وقد كثر هذا النوع في كتب جامعي الأمثال كمجمع الميداني، وسبق أن رأيناه يقول بأنه أفرد الباب الثلاثون من كتابه لأقوال رسول الله ﷺ، ويمكننا أن نجمل الأمثال النبوية من هذا النوع في الأصناف التالية:

النوع الأول: أمثال أصلها أحاديث ومنها:

* قال أبو فيد مؤرج بن عمرو قال النبي ﷺ " نعم الحي بنو مدلج، إذا أهلوا عَجَّوا وإذا نَحروا ثَجَّوا "1

جاء في اللسان : عَجَّوا: إلى الله في الدعاء وعَجَّوا في التلبية.2 ثَجَّ: الماء والدم يثج ثجا.3

و ذكر الراغب في المفردات حديث الرسول ﷺ " أفضل الحج العَجّ والثَجّ " أي رفع الصوت بالتلبية وإسالة دم الهدي.4 قال تعالى:5 ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا.﴾

وأخرج الترمذي بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الحج أفضل؟ قال: " العَجّ والثَجّ. " وقال: حديث أبي بكر حديث غريب.6 ثم شرح العَجّ بقوله: " والعَجّ هو رفع الصوت بالتلبية و الثَجّ هو نحر البُدن ".7 والحديث عند ابن ماجة في سننه بسنده عن عن أبي بكر رضي الله عنه هو الآخر.8

أمّا بنو مدلج الذين مدحهم الرسول ﷺ في هذا الحديث فهم بطن من ولد مر بن عبد مناة، فيهم القيافة والعيافة، ومنهم سراقبة بن مالك الذي اتبع رسول الله ﷺ ليردّه فظهرت

1 المؤرج . الأمثال. ص 77.

2 ابن منظور. لسان العرب. مادة عَجج. 2813 / 04.

3 نفسه. مادة ثَجج . 472 / 01.

4 الراغب الأصفهاني . المفردات . ص 172.

5 النبأ / 14.

6 الترمذي . السنن . ص 260.

7 الترمذي . السنن . ص 261 .

8 ابن ماجة . السنن . 675.

فيه تلك الآية حتى صرفه الله عنه¹ وهو أحد الذين اتصل سؤددهم في الجاهلية والإسلام.²
والإسلام.³ ومنهم كذلك محرز المدلجي الذي سُرَّ النبي ﷺ بقيافته.⁴
* "إنَّ من البيان لسحرا".⁵ وأصل المثل حديث لرسول الله ونصّه عند أبي داود.⁶
* "إنَّ المنبِتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"⁷ والمثل حديث ذكره البيهقي في الشعب.⁸
* "إنَّ ممَّا ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلمّ"⁹.
* "هدنة على دخن"¹⁰. ذكره أبو عبيد في بزيادة "وجماعة على أقداء" ونسبه إلى الرسول ﷺ.¹¹
* وقوله: "جماعة على أقداء" ذكره الميداني في موطن آخر من مجمه كمثل مستقل.¹²
* "العدة عطية"¹³ ذكره الميداني دون أن ينسبه إلى رسول الله ﷺ. وقال عنه أبو عبيد في فصل المقال: حديث مرفوع.¹⁴
* "الجار ثم الدار".¹⁵

1 ابن حزم. علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون. مصر. دار المعارف. 1962. ص 187.
2 ابن دريد. الإشتقاق. ص 306.
3 ابن حزم. السابق ص 187.
4 الميداني. السابق 1 / 21.
5 أبو داود. السنن. ص 936.
6 الميداني. السابق 1 / 21.
7 البيهقي. شعب الإيمان. تحت رقم 3603. 5 / 395. ونصّه: عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إنَّ هذا الدِّينَ متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإنَّ المنبِتَّ لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى، فاعمل عمل أمريء يظن أن لن يموت أبدا واحذر حذرا تحشى أن تموت غدا."
8 الميداني. السابق. 1 / 22.
9 الميداني. مجمع الأمثال. 2 / 451.
10 البكري. فصل المقال. ص 9.
11 الميداني. السابق. 1 / 202.
12 الميداني. نفسه. 2 / 34.
13 البكري. السابق. ص 84.
14 الميداني. السابق. 1 / 215.

المبحث الثالث: قضايا الأمثال النبوية.

استعان النبي ﷺ في قيامه بمهمة التبیین والبلاغ التي أمره الله عز وجل بها بشئى أساليب الإيضاح والتعلیم، وفي الدروة من تلك الأساليب يأتي أسلوب ضرب المثل. وضرب الأمثال في البيان النبوي لم يأت لغاية فنية بحتة كغاية الأدباء في تزيين الكلام وتحسينه، وإنما جاء لهدف أسمى، وهو إبراز المعاني في صورة مجسمة لتوضيح الغامض، وتقريب البعيد، وإظهار المعقول في صورة المحسوس، كما أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية، يحث النفوس على فعل الخير ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو في نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم، لأجل ذلك ضرب النبي ﷺ طائفة من الأمثال في قضايا مختلفة وفي مواطن متعددة.

ولما كان الهدف من ضرب الأمثال هو إدراك المعاني الذهنية المجردة، وتقريبها من العقل، وتكوين صورة لهذا المعنى في المخيلة، ليكون التأثير بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة، كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن الكريم، قال سبحانه: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون.)¹ حتى ضربت فيه الأمثال ببعض

¹ الزمر / 26.

الأشياء التي تبدو بسيطة، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ* الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.)¹

كان الرسول ﷺ يمرّ بآيات الأمثال المضروبة للناس، ويجد أثرها في الرد والتحدي، والترغيب والترهيب، وكان يعرف دور المثل ومكانته عند قومه، فلا غرابة إذا أن يحظى المثل باهتمامه ﷺ وسيلة من الوسائل التي تعينه على أداء هذه المهمة.

والمأمل للأمثال النبوية يجد التنوع صفة ظاهرة فيها، فقد نوع ﷺ في الممثل وضارب المثل نفسه، فتارة يسند ضرب المثل إلى نفسه ﷺ كما في حديث البخاري الذي حاله مع الأنبياء قبله، وتارة يسند ضرب المثل لله عز وجل كما في قوله ﷺ الحديث الذي رواه الإمام أحمد " إن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما ... " وتارة يسند ضربه للملائكة كما في حديث البخاري في قصة الملائكة اللذين جاؤوا إلى النبي ﷺ وهو نائم والشاهد فيه أنهم قالوا إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا فضربوا مثلا لحاله مع أمته.

ونوع ﷺ كذلك في موضوع المثل، والغرض الذي سيق لأجله، فضرب الأمثال في مواضيع متعددة ولأغراض شتى من أمور العقيدة والعبادة، والأخلاق والزهد، والعلم والدعوة، وفضائل الأعمال والترغيب والترهيب، وغير ذلك.

ونوع ﷺ في أسلوب العرض وطريقة ضرب المثل، فاتخذ لضربه طرقا متعددة، وأساليب مختلفة، وسلك في ذلك كل ما من شأنه إيضاح المراد، وإبرازه ماثلا أمام الأعين. فمن تلك الأساليب استخدامه للإشارة التي تلفت أنظار السامعين وتعينهم على الفهم، وفيها تشترك أكثر من حاسة في العملية التعليمية، فالناظر يرى الإشارة، ويسمع العبارة، فيكون ذلك أدعى للتذكر، كما في البخاري في الحديث الذي أشار فيه النبي ﷺ بإصبعيه عندما أراد أن يقرر أن بعثته مقاربة لقيام الساعة، ومن ذلك أيضا استعانته

¹ البقرة / 25 . 26.

بالرسم التوضيحي كوسيلة من وسائل التعليم والإيضاح, عندما تحدث عن قضية اتباع سبيل الله وصراطه المستقيم والتحذير من سبل الشيطان الأخرى.

وقد حرص ﷺ على ضرب المثل في الأحداث والمواقف المتعددة لأهداف تربوية, ففي بعض المواقف كان يكفيه ﷺ أن يردّ ردا مباشرا لكنه أثر ضرب المثل لما يحمله من توجيه تربوي وسرعة في إيصال المعنى المراد وقد لا يؤدي غيره دوره في هذا المقام, فيراه الصحابة مرة نائما على حصير وقد أثر الحصير في جنبه فيقولون له: " يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فيقول: " مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها "1 حتى المشاهد، التي تمر في حياة الناس، فلا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالا، يجد فيها ﷺ أداة مناسبة للتوجيه والتعليم وضرب الأمثال بها، يمر ومعه الصحابة على سخلة منبوزة فيقول لهم: " أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟ قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها."2

فهذه الشواهد، وغيرها كثير، تؤكد مكانة الأمثال في السنة النبوية، واهتمام النبي ﷺ بها، وضرورة الاعتناء بالأمثال النبوية جمعا وتحليلا ودراسة، والاستفادة المثلى منها الحياة.

1 الترمذي. السنن ص 688. رقم 2384.

2 نفسه ص 675. رقم 2328.

المبحث الرابع: بين الأمثال القرآنية والأمثال النبوية.

تحتلّ السنّة النبوية مكانة مرموقة في الفكر الإسلامي؛ إذ هي مبيّنة ومفصّلة لمجمله، مخصّصة لعمومه، مقبّدة لمطلقه، مفسّرة لمتشابهه. ولذلك تظهر وأنّ الحاجة إليها شديدة، حتّى قال عنها سيّد الخلق ﷺ: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه."¹ وفي رواية: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه."² قال الخطابي: "قوله أوتيت الكتاب ومثله معه يحتمل وجهين من التّأويل؛ أحدهما أن يكون معناه أنّه أوتي من الوحي الباطن غير المتلوّ مثل ما أعطي من الظاهر المتلوّ، ويحتمل أن يكون معناه أنّه أوتي الكتاب وحيا يتلى، وأوتي من البيان أي أذن له أن يبيّن ما في الكتاب ويعمّ ويخصّ وأن يزيد عليه فيشرّع ما ليس له في الكتاب ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلوّ."³ وقال البغوي: "وأراد به أنّه أوتي من الوحي غير المتلوّ، والسنن التي لم ينطق القرآن بنصّها مثل ما أوتي من المتلوّ."⁴ وقال الشيخ خليل أحمد السّهارنفوري: "أي ومثل الكتاب معه، وهو الحديث لأنّه الوحي غير المتلوّ، والمماثلة في وجوب العمل والاعتقاد بهما لأنّ الحديث إذا سمع من رسول الله فهو قطعي مثل القرآن."⁵

¹ سنن أبي داود. ص 862. رقم 4604. وهو مقطع من حديث المقدام بن معديكرب.

² مسند أحمد. 13 / 291. رقم 17108. وهو كذلك مقطع من حديث المقدام بن معديكرب.

³ الخطابي: حمد بن محمد، أبو سليمان. معالم السنن. تصحيح محمد راغب الطباخ. المطبعة العلميّة. حلب. ط 01. 1932. 4 / 298.

⁴ البغوي: الحسين بن مسعود. شرح السنّة. تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش. المكتب الإسلامي. بيروت / دمشق. ط 02.

1983. 1 / 201.

⁵ السّهارنفوري: خليل أحمد. بذل المجهود في حلّ أبي داود. تعليق العلامة محمد زكريا الكاندهلوي. دار الكتب العلميّة. بيروت. د ت.

126 / 18.

وتظهر هذه الشروح ما للسنة النبوية من قيمة وفضل، إذ هي ليست شرحا للقرآن فحسب، بل قد يشرع فيها ما لم يرد ذكره في القرآن، أي أنها تبين للقرآن وزيادة عليه، يقول تعالى: (بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون.)¹

ولما كانت الأمثال تسهل للناس التفكير والتعقل، والتذكر بما تشتمل عليه من قياس للأمور وإحاطة الأمر بنظيره، والمساواة بين المتشابهات في الأحكام، وإخراج الغامض والمجهول إلى حيز المعلوم المحسوس أو المعقول، وهذا هو الاعتبار المؤدي إلى استخلاص العبر والحكم مما ورد في أمثال القرآن الكريم والسنة المطهرة بمختلف أنواعها.

ويذهب ابن القيم إلى أن الأمثال تسهل فهم المعنى المراد، وتعين على التفكير والتذكر والاعتبار، وذلك حين قال: " وقد أخبر سبحانه أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه، وأمر باستماع أمثاله، ودعا عباده إلى تعقلها والتفكير فيها والاعتبار بها وهذا هو المقصود بها. "²

وقال عن أمثال الرسول ﷺ في مقام آخر: " فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله ﷺ لتقريب المراد، وتفهم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشياء الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النّظير، ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصّة العقل ولّبه وثمرته. "³

¹ النحل / 44.

² ابن القيم. إعلام الموقعين. 2 / 330.

³ نفسه. 02 / 425.

المبحث الخامس مصنفات الأمثال النبوية

المصادر التي يمكننا أن نجد فيها أمثالا نبوية كثيرة؛ فبالإضافة إلى كتب الأمثال العامة ككتب الميداني وأبي عبيد واليوسي والخوارزمي وغيرهم، حيث خصص بعضهم بابا للأمثال النبوية، وجاءت عند آخرين في ثنايا كتبهم موزعة على أبوابه، فهناك كتبهم أفردوا أصحابها للأمثال النبوية، كما حوت بعض المعاجم المتخصصة، ممثلة في كتب الغريب، على مادة مثلية هامة، ذكرها مصنفوها عند تعرضهم شرحهم لمفردات الأحاديث وبيان مواطن البلاغة فيها. وسأحاول في هذا البحث تسليط الأضواء على مصدرين للأمثال النبوية هما مصنفات الأمثال النبوية الخالصة وكتب الغريب.

مصنفات الأمثال النبوية

جهود جماع الأمثال في جمع الأمثال النبوية

عني مجموعة من جامعي الأمثال بذكر بعض الأمثال النبوية، لكنهم اختلفوا اختلافا بيّنا في ذلك، وأشهر من قام بذلك أبو عبيد في كتابه الأمثال، والميداني في كتابه " مجمع الأمثال".

فأبو عبيد لم يخصص في كتابه الأمثال بابا للأمثال النبوية، ومع ذلك ذكر فيه مجموعة من الأحاديث التي سارت في كلام الناس مسار الأمثال، وكان ينبّه عند ذكرها على أنها حديث؛ غالبا ما يكون مرفوعا، عنه ﷺ وهذه بعض منها:
قال أبو عبيد: " ومنه الحديث " الإثم ما حكّ في صدرك وإن أفتاك الناس عنه وأفتوك."¹
قال أبو عبيد: ومنه حديث عبد الله " الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تنكر منها اختلف."²

¹ البكري. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ص 309. والمثل مقطوع من حديث عند مسلم ص 1266. رقم 6411 و 6412.

ولفظه في الصحيح: " البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

² نفسه. ص 261. والمثل حديث في صحيح البخاري ص 814. رقم 3336.

قال أبو عبيد [ومنه الحديث]: " أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن بغيضك يوماً، وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً".¹

قال أبو عبيد: ومنه الحديث المرفوع " أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم".²

قال أبو عبيد: " منها قوله حين ذكر الربا في آخر الزمان، فقال: من لم يأكله أصابه من غباره".³

قال أبو عبيد: وفي بعض الحديث " ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".⁴

أمّا الميداني فبيّن في مقدّمة كتابه أنّه قسّم كتابه إلى ثلاثين باباً، جعل " الباب الثلاثين في نبذ من كلام النبي ﷺ وكلام خلفاء الرّاشدين ﷺ أجمعين ممّا ينخرط في سلك المواظ والحكم والآداب".⁵

ويظهر لي من كلام الميداني في مقدّمة كتابه وتمثله بحديث من تمثيلات الرسول ﷺ، ثم إشارته إلى مصنّف أبي أحمد العسكري في أمثال الحديث، أنّ الرّجل يكبر هذا النوع، ولذلك فهو لا يكتفي بما ذكر بل نجده يحشد في كتابه كمّاً هائلاً من هذا النوع؛ استهلّ به كتابه ثمّ بثّه بعد ذلك في ثناياه. وكأنموذج لذلك أقتصر على ذكر أول مثل ذكره وهو: " إنّ من البيان لسحرا".⁶ وأصل المثل حديث لرسول الله ﷺ ونصّه عند أبي داود.⁷ وسنأتي على ذكر الكثير منها في البحث.

جهود علماء الحديث التّصنيف في أمثال الرسول ﷺ

¹ البكري: السابق. ص 264. والمثل حديث في سنن الترمذي ص 588. رقم 2004. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

² البكري. نفسه. ص 45. والمثل مقطع من حديث في سنن أبي داود. ص 816. رقم 4376. وقامه: " ... إلا الحدود."

³ نفسه. ص 14. وهو مقطع من حديث في سنن النسائي ص 1047. رقم 4462. ونصّه: " يأتي على النّاس زمان يأكلون الرّبا فمن.."

⁴ نفسه. ص 410. والمثل مقطع من حديث في سنن أبي ماجه. ص 936. رقم 4102. ولفظه: " ازهد في الدّنيا يحبك الله، وازهد فيما

في أيدي النّاس يحبوك."

⁵ الميداني. مجمع الأمثال. من مقدّمة المصنّف ص 17.

⁶ نفسه 1 / 21.

⁷ أبو داود. السنن. ص 936.

بدأت العناية بأمثال الرسول ﷺ في فترة مبكرة، فقد أثر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قوله: " حفظت من رسول الله ﷺ ألف مثل.¹ لكن اختلاطها ببقية الأحاديث أضر أفرادها في مصنفات خاصة بها. فإذا نظرنا في كتب الحديث الشهيرة وخاصة الكتب الستة، لا نجد من العلماء من خصص لها بابا مستقلا سوى الترمذي في جامعه.² وهو عمل جعل أبا بكر بن العربي يقول عنه في شرحه الموسوم بعارضة الأحوزي: " ولم أر أحدا من أهل الحديث صنّف فأفرد لها بابا غير أ عيسى والله درّه لقد فتح بابا أو بنى قصرا أو دارا ولكن اختط خطأ صغيرا فنحن نقنع به ونشكره عليه ".³

أمّا مصنفات الحديث الأخرى ككتب الصحيح والسنن والمسانيد وغيرها فجاءت الأمثال فيها مفرقة في ثنايا الكتاب، موزعة على مختلف الأبواب وهو ما يجعل الرجوع إليها، والاستفادة منها أمرا شاقا، وهو ما سنراه لاحقا.

وقد انعكس هذا الفتور في تصنيف أمثال الحديث مفردة على العلماء والدارسين، وكان أول ما صادفنا من كتب هذا الفن هو كتاب المجتبي لابن دريد⁴ وبعده كتاب الحكيم الترمذي⁵ الموسوم بالأمثال من الكتاب والسنّة، بعده نجد كتاب الأمثال السائرة عن رسول الله لأبي عروبة الحرّاني⁶، ثم توالى المصنّفات، فظهر كتاب أمثال الحديث

¹ أبو الشيخ الأصبهاني: أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان. كتاب الأمثال في الحديث النبوي. تح د / عبد العلي عبد الحميد.

الدار السلفية. بومباي. الهند. ط 01 . 1982. ص 22 / وانظر: الرامهرمي: القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد. أمثال الحديث. تح د / عبد العلي عبد الحميد. دار السلفية. بومباي. الهند. ط 01 . 1983. ص 05. وعنده " حفظت عن "

² الترمذي. الجامع المختصر من السنن. ص 811 وما بعدها.

³ ابن العربي: أبو بكر الحافظ. عارضة الأحوزي بشرح سنن الترمذي. دار الكتب العلمية. لبنان. 10 / 296.

⁴ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، عالم باللغة والأدب، تتلمذ على علماء البصرة وكان على مذهبهم. توفي عام 321 هـ. له مصنفات عديدة منها: كتاب الجهرة، وهو أشهرها، وكتب أخرى منها المجتبي. انظر الفهرست للندم. ص 67.

⁵ الحكيم الترمذي: أبو عبد الله محمد بن علي. باحث صوفي، عالم بالحديث، من أهل " ترمذ " نفي منها لأنه صنّف كتابا خالف فيه ما عليه أهلها فشهدوا عليه بالكفر. توفي عام 320 هـ. له ترجمة في تحذيب سير أعلام النبلاء للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد

بن عثمان. تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. ط 1. 1991. 1 / 542. وفي الأعلام لخير الدين الزركلي 6 / 272.

⁶ أبو عروبة: الحسين بن محمد بن أبي معشر الحرّاني. مؤرخ ومحدث ثقة، كان عارفا بالرجال والحديث. توفي عام 318 هـ. من مصنفاته: الطبقات، وكتاب الأوائل، وكتاب الأمثال المذكور أعلاه. وغير ذلك من المصنّفات. انظر: تاريخ التراث العربي. 1 / 347.

348. وانظر الأعلام للزركلي. 2 / 253.

للامهرمزي¹ ثم كتاب الأمثال في الحديث النبوي الشريف لأبي الشيخ الاصبهاني من بعده².

بعد ذلك ألف أبو أحمد العسكري³ كتابه " الحكم والأمثال المروية عن رسول الله ﷺ وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها "، بعده نسمع عن كتاب في الأمثال من تصنيف الشريف الرضي⁴، بعد ذلك بزمن يظهر كتاب " الأمثال والحكم " للماوردي، ثم يظهر من بعده " كتاب الشهاب في الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله ﷺ " للقضاعي⁵ وكذلك كتابه المعروف بـ " مسند الشهاب " ⁶.

وبالنظر إلى تراجم حيوات هؤلاء الأعلام نتبين أنهم عاشوا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع، وهو عصر يظهر لي أنّ حركة الكتابة في أمثال الحديث الشريف كانت نشطة للغاية، ولم تقتصر على علماء الاختصاص وحدهم، بل شغلت جمعا كبيرا من الأدباء والكتّاب الذين عاشوا في تلك الفترة أو الذين جاؤوا من بعدهم.

- ¹ الامهرمزي: أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد. توفي عام 360 هـ. من كتبه: كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والراعي، وهو مدخل إلى علم دراية الحديث، وكتاب أمثال الحديث. اظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان. تعريب الدكتور عبد الحليم النجار. دار المعارف. ط 5. 3 / 209. والأنساب للسمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور. تحقيق عبد الله عمر البارودي. دار الجنان. ط 1. 3 / 1988. 30.
- ² ابن حيان: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، الشهير بأبي الشيخ الاصبهاني. من شيوخه البزار صاحب المسند. توفي عام 369 هـ. انظر تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. ط 01. 1991. 3 / 181. وهو عند بروكلمان: أبو محمد عبد الله بن محمد بن حبان المعروف بابن الشيخ الأنصاري. تاريخ الأدب العربي 3 / 226. ولم يذكر له كتابا في أمثال الحديث بل ذكر له كتاب طبقات المحدثين باصبهان والواردين عليها.
- ³ العسكري: الحسن بن عبد الله بن سعيد أبو أحمد. أديب ولغوي ونحوي كبير. له مصنفات كثيرة منها المصون في الأدب وكتاب التصحيف والحكم والأمثال وغيرها من المصنفات المفيدة. توفي عام 382 هـ. انظر في ترجمته: معجم المؤلفين لرضا كحالة. 1 / 559. وغيره من كتب الطبقات ومعاجم الأعلام.
- ⁴ ذكره بهذا التفصيل ابن خنير الإشبيلي؛ انظر فهرسة ابن خنير لأبي بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة. تح محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 1998. ص 171.
- ⁵ أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى، الشريف الرضي. عالم وأديب وشاعر، تولى نقابة الطالبيين ببغداد وبها توفي عام 406 هـ. من مصنفاته: ديوان شعر وتلخيص البيان في مجازات القرآن والمجازات النبوية وغيرها من المصنفات. انظر معجم المؤلفين لكحالة 3 / 263.
- ⁶ القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن محمد بن علي. فقيه ومحدث ومؤرخ. تولى القضاء بمصر. له مصنفات عديدة منها؛ المختار في ذكر الخطط والآثار و درة الواعظين وذخر العابدين و مسند الشهاب وغيرها من الكتب النافعة، توفي عام 454 هـ. انظر معجم المؤلفين لكحالة. 3 / 327.
- ⁷ ذكر ابن خنير في فهرسته أحما كتابان. انظر فهرسة ابن خنير ص 154 و 156.

فهذا الجاحظ¹ يذكر في كتابه البيان والتبيين مجموعة من أمثال رسول الله ﷺ التي سارت في الناس ويقول عنها: " وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ ممّا لم يسبقه إليه عربي ولم يشاركه فيه عجمي ولم يدّع لأحد ولا ادّعاه أحد، ممّا صار مستعملا ومثلا سائرا² ". وذكر الثعالبي³ في جملة من كتبه بعض أمثال رسول الله ﷺ، قال مبينا ذلك في مقدمة كتابه " التمثل والمحاضرة: " فيوجد فيه ما يتمثل به من القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وجوامع كلم النبي عليه السلام، وكلام الأنبياء قبله والصحابة والتابعين بعده وعيون أمثال العرب والعجم وما يناسبها ويشاكلها من نتف الخلفاء.⁴ " وعقد الباب الثاني من كتابه " الإعجاز والإيجاز " في جوامع الكلم عن النبي ﷺ وجعل الفصل الأول منه في جوامع تشبيهاته وتمثيلاته⁵.

وصنّف ابن أبي الأصعب المصري⁶ كتابا في الأمثال ذكر فيه ما وقع في القرآن الكريم الكريم من الأمثال ثم ألحق بها أمثال الرسول ﷺ ممّا جاء في الكتب الستة وختمه بذكر أمثال العامة⁷. وهذا الكتاب من التراث الضائع إذ لم يظهر مطبوعا ولا محطوطا إلى اليوم، وتظهر النقول منه التي ذكرها مؤلفه في كتابه القيم " تحرير التحبير " أنه من النفائس التي نسأل الله التعجيل بإظهارها.

¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الملقّب بالجاحظ أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. عمّر الجاحظ نحو تسعين عاما وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين وكتاب الحيوان والبخلاء أشهرها. كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء وغيرها. توفي عام 255 هـ. له ترجمة في الكثير من المصادر. انظر الموسوعة الميسرة. 2 / 1783 - 1785.

² الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق د. درويش جويدي. المكتبة العصرية. بيروت. 2001. 2 / 244.

³ الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، أديب فاضل، صنّف كتباً كثيرة منها: يتيمة الدهر، سحر البلاغة، فرائد القلائد، سر الأدب، إل غير ذلك من الكتب. توفي عام 429 هـ. ابن الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد. نزهة الألباء في طبقات الأدباء. تح إبراهيم السامرائي. مكتبة المنار. الزرقاء. الأردن. طبعة 03. 1985. ص 265 / 266.

⁴ سعدو زهية. التمثل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي دراسة وتحقيق. أطروحة دكتوراه الولة. إشراف الشريف مريمي. جامعة الجزائر. السنة الجامعية 05 / 06. ص 102.

⁵ الثعالبي: أبو منصور. عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. الإعجاز والإيجاز. شرح اسكندر آصاف. المطبعة العمومية بمصر. ط 1. 1897. ص 16. 17.

⁶ ابن أبي الأصعب: أبو محمد زكي الدين، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الأصعب العدواني البغدادي ثم المصري. قال عنه صاحب فوات الوفيات: " الشاعر المشهور الإمام في الأدب له تصانيف حسنة في الأدب وشعر رائع ". من مصنفاته الشهيرة: " بديع القرآن " و " تحرير التحبير ". توفي عام 654 هـ. له ترجمة في أكثر كتب التراجم. الموسوعة الميسرة. 2 / 1251 - 1253.

⁷ ابن أبي الأصعب: أبو محمد زكي الدين، عبد العظيم بن عبد الواحد المصري. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. تحقيق د حفني محمد شرف. لجنة إحياء التراث الإسلامي. الجمهورية العربية المتحدة. ص 219.

وبالنسبة لكتب الأمثال العامّة الأخرى فلا نجد كتابا منها إلا وفيه أمثال عن رسول الله ﷺ بعضها يأتي هذا الضرب فيها عرضا كما هو الحال في أمثال المؤرج، وفي بعضها الآخر يخصّص مصنّفه قسما لأمثال الرسول ﷺ كما نرى ذلك عند الميداني الذي جعل " الباب الثلاثين في نبذ م كلام النبي ﷺ وخلفائه الراشدين "1

عرض وتحليل لحركة التصنيف ومصنّفات أمثال الحديث النبوي
كتاب المجتني لابن دريد

¹ جمع الأمثال للميداني. خطبة الكتاب ص 17.

وقد دفعني إلى اعتبار كتاب المجتبي لابن دريد من كتب الأمثال النبوية، مع أنه لم يصرّح بأنها كذلك، كون غالبية الأحاديث المذكورة جاءت عند غيره من المصنّفين على أنها أمثال. يضاف إلى ذلك تلميحها إلى أنها منها والذي نجده عند قوله في مقدّمة كتابه؛ قال: " هذا كتاب يشتمل على فنون شتى من الأخبار الموثقة والألفاظ المسترشقة والأشعار الرانقة والمعاني الفخمة والحكم المتناهية والأحاديث المنتخبة، سمّينا المجتبي لإجتناؤها فيه ظرائف الآثار كما تجتنى أطياب الثمار وجرينا فيه إلى الاختصار إذ كان الإكثار مقرونا بالسامة وقد قال من قبلنا إذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار هذرا وإذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز عيّا وخير الأمور أوسطها والله الموقّق للصواب.

فأول ما نستفتح به ما جاءنا عن نبينا ﷺ من ألفاظه التي لا يشوبها كدر الغي، ولا يطمس رونقها التكلّف ولا يمحو طلاوتها التفيهق، وقد ضمّنت هذا الكتاب أخبارا وأشعارا سمعتها فعزوتها إلى من سمعتها منه، وأشياء قرأتها فيما قرأت من الكتب على أشياخنا، رحمهم الله، فمنها إجازة ومنها سماع ومنها ما رويته بنزول وسأبّين ذلك في مواضعه إن شاء الله " 1.

ثم ذكر بعد ذلك الباب الأول من كتابه وعنوانه التالي: " ما سمع من النبي ﷺ ولم يسمع من غيره قبله ". ثم شرع في ذكر جملة من الأحاديث التي سارت أمثالا بدأها بقوله ﷺ: " لا ينتطح فيه عنزان " ثم شرع بعد ذلك في ذكر مناسبة الحديث والحكمة من ذكره العنز دون الغنم ثم توسّع في ذكر كلّ ما له صلة به. ومثل هذا العمل لا نجده عند الذين ذكروا الحديث كالجاحظ مثلا، والذي يذكره على أنه من كلامه ﷺ الذي لم يسبقه إليه أحد دون شرح أو تعليق. 2 ثم يتابع ذكر الأحاديث تباعا مشيرا إلى كلّ ما ذكره عن الحديث ضرورة.

وقد ذكر ابن دريد في كتابه هذا قريبا من مائة حديث، وهو عدد مقبول في تقديري، خاصة ونحن نعلم أنّ كتاب معاصره الحكيم الترمذي لم يرق إلى مستوى هذا الكتاب،

¹ ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي. كتاب المجتبي. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدرآباد. 1392 هـ. ص 12.

² الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق د درويش جويدي. المكتبة العصرية. بيروت. 2001. 244 / 2.

ولولا كون غالبية أحاديث هذا الكتاب، والظاهرة عامة في كلّ كتب الأمثال النبويّة كالشهاب للقضاعي، ضعيفة لعدّ من عيون كتب السنة والأدب على السواء.

كتاب الحكيم الترمذي

كنت قد أشرت عند الحديث عن أمثال القرآن الكريم إلى أنّه لم يتيسّر لي الحصول على نسخة من كتاب الحكيم الترمذي مع أنّه طبع بعناية علي الجارم، والذي أتيح لي هو الإطلاع على صورة لمخطوطه، وظهر لي من دراستها أنّ الكتاب في ثلاثة أقسام: الأوّل لأمثال القرآن الكريم، والثاني لأمثال الحديث النبوي والخبر، والثالث لأمثال الحكماء.

وبالنسبة لأمثال الحديث النبوي فالمصنّف يغفل في الغالب اسم الصحابي راوي الحديث من جهة ومن جهة أخرى فهو لا يعنى ببيان درجة صحته، فالكثير منها ذكره موقوفا على بعض الصحابة أو التابعين. ويبدو لي أنّه لولا العنوان لعدّ الكتاب في أمثال الحكماء جاءت فيه بعض أمثال القرآن والحديث عرضاً.

كتاب أبي عروبة الحرّاني

وبالنسبة لكتاب أبي عروبة فإنّه لم ينشر، في حدود علمي لحدّ الساعة، وقد أشار الدكتور فؤاد سزكين في كتابه " تاريخ التراث العربي " إلى مقال عنه في مجلة معهد الدراسات الإسلامية باسطنبول.¹ ولم أجد فيما بين يديّ من الكتب نقولا عنه ولا إشارات إلى طريقة ومنهج المؤلف في وضعه له.

كتاب أمثال الحديث للرامهرمزي وكتاب " الأمثال في الحديث النبوي " لأبي الشيخ الاصفهاني

أمّا الكتابان الآخران فيتّضح لنا منهج كلّ واحد منهما ممّا قاله محقق الكتابين في مقدمة تحقيقه لكتاب الرامهرمزي: " ونلاحظ أنّ " كتاب أمثال الحديث " للرامهرمزي يختلف عن كتاب أبي الشيخ في أنّ الأخير يهدف إلى جمع الأمثال فقط بينما الأوّل يرمي إلى شرح أمثال الحديث وتوضيح معناها بالاستنشاد من كلام الأدباء والشعراء. وقد أجاد

¹ تاريخ التراث العربي لسزكين. 1 / 348.

الرامهرمزي هذا الشرح ممّا جعل كتابه مرجعا لكثير من العلماء "1. وقد رجعت إلى الكتابين فوجدت أنّ ذلك ظاهر بوضوح.

ففي كتاب أمثال الحديث جمع الرامهرمزي حوالي مائة وأربعين مثلا، هي مزيج من أمثاله ﷺ السائرة وتشبيه التمثيل.

وتتلخّص طريقة الرامهرمزي في ذكره الحديث أوّلا ثم يتناوله بالشرح بعد ذلك؛ فيشرح عباراته وينتبع معانيها في كتاب الله وكلام العرب، ويكشف عن عناصر التمثيل ويفصّل الحديث فيه، ويذكر بعض عناصر التشبه فيه. وليبيان هذا سأذكر حديثا أورده في كتابه وأذكر معه تعليقه عليه كاملا لنقف على منهجيّته في وضع الكتاب. قال ﷺ: " إنّما مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله وأكمّله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة، ألا فكنت تلك اللبنة." يقول الرامهرمزي: " هذا مثل نبوته ﷺ وأنه خاتم الأنبياء وبه تتمّ حجة الله عزّ وجلّ على خلقه، ومثّل ذلك بالبنيان الذي يشدّ بعضه بعضا، وهو ناقص الكمال بنقصان بعضه فأكمل الله به دينه وختم به وحيه. والعرب تمثّل ما يباليغون فيه من الوثاقّة والأصالة وعقدة المكارم والمفاخر وأشباه ذلك بالبنيان. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بِنِيانٍ مَرْصُوصِينَ ﴾² يعني لا يزول ولا يتخلخل، وأخبر أنّه بنى السّماء فرفع سمكها وهو بناء القدرة شيئا من آلة الصنعة، قال عبدة بن الطيّب:

فما كان قيس ملكه ملك واحد ولكنّه بنيان قوم تهّما

وقال آخر:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

البنى مقصور بضم الباء جمع بنية. هكذا قال لنا إبراهيم بن السريّ - يعني الزجاج - كما تقول: لحية ولحي وحلية وحلى، وأنشد ابن دريد:

تبوّأت بيتا في المكارم والعلّا رفيع البنا بين المجرة والنّجم.

وقال زياد بن حمل التميمي:

¹ الرامهرمزي. كتاب أمثال الحديث. مقدمة المحقق ص: م.

² الصفّ / 04.

عمر الندى لا يبيت الحقّ يثمله إلا غدا وهو سامي الطرف مبتسم

إنّ المكارم يبنيتها ويعمرها حتى ينال أمورا دونه قحم

يعني لا يلج عليه الحقّ إلا سرّ به، وقحم تكلف وتعيب.

وأخبرنا أبو خليفة عن ابن سلام قال: لما أراد الوليد بن عبد الملك - وإثما هو عبد الملك

وليس الوليد - أن يبايع لابنه يزيد قال جرير:

وماذا تنظرون بها وفيكم نهوض بالعظام واعتلاء

ولو قد بايعوك ولي عهد لقام الوزن واعتدل البناء

وقال آخر من العرب يمدح قوما:

هم حلّوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شأوا

بناة مكارم وأسارة كلم دماؤهم من الكلب شفاء

فأما بيتكم - إن عدّ - بيت فطال السمك واتسع الفناء

وأما أسه فعلى قديم من العادي إن ذكر البناء

فلو أنّ السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لكم السماء

قوله: دماؤهم من الكلب شفاء: الكلب داء يأخذ الكلب وكانت العرب تزعم أنّ الكلب

الكلب - وهو الذي يأخذه هذا الداء - إذا عضّ تلف العضوض، وإذا استشفى العضوض

بدم الشّريف برئ.¹

فأنت إذا تأملت هذا الاستطراد الذي ذكره المصنّف بعد ذكر المثل تلاحظ أنّه ذكر

شرحا لمفردات لغويّة، ودعم شرحه بشواهد من القرآن الكريم والشعر العربي القديم

وبمثل من أمثال العرب، كما ذكر في بداية شرحه للحديث الفائدة من التمثيل بالبنيان.

وهذا العمل يبيّن ثراء هذا الكتاب وسعة ثقافة مؤلّفه.

ويختلف منهج كتاب " الأمثال في الحديث النبوي " لأبي الشيخ الأصفهاني عن منهج

الرامهرمزي في ترتيب مادّة كتابه، إذ قسّمه أبو الشيخ إلى قسمين؛ الأوّل للأمثال السائرة

والثاني لأحاديث التمثيل وألحق بهما أمثالا لبعض فصحاء وحكماء العرب كالإمام علي

ومالك بن دينار وأكتم بن صيفي.

¹ الرامهرمزي. السابق. ص 13.07.

يبلغ عدد أمثال كتاب أبي الشيخ أكثر من الثلاثمائة والسبعين حديثاً، وكان هدفه هو جمع هذه الأمثال والحكم، ولذلك فإنه لم يتعرّض لها المصنّف بالشرح أو التحليل، على خلاف ما فعله الرامهرمزي في كتابه حيث تعرّض بالشرح والتأويل لغالبية الأحاديث التي فيها تمثيل.

وكنموذج لعمله نذكر المثل الأول وجاء فيه: "أخبرنا أبو يعلى الموصلي ثنا كامل بن طلحة ثنا ابن لهيعة ثنا يزيد بن عمرو بن شفى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: " حفظت من رسول الله ﷺ ألف مثل."¹

ونذكر المثل الثاني وجاء فيه: "أخبرنا أبو خليفة ثنا ابن كثير ثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن سعيد بن ذي حدان عن علي قال: سمى رسول الله ﷺ الحرب خدعة."² وهكذا مع بقية الأمثال فهو يذكرها دون أدنى تعليق عليها، لا بالشرح ولا بالتحليل، بل ونجده في بعض المواضع يكرّر ذكر الحديث الواحد دون تغيير في اللفظ وإن تغيّر السند كالذي نراه في قوله ﷺ: "المستشار مؤتمن"³ فقد ذكره تحت الأرقام التالية: من 22 إلى 34. وبعض الأمثال يكرّر ذكرها مع تغيير طفيف في اللفظ.

كتاب "الحكم والأمثال المروية عن رسول الله ﷺ" وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها "للعسكري وفيما يتعلق بكتاب "الحكم والأمثال المروية عن رسول الله ﷺ" وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها "الذي صنّفه أبو أحمد العسكري وذكره ابن خيرة بهذا العنوان، بينما تذكره بقية الكتب التي ترجمت للعسكري باسم كتاب الحكم والأمثال⁵، فيبدو لي أنّ تسمية ابن خير توضح موضوعه، وأنّه من الكتب المصنّفة في أمثال الحديث النبوي الشريف. ولعلّ المقطع الثاني من عنوان الكتاب "وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها" أراد به الكاتب أن يتفوّق على المهتمين بهذا النوع من الأدباء وغيرهم، الذين ذكروا في كتبهم أحاديث سارت أمثالا وأشاروا إلى كونها ممّا لم يسبق أحد رسول الله ﷺ إلى قولها كالجاحظ في

¹ أبو الشيخ الأصبهاني. كتاب الأمثال في الحديث النبوي. ص 21. 22.

² نفسه. ص 22.

³ نفسه. ص 38 وما بعدها

⁴ انظر فهرسة ابن خير. ص 171. وقد مرّ

⁵ البغدادي: عبد القادر بن عمر. خزانة الأدب ولباب لسان العرب. تح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 04. 1997.

202/1. وانظر معجم المؤلفين 1 / 559. والأعلام 2 / 196.

البيان والتبيين والثعالبي في كثير من كتبه. وإذا رجعنا إلى ما في هذه الكتب نجده قليلا إذا ما قورن ببقية الأمثال. ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام هو تبيين أن هذا الكتاب مفقود لم يصل إلينا¹ والذي وصلنا هو بعض النقول والاقتباسات يقول عنها الدكتور جابر فياض: " غير أن النقول والعزو إليه في كتب الحديث مما مكنتني من جمع ما يقرب من مائتي حديث مما اشتمل عليه، وقد تبين من خلال النقول أن من منهجه أفراد الأحاديث بأسانيدها ورواياتها المختلفة، مع الشرح والبيان ولكنه لا يبين درجتها."²

ويبدو لي أن كتاب العسكري هذا قد لقي عناية بالغة عند العلماء وأثنوا عليه وعلى مصنفه الثناء الحسن، فقد جاء في كتاب " تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن " لابن أبي الأصبع المصري بعد أن ذكر مجموعة من أحاديث الرسول ﷺ مما يخرج المتكلم مخرج المثل السائر: " وقد طوى كتاب أبي أحمد العسكري، رحمه الله، من هذا الباب على بدائع من جوامع الكلم لا يشق غبارها، ولا يقتحم تيارها، فمن أراد ذلك عليه به."³

عاش أبو أحمد العسكري في فترة نشطت فيها حركة وضع المصنفات في الأمثال المختلفة، وخاصة من معاصريه كأبي هلال العسكري واضع " جمهرة الأمثال " فأراد مجاراتهم بوضع كتاب في الأمثال هو الآخر، ولكنه ابتغى التميز عنهم فجعله في أمثال الحديث النبوي مع شرح لألفاظه ﷺ التي لم يسبق إليها. وهو تميز آخر على أمثال الجاحظ الذي ذكر كتابه البيان والتبيين مثل هاته الألفاظ دون شرح أو تعليق. والراجح أنه المقصود من قول الميداني حين تحدّث عن الأمثال النبوية فقال: " وأما الكلام النبوي من هذا الفن فقد صنّف العسكري فيه كتابا برأسه، ولم يأل جهدا في تمهيد قواعده وأساسه."⁴

وقد أخطأ بعض الباحثين في فهم عبارة الميداني فنسبوا الكتاب لأبي هلال، ومنهم الدكتور عبد العلي عبد الحميد محقق كتاب " الأمثال في الحديث النبوي " لأبي محمد

¹ زهلم. الأمثال العربية القديمة. ص 199.

² جابر فياض. الأمثال في الحديث النبوي. ص 46. 47.

³ ابن أبي الأصبع. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. ص 217 / 218.

⁴ الميداني. مجمع الأمثال. من مقدمة الكتاب ص 14.

عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني، حيث ذكر في مقدّمة تحقيقه للطبعة الأولى التي نشرتها الدّار السلفيّة ببومباي في الهند سنة [1402 هـ / 1982 م] من الكتاب المذكور أنّ " العسكري هو أبو هلال صاحب جمهرة الأمثال المتوفى بعد 295 هـ ولم يصل إلينا كتابه ولكن نجد منه نقولا في كتب علماء الحديث من أمثال ابن حجر والسخاوي والسيوطي والمناوي ..."¹

وعن نسبة الكتاب لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى عام 382 هـ فسبق أن ذكرت ما يحقّق نسبته إليه، ولعلّ سبب الوهم والخطأ من هؤلاء الباحثين راجع إلى كون أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري كان، على ما ذكر البغدادي في خزّانة الأدب²، تلميذا لأبي أحمد العسكري؛ وافق اسمه اسم شيخه واسم أبيه اسم أبيه، وهو من ألف " جمهرة الأمثال " وقد وصل كتابه إلينا وهو مطبوع وفي حوزتي نسخة مصوّرة من الكتاب مطبوعة عام 1306 ببومباي. أمّا كتاب أبي أحمد فلم يصل إلينا ونجد منه نقولا في كتب العلماء الذين تفضّل بذكرهم، ولكن أشير فقط إلى أنّي وجدت في كتاب " كنز العمال " للهندي الكثير من النقول عنه لم تذكر عند هؤلاء العلماء.

كتاب الأمثال للشريف الرضا

أمّا كتاب الأمثال للشريف الرضا فقد ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي³ عند الترجمة له كتاب " مختصر أمثال الشريف الرضا لمجد الدين محمد بن أحمد الإربلي المتوفى [1677 / 1278]. وللإربلي ترجمة في الأعلام⁴ ذكر فيها أنّه محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن شاكر بن الظهير، شاعر وأديب، من فقهاء الحنفيّة، ولد بإربل وتنقل في العراق والشام، مات بدمشق. له تذكرة الأريب وتبصرة الأديب، ومختصر

¹ أبو الشيخ الأصبهاني. كتاب الأمثال في الحديث النبوي. مقدّمة المحقّق ص 13.

² في خزّانة الأدب للبغدادي ترجمة لأبي أحمد 1 / 202 وأخرى لأبي هلال 1 / 230.

³ بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. 2 / 64.

⁴ الزركلي. الأعلام. 5 / 323.

أمثال الشريف الرضا وديوان شعر في مجلدين. والغريب في الأمر أنّ الزركلي الذي ترجم للشريف الرضا بعد ترجمته للإربلي لم يذكر في مصنفاته كتابا له في الأمثال¹. ولما عدت إلى الكتب التي ترجمت للشريف الرضا لم أجد من ذكر له كتابا في الأمثال، ومن هنا رجح لديّ أنّ هذا الكتاب هو كتاب " المجازات النبويّة " لأنّ الرضا ذكر في مصنفه هذا الكثير من الأحاديث النبويّة التي سارت أمثالا، ويزداد إيماننا بذلك عندما ننظر إلى الخلط الذي يظهر في ذكر مصنفاته كما هو الحال عند بروكلمان، فقد ذكر كتاب المجازات النبويّة وأشار إلى أنّ ابن خلكان سمّاه مجازات القرآن. والثابت الآن أنّ ثمة كتابين ذكرهما في خطبة كتابه المجازات النبويّة، قال: " فأني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة التي أطلعتهما، والدفينة التي أثرتهما من كتابي الموسوم بـ " تلخيص البيان عن مجازات القرآن " وإني سلكت من ذلك محجة لم تُسلك، وطرقت بابا لم يُطرق، وما رغبت إليّ فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، ولمع البيان الغريبة، وأسرار اللغة اللطيفة؛ يعظم النفع باستنباط معادنها، واستخراج كوامنها، وإطلاعها من أكمّتها وأكنانها، وتجريدها من خيلها وأجفانها، فيكون هذان الكتابان، بإذن الله. لمعتين يستضاء بهما، وعرنينين لم أسبق إلى قرع بابهما، فأجبتك إلى ذلك، مستخيرا الله سبحانه فيه، على كثرة الأشغال القاطعة، والعوائق المانعة، والأوقات الضيقة، والهموم المخنقة، وعملت، بتوفيق الله، على تتبّع ما في كلامه عليه الصلاة والسلام من ذلك، والإشارة منه إلى مواضع النكت، ومواقع الغرض، بالاعتبارات الوجيزة، والإيماءات الخفيفة؛ على طريقتي في كتاب: " مجازات القرآن " لئلا يطول الكتاب فيجفو على الناظر، ويشقّ على الناقل؛ فإنّ القلوب في هذا الزمان ضعيفة عن تحمّل أعباء العلوم الثقيلة، والإجراء في مسافات الفضائل الطويلة؛ لأنّه لم يبق من الفضل إلا الذمّ **ومن الفضلاء إلا الأسماء، والله الحمد على السراء والضراء، والبؤس والنعماء** " ² ثم بيّن بعد ذلك المصادر التي اعتمد عليها حين وضع

¹ الأعلام. 6 / 99.

² الشريف الرضا: المجازات النبويّة. مقدمة الكتاب. ص 02. 03.

مصنّفه فقال: " والذي أعتمد عليه في استخراج ما يتضمّن الغرض الذي أنحو نحوه وأقصد قصده؛ كتب غريب الحديث المعروفة، وأخبار المغازي المشهورة، ومسائيد المحدثين الصحيحة، مضيفا إلى ذلك ما يليق بهذا المعنى من جملة كلامه عليه الصلاة والسلام الموجز الذي لم يسبق إلى لفظه، ولم يفترع من قبله. وجميع ذلك ممّا أتقنا بعضه رواية، وحصلنا بعضه إجازة، وخرجنا بعضه تصفحا وقراءة، مستمدّين في ذلك، وفي سائر الأنحاء والمرامي، والمطالب والمغازي، توفيق الله سبحانه الذي يهون الشديد، البعيد، ويذل الصعب إذا أوى، ويقوم المعوج إذا التوى، وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا، وإليه ننيب.¹"

أمّا من حيث موضوعه فقد كان الكاتب يذكر الحديث مثلا أو شاهدا ثم يقوم بشرحه وتبيين مواطن البلاغة والفصاحة فيه. وبلغ مجمل الأحاديث التي بنى عليها كتابه ما يقارب السّتين وثلاثمائة حديث.

كتاب " الأمثال والحكم " للموردي

وفيما يتعلق بكتاب " الأمثال والحكم " للموردي، وهو غير كتابه الآخر " أمثال القرآن الظاهرة "، فإنّ مصنّفه يرسم لنا في مقدمة كتابه منهجيته بالقول: " وقد ضمّنت كتابي هذا: من سنّة رسول الله ﷺ أحاديث وجيزة الألفاظ واضحة المعاني، ومن أمثال الحكماء، وأقوال الشعراء ما كان عذب البديهة سائر الذكر. وجعلت ما تضمّنه من السنّة ثلاثمائة حديث، ومن الحكمة ثلاثمائة فصل، ومن الشعر ثلاثمائة، وقسمت ذلك عشرة فصول، أودعت كلّ فصل منها ثلاثين حديثا، وثلاثين فصلا، وثلاثين بيتا، فيكون ما يتخلل الفصول من اختلاف أجناسها أبعث على درسها واقتباسها.²"

والنظر في مضمون المادة التي ضمّنها الكاتب مصنّفه، يظهر لنا أنّه اعتمد منهج الانتقاء والاختيار، لا الإبداع والابتكار. وقد كان موقفا أيّما توفيق في اختياراته تلك، لكنّه لم يلتزم ما اشترطه على نفسه في القول المذكور آنفا؛ إذ نجده يذكر في الفصل الثالث 29 حديثا وفي الفصل الرابع 31 مع أنّه ذكر بأنّ كلّ فصل يتكوّن من 30

¹ المغازات النبوية. من مقدمة الكتاب ص 03.

² الموردي: علي بن محمد بن حبيب. الأمثال والحكم. تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد. دار الوطن للنشر. م ع السعودية. ط 01.

حديثاً. والخلل ذاته نجده مع الأبيات المختارة حيث ذكر في الفصل الثاني 29 بيتاً وفي الفصل الرابع 31 بيتاً وفي الفصل العاشر 29 بيتاً بدلاً من 30 كما ذكر.

ومثل هذه الهتات لا تحط في تقديري من قيمة الكتاب وأهميته، بل الراجح أنها من أخطاء الناس الذين أخطئوا مواضع أحاديث وأبيات عند النسخ.

كتاب مسند الشهاب للقضاعي

ولمعرفة موضوع كتاب مسند الشهاب للقضاعي ومنهجه، أستسمح محققه فأنتقل من مقدّمة تحقيقه ما نقله عن مقدمة الشهاب من النسخة التي كتبها حسن بن عبد الباقي الصقلّي، حيث أسند إلى المؤلف قوله: " أمّا بعد، فإنّ في الألفاظ النبويّة، والآداب الشرعيّة، جلاء لقلوب العارفين، وشفاء لأدواء الخائفين، لصدورها عن المؤيّد بالعصمة، والمخصوص بالبيان والحكمة، الذي يدعو إلى الهدى، ويبصر من العمى، ولا ينطق عن الهوى ﷺ أفضل ما صلّى على أحد من عباده الذين اصطفى.

وقد جمعت في كتابي هذا مما سمعته من حديث رسول الله ﷺ ألف كلمة من الحكمة في الوصايا والآداب والمواعظ والأمثال، قد سلمت من التكلّف مبانيها، وبعدت عن التّعسف معانيها، وبانت بالتأييد عن فصاحة الفصحاء، وتميّزت بهدي النبوة عن بلاغة البلغاء، وجعلتها مسرودة يتلو بعضها بعضاً، محذوفة الأسانيد مبوبة أبواباً على حسب تقارب الألفاظ، ليقرب تناولها، ويسهل حفظها، ثم زدت مائتي كلمة فصار ألف كلمة ومائتي كلمة، وختمت الكتاب بأدعية مروية عنه عليه السلام، وأفردت لأسانيد جميعها كتاباً يرجع في معرفتها إليه.¹ فإذا تدبّرنا قوله وخاصة عبارة " أفردت ... " سيتبين لنا هذا المسند ماهو إلا الكتابين اللذين ذكرهما ابن خير في فهرست شيوخه، وسبق لنا ذكرهما منذ حين.

بهذا يكون المصنف قد وضع كتاب الشهاب في الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المرويّة عن رسول الله ﷺ مقصوراً على المتون، محذوف الأسانيد، ثم ألف كتابه الآخر

¹ القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة. مسند الشهاب. تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة. ط 1. 1985. من مقدمة المحقق. ص 12. 13.

- ليذكر فيه الأسانيد التي أهملها في الكتاب الأول، مرفوعة بإضافات ضرورية ومكمّلة لما فيه، ثم جمع الكتابين بعد ذلك ليخرجا في الصورة المعروفة الآن لمسند الشّهاب.
- وهناك مجموعة من مخطوطات هذا الكتاب متفرّقة في مكتبات العالم المختلفة، ولم أذكر رموزها لكون الكتاب مطبوع ومحقق، لكن من المفيد الإشارة إلى أنّ هذا الكتاب نال عناية فائقة وحظوة بالغة عند العلماء، وقد ذكر مصنّفو الفهرس الشّامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط جرّدا بالأعمال وأسماء الكتب التي عنيت به، وتتملّ في:
- اختصره محمد شكري الألوسي بعنوان " مختصر مسند الشّهاب " .
 - استخرج محمد بن إبراهيم البازقي منه الأحاديث الموضوعية بعنوان " الدرّ الملتقط في تبين الغلط " .
 - استخرج الرضيّ الصاغاني الأحاديث الموضوعية منه بعنوان " رسالة في الأحاديث الموضوعية في شهاب الأخبار " .
 - استخرج مجهول منه أحاديث الأحكام وجمعها مع ما استخرجه من كتاب الوجيز للغزالي بعنوان " المجموع من الوجيز ومن كتاب الشّهاب من كلام سيّد العرب والعجم " .
 - انتخب مجهول أحاديث منه بعنوان " المنتخب من الشّهاب " .
 - خرّج الديلمي [شيرويه بن شهردار] أحاديثه بعنوان " فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب شهاب الأخبار للقضاعي " .
 - ربّبه أبو الحسين بن عبد الله بن حسين القلعي بعنوان " ترتيب شهاب الأخبار للقضاعي " .
 - ربّبه المناوي بعنوان " إسعاف الطلاب بترتيب الشّهاب " .
 - شرحه أبو بكر محمد بن موسى البابي بعنوان " شرح شهاب الأخبار " .
 - شرحه البغدادي بعنوان " روضة إفهام ذوي الألباب " .
 - شرحه الحلبي بعنوان " شرح شهاب الأخبار " .
 - شرحه الرضيّ الصاغاني بعنوان " شرح شهاب الأخبار " .
 - شرحه ظاهر الدّين أبو البدر عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز بعنوان " اللّباب في معاني أحاديث الشّهاب " .

- شرحه عبد القادر بدران بعنوان " شرح شهاب الأخبار للقضاعي ".
 - شرحه القزويني بعنوان " ضياء الشهاب ".
 - شرحه محمد بن منصور بعنوان " شرح غريب شهاب الأخبار ".
 - شرحه المناوي بعنوان " شهاب الأخبار المسمّى برفع الثّقاب ".
 - شرحه ابن وحشي بعنوان " شرح الشّهاب في المواعظ والآداب ".
 - شرحه مجهول بعنوان " تفسير أحاديث من شهاب الأخبار ".
 - وردت عليه عدّة شروح لمجاهيل بعنوان " شرح شهاب الأخبار "1.
- وذكرت في الفهرس الشامل للتراث المخطوط مجموعة من العناوين لمخطوطات موزّعة في مكتبات العالم يظهر لي أنّها مصنّفات في الأمثال، أو أنّها مخطوطات لكتب من التي يشير الدارسون في الغالب إلى ضياعها، أذكر منها:

- 01 - شرح حديث تمثيل المؤمنين إلى آخره ... - مجهول. مكتبة فاتح 318 [مجاميع 5318 / 17]2.
 - 02 - مجموعة أحاديث نبويّة وحكم وأمثال - مجهول. الدراسات العليا / جامعة بغداد 432 [1190] - (9 و)3.
 - 03 - مثائل النبيّ. مؤلفه مجهول / نسخة بالمكتبة الوطنيّة بباريس. فايدا 2 / 3 / 80 [1205 / 15] - و 208 أ - 208 ب ضمن مجموع - 1117.4
- معاجم الغريب

من المصادر الرئيسيّة التي يمكننا أن نعتمدها في فهم أمثال الرسول ﷺ ما يعرف عند العلماء بكتب غريب الحديث والأثر، فهي مصنّفات يغلب عليها الطابع اللغوي، فكانت بذلك لأقرب إلى المعاجم منها إلى كتب الحديث، وهي كذلك زاخرة بمادّة بلاغيّة قيّمة

¹ الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط فهارس آل البيت. إصدار المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلاميّة. قسم التفسير 02 / 1038 .1039

² السابق. قسم الحديث. 02 / 975.

³ نفسه. قسم الحديث. 03 / 1389.

⁴ نفسه. قسم الحديث. 03 / 1362.

قلّما نجدّها في المصنّفات التي يشرح فيها أصحابها حديث رسول الله ﷺ، بل إنّ بعض كتب المثل النبوي تصدّى بعض العلماء لاستخراج الغريب منها وشرحه، وكمثال ظاهر لذلك كتاب " الشهاب " للقضاعي فقد قام بشرح غريبه أبو عبد الله محمد بن منصور التلمساني وسمّى شرحه شرح غريب شهاب الأخبار. ولهذا الكتاب نسختان مخطوطتان الأولى بالمكتبة التيمورية [2 / 299 (300) ص 24 ضمن مجموع - 1307 هـ. والثانية بالخزانة العامّة في الرّباط 3 / 1 / 43 [1743 د] - ص 1 - 230 ضمن مجموع¹.

وكذلك الحال مع أبي أحمد العسكري العسكري، والذي ذكرناه من قبل، فعنوان كتابه الموسوم بـ " الحكم والأمثال المرويّة عن رسول الله ﷺ وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها " ينمّ عن كونه أقرب إلى غريب الحديث منه إلى الأمثال، لولا ما ذكرناه في موضعه وينتصر إلى القول بأنّه في الأمثال، ولعلّ المصنّف جمع بينهما.

لذلك فكتب الغريب من المصادر الرّئيسة في فهم الكثير من ألفاظ القرآن الكريم من جهة، والوقوف على بعض مواطن البلاغة في جوامع كلم المصطفى ﷺ كما سنرى ذلك في الدراسة التّطبيقية، وقد جاء الخبر بالترغيب في معرفة علوم العربية ودلالاتها الدّقيقة، كما في قوله ﷺ: " أعرّبوا القرآن واتمسّوا غرائبه، وغرائبه فرائضه وحدوده، فإنّ القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال " ². ولذلك من المهمّ استعراض أهم مصنّفات هذا العلم لصلتها بموضوع البحث.

الغريب ومصنّفات

الحديث عن الغريب قديم عند العرب، وأولى محاولات شرحه وتفسيره، فيما تيسّر لي الاطلاع عليه نجدّها عند ابن عبّاس، الذي كانت تشدّ إليه الرّحال، طلباً للعلم، وكان

¹ نفسه. 02 / 1000.

² البيهقي. الجامع لشعب الإيمان. تح د عبد العليّ عبد الحميد حامد. مكتبة الرّشد. ط 01. 2003. 03 / 548. حديث رقم 2095. وأخرج شطره الأول وصحّحه الحاكم في المستدرک. 02 / 517. حديث رقم 3701. وذكره السيوطي في الإتقان 01 / 113. وذكره الخطّابي كذلك في رسالته في بيان إعجاز القرآن ص 34. المطبوعة ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز. وقد فصلنا الكلام عن الحديث في الفصل السابق من هذا البحث.

يردّ على الوفود بالقول: من أراد أن يسأل عن العربيّة والشّعر والغريب من الكلام فليدخل، [فيدخلون حتّى يملئوا البيت والحجرة] فما يسأله عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله.¹

وعلى قدم العناية بالغريب فإنّ التعريف بالمصطلح ووضع حدّ له تأخّر إلى زمن الخطابي، حيث عرّفه بالقول: " الغريب من الكلام إنّما هو الغامض البعيد من الفهم كالغريب من النّاس، إنّما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل." ² وعلى هديه سار كثير من الذين جاؤوا من بعده، وجميعهم يرى في الغريب الخفيّ والغامض الذي يحتاج إلى بيان بسبب ما قلّة الاستعمال من جهة وفساد السنة النّاس من جهة ثانية.

تعتبر مقدّمة كتابة " النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير أوفى مصدر يمكن الاعتماد عليه في رصد حركة التّصنيف في هذا الفنّ، وباستعراض ما جاء فيها نجد أنّ بعضهم كان يأخذ عن بعض وكانت كتبهم " أوراق ذوات عدد، ولم يكد أحدهم ينفرد عن غيره بكبير حديث لم يذكره الآخر " ³ كما وصف الخطابي كتب المرحلة الأولى بالقول: " إلا أنّ هذه الكتب على كثرة عددها إذا حصّلت كانت كالكتاب الواحد، إذ كان مصنّفوها لم يقصدوا بها مذهب التّعاقب كصنيع القتيبي في كتابه، إنّما سبيلهم فيها أن يتوالوا على الحديث الواحد فيعتوروه فيما بينهم ثم يتبارون في تفسيره، يدخل بعضهم على بعض." ⁴ وأول من جمع في هذا الفن أبو عبيدة معمر بن المثنى [110 / 209 هـ]، فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتيبا صغيرا، ولم تكن قلّته لجهله بغيره من غريب الحديث،⁵ وإنّما كان ذلك لأمرين؛ أحدهما أن كل من بدأ في فن لم يسبق إليه فإنه يكون قليلا ثم يكبر، والثاني أن النّاس يومئذ كان عندهم معرفة بلغة العرب، ولم يكن الجهل باللّغة قد عمّ كما حصل في العصور المتأخّرة.

¹ ابن كثير. إسماعيل بن عمر، عماد الدّين أبي الفداء. البداية والنهاية. تح د عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر. د ت. 12 / 99.

² الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم، أبو سليمان. غريب الحديث. تح عبد الكريم إبراهيم العزباوي. جامعة أم القرى. مكّة المكرّمة. ط 02. 2001. من مقدّمة المصنّف. 01 / 70.

³ ابن الأثير: المبارك بن محمد، مجد الدّين أبي السّعادات. النهاية في غريب الحديث والأثر. تح طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمد الطّناحي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د ت. من مقدّمة المصنّف 01 / 06.

⁴ الخطابي. غريب الحديث. من مقدّمة المصنّف. 01 / 50.

⁵ ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر. من مقدّمة المصنّف 01 / 05.

ثم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازني [132 / 203 هـ] كتابا أكبر من كتاب أبي عبيدة بسط فيه القول على صغر حجمه.¹

ثم جمع عبد الملك بن قريب الأصمعي [122 / 216 هـ] كتابا أحسن فيه وأجاد، وكان كتابه أكبر حجما ممّن سبقه.²

ومثله فعل قطرب [209 هـ] صاحب " غريب الآثار " وغيره من العلماء الذين جمعوا أحاديث وتكلموا على لغتها ومعناها في أوراق ذوات عدد، ولم يكدهم ينفرد عن الآخر بكثير من الأحاديث.

غريب الحديث لأبي عبيد. [157 / 224]

استمر الحال إلى زمن أبي عبيد القاسم بن سلام وكان من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث، والذي أفنى فيه عمره حيث جمعه في أربعين سنة،³ وهو كتاب حافل بالأحاديث والآثار الكثيرة المعاني، اللطيفة الفوائد، وكان يظن رحمه الله على كثرة تعبته أنه أتى على معظم الغريب.

ويبدو أنّ أبا عبيد قد استقى مادّة كتابه ممّا سمعه من شيوخه ومعاصريه، وممّا ذكره سابقوه، أثنى ابن على ما بذله فيه من جهد فقال: " فأبّه أفنى فيه عمره وأطاب به ذكره، حتّى لقد قال فيما يروى عنه: إني جمعت كتابي هذا في أربعين سنة، وهو كان خلاصة عمري." ⁴ ويتلخّص منهجه في تقسيمه الكتاب إلى قسمين؛ خصّص الأوّل، وهو القسم الأكبر للأحاديث التي رواها بسنده إلى رسول الله ﷺ، ثم خصّص الآخر للأحاديث التي تنسب إلى الصّحابة رضي الله عنهم ممّا يرفعونه إلى رسول الله ﷺ أو من كلامهم الذي يحتاج إلى الشرح والتفسير، وذكر بعض كلام التابعين.

وبالرغم من كون كتاب أبي عبيد أوّل كتاب وصل إلينا في غريب الحديث، فالكاتب لم يوضّح لنا مفهوم الغريب، وإن كان يمكن استنتاجه من منهجه في تفسير معاني الألفاظ

¹ نفسه ص 05.

² نفسه ص 06.

³ نفسه ص 06.

⁴ ابن الأثير. السابق. من مقدمة المصنّف. 01 / 06.

التي يراها غريبة ويحشد لذلك طائفة كبيرة من مروياته في التفسير والحديث والعربية والفقهاء، مستعينا لتوضيح ما يراه ضرورة بثقافته الواسعة.¹
نال هذا الكتاب الحظوة عند الدارسين قديما وحديثا، من أيام تصنيفه حتى عصرنا، فانكبوا عليه دراسة ونقدا وتحقيقا.

غريب الحديث لابن قتيبة [213 / 276 هـ]

بقي كتاب أبي عبيد معتمد الناس إلى عصر أبي محمد عبد الله بن مسلم قتيبة الدينوري الذي صنّف كتابه في غريب الحديث، ولم يودعه شيئا من كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه الحاجة من زيادة شرح وبيان، أو استدراك أو اعتراض، فجاء مثل كتاب أبي عبيد أو أكثر منه، وقال في مقدمته: " وقد كنت زمانا أرى أنّ كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث، وأنّ الناظر فيه مستغن به، ثمّ تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة، فوجدت ما تركه نحو ما ذكر أو أكثر، فتنبّعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسّر بالإسناد لما عرفت إسناده، والقطع لما لم أعرفه وأشبع ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر، وكرهت أن يكون الكتاب مقصورا على الغريب، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، وأحاديث السلف وألفاظهم ما يشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه، لتكثر فائدة الكتاب ويمتع قارئه ويكون عوناً على معرفته وتحفظه، ولم أعرض لشيء مما ذكره أبو عبيد، إلا أحاديث وقع فيها ذلك، فنبتت عليه ودلت على الصواب فيه.² وهو كتاب كما يشهد مصنّفه متمم للجهد والمنهج الذي اتبعه أبو عبيد، ولذلك نجده يقول: " فقد كفى حملة الحديث فيه مؤنة التفسير والبحث بما ألفه أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم بما ألفناه في هذا بحمد الله.³ وكان يأمل بهذا العمل أن يكون هذان الكتابان في غريب الحديث قد جمعا كلّ الغريب فلا يكون بعدهما لأحد فيه مقال.

غريب الحديث للحربي [285 هـ]

¹ انظر أبو عبيد: القاسم بن سلام، غريب الحديث، تج د حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1984.

² ابن قتيبة، غريب الحديث، تج د عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط 01، 1977، من مقدنة المصنّف، 151 / 01.

³ نفسه، 150 / 01.

عاصر الحافظ إبراهيم بن إسحاق الحربي ابن قتيبة، فجمع كتابا كبيرا في خمس مجلدات بسط القول فيه، واستقصى الأحاديث عن طريق أسانيدھا، وأطاله بذكر متونها، فطال كتابه وتُرك وهجر، وإن كان كثير الفوائد. وصفه ابن الأثير فقال: " جمع كتابه المشهور في غريب الحديث، وهو كتاب كبير، ذو مجلدات عدّة، جمع فيه وبسط القول، وشرح واستقصى الأحاديث بطرق أسانيدھا، وأطاله بذكر متونها وألفاظها، وإن لم يكن فيه إلا كلمة واحدة غريبة، فطال لذلك كتابه، وبسبب طوله ترك وهجر، وإن كان كثير الفوائد جمّ المنافع، فإنّ الرّجل كان إماما حافظا متقنا، عارفا بالفقه، والحديث، واللغة، والأدب، رحمة الله عليه".¹ وقد صنّف الحربي هذا الكتاب في خمسة مجلدات ضاعت ولم يسلم من الضياع إلا المجلد الخامس، هي المطبوعة.²

وعن منهج الكتاب ذكر محققه أنّ الحربي جمع فيه بين طريقة من طرق المحدثين في التّأليف وبين طريقة من طرق اللّغويين في التّصنيف؛ أمّا طريقة المحدثين فهي جمع الأحاديث المرويّة عن رسول الله ﷺ من طريق صحابيّ كابن عبّاس وابن مسعود وأبي هريرة في موضع واحد تحت عنوان " حديث ابن عبّاس " أو " حديث ابن مسعود " أو " مسند ما رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ " وقد يجمع فيه بعض فتاويهم وأقوالهم. بينما طريقة التّقاليب عند اللّغويين فهي قائمة على تصنيف الحروف حسب مخرجها من الحلق.³ وبعد تفصيل الحديث عن الطريقتين يشير المحقّق إلى أنّ الحربي فاتته جوانب من طريقة التّقاليب كما فاتته أخرى من طريقة المسانيد.⁴ ومع هذا يبقى هذا الكتاب من أهم وأنفس ما صنّف في بابه.

¹ ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر. من مقدمة المصنف 01 / 06.

² الحربي: إبراهيم بن إسحاق، أبو إسحاق. غريب الحديث. تح د سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد. دار المدتي. جدّة. ط 01. 1985.

من خطبة الكتاب ص 11.

³ الحربي: السابق. من مدخل التحقيق 01 / 92.

⁴ نفسه. من مدخل التحقيق 01 / 95.

أكثر بعد ذلك الناس من التصانيف في هذا الفن كالمبرد وثلعب ومحمد بن القاسم الأنباري وأحمد بن الحسن الكندي، وغيرهم ممن لا يحصون من أئمة اللغة والنحو والفقهاء والحديث.¹

غريب الحديث للخطابي [388 هـ]

استمر الحال على ذلك إلى عهد الإمام الخطابي البستي الذي ألف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسلك فيه نهج أبي عبيد وابن قتيبة، وصرف عنايته فيه إلى جمع ما لا يوجد في كتابيهما، فاجتمع له من ذلك ما يداني كتابيهما. قال الخطابي في بيان الدافع لتصنيف الكتاب: " ثم إنه لما كثر نظري في الحديث، وطالت مجالستي أهله، وجدت فيما يمرّ بي ويرد عليّ منه ألفاظا غريبة لا أصل لها في الكتابين، علمت أنّ خلاف ما كنت أذهب إليه من ذلك مذهباً، وأنّ وراءه مطلباً، فصرفت إلى جمعها عنائتي، ولم أزل أتتبع مضائهما، وألتقط آحادها، وأضمت نشرها، وألفق بينها، حتى اجتمع منها ما أحبّ الله أن يوفق له، واتسق الكتاب فصار كنحو من كتاب أبي عبيد أو كتاب صاحبه، ونحوت نحوهما في الوضع والترتيب."²

يلخص محقق الكتاب منهج الخطابي في كتابه بالقول: " يورد الحديث ثم يتبعه بسنده، وأحيانا كثيرة يأتي بسند آخر، ثم يفسر الكلمات اللغوية، ويؤيد تفسيرها بحديث آخر، أو بعض حديث، أو آية قرآنية، أو بيت من الشعر أو الرجز، وكثيرا ما يستطرد فيشرح الكلمات الغريبة في هذه الشواهد في إفاضة ومقدرة، وإذا كان في الحديث شيء من الفقه سجّله بعد الشرح."³

وقد ذكر الخطابي بعد المقدمة فصولا ذكر أنّها مهمة للمشتغلين بالحديث، قال: " وقد رأيت أن أقدم هذه الفصول بين يدي ما أنا مفسره من غريب الحديث في كتابنا هذا ليمثلها أصحاب الحديث وطلاب الأثر، فتكون مقدمة للمعرفة وتوطئة للصناعة، وأجعلها رفدا للمسترفدين وزادا للمقوين."⁴ وكان أول ما ذكره من ذلك " القول فيما يجب على من

¹ ابن الأثير. السابق. من مقدمة المصنف 01 / 07.

² الخطابي. السابق. 01 / 48.

³ نفسه. 01 / 27.

⁴ نفسه. من مقدمة المصنف. 01 / 52.

طلب الحديث من تعلم كلام العرب وتعرف مذاهبها ومصارف وجوها. ¹ وهي فصول تكشف عن أهمية هذه الفصول للمشتغلين بالحديث واللغة لأنها تستعرض أهم قضايا التعامل مع نصوص الحديث النبوي الشريف.

لقد تبوّأت هذه الكتب الثلاثة منزلة الصدارة في باب غريب الحديث والأثر، وصارت أمّات كتب هذا الفنّ، وهي التي كانت دائرة بين أيدي الناس وعليها يعوّل العلماء، غير أن هذه الكتب الثلاثة وغيرها لم يكن فيها كتاب مرتب ترتيبا يستطيع الإنسان أن يأخذ حاجته منه بسرعة، بل يجد الباحث فيها كل تعب وعناء حتى يصل إلى الحديث.

الغريبين في القرآن والحديث للهروي [401 هـ]

بقي الحال كذلك إلى أن جاء أبو عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الهروي، فألف كتابه الغريبين، جمع فيه بين غريب القرآن والحديث، ورتبه ترتيبا لم يسبق إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها، وأثبتها في حروفها مرتبا لها على حروف المعجم، وحذف الأسانيد وجمع فيه من غريب الحديث ما في كتب من تقدّمه، وزاد عليه، فجاء كتابا حافلا جامعاً، إلا أنه جاء الحديث مفرقا في حروف كلماته.

بيّن الهروي الدافع إلى وضع هذا المصنّف بالقول: " وكنت أرجو أن يكون سبقني إلى جمعهما، وضم كلّ شيء إلى الفقه منهما، على ترتيب حسن، واختصار كاف، سابق، فكفاني مؤونة الدأب وصعوبة الطلب فلم أجد أحدا عمل ذلك إلى غابتنا هذه، فاستخرت الله، عزّ وجلّ وتقّس، فيه، وسألته التوفيق له، ليكون تذكرة لنفسي مدّة حياتي، وأثرا حسنا لي بعد وفاتي، إن شاء الله عزّ وجلّ، وبه الثقة. ²

وقد توجّه المصنّف بهذا الكتاب " لمن حمل القرآن وعرف الحديث ونظر في اللغة ³ ولذلك ذاع صيت هذا الكتاب بين الناس واتخذوه عمدة في الغريب، واقتفى أثره كثيرون واستدرك ما فاته آخرون.

الفائق في غريب الحديث للزّمخشري [538 هـ]

¹ نفسه. 53 / 01.

² الهروي: أحمد بن محمد، أبو عبيد. الغريبين في القرآن والحديث. تح أحمد فريد المزدي. مكتبة نزار مصطفى الباز. مكّة. ط 01. 1999.

35 / 01

³ نفسه. 35 / 01.

بعد ذلك ألف المفسر واللغوي جار الله محمود الزمخشري كتابه الفائق في غريب الحديث، ولمكانة صاحبه حظي الفائق بثناء العلماء وعناية الدارسين، قال ابن الأثير: " ... إلى عهد الإمام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي رحمه الله، فصنّف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسماه " الفائق." ولقد صادف هذا الاسم مسمّى، وكشف عن غريب الحديث كلّ معمّى، وربّبه على وضع اختاره مقفّى على حروف المعجم."¹

والفائق كتاب قيّم، جامع، ربّبه صاحبه على وضع اختاره على حروف المعجم، حرص فيه على الجمع بين سهولة الترتيب المعجمي مع المحافظة على النصّ بسياقه في مكان واحد، ثم الإحالة على ألفاظه في آخر كلّ فصل يعالجه في المواضع التي يحتمل أن يطلبها الباحث فيها، فرتب كلّ باب على الحرف الأوّل من حروف المعجم مع الحرف الثاني، ولكّنه فيما وراء الثاني قد لا يلتزم الترتيب، أو يأتي بالكلمة ثم يتركها لغيرها ثم يعود إليها ... "²

وقد أبان الزمخشري في مقدّمة الفائق عمّا دفعه إلى تصنيف الكتاب، قال: " وقد صنّف العلماء رحمهم الله في كشف ما غرب من ألفاظه [يقصد الحديث الشريف] واستبهم، وبيان ما اعتاض من أغراضه واستعجم، كتبنا تنوّقوا في تصنيفها، وتجوّدوا، واحتاطوا ولم يتجوّزوا، وعكفوا الهمم على وحرصوا، واغتنموا الاقتدار عليه وافترصوا، حتّى أحكموا ما شاءوا وأترصوا، وما منهم إلا من بطش فيما انتحى بباع بسيط، ولم يزلّ عن موقف الصّواب مقدار فسيط، ولم يدع المتقدّم للمتأخّر خصاصة يستظهر بها على سدّها ولا أنشودة يستنهضه لشدّها، ولكن لا يكاد يجد بدّا من نبغ في فنّ من العلم، وصبغ به يده، وعانى فيه وكده وكده، من استحباب أن يكون له فيه أثر يكسبه في النّاس لسان الصّدق وجمال التّكر، ويخزن له عند الله جزيّل الأجر وسنيّ الدّخر.

¹ ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر. من مقدمة المصنّف. 09 / 01.

² الزمخشري. الفائق في غريب الحديث. من مقدمة التحقيق. 05 / 01.

وفي صوب هذين الغرضين ذهبت عند صنعة هذا الكتاب غير آل جهدا، ولا مقصّر عن مدى، فيما يعود لمقتبسه بالتّصح، ويرجع إلى الرّاغبين فيه بالتّجح، من اقتضاب ترتيب سلمت فيه كلمات الأحاديث نسقا ونضدا، ولم تذهب بددا، ولا أيدي سبأ، وطرائق قدا، ومن اعتماد فسر موضّح، وكشف مفصح، اطلعت به على حاقّ المعنى وفصّ الحقيقة اطلاعا مؤداه طمأنينة النّفس، وتلج الصّدر، مع الاشتقاق غير المستكره، والتّصريف غير المتعسّف، والإعراب المحقّق البصري، الناظر في نصّ سيبويه وتقرير الفسوي.¹

وقد المنهج الذي اتّبعه الرّمخشري، في إيراده لسياق النصّ كاملا، في أغلب الأحيان، في موضع واحد أن يتيح للباحث عن المفردة الغريبة معاشتها في أثناء النصّ غير منتزعة منه، وهو منهج سديد لتلمّس بعض جوانب البلاغة، لكنّ هذا المنهج كان سابقا لعصره، ولذلك سجل القدماء صعوبة البحث فيه، قال ابن الأثير: " ولكن في العثور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة، وإن كانت دون متقدّم الكتب لأنّه جمع في التّفقيّة بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله، ثم شرح ما فيه من غريب، فيجيء شرح كلّ كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم، فترد الكلمة في غير حرفها، وإذا تطلّبتها الإنسان تعب حتّى يجدها."²

يعتبر الفائق ذخيرة لغويّة نحويّة وبلاغيّة لما بذله فيه مصنّفه من جهد في دراسة نصوص الحديث، مستعينا في ذلك بمعرفته الواسعة على التراث اللغوي والنحوي والبلاغي السابق على عصره.

المجموع المغيّب في غريبي القرآن والحديث للمديني [581 هـ]

ألف أبو موسى محمد بن أبي بكر المديني الأصفهاني كتابا جمع فيه على طريقة الهروي ما فاته من غريب القرآن والحديث، ورتبه كما رتبه الهروي، وقد أثنى العلماء عليه وعلى كتابه، قال ابن الأثير: " فلما كان زمن الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني، وكان إماما في عصره حافظا متقنا تشدّ إليه الرّحال،

¹ الرّمخشري. السابق. من مقدمة المصنّف. 01 / 12.

² ابن الأثير. السابق. من مقدمة المصنّف. 01 / 09.

وتناط به من الطلبة الآمال، قد صنّف كتابا جمع فيه ما فات الهروي من غريب القرآن والحديث يناسبه قدرا وفائدة، ويمائله جمعا وعائدة، وسلك في وضعه مسلكه، وذهب فيه مذهبه، وربّبه كما ربّبه.¹

سار أبو موسى الأصفهاني في كتابه على منهج الهروي، لكنّه لم يذكر فيه ما ذكره الهروي، فكان كتابه عظيم الفائدة إذ استدرك به ما شدّ عن الهروي، وقد حدّد أبو موسى في مقدّمة كتابه هذا المنهج حين قال: " فإنّي لمّا طالعت كتاب الغربيين لأبي عبيد الهروي، رحمه الله، ورأيت تقريبه الفائدة لمطالعه، واحتياج طلاب فوائد القرآن والحديث إلى مودعه، واستحسنته جدّا، وأحمدته سعيا وكدّا، غير أنّي وجدت كلمات كثيرة شدّت عن كتابه، إذ لا يحاط بجميع ما تكلم فيه من غريب الكلم، فلم أزل لأتتبع ما فاتّه وأكتب ما غفل عنه إلى أن وقعت على كرّاسة غير كبيرة، جمعها بعض علماء خراسان بعد الخمسين والأربع مائة، لم يسمّ فيها مصنّفها، قد شحنها بما شدّ عن أبي عبيد ممّا أورده العزيزي في كتاب " غريب القرآن " وأضاف إليه معاني أسماء الله سبحانه وتعالى، وذكر في أثناءه كلمات غير كثيرة من غرائب الألفاظ، فأضفت تلك الألفاظ إلى كتابي، وربّما أشير إلى قوله في أثناء ما يمرّ بي من ذلك، لأنني لم استجز تضييع حقّه وإخمال ذكره ويعيه وجمعه.

وخرجت كتابي على ترتيب أبي عبيد سواء بسواء، وسلكت طريقه حذو النعل بالنعل في إخراج الكلم في الباب الذي يليق بظاهر لفظها وإن كان اشتقاقها مخالفا لها.² وعلى أهميّة الجهد الذي قدّه المدني في كتابه هذا، فقد أعلن بتواضع أنّ عمله في حاجة إلى إضافة، قال بوقار العالم: " وأعلم أنه يبقى بعد كتابي أشياء لم تقع لي ولا وقعت عليها لأنّ كلام العرب لم ينحصر.³ وهي في تقديري دعوة إلى إثراء هذا الفنّ وتدارك ما يفوت العلماء على مرّ العصور.

غريب الحديث لابن الجوزي [597 هـ]

¹ نفسه. من مقدمة المصنّف. 09 / 01.

² المدني: محمد بن أبي بكر، أبو موسى، المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث. تح عبد الكريم العزباوي. جامعة أم القرى. مكة. ط

02. 2005. من مقدمة المصنّف 04 / 01.

³ نفسه. من مقدمة المصنّف 04 / 01.

صنّف الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي كتابا في غريب الحديث، اتّبع فيه طريق الهروي في كتابه الغريبين، مجردا عن غريب القرآن مع زياد بسيطة على ما فيه، وقد وصف ابن الأثير عمله فقال: " وكان في زماننا أيضا معاصر أبي موسى الإمام أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن الجوزي البغدادي، رحمه الله، وكان متفنا في علومه في علومه متنوعا في معارفه، فاضلا، لكنّه كان يغلب عليه الوعظ، وقد صنّف كتابا في غريب الحديث خاصّة نهج فيه طريق الهروي في كتابه وسلك محجّته مجردا من غريب القرآن ... ولقد تتبعت كتابه فرأيتّه مختصرا من كتاب الهروي، منتزعا من أبوابه شيئا فشيئا، ووضعها فوضعا، ولم يزد عليه إلا الكلمة الشادة واللفظة الفدة، ولقد قايست ما زاد في كتابه على ما أخذه من كتاب الهروي فلم يكن إلا جزءا يسيرا من أجزاء كثيرة.¹"

وعن الدافع إلى تصنيف هذا الكتاب يقول ابن الجوزي بعد ذكره لما قدّمه سابقوه: " فرأيت أن أبذل الوسع في جمع جميع غريب حديث رسول الله ﷺ وأصحابه وتابعيهم، وأرجو ألا يشدّ عليّ مهمّ من ذلك، وأن يغني كتابي عن جميع ما صنّف في ذلك."² وقد توجّه ابن الجوزي بكتابه هذا إلى المشتغلين بالحديث، ولذلك مال لإبى الاختصار وعدم التوسع بذكر الشواهد والاشتقاقات وغيرها، وكتب اللغة ومعجمها أولى بذلك، قال: " وقد ربّته على حروف المعجم، وإمّا آتي بالمقصود من شرح الكلمة من غير إيغال في التصريف والاشتقاق، إذ كتب اللغة أولى بذكر ذلك وإمّا آثرت هذا الاختصار تلطفًا للحافظ، والله الموقّق."³

النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير [606 هـ]

ثم جاء مجد الدين مبارك بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير فألف كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر، قال عنه محققا الكتاب، وبعد أن قدّما جرّدا بأسماء الذين ابن الأثير إلى التصنيف في الباب: " لقد انتهى إلى ابن الأثير حصاد طيّب

¹ ابن الأثير. السابق. من مقدمة المصنّف. 10 / 01.

² ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، أبو الفرج. غريب الحديث. تح د عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلميّة. بيروت. 2004. من مقدمة المصنّف. 04 / 01.

³ نفسه. من مقدمة المصنّف. 04 / 01.

في شرح غريب الحديث أفاد منه وأربى عليه في استقصاء معجز ودأب مشكور بحيث جاء كتابه بحق " النهاية " في هذا الفن الشريف، ولم تندّ عنه إلا أحاديث يسيرة ذكرها السيوطي في " الدرّ الثّير " وفي التّذليل والتّذنيب ¹.

أمّا مادّة الكتاب فقد جمعها ابن الأثير من كتابين مهمّين هما كتاب الهروي وكتاب المدني، قال في مقدمة كتابه: " وأمّا أبو موسى الأصفهاني رحمه الله فإنّه لم يذكر في كتابه ممّا ذكره الهروي إلا كلمة اضطرّ إلى ذكرها إمّا لخلل فيها أو زيادة في شرحها أو وجه آخر في معناها، ومع ذلك فإن كتابه يضاهي كتاب الهروي كما سبق لأنّه وضع كتابه استدرّاك لما فات الهروي.

ولما وقفت على كتابه الذي جعله مكملًا لكتاب الهروي وامتّمًا وهو في غاية من الحسن والكمال، وكان الإنسان إذا أراد كلمة غريبة يحتاج إلى أن يتطلبها في أحد الكتابين فإن وجدها فيه وإلا طلبها من الكتاب الآخر، وهما كتابان كبيران ذوا مجلّدات عدّة، ولا خفاء بما في ذلك من الكلفة، فرأيت أن أجمع ما فيهما، من غريب الحديث مجردًا من غريب القرآن، وأضيف كل كلمة إلى أختها في بابها تسهيلًا لكلفة الطلب، وتمادت بي الأيام في ذلك أقدم رجلا وأوخر أخرى، إلى أن قويت العزيمة وخلصت النية، وتحققت في إظهار ما في القوّة إلى الفعل، ويسر الله الأمر وسهّله، وسنّاه ووفّق إليه، فحينئذ أمعنت النّظر وأنعمت الفكر في اعتبار الكتابين والجمع بين ألفاظهما، وإضافة كلّ منهما إلى نظيره في بابه، فوجدتهما، على كثرة ما أودع فيهما من غريب الحديث والأثر، قد فاتهما الكثير الوافر، فإنّي في بادئ الأمر وأوّل النّظر مرّ بذكر كلمات غريبة من غرائب أحاديث الكتب الصّحاح كالبخاري ومسلم، وكفاك بهما شهرة في كتب الحديث، لم يرد شيء منها في هذين الكتابين، فحيث عرفت ذلك تنبّهت لاعتبار غير هذين الكتابين من كتب الحديث المدوّنة المصنّفة في أوّل الرّمان وأوسطه وآخره، فتنبّعتها واستقرت ما حضرني منها، واستقصيت مطالعتها من المسانيد والمجاميع وكتب السنن والغرائب قديمها وحديثها، وكتب اللغة على اختلافها، فرأيت فيها من الكلمات الغريبة ممّا فات الكتابين كثيرًا، فصدفت حينئذ عن الاقتصار على الجمع بين كتابيهما،

¹ ابن الأثير. السابق. من مقدمة التحقيق. 01 . 07.

وأضفت ما عثرت عليه ووجدته من الغرائب إلى ما في كتابيهما في حروفها مع نظائرها مع نظائرها وأمثالها... كم يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها أحاديث الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم ﷺ جعلها الله سبحانه خيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها، ولقد صدق القائل الثاني: كم ترك الأول للآخر، فحيث حقَّ الله سبحانه النية في ذلك سلكت طريق الكتابين في الترتيب الذي اشتملا عليه، والوضع الذي حواه من التَّفقيّة على حروف المعجم بالتزام الحرف الأول والثاني من كل كلمة وإتباعها بالحرف الثالث منها على سياق الحروف الخ ... ومع هذا فإنّ المصيب في القول قليل، والفعل قليل بل عديم، ومن الذي يأمن الغلط والسّهو والزّلل نسأل الله العصمة والتوفيق.¹

وهذا الذي ذكرته من المقدّمة ضروري لتوضيح دوافع ابن الأثير ومنهجه في هذا الكتاب، ولعلّ ما أودعه فيها من الدّرر هو ما أهله لأن يكون مرجع في غريب الحديث، قديما وحديثا، وقد صرّح أنّه سلك طريق الهروي والمديني في الترتيب، وأشار إلى أنّه يثبت الكلمة في حروفها الزوائد تيسيرا على الباحثين في غريب الحديث ومنهم من لا يكاد يفرّق بين الأصلي والزائد.

منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير
كتاب آخر لابن الأثير في غريب الحديث، يتفق معه في الموضوع ويختلف في المنهج، ألفه بعد كتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر".

يرسم في مقدّمة هذا الكتاب ملامح منهجه بالقول: "فإني لما بلغت الأمل والغرض وأديت النفل والمفترض من تصنيف كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" وفرغت من تأليفه وجمعه، وترتيبه في أحسن وضعه، وكان الغريب الوارد فيه، المدرج في أثناءه ومطاويه، مفرّقا على أنواع صنوفه، مقسّما في أبواب حروفه، حيث التزمنا في وضعه التَّفقيّة على حروف المعجم، والابتداء بالأوّل فالأوّل، والأقدم فالأقدم، فلا تكاد تجد فيه حديثا تامّا وإن قلّ كلمه، ولا أثرا متّسقا وإن استقلّ منتظمه، أحببت أن أستأنف كتابا مختصرا أجمع فيه من الأحاديث والآثار الطوال والأوساط، ما أكثر ألفاظه غريب ولا

¹ ابن الأثير. السابق. من مقدمة المصنّف. 01 / 10 . 11.

يفهمه أكثر الناس، ويعزّ إدراك بعضه على كثير من الخواصّ، وأردها كاملة متناسقة الألفاظ تامّة الإيراد والاقتصاص، وأتبع كلّ حديث منها وأثر شرح غريبه وتفسير معانيه، وإيضاح المقاصد المودعة فيه.¹

ومن منهجه في الكتاب أن كان وبعد ذكر متن الحديث تامّاً غير منقوص أن " يذكر في آخره من خرّجه من علماء الحديث والغريب، ويعقب بما قيل في الحديث جرحاً وتعديلاً وقبولاً وردّاً "؟ وهو منهج مخالف، هو ظاهر، لمنهجه في " النهاية "، حيث فرّق الغريب على حروف المعجم، وكان بذلك ينتزع من الحديث الجزء المشتغل على الغريب وحده.

وهو منهج تفرّد به ابن الأثير في تصنيف كتابه في هذا الباب، وهذا ما يفهم من كلام محقق الكتاب، قال: " لا أعلم لهذا الكتاب سميّاً في مناهج من صنّفوا في غريب الحديث، فقد جرّد ابن الأثير الأحاديث الطويلة المأثورة عن رسول الله ﷺ والصّحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، جرّد ابن الأثير هذه الأحاديث من كتب السنّة والسيرة، وأفرد لشرحها هذا الكتاب " .³

يعدّ هذا الكتاب إضافة مبتكرة من الكاتب في مجال التصنيف في غريب الحديث، ثم تولى التصنيف في هذا الباب وقدم للمكتبة العربية ذخائر بعضها عفا عليه الزّمن وضاع وبعضها الآخر مازال مخطوطاً لم ينشر، والمؤكّد أنّ نشره سيقدّم إضافات مهمّة لعوم اللغة والبلاغة بشكل خاص، وقد اقتصر على ذكر هذه المصنّفات دون غيرها لكومها في تقديري أهمّ ما صنّف في هذا الباب من جهة، ولأنّها ذات صلة ببحني ولتمكّني من الاطلاع عليها من جهة ثانية.

¹ ابن الأثير. منال الطالب في شرح طوال الغرائب. تح د محمود محمد الطّناحي. دار المأمون التراث. دمشق. من مقدمة المصنّف.

.33 / 01

² نفسه. من مقدمة التحقيق. . 17 / 01

³ نفسه. من مقدمة التحقيق. . 17 / 01

الفصل

الرابع

أمثال العهد

القديم

والعهد

الجديد

توطئة

قبل الحديث عن الأمثال في العهد القديم والعهد الجديد، وهما الكتابان المقدسان عند اليهود بالنسبة للأول وكليهما بالنسبة للنصارى ومن ثم يطلقون عليهما اسم الكتاب المقدس بينما يسميهما المسلمون اتباعا لما ذكره القرآن والسنة التوراة والإنجيل، فمن المهم، كما أشرت في مقدّمة البحث، أن أبين مرّة أخرى أنني لست بصدد عقد مقارنة بين أمثال القرآن الكريم وأمثال الحديث الشريف من جهة وأمثال العهد القديم والعهد الجديد من جهة ثانية، لأنّ هذه العمليّة باطلة ولا تستقيم لجملة من الأسباب تتلخّص ف؛ كونها تجعل من القرآن الكريم وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أجمعت أمّة الإسلام وعقلاء مفكري البشرية في كلّ مكان وزمان على أنّه كذلك، تجعله وما يسمّى بالعهد القديم والعهد الجديد في منزلة واحدة، وهو أمر لا يستقيم لما صحّ في حق التوراة والإنجيل من تحريف وتزييف بيّنهما القرآن وهو آخر الكتب المنزلة في الكثير من الآيات، وأظهر ذلك الكثير من علماء هذه الأمة قديما وحديثا، بل وشهد به العقلاء من أتباع الكتابين على مرّ العصور. يضاف إلى هذا عدم التطابق بين نصوص الأمثال في الكتابين، فأمثال القرآن الكريم نزلت باللغة العربية الفصحى، وخاطبت العقليّة البشريّة جمعاء، وحافظت، إلى يومنا هذا، على صورتها التي أنزلت بها أوّل مرّة، بينما جاءت أمثال التوراة والإنجيل بلسان غير عربي، وتوجّهت بالخطاب إلى جماعة بشريّة معيّنة، ثم خرجت تلك النصوص، بمرور الزمن، عن أصلها، لأنّها في الغالب اعتمدت على الرواية الشفهيّة، وبعضها لم يكتب إلا بعد وفاة النبيّ الموحى إليه بالكتاب الذي يتضمّنهما بزمن طويل، ولذلك قد نجد بينهما توافقا في بعض العناصر واختلافا كبيرا في التفاصيل.

والذي دفعني لأدراجها ضمن هذا البحث هو الإشارات الكثيرة التي وجدتها عند علماء الأمّة من مفسّرين وعلماء أصول، فقلّما يتحدّث أحدهم عن الأمثال إلا ويشير إلى أنّها ذكرت في كتب أهل الكتاب، فهذا الرازي يقول عنها: " ولهذا أكثر الله تعالى في

كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ)¹ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال.² وقال الزمخشري: " ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ)³ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال.⁴ وقال الاصبهاني: " ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال وفشت في كلام النبي وكلام الأنبياء والحكماء.⁵ وقال الزركشي: " وقد أكثر تعالى في القرآن وفي سائر كتبه من الأمثال وفي سور الإنجيل سورة الأمثال.⁶ ومثل هذا القول نجده عند غيرهم من العلماء.

لذلك فالحديث عن أمثال التوراة والإنجيل قديم في تراثنا، ولعل ما جعلهم لا يخصونه بالدراسة راجع، في تقديري وكما سنبينه لاحقاً، إلى تأخر ظهور ترجمة عربية لهذين النصين.

أما حديثي عنها فيرجع إلى تطلعي لأن أكون جندياً بسيطاً في خدمة القرآن ولغته من جهة، ولكونها تمثل جانباً من جوانب تفكير طائفة ناطقة بالعربية ممثلة في اليهود والنصارى العرب، ثم تطلعي مرة أخرى لأن أقدم في بحثي إضافة وابتكار، خاصة أنني لم اطلع على دراسة أكاديمية تحدّثت عن هذا الموضوع، في حدود علمي.

¹ العنكبوت. 43

² الرازي: محمد فخر الدين. مفاتيح الغيب. دار الفكر للطباعة والنشر. ط 01 . 1981 . 02 / 80.

³ العنكبوت. 43

⁴ الزمخشري. الكشاف. 01 / 191.

⁵ السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. 02 / 132.

⁶ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 01 / 488.

المبحث الأول: اليهودية والنصرانية عند العرب قبل الإسلام.

- اليهودية والنصرانية بين العرب قبل الإسلام.

قبل الحديث عما يعنينا من أمر التوراة، وتحديدًا سفر الأمثال منها والمنسوب لنبي الله سليمان بن داود عليه السلام، لصلته الوثيقة بموضوع دراستنا هذه، وقبل الحديث عن أمثال المسيح عليه السلام في الإنجيل، أرى أنه من المفيد تسليط بعض الضوء على الديانتين السماويتين اللتين جاء بهما العهد القديم والعهد الجديد من بعده، التوراة والإنجيل، أي اليهودية والنصرانية، ونكشف بعد ذلك عن كيفية إطلاع العرب على تلك الكتب وكيف تمّ تعريبهما.

دخلت اليهودية إلى الجزيرة العربية في فترة مبكرة، وثمة خلاف حول كيفية دخولها. فمن المؤرخين والإخباريين من يرى أنّ اليهود عرب، ومنهم من يرى أنهم مهاجرون فرّوا من الاضطهاد الروماني لهم، والبعض يجمع بين القولين فيرى أنهم متهودون ومهاجرون.¹

عرف عرب الجاهلية اليهودية، لكنّها كانت محدودة الانتشار بينهم، إذ تركّزت في القبائل المقيمة حول مواطن المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر ويثرب واليمن،² وكانت حمير وكثير من كندة يهودا.³ وذكر لويس شيخو أنّ اليهود دخلوا " في أزمنة مختلفة في جزيرة العرب فاستوطنوا في بعض جهاتها، وعلى الأخص بعد جلاء بابل لما فرّ بعض بني إسرائيل من وجه الآشوريين فتوغلوا في أنحاء العرب. وحدث مثل ذلك بعد خراب أورشليم على يد الرومان إذ تشتتت شمل اليهود. وكانت سكناهم خصوصًا ما وراء بحر لوط وفي جهات تيماء ووادي القرى في يثرب وخيبر وبعض أحياء اليمن. ولم نعلم من أخبارهم إلا النزر القليل. ومما لا ريب فيه أن القبائل اليهودية

¹ أمين: أحمد. فجر الإسلام. دار الكتاب العربي. بيروت. ط 11. 1979. ص 23 / 24.

² الكلبي: هشام بن محمد بن سائب. الأصنام. تحقيق أحمد زكي باشا. دار الكتب المصرية. ط 03. 1995. ص 11. والمسعودي. مروج الذهب. 2 / 54.

³ ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد. جمهرة أنساب العرب. تح عبد السلام هارون. دار المعارف. مصر. د ت. ص 491.

كانت تعيش بين العرب دون أن تختلط بهم مواظبة على عاداتها المألوفة وشرائطها الدينية.¹

ومعنى ذلك أنّ هذه القبائل عاشت منغلقة على نفسها لا صلة لها بالعالم الخارجي إلا نادرا، ويعود سبب هذا الانغلاق الثقافي عند اليهود إلى اعتبارهم لديانتهم ملكا خاصا لا يطمحون إلى اعتناق أناس جدد له، فعزفوا بذلك عن التبشير به.²

وثمة إشارات عند الإخباريين وعلماء الأنساب القدماء، نتبين منها أنّ بعض معتنقي اليهودية تمكنوا من الوصول، في بعض المناطق إلى سدة الحكم. فتذكر هذه الكتب أنّ " ذا نوّاس " الملك الحميري تهوّد واضطهد نصارى نجران. كما يذكر ابن دريد أنّ الفطيون تملك بيثرب فعاث فيها فسادا حتّى قتله رجل من الأنصار في الجاهلية الأولى.³ وبهذا انكسرت شوكتهم ورجع حكم المدينة المنورة إلى العرب.

أمّا عن النصرانية عند العرب فقد جاء في أعمال الرسل " كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله " ⁴ وفي هذا ما يشير بوضوح إلى وجود عرب أيام المسيحية الأولى كانوا على صلة بالدين الجديد، والظاهر أنّه بمرور الأيام اعتنقت جماعات وأفراد منهم هذا الدين، لذلك كانت إياد كلّها وربيعة كلّها وبكر وتغلب والتّمر وعبد القيس وغسان وبنو الحارث بن كعب بنجران وطيّ وتنوخ وكثير من كلب وكلّ من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم كانوا نصارى.⁵

ونظرة على مواطن هذه القبائل تظهر أنّ النصرانية قد انتشرت في اليمن وشمال الجزيرة العربية الغربي والشرقي، كما عرفت في مواطن أخرى من الجزيرة العربية. وقد كان انتشار النصرانية في بلاد الشام ظاهرا بجلاء، وهو مظهر طبيعي لأنّ الشام كانت تحت حكم البيزنطيين وكانت النصرانية ديانتهم الرسمية، وقد عملوا على نشرها وترويجها بين شعوب تلك المناطق ولاسيما التي لهم فيها مصالح اقتصادية كالعرب.

¹ لويس شيخو . النصرانية وأدائها بين عرب الجاهلية . ص 18

² العودات: حسين. العرب النصارى. الأهالي للطباعة والنشر. دمشق. ط 01. 1992. ص 24.

³ ابن دريد . الاشتقاق . ص 436.

⁴ أعمال الرسل. 11 / 2.

⁵ ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . ص 491.

وثمة أخبار عربية قديمة تفسّر ظهور النصرانية في أماكن معينة من شبه الجزيرة العربية دون أخرى منها ما ذكره الميداني في مجمعه عن سبب انتشارها في الحيرة، أي الشمال الشرقي، عند شرحه المثل " إنّ غدا لناظره لقريب." ¹ فيذكر أنّ النّعمان بن المنذر اعتنقها بعدما عرضها عليه رجل من طيّ. وتنصّر معه أهل الحيرة وقد كانوا من قبل على دين العرب الشّرك. أمّا ابن خلدون فيذكر أنّ امرئ القيس بن عمرو أول من تنصّر من آل نصر. ²

ويظهر أنّ النصرانيّة وجدت في الحيرة مكانا خصبا في كنف المنذر، ففي شرح المثل " كحماري العبّادي " ³ يذكر الميداني أنّ العبّاد قوم من أفناء العرب نزلوا الحيرة وكانوا نصارى منهم عديّ بن زيد العبّادي. ويقول ابن دريد: " والعبّاد: قبائل شتى من بطون العرب، اجتمعوا بالحيرة على النّصرانيّة، فأنفوا أن يقال لهم عبّيد، فينسب الرّجل عبّادي." ⁴

أمّا انتشارها في اليمن فالظاهر أنّه كان بسبب البعثات الدينيّة التي كان القياصرة يشجّعون إرسالها إلى تلك المناطق. ⁵

وفيما يخصّ وسط الجزيرة العربية فلم تلق النصرانيّة رواجاً، وكان انتشارها محدوداً. فقبيلة قريش ذات الصّلة الوثيقة بالنصرانية، نتيجة رحلاتها التجاريّة إلى الشّام، لم يتنصّر منها إلا نفر يسير. ⁶

وبهذا يمكن القول بأنّ النصرانيّة أصبحت دينا رئيسياً عند العرب في الجاهليّة، ممّا حدا بالجاحظ إلى القول: " كانت النصرانيّة فيها فاشية [في العرب] وعليها غالبية، إلا مضر فلم تغلب عليها يهوديّة ولا مجوسيّة، ولم تفش فيها النصرانيّة إلا ما كان من قوم

¹ الميداني . مجمع الأمثال . 1 / 93 .

² ابن خلدون . التاريخ . 2 / 305 .

³ الميداني . السابق . 2 / 188 .

⁴ ابن دريد . الإشتقاق . ص 11 .

⁵ المسعودي . مروج الذهب . 2 / 78 وما بعدها .

⁶ ابن حزم . السابق . ص 491 .

منهم نزلوا الحيرة، يسمّون العباد، فإنهم كانوا نصارى، وهم مغمورون مع نبد يسير في بعض القبائل، ولم تعرف مضر إلا دين العرب، ثم الإسلام.¹

من كلّ الذي ذكرناه يمكننا القول بأنّ أهل الكتاب كانوا يقرأون كتبهم قبل البعثة النبويّة بالعبرانية ويفسّرونه للعرب بالعربية، وتواصل هذا الأمر حتّى على عهد الرسول ﷺ إذ أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ² (آمنا بالله وما أنزل إلينا.)³ وهو ما يبيّن أنّ بعض معاني هذه الكتب كانت معروفة عند العرب.

كما كان بعض العرب، وهم قلة قليلة جدا تنصّرت في الجاهليّة منهم ورقة بن نوفل كما ورد في صحيح الأخبار، يعرف العبرانية، وكان يقرأ بها الإنجيل ويكتبه ويعرّب نصوصه.⁴ ويبدو لي من هذه الأخبار أنّ ورقة بن نوفل كان على دراية باللغتين العبرانيّة العبرانيّة والعربيّة، وكانت هذه المعارف شخصيّة، إذ لم يعرف عنه أنّه قام بالتبشير في مكة، وكان الذين تنصّروا بها من قريش عدد قليل؛ ذكر منهم شيبه بن ربيعة الأموي وعثمان بن الحويرث وابن عمّه ورقة بن نوفل الأسديّان.⁵

- كتب أهل الكتاب [التوراة والإنجيل] عند العرب بعد الإسلام.

اطلع العرب والمسلمون على بعض معارف التوراة والإنجيل عن طريق مجموعة من علماء اليهود والنصارى الذين هداهم الله إلى الدّين الحقّ فأسلموا. ومثل هذه المعارف لا تعدو معنى كلمة أو كلمتين، كالذي نجده في تفسير الطبري منسوباً إلى ابن عباس عن كعب الأحمار أو عبد الله بن سلام. وقد شغلت هذه القضية الكثير من المستشرقين، نقصر القول من آرائهم على قول فؤاد سزكين: " إنّ المقتبسات الباقية التي

¹ الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر. المختار في الردّ على النّصارى. تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرفاوي. دار الجيل. بيروت. ط 01. 1991. ص 61.

² البقرة / 136.

³ صحيح البخاري ص 1096. حديث رقم 4485.

⁴ صحيح البخاري. ص 18. حديث رقم 03 كتاب بدء الوحي. وصحيح مسلم ص 97. حديث رقم 160. باب بدء الوحي إلى رسول

الله ﷺ.

⁵ ابن حزم . السابق. ص 491.

ترجع إلى ابن عباس تذكر أحيانا أسماء عدد من الرواة. وفي هذه المقتبسات يوضح أنّ ابن عباس ذكر روايات عن النبي ﷺ وعن كبار الصحابة، وأنه اعتمد، من ناحية أخرى، في شرح دلالات الكلمات على أحد المخضرمين وهو أبو الجلد جيلان بن فروة، وكان أبو الجلد مخضرمًا يزهو بأنه قرأ كتبًا قديمة. وقد ورد [في هذه النصوص] أيضا اسمان ليهوديين أسلمًا؛ هما كعب الأحبار وعبد الله بن سلام. وكان كعب حبرًا يمنيًا. وقد وصفهما لوت بأنهما " مدرسة ذات لون يهودي " تنسب إلى ابن عباس¹.

والمتملّ لما صح عن ابن عباس يتبيّن المغالاة في إدعاء مراجعته ﷺ لأهل الكتاب، بل الثابت عنه أنه ﷺ كان يتحاشى مراجعتهم ويستقذر ما ينشرونه من أخبار وقصص وينهى الناس عن الرجوع إليهم، فقد أخرج البخاري بسنده إلى ابن عباس ﷺ قوله: " يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث لأخبار بالله تقرأونه لم يشب؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: (هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا)² أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، ولا والله، ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم."³ وفي المصنّف لعبد الرزاق الصنعاني عن ابن عباس ﷺ: " لا تسألوا أهل الكتاب، فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبون بحق أو تصدقون بباطل، وإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى الله وكتابه."⁴

لقد كانت هذه الرّيبة والشكّ المستمرّ في محاولة اليهود تزوير نصوص هذا الدين السبب المباشر في تكليف المصطفى ﷺ لأحد خيرة صحابته أن يتعلّم لغة اليهود [العبريّة] قال زيد بن ثابت: أمرني رسول الله ﷺ فتعلّمت له كتابة اليهود، وقال: " إني والله ما آمن يهود على كتابي " فتعلّمته فلم يمرّ بي نصف شهر حتّى حدّثته، قال: إني كنت أكتب له إذا كتب، وأقرأ له إذا كتب إليه."

¹ سركين: فؤاد. تاريخ التراث العربي. تعريب الدكتور محمود فهمي حجازي. طبعة سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز. 1991. 1 / 65

² البقرة / 59

³ صحيح البخاري. ص 648. حديث رقم 2685. وانظر المصنّف لعبد الرزاق الصنعاني. 6 / 110.

⁴ الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام. المصنّف. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. من منشورات المجلس العلمي. 10 / 313. حديث رقم

19212. وانظر 6 / 110 الحديث 10159.

قال الحاكم: وهذا حديث صحيح، ولا أعرف في الرخصة لتعلم كتابة أهل الكتاب غير هذا الحديث.¹

- تعريب التوراة والإنجيل.

لم يتمّ تعريب التوراة والإنجيل على عهد الرسول ﷺ ولا على عهد الخلفاء الراشدين إلا مثل ما ذكر من فعل عمر رضي الله عنه حين استنسخ كتابا من أهل الكتاب وجاء به رسول الله ﷺ فغضب غضبا شديدا حتى احمرّت عيناه، وهو ما جعل عمر يضرب الرجل الذي استنسخ كتاب دانيال ويأمره أن يمحوه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا يقرأه و لا يقرئه أحدا.² وأخرج أحمد من حديث جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: " أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جنتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو باطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني."³

كانت هذه الغيرة والاعتزاز بالدين الحافظ الذي جعل عامة الناس يسيرون على هذا الدرب، قال عمرو بن ميمون: " كنا جلوسا بالكوفة، فجاء رجل ومعه كتاب، فقلنا: ما هذا الكتاب؟ قال: كتاب دانيال. فلولا أنّ الناس تجاوزوا عنه لقتل. وقالوا: أكتاب سوى القرآن."⁴

من هنا نتبين عدم اطمئنان الرعيل الأول إلى النصوص المعرّبة، والتي تقدّم كتفسير لبعض الآيات القرآنية أو الأحداث التي سكت القرآن عن تفصيلها، وهي قضايا غالبا ما تكون غير ذات أهميّة. وينقل الأعظمي عن مجموعة من المستشرقين، وخاصة ما كتبه كلغور، رأيه في أنّ أوّل ترجمة عربية للإنجيل كانت في القرن الثامن الميلادي، وما قاله

¹ الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين. 1 / 136. حديث رقمه 252.

² ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. تحقيق مجموعة من العلماء. مؤسسة قرطبة ومكتبة أولاد الشيخ الثرات. جيزة. 08 / 8 . 10.

³ المسند للإمام أحمد. 22 / 85. حديث رقم 15094.

⁴ الأعظمي. دراسات في الحديث. ص 46

دي خويه بأنه يوافق نولدكه بأنه لم تكن توجد نسخة عربية للإنجيل لا في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين.¹

أقدم إشارة، في النصوص العربية القديمة، إلى تعريب التوراة والإنجيل هي تلك التي ذكرها ابن النديم في الفهرست عن مولى الخليفة العباسي هارون الرشيد أحمد بن عبد الله بن سلام حين قال: " ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلامذة من اللغة العبرانية واليونانية والصابية، وهي لغة أهل كلّ كتاب، إلى لغة العربية حرفا حرفا ولم أبتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف."² والمعروف أنّ الفترة التي تولى فيها الرشيد الخلافة كانت بين³ 170 هـ / 193 هـ، ومعنى هذا أنّ عمليّة الترجمة كانت في القرن الثاني للهجرة. وثاني إشارة إلى تعريب الكتب القديمة هي تلك التي ذكرها كذلك صاحب الفهرست في المقالة الأولى من الفن الثاني، عند كلامه عن التوراة التي في يد اليهود وأسماء كتبهم وأخبار علمائهم ومصنّفهم، فقد ذكر أنّ سعيد الفيومي قام بتعريب التوراة.

أمّا سعيد الفيومي فمن علماء القرن الرابع الهجري، كان معاصرا للمسعودي وقد ذكره في كتابه " التنبيه والأشرف " عند حديثه عن حركة تعريب التوراة، وأثّه أدرك طائفة من علماء اليهود فقال: " ترجم هذه النسخة [التوراة المترجمة عن العبرية إلى اليونانية] إلى العربي عدّة ممن تقدّم وتأخّر منهم حنين بن إسحاق وهي أصحّ نسخ التوراة عند كثير من الناس، فأما الإسرائيليون من الإسمعت وهم الحشد والجمهور الأعظم، والعنانية وهم ممن يذهب إلى العدل والتوحيد، فيعتمدون في تفسير الكتب العبرانية: التوراة والأنبياء والزيور، وهي أربعة وعشرون كتابا، وترجمتها إلى العربية على عدة من الإسرائيليين المحمودين عندهم قد شاهدنا أكثرهم منهم؛ أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني، أشمعتي المذهب، وكانت وفاته في حدود العشرين والثلاثمائة.

¹ ذكر الأعظمي في كتابه دراسات في الحديث أن من المستشرقين الذين يرون هذا الرأي كلغور و دي خويه. ص 46

² الفهرست لابن النديم. ص 24.

³ ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. الكامل في التاريخ. تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01. 1987. 5 / 277 - 352. وانظر ابن الساعي: علي بن أنجب البغدادي. كتاب مختصر أخبار الخلفاء. بولاق. مصر. ط 01. 1309 هـ. ص 26 - 27.

⁴ النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق، المعروف بالوراق. كتاب الفهرست. تحقيق رضا تجدد. ص 25.

ومنهم سعيد بن يعقوب الفيومي، أشمعي المذهب أيضا، وكان قد قرأ على أبي كثير، وقد يفضل تفسيره كثير منهم، وكانت له قصص بالعراق مع رأس الجالوث داود بن زكي من ولد داود، واعتراض عليه وذلك في خلافة المقتدر، وتحزب من اليهود لأجلهما وحضر في مجلس الوزير علي بن عيسى وغيره من الوزراء والقضاة وأهل العلم والفضل ما بينهم. وترأس الفيومي على كثير منهم، وانقادوا إليه، وكانت وفاته بعد الثلاثين والثلاثمائة. ومنهم داود المعروف بالقومسي، وكانت وفاته سنة 334 وكان مقيما ببیت المقدس. وإبراهيم البغدادي ولم أشاهدهما، وقد كانت جرت بيننا وبين أبي كثير ببلاد فلسطين والأردن مناظرات كثيرة في نسخ الشرائع والفرق بين ذلك وبين البداء وغير ذلك وبين يهودا بن يوسف المعروف بابن أبي الثناء تلميذ ثابت بن قرّة الصابئ في الفلسفة والطب في الرقة من ديار مضر وبين سعيد بن علي المعروف بابن أشلميا بالرقة أيضا. وكذلك بين من شاهدنا من متكلميهم بمدينة السلام مثل يعقوب بن مردويه ويوسف بن قيوما. وآخر من شاهدنا منهم ممن تقدم إلينا من مدينة السلام بعد الثلاثمائة إبراهيم اليهودي التستري، وكان أحذق من تأخر منهم في النظر وأحسنهم تصرفا فيه ¹.

ونقل في كتابه " نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق " عن الموسوعة البريطانية أنّ سمويل بن حفني [ت 1034 م] ألف كتابا ضخمة في الشريعة وعرب أسفار موسى الخمسة وله تفاسير على معظم كتب العهد القديم ومقدمة عربية على التلمود، لكنّه لم يشر إلى وجود هذه الشروح أو ضياعها ².

وبهذا فتأثير اليهودية في العرب كان محدودا بالرغم من المغالاة التي يبديها المستشرق جولد تسيهر بشأن اليهود الذين أسلموا، ودورهم في التلاعب بمقدرات المسلمين، الأمر الذي لا يكاد يصدق في أجواء كانت السيطرة مع الصحابة النبهاء. ومحدودية تأثير تعاليم اليهودية راجع، في تقديري، إلى كون اليهود كانوا يفتقرون إلى المرجع الأول في ديانتهم والمتمثل في توراة عربية، وكلّ ما أثر عنهم في هذه الفترة هو بعض الاقتباسات والنتف التي يعرّبها علماؤهم أو بعض علماء الإسلام، فقد ذكرت عن

¹ المسعودي. علي بن الحسين بن علياً أبو الحسن. التنبيه والأشراف. مطبعة بريل. ليدن. 1893. ص 111. 112.

² غنيمة: يوسف رزق الله. نزهة المشتاق في تاريخ العراق. مطبعة الفرات. بغداد. ط 01. 1924. ص 128.

³ العودات: حسين. العرب النصارى. الأهالي للطباعة والنشر. دمشق. ط 01. 1992. ص 23.

بعض التابعين كمالك بن دينار¹ وبعض كتّاب السير والطبقات كابن إسحاق، نصوصا مترجمة بدقّة عن التوراة والإنجيل، بما يرجّح أنّها أخذت عن نسخة مترجمة إلى العربية، وهذا دليل على أنّ هذه الكتب أصبحت معروفة ومتداولة بين العلماء بعد القرن الأول الهجري.

وقبل الخوض في الحديث عن الأمثال في التوراة والإنجيل أرى أنّه من المفيد التعريف بهذين الكتّابين. فما التوراة؟ وما هو الإنجيل؟
التعريف بالتوراة والإنجيل

التوراة هي كتب موسى عليه السلام وتشمل الأسفار الخمسة المعزّوة إليه، والتي يجمعها؛ سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وتسمّى بأسفار الشريعة، وتضاف إليها الأسفار الملحقة وقد اختلفوا فيها قبولا وردّا في بعضها وتقسيمها وترتيبها وتسميتها، وهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الأسفار التاريخية؛ وتتكوّن من اثني عشر سفرا؛ تقصّ تاريخ بني إسرائيل منذ استلائهم على بلاد كنعان، واستقرارهم بفلسطين، وتحدّث عن قضائهم وملوكهم وأحداثهم، وهي سفر يشوع وسفران حنا وسفر راعوت وسفران لصمويل وسفران لميخائيل وسفران لأحبار الأيام وسفر عزرا وسفر نحميا وسفر استير.

القسم الثاني: أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، وهي خمسة مصبوغة بالشعر الديني، وهي سفر أيّوب ومزامير داود وأمثال سليمان وسفر الجامعة ونشيد الإنشاد لسليمان.

القسم الثالث: أسفار الأنبياء، عليهم السلام، وهي سبعة عشر سفرا، يقصّ كلّ سفر منها تاريخ نبيّ من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى وهارون، عليهما السلام، وهي أسفار؛ أشعيا وأرميا ومراثي أرميا وسفر حزقيال ودانيال وهوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخي. وهذا المجموع هو الذي يسمّونه بالعهد القديم.

ولليهود أسفار أخرى خفية لم يضمّوها إلى العهد القديم، بعضها غير مقدّس وهو في نظرهم غير معتمد، وبعضها مقدّس ومعتمد، لأنّهم يدينون بأنّه من عند الله، ولكنّ

¹ الإصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1988. 2 / 358.

أخبارهم رأوا أن يخفوها في الهيكل، وألا يطلعوا الجمهور عليها وألا يضمّوها إلى العهد القديم.¹ وقد اختلف اليهود في أسفار التوراة اختلافا كبيرا:

- فاليهود العبرانيون اعتمدوا أربعة عشر سفرا، هي الموحى بها وبالتالي المقدّسة عندهم، يقسمونها إلى ثلاثة أقسام؛ أسفار الشريعة أي كتب موسى الخمسة وتسمى التوراة، أسفار الأنبياء، أسفار الكتبة وتتألف من القصائد الدينيّة وكتب الحكمة.

- ولليهود السامريين توراة خاصّة بهم، تعرف بالتوراة السامريّة، ولا تحتوي هذه التوراة سوى على الأسفار الخمسة الأولى، لأنّهم يبطلون كلّ نبوءة في بني إسرائيل بعد موسى ويوشع ويثهمون العبرانيين بالوضع. ويضيف بعض السامريين إليها سفري يوشع والقضاة ويرون في هذه الأسفار السبعة كتابهم المقدّس.²

- وللنصارى وجهة نظر مختلفة سنتحدّث عنها لاحقا عند الحديث عن كتابهم المقدّس إن شاء الله.

لهذا كانت مصداقيّة التوراة بأسفارها الحاليّة على المحكّ ليس عند المسلمين فحسب، بل وللغربيين موقفهم الذي نقتبسه من دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي نقلا عن دائرة معارف لاروس التي جاء فيها تحت مادّة توراة " العلم العصري ولا سيّما النقد الألماني قد أثبت بعد دراسات مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أنّ التوراة لم يكتبها موسى، وأنّها عمل أبحار لم يذكروا اسمهم عليها، ألفوها على التّعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل، بل ذهب بعض العلماء إلى أنّ هذه الأسفار الخمسة ليست فيها كلّ الروايات الإسرائيليّة. ولكنّها تحتوي فقط على إشارات ورموز وحكايات وأنّ هجرة مصر ما هي إلا قصّة وهميّة أو حادثة رمزيّة ليس لها أدنى أصل حقيقي."³

¹ الحوفي: أحمد. حجّة التوراة. مؤسسة الخليج العربي. القاهرة. ط 01. 1989. ص 4 . 5. وانظر الكتب المقدّسة في ميزان التوثيق لعبد الوهاب عبد السلام طويلة. دار السلام. القاهرة. ط 02. 2002. ص 58 . 59.

² التوراة السامريّة. تعريب الكاهن السامريّ أبو الحسن إسحاق الصوري. نشر الدكتور أحمد حجازي السقا. دار الأنصار. القاهرة. 01. 1978. المقدمة. ص 17.

³ وجدي: محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. دار المعرفة. بيروت. ط 03. 1971. 702 / 2.

إذن من الثابت وجود كتاب سماوي أوحى الله به إلى موسى هو التوراة، لكنّ النصّ الأصلي لهذه التوراة لا وجود له، واعتمدت التوراة الحاليّة في بنائها على مصادر بشريّة مستفيدة من نصّ قديم للتوراة، بدّلت فيه وغيّرت بالزيادة والنقصان، ويعود نصّها الحالي إلى عهد عزرا.

وفي نصوص التوراة التي بين أيدينا الآن ما يشهد على ضياع النصّ الموسوي لها، وأنها كتبت بعد وفاته، جاء في سفر التثنية: " ومات هناك موسى عبد الله في أرض مآب عن أمر الله. ودفنه في الهوية في أرض مآب مقابل بيت فعور ولم يعرف إنسان تربته إلى اليوم هذا.¹ وفي القول " ولم يعرف إنسان تربته إلى اليوم هذا " ما يبيّن أنّه انقضى زمن طويل بين وفاة موسى عليه السلام وكتابة التوراة.

إنّ ضياع النصّ الأصلي للتوراة يظهر استحالة الوصول إلى تصور أولي ودقيق لها، فلقد ضاعت نصوص الوحي الأصليّة وعباراته، وأصبح من المستحيل مقارنة نصوصها بآيات القرآن الكريم كوحي من الله، ولذلك فأقصى ما تظننّ له النفس هو النصوص التوراتيّة التي تتقاطع مع آيات القرآن الكريم، مصداقا لقوله تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحقّ مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل. من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام.)²

ومن ثمّة فإننا معشر المسلمين نوّمن بأنّ غالبية التوراة المتمثلة في الأسفار التي بين أيدي يهود اليوم محرّفة، بل هي محض افتراء على الله عزّ وجلّ، وبهذا أخبر سبحانه في كتابه الحكيم في الكثير من آيات القرآن الكريم، منها قوله: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم ممّا كتبت بأيديهم، وويل لهم ممّا يكسبون.)³ وقوله في آية أخرى: (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب، لتحسبوه من

¹ التوراة السامريّة. ص 242.

² آل عمران / 4، 5.

³ البقرة / 78، 79.

الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون¹

أمّا الكتاب المقدّس عند النصارى فهو مجموعة الأسفار الإلهية التي كتبت بإلهام الروح القدس خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن السادس عشر قبل الميلاد حتى آخر القرن الأول بعده. وينقسم تبعاً لذلك إلى قسمين:

العهد القديم وهو التوراة التي سبق لنا الحديث عنها. وتتمثل في الأسفار التي ظهرت قبل بعثة المسيح عليه السلام. ويزعم النصارى أنّه وصل إليهم بواسطة الأنبياء الذين سبقوا بعثة المسيح عليه السلام. ومنه يعرفون أخبار العالم في العصور القديمة وشرائع اليهود الدينية والاجتماعية، ومنه يقتبسون الأدعية والمواعظ والشعر والحكمة وغيرها، ومنه يعرفون البشارات بالأنبياء اللاحقين.

رأينا أنّ اليهود قد اختلفوا في الأسفار التي تتكوّن منها التوراة، ونضيف هنا وجهة نظر النصارى إليها، فالبروتستانت يختلفون مع اليهود في تقسيم وترتيب أسفارها، فهي عند اليهود أربعة وعشرون سفراً وصارت عند البروتستانت بعدما ورّعوها بحسب الأسماء تسعة وثلاثون سفراً. أمّا الكاثوليك والأرثوذكس فقد أضافوا إليها سبعة أخرى فغدت ستة وأربعين سفراً، كما اختلفوا مع البروتستانت في ترتيب وتقسيم وتسمية بعض الأسفار من جهة، وفي السفر المنسوب لعزرا من جهة ثانية، حيث يراه البروتستانت واجب التسليم بينما ينكر ذلك الكاثوليك والأرثوذكس.

العهد الجديد وهو ما يسمّى بالإنجيل. ويتمثل في الأسفار التي كتبها تلامذة المسيح بإلهام من الروح القدس الذي حلّ فيهم بعد رفع المسيح. وقد استقرّ رأيهم في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي على اعتماد سبعة وعشرون سفراً من الأسفار التي اختلفوا فيها، وسمّوها بـ "العهد الجديد" ويعتقدون أنّ الوحي في معانيها دون ألفاظها. ويتكوّن العهد الجديد من خمسة أقسام:²

¹ آل عمران / 78.

² طويلة: عبد الوهاب عبد السلام. الكتب المقدّسة في ميزان التوثيق. ص 57. 58.

- مجموعة الأنجيل، وهي أهم الأقسام لأنها تروي سيرة المسيح عليه السلام وتعاليمه، والأنجيل كثيرة لكي المشهور منها والمعتزف به أربعة؛ إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا.

- سفر الأعمال وينسب إلى لوقا.

- مجموعة رسائل بولس وعددها أربع عشرة رسالة.

- مجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع.

- رؤيا يوحنا اللاهوتي أو السفر النبوي.¹

لن أطيل الحديث عن تاريخ العهد الجديد، لكن معرفة كيفية انتقاله إلى العربية ضرورية لأنها تخدم البحث، كما سبق لنا أن أشرت عند الحديث عن التوراة. ولذلك أقول:

رأينا فيما قدّمناه عند الحديث عن النصرانية عند العرب أنّ بعضهم تنصّر، وأنّ قلّة منهم كانت تعرف الإنجيل وتقرؤه سواء بالعبرانية أو بالعربية،² ورأينا أنّ أقدم إشارة عن تعريب الإنجيل كانت فيما نقله ابن النديم في الفهرست عن أحمد بن عبد الله بن سلام الذي صرّح بأنّه عربّ الإنجيل،³ ولعلّ مثل هذه الإشارات هي التي دفعت مستشرقين ككلغور ودي خويه ونولدكه يقولون بأنّه لم تكن توجد نسخة عربية للإنجيل لا في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين، وأوّل ترجمة عربيّة للإنجيل كانت في القرن الثامن الميلادي.⁴

ومثل هذا القول جدير بالناية والاهتمام خاصة عندما نصادف نصوصا عربية دقيقة الترجمة في كتاب الجاحظ الموسوم بـ " المختار في الردّ على النصارى " من الأنجيل المعتمدة عند النصارى.⁵ إضافة إلى النقل من التوراة أو الإنجيل التي نجدها مبنوثة في

¹ أبو زهرة: محمد. محاضرات في النصرانية. طبع الهيئة العامة للدراسات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض. ط 04.

1404 هـ. ص 48. وما بعدها.

² صحيح البخاري. ص 18. حديث رقم 03 كتاب بدء الوحي. وصحيح مسلم ص 97. حديث رقم 160. باب بدء الوحي إلى رسول

الله ﷺ. وذلك عند وصف ورقة بن نوفل.

³ الفهرست لابن النديم. ص 24.

⁴ ذكر الأعظمي في كتابه دراسات في الحديث أن من المستشرقين الذين يرون هذا الرأي كلغور ودي خويه. ص 46

⁵ الجاحظ. المختار في الردّ على النصارى. انظر الصفحات 70، 72، 73، 75، 76، 77.

كتب الأمثال والآداب وغيرها. منها ما جاء في كتاب " الخرائد " للخويّبي: " مكتوب في التوراة: المال يفنى، والبدن يبلى والعمل يحصى، والدّنب لا ينسى."¹

المبحث الثاني: أمثال العهد القديم والعهد الجديد.

- أمثال [التوراة] العهد القديم؛ عرض وتقويم.

الدارس لكتاب العهد القديم يتبيّن له بوضوح أنه حافل بمجموعة من الأمثال، بما يكشف عن قيمتها وأهميتها، ويمكن أن نذكر منها:
كما يقول مثل القدماء؛ من الأشرار يخرج شرّ.²
ويكون إسرائيل، مثلاً، وهزأة في جميع الشعوب.³
حتى تجعلهم الأمم مثلاً.⁴
وفاقت حكمة سليمان جميع بني الشرق، وكان صيته في جميع الأمم حوالياً، وتكلم بثلاثة آلاف مثل.⁵

وبالرغم من كون أمثال العهد القديم قد ذكرت على لسان أنبياء بني إسرائيل، وبالرغم من كون بعضها يتفق مع بعض نصوص شريعة الإسلام السمحة، ولعل ذلك بقية وحي

¹ الخويّبي: يوسف بن طاهر، أبي يعقوب. فرائد الخرائد في الأمثال. تحقيق د/ عبد الرزاق حسين. دار النفائس. الأردن. ص 597.

² صمويل الأول 24 / 13.

³ الملوك الأول 9 / 7.

⁴ صمويل 2 / 17.

⁵ الملوك الأول 5 / 30 . 32.

لم يدنس مصداقا لقوله ﷺ: " والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد "1
واختلف عنهم خلود رسالته، فعن أبي هريرة ؓ أنه ﷺ قال: " ما من الأنبياء من نبي إلا
قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ،
فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة."2 ومع ذلك فالكثير منها يحمل في مضمونه
فحشا وبذاءة لا تليق بمن تنسب إليهم، بل إن سفر الأمثال في العهد القديم قد تعرض له
الكثير من العلماء بكلام آت ذكره، وهذا الواقع يعزّز كون هذا الكتاب قد حرّف لفظه
ومضمونه، ليصبح بذلك خارجا عن مجال الدراسة البيانيّة التي سنخص بها القرآن
الكريم والحديث الشّريف.

سفر الأمثال

أمّا عن مصنّفات كتب الأمثال عند يهود ونصارى العرب فهو كتاب الأمثال الذي
صنّفه سعيد بن يعقوب الفيومي، الذي ذكره المسعودي، وذكره ابن النديم في كتابه
الفهرست، قال: " ومن أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكّنين من اللغة العبرانية، ويزعم
اليهود أنها لم تر مثله، الفيومي، واسمه سعيد ويقال سعديا وكان قريب العهد، وقد أدركه
جماعة في زماننا وله من الكتب؛ كتاب المبادئ. كتب الشرائع. كتاب تفسير أشعيا. كتاب
تفسير التوراة، نسقا بلا شرح. كتاب الأمثال، وهو عشر مقالات. كتاب تفسير أحكام
داود. كتاب تفسير النكت، وهو تفسير زبور داود عليه السلام. كتاب تفسير السفر الثالث
من النصف الآخر من التوراة، مشروح. كتاب تفسير كتاب أيوب. كتاب إقامة الصلوات
والشرايع. كتاب العبور، وهو التاريخ."3

فهذه الشهادة من صاحب الفهرست تبيّن أنّ الفيومي إضافة إلى تعريبه للتوراة، قد
صنّف كتابا في الأمثال، والراجح أنّه ليس سفر الأمثال الموجود في التوراة إذ لو كانه
لنّبّه على ذلك.

¹ بعض حديث أخرجه الشيخان. وقيل: " أنا أولى النَّاس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة." البخاري ص 849. رقم 3443 واللفظ له.
ومسلم ص 1177. أرقام 6024 / 6025 / 6025.

² صحيح مسلم حديث رقم 152. ص 92. صحيح البخاري حديث رقم 4981 ص 1283. مسند الإمام أحمد حديث رقم 8472.
8 / 329. و حديث 9789 / 9 / 323. واللفظ لمسلم.

³ النديم : أبو الفرج محمد بن إسحاق، المعروف بالورّاق. كتاب الفهرست. تحقيق رضا تجدد. ص 25.

بعد ذلك بزمان طويل تذكر لنا المصادر اسم كتابي صنف في الأمثال وهو أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري، يهودي أسلم على يد الخليفة العباسي المعتصم، أدخله المتوكل في جملة ندمائه، وهو أستاذ الرازي في صناعة الطب.¹

وابن الرين مغمور قليل الذكر في كتب الأمثال أو في الدراسات التي تعرض فيها أصحابها لهذا الفن؛ ذكره أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي في مقدمة كتابه الأمثال، قال: " وإنما قصدنا المثل السائر الذي لم ترسله العرب الأول الحجازيون، ولا ذكره المصنفون الذين انتدبوا لجمع هذا الباب كأبي عبيد، والمفضل الضبي، وكالأصمعي، وعلي بن الرّبن الطبري، وقبلهم عبيد بن شرية الجرهمي ..."²

ويذكره ابن خلكان في ترجمته لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور بالقول: " أن اشتغاله بالطب على أبي الحسن علي بن ربن الطبري صاحب التصانيف المشهورة، منها " فردوس الحكمة " وغيره. وكان نصرانيا ثم أسلم "³ والظاهر من

كلام الذين ترجموا له أنه عني بأمثال العرب وليس بأمثال التوراة أو الإنجيل.

يحتوي سفر الأمثال في التوراة، والمكوّن من واحد وثلاثين فصلا، على ضروب من حكم الحكماء منسوبة إلى سيّدنا سليمان بن داود عليهما السلام. وينقسم هذا السفر إلى قسمين:

الأول: من الفصل الأوّل إلى التاسع، وفيه ترغيب وحثّ على طلب الحكمة والعمل بمقتضاها.

الثاني: من الفصل العاشر إلى الأخير، ويتضمّن أمثالا أدبيّة وقواعد للسلوك، غير أنّ الكثير من الأمثال لا صفة دينيّة لها، كما أنّ العديد من عبارات الحكمة فقدت أهميّتها ولم تعد مناسبة للواقع.

¹ ذكر محمد حسين الأعرجي في هامش تحقيقه لأمثال الخوارزمي، ص 5، أنه يهودي بينما يذكر ابن خلكان أنه كان نصرانيا. وينقل رزق الله غنيمه في كتابه نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص 115 عن كتاب عيون الأنباء لابن أبي اصبيعة أنه يهودي أسلم على يد المعتصم وسكن سرّ من رأى وأدخله المتوكل في جملة ندمائه، وهو معلّم الرازي صناعة الطب، وذكر له جملة من المؤلفات ليس منها كتابا له في الأمثال. ص 115. وذكره صاحب الفهرست باسم علي بن ربل (باللام) وظنّه تصحيح. ص 354.

² الخوارزمي . الأمثال . ص 5

³ ابن خلكان. وفيات الأعيان. 5 / 159.

يزعم بعض اليهود أن هذا السفر كله من تصنيف سليمان مستندين إلى ما جاء فيه 1 / 1: أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل. وفي 10 / 1: أمثال سليمان. وفي 25 / 1: هذه أيضا أمثال سليمان التي نقلها رجال حزقيا ملك يهوذا. هذا الزعم باطل، يردّه اختلاف المحاوراة وتكرار الفقرات. ويقطع الكثير من المحققين بأنّ؛

- الفصول التسعة الأولى ليست من تصنيف سليمان.

- الفصول الباقيّة وتتكوّن من مجموعتين؛ الأولى وتتمثّل في الفصول [10 - 22] والثانية [25 - 29] ويسبقهما ويتخللهما تتمات يستحيل تحديد أصلها. وعلى فرض أنّ بعض السفر من تصنيف سليمان، فلا شكّ أنّه لم يجمع في عهده، وقد تكون المجموعة الثانية جمعت في عهد حزقيا، جمعها رجاله كما تشير الفقرة 25 / 1 ومعنى ذلك أنّ هذا الجمع تمّ بعد 270 سنة من وفاة سليمان ثم أخذت شكلها النهائي بعد السبي. أمّا المجموعة الأولى منفردة أو مجموعة قد تكون أقدم من عهد حزقيا.

- أمّا الفصلان الأخيران فهناك خلاف كبير حول واضعهما: فقد جاء في 30 / 1: كلام أجور بن مقيّة مسّا، وحي هذا الرجل إلى إيتيئيل، إلى إيتيئيل وأكال. وعند الكاثوليك: كلام أجور بن ياقة، المقول الرزين، قول الرجل لإيتيئيل ... وفي 31 / 1: كلام لموئيل ملك مسّا علمته إياه أمّه. وعند الكاثوليك: كلام لموئيل الملك، مقول رزين أدبته به أمّه. ولم يتحقق للمفسرين من هذين الرجلين ولا متى كانا؟ كما لم تتحقق نبوتهما، لكن أهل الكتاب كعادتهم يقولون رجما بالغيب: إنّهما نبيان، وإلا لما دخل هذان الفصلان في الكتب القانونية.

ويّدعي أكثر مفسري الكاثوليك أنّ لفظي أجور وياقة بمنزلة لقبين، الأوّل معناه الجامع، وزعموا أنّ المراد به سليمان، والثاني معناه الحقائق، قالوا: وكانّ المراد به داود.

وأما لموئيل فادّعوا أنّه رمز إلى سليمان، لأنّه لم يأت في ملوك إسرائيل ولا يهوذا ملك يدعى بهذا الاسم. وبذلك يتّضح أنّهم بنوا رأيهم على مجرد الظنّ دون أن يكون هناك برهان أو سند تقوم به حجّة.

ويذهب الكثير من الدارسين والمحققين إلى أنّ هذا السفر المنسوب إلى سيّدنا سليمان عليه السلام غير صحيح النسبة إليه.¹

يذكر أحمد عبد الوهاب تعريفاً بسفر الأمثال من الكتاب المقدّس الذي نشرته دار المشرق ببيروت عام 1983 وباعتماد: اغناطيوس زيادة، مطران ما نصّه: " 12 - سفر الأمثال.] يستحيل تحديد أصل هذه المجموعات، حتّى المسندة إلى سليمان. إنّ عدداً كبيراً من هذه الأمثال لا صفة دينيّة لها البتّة.]"²

ويقول الدكتور أحمد شلبي عن سفر الأمثال في العهد القديم: " تنسب هذه الأسفار إلى سليمان، وليست في الحقيقة إليه، فسفر الأمثال يحوي مجموعة من الأمثال لا تربط بينها رابطة، وليس في أسلوبها وحدة أو تناسق، فالسفر، فيما نعتقد، ليس من فعل شخص واحد، ولا نتاج عصر واحد، وإّما هو من الآداب الشعبيّة التي تتناقلها الأجيال وتُدخل عليها كثيراً من الزيادة والنقصان.

وكما تعدّد الأشخاص الذين ألفوا هذه الأمثال، فإنّ موضوعاتها متعدّدة أيضاً، فمنها أمثال دينيّة، ومنها دنيويّة، ومنها أمثال للتحذير والإنذار ومنها الغاز وهجاء.

وبعض الأمثال ترد باسم سليمان كنصائح يوجّهها لولده، وبعضها تنسب لسليمان أيضاً ولكنها عامّة ليست موجّهة إلى أحد، وبعضها تنسب إلى حكماء، حدّدت أسماءهم أو لم تحدّد؛ وممن حدّدت أسماءهم " أجور بن ياقة " وبعض هؤلاء يوجّهون الأمثال نصائح لأولادهم وبعضهم يطلقونها إطلاقاً، وبعض الأمثال تتصل بالملك " لموئيل " وهي عبارة عن نصائح أمّه له لما صار ملكاً، ويختم السفر بمدح للزوجة الصالحة، فهو يصفها بأنّها " تفوق اللالي؛ بها يثق قلب زوجها، فلا يحتاج إلى غنيمة، تصنع له خيراً لا شراً كلّ أيام حياتها، تفتح فمها بالحكمة، وفي لسانها سنّة المعروف، تراقب طرق أهل بيتها، ولا تأكل خبز الكسل ... الحسن غشّ والجمال باطل أمّا المرأة المتقيّة الربّ فهي تمدح " .³

¹ شلبي: أحمد. اليهوديّة. مكتبة النهضة المصريّة. ط 08. 1988. ص 240 وما بعدها.

² طويلة. الكتب المقدّسة في ميزان التوثيق. ص 71.

³ شلبي. السابق. ص 242.

لقد تفرّدت الأمثال بكتاب كامل من الكتب التسعة والثلاثين التي ضمّتها التوراة بين دفتيها، والتي يسمّها أهل الكتاب العهد القديم، واستغرقت واحداً وثلاثين فصلاً من فصولها التسعة والعشرين والتسعمائة، وهي مجموعات من المأثورات، والأمثال القديمة التي كانت شائعة في العصور السالفة، وأقوال الحكماء.

وتدعو تلك الأمثال، والتي تنسب إلى نبيّ الله سليمان ﷺ، إلى التوبة وتعلم الكلمة الإلهية، والحكمة، وتعالج موضوعات مختلفة كتأديب الأبناء، والعدل الاجتماعي، وتمدح المرأة الفاضلة، وتبيّن أثرها العميق في حياة الأسرة.

فأمثال سليمان في العهد القديم ترعّب في تعلم الحكمة، وتدبّر معاني الأقوال المأثورة، والحثّ على تقبّل التأديب الفطن، والبر والعدل والاستقامة في مقدمة أهدافها، فهي تحذّر من العنف ورفض الحكمة، وتعدّد فوائد الحكمة وثوابها وبركتها، وتصف الحكمة بالتفوق والقوّة والأبدية، والحكيم بالشرف والغنى.

ومن موضوعات الأمثال مجموعة قيّمة من الوصايا والتحذيرات والآداب، حيث نجد وصايا للابن، ووصايا للزوج، وتحذير من الكسل ومن الدين، وتحذير من النمام، وتحذير من الزانية، وتأديب العبد الأبق، وبيان نقيصة النهم.¹

كما تمتاز الأمثال الواردة في العهد القديم بجملة من المقارنات؛ كالتي بين الحكيم والشريير، والصالح والطالح، والأشرار والأبرار، والفقير والغني، والأقوال العذبة والسيّئة، والكسول واللسان الكاذب، والبار والشريير، والحكيم والأحمق، والغنى والفقير، والأحمق والجاهل، وكلها أقوال مأثورة، ومواقف أخلاقية تبيّن أنّه بالرغم من الشكّ الذي يحوم حول نسبتها إلى نص التوراة المنزلة، أو حتّى صحّة نسبتها إلى نبيّ الله سليمان ﷺ فإنّ بعض نفحات الفضيلة تشيع فيها، ولعلّها بقيّة ممّا ذكره سيّد الخلق ﷺ حين قال: " بلّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار."²

¹ انظر. العهد القديم / سفر الأمثال.

² البخاري ص 852. رقم 3461.

ومما جاءت به أمثال التوراة؛ القول بأنّ رأس الحكمة مخافة الله، وأوّل الحكمة تقوى الرب، معرفة القدوس عين الفطنة، العامل بيد مسترخية يفقر، أمّا اليد الكادحة فتغني، في شفني العاقل تكمن حكمة، أمّا العصا فمن نصيب ظهر الأحمق، يتلاشى الشرير كما تتلاشى الزوبعة، أمّ الصديق فيخلد إلى الأبد، يدمر المنافق صاحبه بأقواله، وينجو الصديق بالمعرفة، أقوال الشفاه الصادقة تدوم إلى الأبد، أمّا أكاذيب لسان الزور فتنفذ في لحظة، من يعاشر الحكماء يصبح حكيما، ورفيق الحمقى يناله الأذى.¹

- أمثال [الإنجيل] العهد الجديد؛ عرض وتقويم

استخدم أسلوب التعليم بالأمثال من قبل أنبياء العهد القديم، ولمّا أرسل الله عيسى ابن مريم نبيا ورسولا، كان تعليمه لبني إسرائيل بوساطة ضرب الأمثال ممّا رسم منهجه في الدعوة فقد جاء في إنجيل مرقس: " وبدون مثل لم يكن يكلمهم " مرقس 4 / 34.² ويذكر القس منيس عبد النور في كتابه " أمثال المسيح " أنّ الضرورة هي التي ألجأت المسيح عليه السلام إلى استعمال المثل، فقد كان أوّل أمره يقدمّ وعظا صريحا، لكنّ قادة بني إسرائيل رفضوا دعوته فتشاوروا فيما بينهم وتأمروا عليه مرقس 3: 6 فغيّر المسيح طريقة تعليمه إلى الأمثال التي يفهمها البسطاء الراغبون في التعلّم لأنهم سيسألون عن معناها، أمّا الراضون فيضنون أنّ المسيح يضرب أمثالا، أو يروي حكايات فيتوقفون عن مقاومته، ويظهر ذلك من سؤال أحد تلامذته له حين ضرب لهم المسيح مثل الزارع، قال التلميذ: " لماذا تكلمهم بأمثال ؟ " فأجاب المسيح عليه السلام: " قد أعطي لكم أن تعرفوا سرّ ملكوت الله، وأمّا الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كلّ شيء، لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا. " مرقس 4 / 09.³

وعن دور المثل فإنّه يعطي الرّاغب في المعرفة مزيدا من المعرفة، لأنّه سيفنّش عن معناه. أمّا الرّافض فسينصرف عن المعنى الكامن في المثل لأنّ قلبه مغلق، لذلك قال

¹ انظر. العهد القديم / سفر الأمثال.

² القس: منيس عبد النور. أمثال المسيح. شتوتغارت. ألمانيا. ص 06.

³ نفسه. ص 06. 07.

المسيح عليه السلام: " فإنّ من له سيّطى ويّزاد، وأمّا من ليس له الذي عنده سيؤخذ منه. متى 13 / 12.1

وإذا كان المثل قصة أرضيّة تعبّر عن حقائق أوحى الله بها، فالأمثال التي ضربها المسيح تصوّر حالات من واقع النّاس. فقد ضرب مثل الأب الذي فاض قلبه شوقاً لأبنه التائب. لوقا 15 / 20. وضرب مثل الراعي المنحني على طرف هاوية لينقذ حملاً له سقط فيها. لوقا 15 / 04. وغير ذلك من الأمثال. ولذلك فالمثل لا يمكن أن يؤخذ وحده أساساً لعقيدة دينيّة، بل يجب أن تقرن بآيات الكتاب. كورنثوس 02 / 13.2

ذكرت في إنجيل متى / إصحاح 13 سبعة أمثال من أمثال السيد المسيح، ولا تنسى أن اليهود يحبون الأعداد ... وهذه الأمثال السبعة هي أمثال سلسلة تبدأ بمثل الزارع ثم الحنطة والزوان ثم حبة الخردل ثم الخميرة المخبأة في ثلاثة أكياس من الدقيق ثم الكنز المخفي ثم اللؤلؤة الكثيرة الثمن وفي النهاية مثل الشبكة المطروحة في البحر.

وجمع القديس متى هذه الأمثال معاً لأن هذه الأمثال تتحدث عن موضوع واحد وهو الملكوت ... ولأنه يخاطب كل الجموع فتحدث إليهم بسبعة أمثال فمن لا يفهم أحد الأمثلة فإنه يفهم من المثل الآخر، إذ أنه يخاطب بيئات مختلفة ... فالذين يعيشون بالقرب من البحر يقول لهم مثل الشبكة المطروحة في البحر ... ويضرب للفلاحين مثل الزارع ... وللتجار يضرب مثل اللؤلؤة الكثيرة الثمن ... ولربة المنزل يضرب مثل الخميرة ... وهكذا وكأنه يشرح الملكوت بعدة طرق من خلال سبعة أمثال تفيد كل الجموع المتواجدة.

أمثال المسيح

تميّز تعليم المسيح ﷺ لحوارييه وأتباعه بضرب الأمثال " وبدون مثل لم يكن يكلمهم."3 والمثل قصة أرضيّة تعبّر عن حقائق أوحى الله بها، فهو يشبه مسكناً على الأرض وقد فتحت نافذته على السّماء. وتصور الأمثال التي استعملها المسيح حالات من

1 نفسه. ص 07.

2 السابق. ص 07.

3 مرقس 4 / 34.

واقف الناس؛ عرضها بأسلوب واضح حتى " بهتت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة "1

ففي إنجيل مرقس يبين لنا المسيح ﷺ السبب الذي جعله يميل إلى استعمال المثل " ولما كان وحده سأله الذين حوله مع الإثني عشر عن المثل * فقال لهم قد أعطي لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء. "2

وفي لوقا يضرب مثل أب يفيض قلبه حبًا وشوقًا إلى ابن ضالّ نادم راجع من البلد البعيد إلى الأحضان الأبوية الوثيقة أنه لا بدّ راجع فيقول: " فقام وجاء إلى أبيه وإذ كان لم يزل بعيدا رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله. "3

وتتقاطع بعض أمثال المصطفى ﷺ مع أمثال المسيح ﷺ التي وردت في بعض نسخ الإنجيل ... ففي لوقا يضرب للأتباع حين غضبوا لتقرب العصاة منه مثل راعي أغنام ضاع منه خروف ووجده فيقول: " فكلّمهم بهذا المثل قائلا * أيّ إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحدا منها ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده. "4 والمسيح ﷺ يتحدث هنا عن مهمة الأنبياء والرسل، وهو شبيه في مضمونه بحديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " مثلي و مثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يدبهنّ عنها، وأنا أخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي. "5

وفي لوقا يضرب مثل جريح وقع بين اللصوص يسعفه مسافر يختلف عنه في الوطن والدين وذلك في قوله: " ولكن سامريًا مسافرا جاء إليه ولما رآه تحنن * فتقدّم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتا وخمرا وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به. "6 وفي متى تنقلنا أمثال المسيح لنرى فلاحا يبذر بذوره وذلك في قوله: " فكلّمهم كثيرا بأمثال قائلا هو ذا الزارع قد خرج ليزرع. "1

1 متى 7 / 28 . 29

2 مرقس 4 / 11 . 12

3 لوقا 15 / 20

4 لوقا 15 / 3 . 4

5 صحيح مسلم ص 1145 . ورقمه 5852

6 لوقا 10 / 33 . 34

وفي لوقا يضرب مثل الذي يحرث بمحراثه فيقول: " ومن منكم له عبد يحرث أو
يرعى يقول له إذا دخل من الحقل تقدم سريعا و اتكئ."²

وفي متى " أيضا يشبه ملكوت السماوات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل
نوع * فلما امتلأت اصعدوها على الشاطئ وجلسوا وجمعوا الحياض إلى أوعية وأما
الأردباء فطرحوها خارجا."³

ويضرب في لوقا مثل أرملة تستنجد بقاض مرتش فيقول: " وكان في تلك المدينة
أرملة وكانت تأتي إليه قائلة أنصفي من خصمي."⁴

وفي لوقا يضرب لأتباعه مثل بناء بيني قلعة، فيقول: " ومن منكم وهو يريد أن يبني
برجا لا يجلس أولا و يحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله."⁵

وفي لوقا يضرب مثل ملك يتجه بجيشه لأرض المعركة فيقول: " وأي ملك إن ذهب
لمقاتلة ملك آخر في حرب لا يجلس أولا ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف
الذي يأتي عليه بعشرين ألفا."⁶

وفي متى يلمس الحياة العائليّة كما في مثل الإبنين، يقول: " ماذا تظنون كان لإنسان
ابنان فجاء إلى الأول و قال يا ابني اذهب اليوم اعمل في كرمي * فأجاب و قال ما أريد
و لكنه ندم أخيرا و مضى * و جاء إلى الثاني و قال كذلك فأجاب و قال ها أنا يا سيد و
لم يمض * فأبى الاثنين عمل إرادة الأب قالوا له الأول قال لهم يسوع الحق أقول لكم إن
العشارين و الزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله."⁷

كما يستعرض في لوقا الحياة الزراعيّة كما في مثل التينة غير المثمرة فيقول: " وقال
هذا المثل كانت لوحد شجرة تين مغروسة في كرمه فأتى يطلب فيها ثمرا ولم يجد *
فقال للكرام هو ذا ثلاث سنين آتى اطلب ثمرا في هذه التينة ولم أجد اقطعها لماذا تبطل

¹ متى 13 / 3.

² لوقا 17 / 7.

³ متى 13 / 47-48.

⁴ لوقا 18 / 3.

⁵ لوقا 14 / 28.

⁶ لوقا 14 / 31.

⁷ متى 21 / 28-31.

الأرض أيضا * فأجاب وقال له يا سيد اتركها هذه السنة أيضا حتى أنقّب حولها وأضع زبلا * فان صنعت ثمرا وإلا ففيما بعد تقطعها.¹

وفي متى يصوّر لنا الحياة التجارية في مثل الوزنات: " كأنما إنسان مسافر دعا عبده و سلمهم أمواله * فأعطى واحدا خمس وزنات وآخر وزنيتين وآخر وزنة كل واحد على قدر طاقته وسافر للوقت * فمضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فرح خمس وزنات آخر * وهكذا الذي اخذ الوزنتين ربح أيضا وزنيتين أخريين * وأمّا الذي اخذ الوزنة فمضى وحفر في الأرض وأخفى فضة سيده * وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم * فجاء الذي اخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات أخر قائلا يا سيد خمس وزنات سلمتني هو ذا خمس وزنات أخر ربحتها فوقها * فقال له سيده نعماً أيّها العبد الصالح والأمين كنت أمينا في القليل فأقيمك على الكثير ادخل إلى فرح سيدك * ثم جاء الذي اخذ الوزنتين وقال يا سيد وزنيتين سلمتني هو ذا وزناتان أخريان ربحتهما فوقهما * قال له سيده نعماً أيّها العبد الصالح والأمين كنت أمينا في القليل فأقيمك على الكثير ادخل إلى فرح سيدك * ثم جاء أيضا الذي اخذ الوزنة الواحدة وقال يا سيد عرفت أنّك إنسان قاس تحصد حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر * فخفت ومضيت وأخفيت وزنك في الأرض هو ذا الذي لك * فأجاب سيده وقال له أيّها العبد الشرير والكسلان عرفت أنّي احصد حيث لم أزرع و أجمع من حيث لم أبذر * فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة فعند مجيئي كنت اخذ الذي لي مع ربا * فخذوا منه الوزنة و أعطوها للذي له العشر وزنات * لأنّ كل من له يعطى فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه * والعبد البطل اطرحوه إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.²

وفي لوقا يستعرض الحياة السياسية كما في مثل الملك الذي طلب حكما فانقلب شعبه ضده أثناء سفره. وذلك في قوله: " وإذ كانوا يسمعون هذا عاد فقال مثلا لأنّه كان قريبا من أورشليم وكانوا يظنّون أنّ ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال * فقال إنسان شريف

¹ لوقا 13 / 9.

² متى 25 / 30.

الجنس ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع * فدعا عشرة عبيد له وأعطاهم عشرة أمناء وقال لهم تاجروا حتى آتي * وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة قائلين لا نريد أن هذا يملك علينا * و لما رجع بعدما أخذ الملك أمر أن يدعى إليه أولئك العبيد الذين أعطاهم الفضة ليعرف بما تاجر كل واحد * فجاء الأول قائلا يا سيد مناك ربح عشرة أمناء * فقال له نعماً أيها العبد الصالح لأتلك كنت أميناً في القليل فليكن لك سلطان على عشر مدن * ثم جاء الثاني قائلاً يا سيد مناك عمل خمسة أمناء * فقال لهذا أيضاً و كن أنت على خمس مدن * ثم جاء آخر قائلاً يا سيد هو ذا مناك الذي كان عندي موضوعاً في منديل * لأني كنت أخاف منك إذ أنت إنسان صارم تأخذ ما لم تضع و تحصد ما لم تزرع * فقال له من فمك أدينك أيها العبد الشرير عرفت أنني إنسان صارم أخذ ما لم أضع وأحصد ما لم أزرع * فلماذا لم تضع فضتي على مائدة الصيارفة فكنت متى جئت استوفيتها مع ربا * ثم قال للحاضرين خذوا منه المنا وأعطوه للذي عنده العشرة الأمناء * فقالوا له يا سيد عنده عشرة أمناء * لأني أقول لكم إن كل من له يعطى ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه * أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن املك عليهم فاتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي.¹

قضايا التمثيل في العهد الجديد

استعان المسيح عليه السلام في تبليغ تعاليم رسالته بالأمثال، لأنه كان يدرك أنّ التكلم بها طريقة تعليمية وتربوية رفيعة تتفوق في غالب الأحيان على الكلام الصريح لما لها من مفعول يجعلها تؤثر على السامعين وتشدهم إليها، وتذلل لهم فهم العصي من الأمور. ورأينا أنّ تعليم المسيح عليه السلام لحوارييه وأتباعه تميّز بضرب الأمثال " وبدون مثل لم يكن يكلمهم."²

كما تصوّر الأمثال التي استعملها حالات من واقع الناس؛ عرضها بأسلوب واضح حتى " بهتت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة "³.

¹ لوقا 19 / 11 .27.

² مرقس 4 / 34.

³ متى 7 / 28 .29.

والمتملّ لأمثاله ﷺ يلاحظ أنّها لا تخرج في مضمونها عن ثلاثة أنواع؛ أمثال العقيدة، وأمثال الأخلاق، والأمثال النبويّة.

فالأمثال العقائديّة ضربها المسيح ﷺ ليحمل حواريّيه والسامعين له من أبناء الشعب على التفكير والتأمّل واكتشاف الفكرة العقائدية التي يحويها المثل، لا لي شعروا، بعد بذل الجهد الشخصي، بلدّة الاكتشاف العقلية فحسب، بل لترسخ الفكرة العقائدية المكتشفة في نفوسهم وتكون في نهاية الأمر موضوع إيمانهم.

لقد ضرب يسوع مثل " الزارع " ليفسح لهم المجال لأن يفكروا في معناه، ويتأمّلوا فيه، وي طرحوا على ذواتهم الأسئلة التالية: مَنْ هو الزارع؟ وما هي الأرض التي سقط فيها الحب؟ ولماذا بعضُ الحبّ أثمر؟ وبعضه لم يثمر؟ ولماذا تفاوتت كمية الحبّ الذي أثمر، فكانت قليلة في بعض الأرض وغزيرة في بعضها الآخر؟¹

وأجوبة المسيح ﷺ على الأسئلة لا تنشط الفكر فحسب، بل تسعى إلى تثبيت الإيمان وترسيخه في قلب السامع المفكر الذي اكتشف أن الزارع هو المسيح ﷺ نفسه، وأنّ الزرع هو الوحي الذي يتنزّل عليه، وأنّ الأرض التي وقع فيها الحبّ هي قلبه. فيرجع إلى نفسه ويقول: لا بدّ من أن أفتح قلبي لكلام الله ليتوطّد فيه هذا الكلام، وأحيا حياة الإيمان.

وضرب المسيح الأمثال الأخلاقية ليبرز جمال الفضيلة، ويجعلها تؤثر في قلوب السامعين، ويبين لهم قبح الرذيلة، فيمارسون الفضيلة وينفرون من الرذيلة.

وفي لوقا يضرب مثل جريح وقع بين اللصوص يسعفه مسافر يختلف عنه في الوطن والدين وذلك في قوله: " ولكن سامريًا مسافرًا جاء إليه ولما رآه تحنن * فتقدّم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتًا وخمرا وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به."²

أراد المسيح ﷺ بضربه لهذا المثل أن يظهر لهم جمال ممارسة فضيلة المحبة التي حملت السامريّ هذا الرجل الغريب، بل العدو اللدود، على تقديم المساعدة لعدوّه اليهودي الجريح، كما أوضح لهم قبح اللامبالاة بالإنسان المتألم التي استسلم إليها الكاهن واللاوي

¹ سأذكر المثل وأفصّل الحديث عنه عند دراستي لأمثال المسيح ﷺ لاحقاً.

² لوقا 10 / 33-34.

اليهوديَّان اللذان مرّا بجريح من أبناء دينهما وقوميتهما، وأكملتا طريقهما من دون أن يقدمتا له المساعدة التي كان في أمسّ الحاجة إليها.

بينما ضرب المسيح عليه السّلام الأمثال النبويّة ليحمل النّاس، وخاصّةً عليّة القوم منهم، على التوبة والقيام بالأعمال الصالحة.

مرّ عيسى عليه السّلام والحواريون معه بجيفة خنزير فقال بعضهم ما أنتن ريحته وقال بعضهم ما أخشن شعره وقال بعضهم ما أغلظ جلده فقال عيسى عليه السّلام ما أحسن بياض أسنانه إذا ذكرتم الشيء اذكروه بأحسنه.¹

جاء بناء المثل النبوي مخالفا لبناء المثل العقائدي والمثل الخلفي، ويوضّح مثل " التينة المورقة " ² وهو من الأمثال النبوية، هذه الفكرة، ويتلخّص المثل في أنّ المسيح عليه السّلام بينما كان نازلا من جبل الزيتون في صباح أحد الأيام، شعر بالجوع، فرأى على الطريق شجرة تين عليها ورق غزير، فدنا منها ليقطف منها بعض التين يسدّ به جوعه. فلم يجد عليها ولا ثمرة؛ فلَعَنها، فاصفرت أوراقها الخضراء على الفور وبيست، وهو مثل كما أشرنا ضربه المسيح عليه السّلام للعلية من القوم الذين لا خلاق لهم، فلأنذرهم وأوعدهم العذاب والعقاب الرهيب الذي سوف يحلّ بهم إذا لم يتوبوا ويعودوا إلى الطّريق القويم.

لا يختلف ضرب المسيح عليه السّلام للمثل عن استعمال الرّسول عليه السّلام له، إذ كلاهما استعملها للترغيب والترهيب والنّصح والتّوجيه وهكذا، ولذلك جاءت أمثاله واقعيّة تحمل في ثناياها دروسا وعبرا، قال: " الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة. " ³

ولذلك فالأمثال تعطي الرّاغب في المعرفة والسلوك القويم المزيد منهما، وأمّا من عميت بصيرته عن إدراك كنه المعنى الكامن في المثل فلا تعطيه شيئا، ولذلك قال المسيح عليه السّلام: " فإنّ من له سيعطى ويزاد، وأمّا من ليس له الذي عنده سيؤخذ منه. " ⁴

¹ العاملي. المخلاة. ص 112.

² متى 21 / 18 . 22.

³ يوحنا / 06 / 36.

⁴ متى 13 / 12.

المبحث الثالث: بين الأمثال الإسلاميّة وأمثال أهل الكتاب.

في تعريفهم للأمثال أو بيان أهميّتها يذكر الكثير من العلماء المسلمين أن الله قد أكثر في القرآن الكريم من الأمثال، وأنها فشت في كلام رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء وأنّ من سور الإنجيل سورة تسمّى سورة الأمثال.

جاء في تفسير الكشاف عند تفسير قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون).¹ ما نصّه: " لما جاء بحقيقة صفتهم عقبا بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميما للبيان، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني، ورفع الأسرار عن الحقائق، حتّى تريك المتخيّل في صورة المحقق، والمتوهّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألدّ، وقمع لسورة الجامح الأبويّ،

¹ البقرة 17

ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء، قال الله تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)¹ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال.²

وقال حمزة بن الحسن الاصبهاني: " ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال وفشت في كلام النبي وكلام الأنبياء والحكماء."³

وقال الرازي [ت 604 هـ]: " المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مُثل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول، كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجردا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس)⁴ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال.⁵

من هذه الأقوال نجد أن المصرّحين بوجود سورة في الإنجيل ثلاثة أعلام، لهم مكانتهم العلميّة ويشهد لهم بسعة المعرفة وهم؛ الزمخشري، وحمزة بن الحسن الاصبهاني والفخر الرازي. وليست أدري كيف اتفق لهم هذا القول رغم اختلاف العصر، اللهم إلا إذا كانوا قد أخذوا عن بعضهم بعضا دون التنبيه على ذلك، كالذي نجده من قول حمزة بن الحسن فنصّه موجود بتمامه عند الزمخشري في الكشاف. وقد تفتن

¹ العنكبوت 43

² الزمخشري. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. 01 / 190 ، 191.

³ السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. 02 / 132.

⁴ العنكبوت / 43.

⁵ الرازي. مفاتيح الغيب. 02 / 80.

لهذا الأمر الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن حين تحدّث الأمثال في القرآن والكتب السماوية دون التصريح بالذي ذكره، قال: " وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود مالا يخفى، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان مثلا، إذا مثل له بالنور تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه وفيه أيضا تبييت الخصم، وقد أكثر الله تعالى في القرآن، وفي سائر كتبه من الأمثال.¹"

ثم إن نظرة واحدة على الأنجيل المطبوعة تبين لنا أنها لا تحتوي على سورة للأمثال، وإن الأمثال موجودة بكثرة في مختلف أنجيل النصارى المطبوعة، كما رأينا ذلك في النقول السابقة.

سورة الأمثال موجودة في التوراة الحالية، أي النص المطبوع باسم العهد القديم، وسبق لنا تفصيل الحديث عنه بما يغني عن إعادته.

هذا الخلط في نسبة السورة لا يعود إلى جهل سلفنا أو تلفيقهم القول بغير حق، بل هو راجع، في تقديري، إلى كونهم لم تكن لديهم نسخة معربة معتمدة للتوراة أو الإنجيل، والذي كان بين أيديهم هو بعض النقول والأقوال على ما بيّنته من قبل.

إذا نظرنا في بعض النصوص التي ذكرها القدماء نجدها لا تختلف كثيرا عما هو في النصوص الموجودة في التوراة الحالية، من ذلك؛ أخرج أبو الشيخ عن هشام بن عروة عن أبيه قال: " بلغني أنه مكتوب في التوراة الرفق رأس الحكمة."² وجاء في سفر الأمثال من العهد القديم: " أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل * لمعرفة حكمة وأدب لإدراك أقوال الفهم."³ وفيه كذلك: " لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم * مخافة الرب رأس المعرفة أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب."⁴ وفيه: " لأنّ الربّ يعطي حكمة من فمه المعرفة والفهم."⁵

¹ البرهان في علوم القرآن: 1 | 488.

² الشهاب للقضاعي ص 64.

³ سفر الأمثال 01 / 01 - 02.

⁴ نفسه 01 / 06 - 07.

⁵ نفسه 02 / 06.

جامعة الأميرة
عبد القادر للعطوم الإسلامية

الفصل
الخامس
صور البيان
في النصوص
الدينية
العربية

قد يتساءل بعضهم عن دافع الحديث عن الإعجاز، وعلاقته بموضوع البحث، لكنّ الحيرة تتبدّد حين يعرف أنّ الآيات القرآنية التي تحدّى بها الله الخلق كان حضور المثل فيها ظاهراً بجلاء، فقد دعاهم إلى الإتيان بمثل ما أنزل على رسوله ﷺ، كما سيظهر في الآيات التي سنذكرها لاحقاً.

ظهرت الدراسات البلاغية أوّل أمرها مبنوثة في ثنايا الدراسات اللغوية، ولمّا كان النحو أوّل ما شغل العلماء دراسة وتأليفاً، فقد تعرّض غالبيتهم لقضايا اللغة المختلفة ومنها المسائل البلاغية كالحذف والتقديم والتأخير، ويمكننا أن نتبيّن بعض مسائلها وقضاياها في كتب النحاة وأهمّها الكتاب لسيبويه.

كما تعرّض علماء الأصول لبعض القضايا البلاغية عند دراستهم لألفاظ اللغة، وتطرّقوا إليها من جوانب مختلفة؛ كالخصوص والعموم، والإطلاق والتقييد، وهي مسائل أفادتهم في بناء الأحكام الشرعية طبقاً لتلك الدلالات اللغوية.

ثم جاء، الدور في آخر المطاف، على علماء البلاغة الذين عنوا بدراسة وتحليل النصّ القرآني، وبيّنوا الخصائص الفنية لألفاظه، ووقفوا على مواطن الإعجاز فيه، فكان عملهم باكورة الفكرة البلاغية التي توسّعت لاحقاً.

هذه أهمّ البيئات الفكرية التي ظهرت فيها الفكرة البلاغية أوّل أمرها، ثمّ توسّع البحث في مسائل وقضايا هذه الفكرة لتكتمل وتصبح علماً قائماً، له معالمه الخاصة به والتي تميّزه عن غيره، فصرح الدّراسة البلاغية قد تضافرت في بناء جهود علماء تلك البيئات؛ اللغة، والأصول، والبلاغة، وسنركّز حديثنا في هذا الفصل على علاقة البيان بالمثل، لأنّ غالبية الذين اهتمّوا بدراسة المثل القرآني يرون أنّ موضوعه هو التمثيل القياسي الذي تعرض له علماء البلاغة في علم البيان، وهو عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم، أو تمثيل حال أمر بحال آخر، وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه.

المبحث الأوّل: إعجاز القرآن الكريم وبلاغة رسول الله ﷺ وأخويه موسى والمسيح عليهما السلام.

إعجاز القرآن الكريم

القرآن الكريم رسالة الله الخالدة الموجهة للبشرية جمعاء، أنزله ليبيّن للفرد علاقته مع خالقه ونفسه وغيره من بني البشر، وذلك بتشريع الأحكام، وتوضيح المقاصد، وتبيين طرق المعاملات. وكان الإعجاز أهم سمة تطبعه، لذلك انشغل العلماء بالكشف عن مظاهره، فقدّموا الكثير من الآراء التي تكشف عن آلياته؛ فمنهم من ربطه بإحاطته الكلية التي شملت مختلف الظواهر الكونية، ومنهم من جعله على صلة بقدرته الدقيقة والراشدة في بسط الأحكام الشرعية وتنظيم العلاقات البشرية، ومنهم من رده إلى سمة " البيان " بوجه عام.

لا جرم أن لم تعرف العربية عبر تاريخها الطويل خطابا أبلغ ولا أرقى ولا أسمى من خطاب القرآن الكريم، فهو كلام الله عز وجل المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ذكر القاضي عياض في كتابه الشفا أنه ﷺ قال: " إن الله أنزل هذا القرآن أمرا وازجرا، وسنة خالية، ومثلا مضروبا، فيه نبؤكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يُخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه؛ هو الحق ليس بالهزل؛ من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله؛ ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوجّ فيقوم، ولا يزيغ فيستعنب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد "

1."

وإذا أردت أن تقف على عظمته فاشخص ببصرك إلى القوم الذين نزل بساحتهم لأول أمره، وتليت بين مسامعهم آياته، وتوجهت إليهم خطاباته، فستجد أنهم كانوا قوما ذوي

¹ القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض. الشفا بتعريف حقوق المصطفى. تحقيق محمد علي الجاوي. دار الكتاب العربي. بيروت. 1984. ص 392.

قلت: الحديث بلفظ قريب من هذا في سنن الترمذي: حديث رقم 2915 . وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال.. انظر سنن الترمذي. تحقيق صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت. ط 01. 2002. ص 824. والحديث في مسند الدارمي من طريقين رقم 3366 و 3367. انظر مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي. دار ابن حزم. بيروت. ط 1. 2002. ص 454 . 456.

بيان وفصاحة، بل كانوا رؤساء صناعة الخطب، وعبيد الشعر، وفرسان الحكمة، فتحذاهم القرآن مرات كثيرة أن يأتوا بمثله، أو بأقل سورة منه، فعجزوا العجز كله، وسجل عليهم القرآن عجزهم، فهو باق إلى يوم الدين، وقطع عليهم الطريق بقوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ¹

وقد وجد في القوم من لم يقدر على كتم إعجابه وانبهاره بأسلوب القرآن، كالذي ظهر من الوليد بن المغيرة أحد صناديد قريش، وكان قد استمع إلى النبي ﷺ وهو يتلو شيئا من القرآن، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإته ليعلو ولا يعلى. ²

لقد تعددت مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، لأنه بلغ الذروة في صياغته وأسلوبه، قال القاضي أبو بكر الباقلاني: " وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدّمنا ذكرها على حدّ واحد في حسن النظم وبديع التّأليف والرّصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفال فيه إلى الرّتبة الدّنيا ... فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة فعلمنا بذلك أنّه ممّا لا يقدر عليه البشر. ³ وتعرض بالحديث عن نظمه فقال: " نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجنّ فهم يعجزون عن الإتيان بمثله. ⁴ وقال ابن أبي الأصبع المصري: " وإذا انتهيت إلى بلاغة الكتاب العزيز انتهيت إلى نهاية البلاغة. ⁵

لكن تبقى فصاحته وبلاغته أبرز سمات الإعجاز فيه، نقل الزركشي عن حازم قوله: " إنّ الإعجاز فيه من حيث استمرّت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاءها في جميعه استمرارا لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم

¹ الإسراء / 88

² ينظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني 328/2، مستدرک الحاكم 506/2، دلائل النبوة للبيهقي 198/2.

³ الباقلاني: إعجاز القرآن. مطبوع على هامش الإتيان للسيوطي. عالم الكتب. د.ت. 1 / 55. 56.

⁴ الباقلاني. نفسه. 1 / 57.

⁵ ابن أبي الأصبع. تحرير التحبير. 329

لا تستمرّ الفصاحة والبلاغة في جميع أنحاءها في العالي منه إلا في الشّيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانيّة، فتقطع طيّب الكلام ورونقه، فلا تستمرّ الفصاحة في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه. والفترات في الفصاحة تقع للفصيح، إمّا بسهوه يعرض له في الشّيء من غير أن يكون جاهلا به، أو من جهل به، أو من سامة تعتري فكره، أو من هوى للنفس يغلب عليها فيما يحوش خاطره، من اقتناص المعاني سمينا كان أو غثا، فهذه آفات لا يخلو منها الإنسان الفاضل الطبع الكامل." وهو قريب ممّا ذكره ابن الزّمكاني وابن عطية¹.

لذلك طفق العلماء يكتبون بصدق صادق في بلاغة القرآن وطرائق نظمه، وعرضوا لمجازاته، وتشبيهاته، واستعاراته، وكناياته، إلى غير ذلك من ضروب الأداء فيه، كما تحدثوا عن مراعاته لمقتضى الحال، واختلاف نظم الآيات المتحدة في معانيها، أو ما يعرف بالمتشابه اللفظي، فكتبت كتابات مستقلة في هذا الباب. كما أنّ كتب التفسير قلما يخلو كتاب منها من الحديث في بلاغة القرآن، فمن مقلّ منهم ومن أكثر، والغرض عند كلّ أولئك الكشف عن مراد الله في أحكامه، وما يريده من العباد، ثم تلمس مواضع الحسن، ومواطن الجمال في أسلوب الذكر الحكيم.

فالقرآن كلام الله المعجز، ومن أرفع مظاهر إعجازه ما اتّسم به من بلاغة، حيّرت أهل الفصاحة وأعيان البلاغة منهم، فأقرّوا له بالفضل ولم يشغلوا أنفسهم بمعارضته إيماننا منهم بالعجز عن بلوغ مداه. ويكشف لنا القرآن الكريم أنّ هذا الأمر لم يكن عن طيب خاطر منهم فقد ذكر سبحانه حكاية عنهم قولهم (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأولين.)² وكلامهم هذا يكشف عن مكابرتهم، وعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، ولو كان ذلك ممكنا لأنجزوه.

من مظاهر الإعجاز القرآني

¹ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 2 / 101.

² الأنفال / 31.

القرآن الكريم معجزة سيّد الخلق ﷺ إلى يوم الدين، تكفل الله بحفظه من التبديل والتغيير ليبقى شهادة صادقة على نبوته ﷺ، ولذلك تحدّى به الإنس والجنّ كافة، والعرب خاصة، على أن يأتوا بمثله، لأنهم أهل بلاغة وبيان وبلغتهم نزل.

والإتيان بمثل القرآن هي الآية الأبرز التي تحدّى بها الله عزّ وجلّ العرب، وجاءت المسألة، تأكيداً للتحدّي، على مراحل. فتحدّاهم أول الأمر، في مواضع كثيرة، أن يأتوا بمثله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فلما جاءهم الحقّ من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهروا وقالوا إنا بكلّ كافرون. قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين. ¹ وقال: ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ² فلما عجزوا تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، قال تعالى: ﴿ فلعلّك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنّما أنت نذير والله على كلّ شيء وكيل. أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلم أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون. ³ ولما ظهر عجزهم، تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، قال تعالى: ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. ⁴ فعجزوا مرّة أخرى، فعقّب الله عزّ وجلّ على ذلك، وأخبرهم بأنّ التحدّي قائم إلى يوم الدين، وأنّ عجزهم قائم، وليس لهم من خيار سوى

¹ القصص / 48 .50.

² الطور / 31 .32.

³ هود / 12 .14.

⁴ البقرة / 22.

الخشوع والتسليم ليسلموا من العذاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا

النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.¹

وقد جمع القرطبي في تفسيره وجوه الإعجاز في القرآن؛ ووجدتها تتلخص في عشرة وجوه:²

1 - النظم البديع المخالف لكلّ معهود في لسان العرب، وقد اعترف له بهذه المزية فصحاء العرب.

2 - الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

3 - الجزالة التي لا تصحّ من مخلوق، ثم ساق آيات كثيرة كشواهد منها قوله تعالى: ﴿

والأرض جميعا قبضته يوم القيامة.³ وقوله: ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون.⁴

قال ابن الحصار:⁵ وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كلّ سورة، بل هي لازمة كلّ آية. وبمجموع هذه الثلاثة يتميّز مسموع كلّ آية وكلّ سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز. ومع هذا فكلّ سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة.

4 - التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقلّ به عربيّ حتّى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كلّ كلمة وحرف موضعه.

5 - الإخبار عن الأمور التي تقدّمت نزوله، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحذّوه به من قصة أهل الكهف وشأن موسى مع الخضر وغير ذلك.

¹ البقرة / 24.

² القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. 1 / 116. 119.

³ الزمر / 67.

⁴ إبراهيم / 42.

⁵ عبد الرحمن بن سعيد، أبو المطرف، فقيه أندلسي مالكي، توفي عام 422 هـ. انظر سير أعلام النبلاء 17 / 473.

6 - الوفاء بالوعد المدرك بالحسّ في العيان في كلّ ما وعد الله به، وهو قسمان؛ أخباره المطلقة كوعده بنصره رسوله ﷺ، ووعد مقيد بشرط كقوله: ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾¹ وقوله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾²

7 - الإخبار عن الغيب في المستقبل، والذي لا يطلع عليه إلا بوحى، من ذلك وعد الله نبيّه بإظهار دينه على الأديان بقوله: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾³

8 - ما تضمّنه القرآن من العلم، الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

9 - الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

10 - التناسب في جميع ما تضمّنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف. قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾⁴

قال القرطبي تعليقا على هذه الوجه العشرة: " فهذه عشرة أوجه، ذكرها علمائنا، رحمة الله عليهم."⁵

الإعجاز بالصّرفة

بعدما ذكر القرطبي في تفسيره وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء، قال بأنّ ثمة وجها غير التي ذكر، وهو القول الذي قال به النظام والمعتزلة، والمتمثل في كون وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصّرفة عند التّحدّي بمثله.

ومضمون هذا القول هو أنّ المعجزة لا تكمن في ذات القرآن، بل تكمن في صرف الله عزّ وجلّ لهمم العرب عن معارضة القرآن مع تحدّيه لهم بأن يأتوا بسورة من مثله. وهذا القول فاسد لجملة من الأسباب تتلخّص في:

¹ الطلاق / 03.

² التّغابن / 11.

³ التوبة / 33.

⁴ النساء / 82.

⁵ القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. 1 / 119.

أ - مخالفته لما أجمعت عليه الأمة، قبل خرق هذا الإجماع من قبل المعتزلة. في كون نفس القرآن هو المعجز، لأنّ بلاغته وفصاحته أمر خارق للمألوف في عرف اللسان العربي، وهو ضرب غير معهود عندهم.

ب - القول بأنّ الإعجاز في المنع والصّرفة يخرج القرآن عن أن يكون معجزاً. وممن يذهب إلى القول بالصّرفة الرّماني؛ صرّح بذلك في كتابه النّكت عندما قال بأنّ " وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توقّر الدّواعي وشدّة الحاجة، والتحدّي للكافة، والصّرفة، والبلاغة: والأخبار الصّادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكلّ معجزة."¹

بعد هذا القول يوجّه اهتمامه، من الجهات التي ذكر، إلى البلاغة دون غيرها. وهو ما بيّن أنّه وإن كان يرى وجوه الإعجاز هي الإعجاز بالصّرفة والبلاغة والإخبار بالغيب، فتركيزه على الجانب البلاغي بيّن أنّه المقدم عنده، بينما تعرّض بالحديث للجهات الأخرى، ومنها القول بالصّرفة، في آخر الكتاب بشرح مقتضب. وكأني به هنا، إذ يتحدّث بفتور، مقلد لهذا الرأي لسبب لم يذكره.

والقائلون بالصّرفة صنفان؛ منهم من يقول بأنّ العرب صرفوا عن معارضته، ولو تعرّضوا له لعجزوا عن ذلك، ومنهم من يقول بأنّهم صرفوا عن معارضته، مع كونه في مقدورهم ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدروا عليه.² وإذا كان النظام وبعض المعتزلة يذهبون في الإعجاز مثل هذا المذهب، فللجاحظ، وهو معتزلي كذلك، قول يخالفهم فقد نقل عنه الجرجاني في الدلائل قولاً مخالفاً وهو قوله: " ولو أنّ رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة، لتبيّن له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها، أنّه عاجز عن مثلها، ولو تحدّي بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها."³

¹ الرّماني. النّكت. مطبوع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز. ص 75.

² القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. 1 / 119. وتفسير ابن عطية 1 / 52.

³ عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص 251.

ومخالفة الجاحظ للنظام والمعتزلة في مسألة القول بالصّرفة نجدها بوضوح في كتبه التي بين أيدينا، وبخاصة في كتابه نظم القرآن وحجج النبوة والبيان والتبيين، وفيها يتجلى دفاع الرجل عن بلاغة القرآن وإثبات الإعجاز فيها.

موقف علماء التفسير من الإعجاز بالصّرفة، أبو حيان وابن عطية نموذجا.

ردّ على القائلين بالصّرفة الكثير من العلماء؛ نقتصر منهم على ذكر أبي حيان وابن عطية الذين ردّا عليهم أبلغ الردّ وهونا من قولهم وحججهم، قال ابن عطية: " وجه إعجازه أنّ الله تعالى قد أحاط بكلّ شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والتسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أنّ بشرا لم يكن محيطا.

وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إنّ العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه.

والصّحيح أنّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أنّ الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزلت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الدّوق وجودة القريحة وميز الكلام...

فصورة قيام الحجّة بالقرآن على العرب أنّه لمّا جاء محمد ﷺ وقال: ﴿ فاتوا بسورة من

مثله. ¹ قال كلّ فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتّى لا آتي بمثله؟ فلما تأمله وتدبّره

ميّز منه ما ميّز الوليد بن المغيرة حين قال: والله ما هو بالشعر ولا هو بالكهانة ولا

¹ البقرة / من الآية 22.

بالجنون. وعرف كلّ فصيح بينه وبين نفسه أنّه لا يقدر بشر على مثله، فصحّ عنده أنّه من عند الله. فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففرّ إلى القتال، ورضي بسفك الدماء عجزاً عن المعارضة، حتّى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قبيل من العرب يعلن كفره.

وقامت الحجّة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنّة المعارضة، كما قامت الحجّة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالسّحرة، فإنّ الله تعالى إنّما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشّهير أبرع ما يكون في زمن النبيّ الذي أراد الله إظهاره، فكأنّ السّحر في مدّة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطبّ في زمن عيسى، والفصاحة في مدّة محمد عليهم الصّلاة والسّلام.¹

وقال أبو حيّان في تفسيره البحر المحيط مهوّنًا قول القائلين بالصّرفة: " ولتباين أهل الإسلام في إدراك فصاحة الكلام، وما به تكون الزجاجة في النّظام، اختلفوا فيما به إعجاز القرآن، فمن توغّل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوقّل في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أنّ القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر، ولا داخله تحت القدر، ومن لم يدرك هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنّه من نمط كلام العرب، وإنّ مثله مقدور لمنشئ الخطب، فأعجازه عنده إنّما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ومنازلته، وإن كانوا قادرين على مماثلته، والقائلون بأنّ الإعجاز وقع بالصّرف هم من نقصان الفطرة الإنسانيّة في رتبة بعض النّساء حين رأت زوجها يظاً جارية فعاتبته، فأخبر أنّه ما وطئها فقالت له: إن كنت صادقاً فاقراً فاقراً شيئاً من القرآن، فأنشدها بيت شعر قاله ذكر الله فيه ورسوله وكتابه فصدّقتّه، فلم ترزق ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحقّ.²

¹ ابن عطية. المحرر الوجيز. 1 / 52 - 53.

² أبو حيّان. البحر المحيط. 1 / 109 - 110.

بلاغة الرسول ﷺ.

انصرف اهتمام الرعيل الأوّل من البلاغيين العرب نحو القرآن الكريم، وحظيت قضية الإعجاز بعناية كبار أهل العلم كالجاحظ، والباقلاني وعبد القاهر وغيرهم، بينما كان حظ الحديث الشريف من هذا الضرب من الدراسة ضئيلاً، وانصبّ اهتمام معظم العلماء على جمعه وتدوينه، وشغلهم توثيق نصوصه، وتبيين صححه من منتحله عن دراسته من الناحية البيانية.

تأتي بلاغته ﷺ في المرتبة الثانية بعد بلاغة القرآن الكريم، وقد تحدّث عنها القدماء والمحدثون، فوصفوها بعدما تأملوا صورها وتدبروا تراكيبها وألفاظها. قال يحي بن حمزة العلوي: " فإنّ كلامه ﷺ وإن كان نازلاً عن فصاحة القرآن وبلاغته، في الطبقة العليا بحيث لا يدانيه كلام، ولا يقاربه وإن انتظم أيّ انتظام."¹ لذلك تعدّ بلاغته ﷺ من أبرز مظاهر عظمته، وأجلى دلائل نبوّته، فهو ﷺ صاحب اللسان المبين والمنطق المستقيم، والحكمة البالغة والكلمة الصادقة، والمعجزة الخالدة.

كانت بلاغته ﷺ، ولا تزال، مضرب المثل، وموضع الإعجاب من كل من سمعه، وأنصت إلى ألفاظه التي تفيض رِقّةً وعذوبةً، وأصغى إلى معانيه تطلّ منها أروع الحكم وأصدق الأمثال، حتّى لقد عجب من ذلك الإمام علي بن أبي طالب ﷺ فقال: " يا رسول الله، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، ونحن بنو أب واحد، فقال: أدبني ربّي فأحسن تأديبي، وربّيت في بني سعد."²

وقال له أبو بكر ﷺ: " يا رسول الله، لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟"³

¹ العلوي. الطراز. 1 / 160.

² ابن الأثير. منال الطالب في شرح طوال الغرائب. 1 / 36. وانظر المناوي: محمد المدعو بعبد الرؤوف. فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي. دار المعرفة. بيروت. ط 02. 1972. 1 / 225. الهندي. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. 11 / 406. حديث رقم 31895. وفيهما قال علي: " يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فمن علمك؟ فقال ﷺ: " أدبني ربّي فأحسن تأديبي."

³ الهندي. كنز العمال. 11 / 431. حديث رقم 32024.

وكان ﷺ يعتزّ بما حباه الله من نقاء الفطرة، وصفاء القريحة، وفصاحة المنطق، ورجاحة الفكر فقال: " أدبني ربّي ونشأت في بني سعد."¹ وقال: " أنا أفصح العرب بيد أيّ من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر."²

وإذا كانت العرب أمة البلاغة، وأهلها أئمة الفصاحة؛ تنقاد لهم أئمة الكلام، ويهتفون بروائع الخيال، فينصاع لهم عصيّه، ويدلّ لهم أبيّه.

وإذا كان الكلام صناعتهم التي بها يباهون غيرهم من الأمم، فلا عجب أن يكون بيان نبيّهم ﷺ الذي يبلغهم رسالة ربّهم، أسمى بيانهم، ومنطقه أبلغ من منطقتهم. ومن ثمّ كان تأييد الله سبحانه له بمعجزة القرآن، وحجة البيان.

لقد كان بيانه ﷺ السحر الحلال، والنّبغ الدّافق، والمنهل العذب الذي يتفجر من طبع سليم وفطرة عريقة أصيلة، تضافرت على صقلها أقوى العوامل، وتعاونت على إنكائها أبلغ المؤثرات، فنشأ ﷺ وترعرع في كنف أفصح قبائل العرب وأصحّها لهجة، وأعذبها بيانا، وأقومها سليقة.

وترجع بلاغة رسول الله ﷺ إلى عدّة عوامل تضافرت مجتمعة من أجل بناء شخصيته البيانية المتفردة، من بيئته القرشيّة واسترضاعه في بني سعد بن بكر، واتصاله بالنّسب أو المصاهرة بعدّة قبائل عربية أخرى ثم ارتقت إلى أجواء عليا سامية حين اختاره الله رسولا إلى الناس كافة وجعل القرآن معجزته، فغلب على روحه حتى عاد سجيّة له.

ولد ﷺ في بني هاشم، وكانوا يومها ذروة قريش؛ علو منزلة، وسلاسة لسان، وفصاحة كلام، وسماحة بيان؛ أمّا أخواله فبنو زهرة، وكان رضاعه في سعد بن بكر، وصهره في بني أسد بزواجه من خديجة؛ وقد خصّ الله عزّ وجلّ كل هذه القبائل بعرق في الفصاحة، وسبب من البلاغة وثيق، وكلّ هذا إعداد من الله لنبيّه ﷺ لينهض بالدعوة إلى الله، فجاء فصيح اللسان، سلس الأسلوب، موقن العبارة، قويّ الحجّة، بليغ التأثير، يحسّ السامع لكلامه حلاوة، ويستشعر لدّة تهزّ نفسه، وتثير إحساسه، وتأخذ بمجامع قلبه.

¹ السابق. 11 / 414. حديث رقم 31942.

² الرفاعي: مصطفى صادق.. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الكتاب العربي. بيروت. ص: 325.

وقد تبارى العلماء، قديما وحديثا، في وصف فصاحته وبلاغته ﷺ ومن أفضل ما قيل في ذلك ما قاله الجاحظ في كتابه البيان والتبيين: " وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: (وما أنا من المتكلفين.)¹ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التّعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ ورغب عن الهجين السوقيّ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبّة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجّة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبّد الخطب الطوال بالكلام القصير ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواردية، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبيطى ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحاه، من كلامه ﷺ كثيرا.²"

وتحدّث الخطابي في كتابه " غريب الحديث " عن البلاغة النبوية، فذكر أهمّ سمات الحديث النبوي، واستعرض ضروبا من حسن بيانه ﷺ. قال عن فصاحته ﷺ: " إنّ الله عزّ وجلّ لما وضع رسوله موضع البلاغ في وحيه ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها ليباشر في لباسه مشاهد التبليغ، وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف. ثم أمده بجوامع الكلم التي جعلها رداءً لنبوته وعلماء لرسالته لينتظم في القليل منها علم الكثير فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حملة، ومن تتبّع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها، وقد وصفت منها ضروبا وكتبت لك من

¹ سورة ص / 68.

² الجاحظ. البيان والتبيين. تح د درويش جويدي. 2 / 244 . 245.

أمثلتها حروفا تدل على ما وراءها من نظائرها وأخواتها، فمنها في القضايا والأحكام قوله: " المؤمنون تكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم." وقوله: " المنيحة مردودة، والعارية مؤداة، والدّين مقضي، والزعيم غارم." فهذان الحديثان على خفة ألفاظهما يتضمّنان عامّة أحكام الأنفس والأموال. ومنها قوله ﷺ: " سلوا الله اليقين والعافية." فتأمل هذه الوصيّة الجامعة تجدها محيطة بخير الدنيا والآخرة، وذلك أن ملاك أمر الآخرة اليقين وملاك الدنيا العافية، فكل طاعة لا يقين معها هدر، وكل نعمة لم تصحبها العافية كدر، فصار هذا الكلام على وجازته وقلة حروفه أحد شطريه محيطة بجوامع أمر الدّين، وشرطه الآخر متضمّنا عامّة مصالح الدّنيا.¹

ثم يذكر بعد ذلك ضربا آخر من ضروب فصاحته ﷺ، انفرد بها من بين العرب لا نجد مثلها في كلام السابقين وهي قدرته على الاشتقاق في اللغة. قال: " ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها؛ كقوله: " مات حنف أنفه " وقوله: " حمي الوطيس." وقوله في المسلم والكافر: " لا تراءى ناراهما." في ألفاظ ذات عدد من هذا الباب تجري مجرى الأمثال، وقد يدخل في هذا النوع إحدائه الأسماء الشّرعيّة، ولذكرها موضع غير هذا.²

ووضع مثل هذه التراكيب منزلة من اللغة لا يبلغها إلا من لانت له اللغة وكان من العرب الصرحاء، وقد بهر العرب بهذه القدرة العجيبة وهم يرون رسول الله يضع ما يشاء من تراكيب ومفردات تفرد هو في وضعها دونهم.

وضرب آخر من أضرب فصاحته ﷺ ذكره الخطابي بالقول: " ومن فصاحته وسعة بيانه أنّه قد يوجد في كلامه الغريب الوحشيّ الذي يعيا به قومه وأصحابه وعامتهم عرب صرحاء، لسانهم لسانه ودارهم داره."³ ويضرب لذلك أمثلة نذكر منها " أن رجلا قال يا رسول الله من أهل النار؟ قال: كل قعبريّ قال يا رسول الله: وما القعبريّ؟ قال: الشّديد على الأهل الشّديد على العشيرة الشّديد على الصّاحب."⁴

1 الخطابي. غريب الحديث. 65. 64 / 01.

2 نفسه. 66. 65 / 1.

3 السابق 66 / 1.

4 نفسه 66 / 1.

ويذكر ضرباً آخر في بيان فصاحته ﷺ بالقول: " ومن حسن بيانه ترتيب الكلام وتنزيله منازل. " ومثّل له بحديث البراء بن عازب حين قال: " جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: " علمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: اعتق النّسمة وفكّ الرّقبة، قال أو ليسا واحداً؟ قال: لا، اعتق النّسمة أن تفرّد بعنقها، وفكّ الرّقبة أن تعين في ثمنها.¹

وقال القاضي عياض: " وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلّ الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحّة معان، وقلة تكلف. أوتى جوامع الكلم، وخصّ ببدايع الحكم، وعلم السنة العرب، فكان يخاطب كلّ أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.² ونقل الجاحظ عن محمد بن سلام قول يونس بن حبيب: " ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ. " وهو ما يفهم من قول الزمخشري: " إنّ هذا البيان العربي كأنّ الله عزّت قدرته ألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السّجل، وما قرن بمنطقه منطلق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهّم، ولا وقع من كلامه شيء في كلام النّاس إلا أشبه الوضح في نقبة الأدهم.⁴

وقال الرّافعي في بيان أنّ اللّغة والبيان النبوي انفردا عن غيرهما بأسباب طبيعية فيهما: " إذا نظرت فيما صحّ نقله من كلام النبي ﷺ على جهة الصّناعتين اللغويّة والبيانيّة رأيت في الأولى مسدّد اللفظ محكم الوضع جزل التّركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات؛ فخم الجملة واضح الصّلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التّأليف والنّسق، ثمّ لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتمّ منها أداء للمعنى وتأنّياً لسرّه في الاستعمال؛ ورأيت في الثانيّة حسن

¹ نفسه 1 / 67.

² القاضي عياض. الشّفا بتعريف حقوق المصطفى. ص 96.

³ الجاحظ. البيان والتّبيين. تح جويدي. 2 / 245.

⁴ الزمخشري: الفائق في غريب الحديث. 1 / 11.

المعرض، بيّن الجملة، واضح التّفصيل، ظاهر الحدود جيّد الرّصف، متمكّن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها، ولا ترى اضطرابا ولا خطلا، ولا استعانة من عجز، ولا توسعا من ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه.¹

لذلك فبلاغة الرسول ﷺ وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إتقانه، وعلو شأنه في اللغة، هي منح وهبها الله له لما اختاره لهداية البشر.

وكما عصمه سبحانه منذ طفولته من الوقوع في الرّجس والدّنس، وحفظه من أدران الجاهلية وأثامها، كذلك عدل لسانه، وقوم بيانه، وأفاض عليه من لدنه قوة حجة يناضل بها عن دعوته، وينافح دون رسالته.

وختاما فهذه صور مشرقة من صور بلاغته ﷺ رسمتها أقلام كبار علماء البيان، وتكشف لنا عما منحه الله لنبيه من فصاحة قول، وإعجاز بيان، وإصابة رأي، وقوة حجة، وقدرة على النفاذ إلى القلوب، وإحاطة بدخائل النفوس، لاستئصال ما يخامرها من شكّ وريبة، أو يداخلها من خوف ووجل، حتى يعود لها صفاء النفس وقوة اليقين.

بلاغة موسى والمسيح عليهما السلام.

في معرض حديثه عن بلاغة الرسول ﷺ ذكر الخطابي أنّ الله عزّ وجلّ " أمده بجوامع الكلم التي جعلها رداء لنبوته وعلما لرسالته لينتظم في القليل منها علم الكثير فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حمله."²

والمتملّ لكتاب الله يجد أنّ البيان كان ضرورة للأنبياء عليهم السلام ليتسنى لهم تبليغ ما أنزل عليهم من وحي، إذ به يتمكنون من إقناع سامعيهم وإقامة الحجّة عليهم، لذلك

¹ الرفاعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص 325.

² الخطابي. السابق. 1 / 64 . 65.

كان كلّ رسول يبعث بلسان قومه حتى يسقط لهم كلّ ذريعة، قال تعالى: (وما أرسلنا من

رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم فيضلاً الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم.)¹

ويصوّر لنا القرآن ما حال نبيّ الله موسى عليه السلام، وكيف تضرّع إلى الله أن يرسل معه أخاه هارون عليه السلام لأنه كان أفصح لساناً منه، وإن كان موسى أقوى حجّة بما حباه الله من معجزات، قال تعالى: (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً يصدّقني إنّي أخاف أن

يكذبون.)² وقال: (ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون.)³

وقد أجاب الله سؤال موسى وأيده بهارون ولكن فصاحته وبيانه لم يغنيانه، لأنّ فصاحة اللسان وقوّة البيان لم تكونا من المعجزات التي تحدّى الله بهما آل فرعون، وما كان البيان إلاّ حلية لموسى وكلّ الأنبياء من بعده، وتفرد محمد صلى الله عليه وآله بكون معجزته كانت كلاماً يوحى، ولذلك حفظه الله من التّحريف والتّزييف إلى يوم القيامة، وهو وضّحه صلى الله عليه وآله بالقول: " ما من الأنبياء من نبي إلاّ قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة."⁴

أقول هذا الكلام لأبيّن أنّ التوراة والإنجيل لم يكونا معجزة كلاميّة لموسى والمسيح بل معجزاتهما كانت في أمور أخرى ذكرت في القرآن والسنة. فمن معجزات موسى عليه السلام التي ذكرها القرآن الكريم قوله تعالى:

(وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون.)⁵

(وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كلّ

أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين.)¹

¹ إبراهيم / 05.

² القصص / 34.

³ الشعراء / 12.

⁴ صحيح مسلم حديث رقم 152. ص 92. صحيح البخاري حديث رقم 4981 ص 1283. مسند الإمام أحمد حديث رقم 8472.

8 / 329. وحديث 9789 / 9 / 323. واللفظ لمسلم.

⁵ البقرة / 49.

(وإذ قتلتم أنفسا فأدارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويربكم آياته لعلكم تعقلون.)²

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.)³ وغيرها من الآيات كثير.

ومن معجزات المسيح ﷺ التي ذكرها القرآن الكريم قوله تعالى:

(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئكم بآية من ربكم إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين.)⁴

(إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طائرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين.)⁵ وغيرها من الآيات كثير.

¹ البقرة / 59.

² البقرة / 71 . 72.

³ الأعراف / 107 . 108.

⁴ آل عمران / 45 . 48.

⁵ المائدة / 112.

ولهذا فإنّ الذين كانوا يتمثلون ببعض النصوص من التوراة أو الإنجيل من صالح سلفنا كانوا يقصدون المعنى فيه، أمّا اللفظ فلم يكن غرضاً في ذاته، ولذلك فإنّه من المفيد الإشارة إلى أنّ ما نذكره من نصوص من العهد القديم أو العهد الجديد ليس من باب الحاجة إلى الدليل والحجّة، إذ لنا في القرآن والحديث الشريف ما يغني، بل لبيان أنّ بعض نصوصها قريبة من روحهما، وهي النصوص التي لم يمسه التحريف ولا التزييف، وهي التي أشار إليها سيّد الخلق حين قال: " وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج."

المبحث الثاني التشبيه في النصوص الدينيّة.

حظيت النصوص القرآنيّة والأحاديث النبويّة بما هي له أهل من مكان عليّ، ومنزلة شريفة، ودرجة عالية في حياة المسلمين الأولين؛ دينا وشرعا، ومنهاجا وفكرا ومعرفة، ولغة وأدبا، وأدرك علماء اللغة والبلاغة ما للقرآن والحديث الشريف من أثر بالغ في تهذيب النفوس وتقويم الألسنة، فانطلقوا يبيّنون ما فيهما من ضروب البلاغة، وصنوف البديع، وألوان البيان، وغريب اللغة. ولا نجد من علماء اللغة والبلاغة من لم يجعل منهما قوام وعمدة شاهده البلاغي، بل وبيّنوا أنّهما مفتاح كلّ طالب علم.

¹ مرّت بنا نصوص في الفصل السابق.

فعن العناية ببلاغة القرآن الكريم باعتباره من آلات علم البيان قال ابن الأثير في كتابه " المثل السائر " فقال: " النوع السادس: حفظ القرآن الكريم، والتدرّب باستعماله وإدراجه في مطاوي الكلام."¹ وبمثل هذا الكلام تحدّث عن الحديث الشّريف فقال: " النوع السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبيّ ﷺ والسلوك بها مسلك القرآن في الاستعمال."²

التشبيه في البيان القرآني

عني الباحثون بدراسة التشبيه عناية واضحة يلمسها المتصفح لكتب التفسير والأدب والشعر واللغة، وهذه العناية راجعة إلى شيوع هذا اللون البياني وجريانه في فنون الكلام فضلا عن وجوده في القرآن الكريم و أحاديث الرسول ﷺ بالإضافة إلى أنّه أكثر الأنواع البلاغية جذبا للانتباه وإثارة للإعجاب.

ولا غرابة أن يكون التشبيه من أكثر الصور الفنية حظوة لدى المتقدمين والمتأخرين أيضا، فالشعر العربي القديم يعجّ به، وهو عند النقاد والعلماء من مقاييس الجودة الرئيسية، ولم يكن الشعراء أنفسهم يشدّون عن هذا فقد " قيل لبشار بن برد: بم فقت أهل عمرك وسبقت أبناء عصرك في حسن معاني الشّعر وتهذيب ألفاظه؛ قال: لأني لم أقبل كلّ ما تورده على قريحتي ويناجيني به طبعي وبيعه فكري و نظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفكر جيّد."³

ولقد اقترنت البراعة في صياغة التشبيه لدى بعض الشعراء الأوائل بالبراعة في نظم الشعر نفسه حيث وردت روايات كثيرة تصبّ في هذا المعنى من بينها ما روي عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وكان صبيّا، جاء إلى أبيه باكيا يقول: " لسعني طائر. قال: فصفه لي يا بنيّ. قال: كأنه ثوب حبرة. قال حسان: قال ابني الشّعر وربّ الكعبة. وكان الذي لسعه زنبور."⁴

¹ ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر. 29 / 01.

² نفسه. 29 / 1.

³ ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر ونقده. 139 / 2.

⁴ الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. 65 / 3.

ولد التشبيه وترعرع في كنف علماء اللغة، فهم أوّل من ذكره ووضع أصوله، وإن كانت إسهاماتهم غالباً ما لا تتعدى التّفنّف، لكن تلك التّفنّف تلقّفها آخرون ووسّعوا فيها لتكون دعامة هذا الفن.

كان فهم القرآن وفق سنن العرب في كلامها هو الباعث الأول لظهور حركة التّأليف عند العلماء، وكان التّشبيه من أوّل القضايا التي شغلت بالهم، بل يذكر بعضهم أنّ تصنيف أبي عبيدة معمر بن المثنّى لكتابه " مجاز القرآن " سببه مسألة من مسائل التّشبيه، فقد ذكر أنّه " دعي إلى مجلس الفضل بن الرّبيع، فقال له إبراهيم بن إسماعيل الكاتب: قد سألت مسألة أفأذن لي أن أعرفك إيّاها؟ فقال أبو عبيدة: هات، قال إبراهيم: قال الله عزّ وجلّ: (طلعتها كأنّه رؤوس الشّياطين).¹ وإلّا يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقال أبو عبيدة: إنّما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقظني والمشرقيّ مضاجعي ومسنونة كانياب أحوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لمّا كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السّائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلمّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سمّيته المجاز.²

والظاهر أنّ في جواب أبي عبيدة للسّائل، ثمّ تصنيفه بعد ذلك لكتاب مجاز القرآن إدراك منه لعاقبة جهل النّاس بطريقة العرب في القول، فحقّره هذا إلى تبين الأساليب التي يستعملها القرآن في التعبير عن أغراضها وفيها الكثير ممّا لا يتّفق مع القواعد التي شاعت في مجالس العلماء، وإنّ هي اتّفقت مع الأسلوب العربي وطريقة التعبير عند العرب، لذلك راح يبيّن تلك الأساليب ويستشهد لها بالآثار القديمة الصحيحة.

¹ الصافات / 65.

² الحموي: ياقوت. معجم الأدباء. تحقيق د. إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. ط 01. 1993. 6 / 2707.

ولهذا فمصطلح التشبيه الوارد في كتابه مجاز القرآن لا يتجاوز المباحث المتعلقة به بعض الإشارات المتفرقة، إذ يذكر التشبيه مجرداً من أي دراسة لأسسه وأبعاده الفنيّة، بل لا نجده يذكر له تعريفاً أو حديثاً عن أقسامه وأنواعه.

قرن أبو عبيدة التشبيه تارة بمصطلح " الكناية " وأخرى بمصطلح " التمثيل " أو المثل، ففسّر قوله تعالى: (نساؤكم حرث لكم.)¹ بقوله: " كناية وتشبيه.² والمتأمل للآية سيجد أنّ ما فيها هو صورة من صور التشبيه التشبيه البليغ، وهو الذي حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه. بينما فسّر قوله تعالى: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم.)³ بقوله: " ومجاز الآية: مجاز تمثيل لأنّ ما بنوه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر والتفاهق فهو على شفا جرف، وهو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه."⁴ وبهذا فالتشبيه من المصطلحات الأولى التي عرفت البلاغة العربيّة، لكنّ الحديث عنه ارتبط بالحديث عن اللغة، وإذا اعتبرنا كتاب " الكتاب " لسيبويه أول كتاب ورد فيه ذكر مصطلح التشبيه بمعناه البلاغي المعروف، فهذا الكتاب يشير إلى أنّ الخليل بن أحمد أول من تعرّض له وأشار إليه.⁵ وأقدم ما وصلنا عنه جاء في " الكتاب " لسيبويه و" مجاز القرآن " لأبي عبيدة و" معاني القرآن " للفراء " وكتابي " البيان والتبيين " و" الحيوان " للجاحظ و" الشعر والشعراء " لأبن قتيبة، وتمثّل هذه المؤلفات اللبنة الأولى التي تركّزت عليها مباحث القرون اللاحقة، إلى أن استقرّ عليه الحال عند البلاغيين المتأخّرين.

¹ البقرة / 223.

² أبو عبيدة: معمر بن المثنّى. نقائض جرير والفرزدق. وضع حواشيه خليل عمران المنصور. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1998. 73 / 1

³ التوبة / 109.

⁴ أبو عبيدة. مجاز القرآن. 1 / 269.

⁵ سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر. الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 03. 1988.

361 / 1

اهتمّ علماء البلاغة والنقاد بالتشبيه، وإذا كان سبب اهتمام البلاغيين ظاهر بيّن، فالنقّاد اعتبروه فنّاً من فنون الشعر، فهذا ثعلب يقول عنه: " ثمّ تتفرّع هذه الأصول إلى مدح، وهجاء، ومرات واعتذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص وأخبار¹ ومثّل للتشبيه بقول امرئ القيس²:

كأنّ ماء الهاديات بنحره عصاره حنّاء بشيب مرجّل

وقريب منه ما قاله قدامة في باب المعاني الدالّ عليها الشّعر: " ... وأن أجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشّعراء وما هم عليه أكثر حوماً وعليه أشدّ روماً، وهو المديح والهجاء والتّسيب والمراثي والوصف والتّشبيه³ تحدّث عنه بما يتحدّث به علماء البلاغة⁴.

أمّا الرّماني فأدخل التّشبيه في باب الوصف، فقال: " أكثر ما تجري عليه أغراض الشّعر خمسة؛ التّسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف، ويدخل التّشبيه والاستعارة في باب الوصف⁵."

وتظهر هذه الشواهد أنّ التّشبيه وبعض صور البيان الأخرى كانت مادّة مشتركة بين النقاد والبلاغيين، ولعلّ هذا يبرّر تناول العالم الواحد له من جانبيه البلاغي والتّقدي كالرّماني وقدامة.

والمنتبّع لأقوال علماء البيان في التّشبيه يجد تصوّراً لهم له واضحاً جليّاً، ويمكن إجماله في كونهم يرون أنّه عمليّة مقارنة بين طرفين، مشبه ومشبه به، لعلاقة تجمع بينهما. ولما كان كذلك فلا بد له حينئذ من أداة تربط بين طرفيه، وإن حذفت أحياناً للمبالغة في اقتراب طرفي التّشبيه من بعضهما، ومحاولة إيهام المتلقّي أنّ المشبه هو المشبه به.

ونظروا إليه على أنه نوع من النيابة وقيام أحد طرفيه مقام الآخر. وأنّه يقع تارة بالصورة والصفّة، وأخرى بالحال والطريقة، بمعنى آخر فهو محض مقارنة بين طرفين

¹ ثعلب: أحمد بن يحيى. أبي العباس. قواعد الشعر. تح د رمضان عبد التّوّاب. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 02. 1995. ص 33.

² ثعلب: نفسه. ص 35.

³ قدامة: بن جعفر، أبي الفرج. نقد الشعر. مطبعة الجوائب. قسطنطينية. ط 01. 1302 هـ. ص 17.

⁴ ثعلب. السابق. ص 33.

⁵ ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر ونقده. 01 / 120.

متمايزين لاشتراك بينهما في الصفة ذاتها، أو في مقتضى وحكم لها. وينظر إليه على أنه نوع من " العقد " على أن أحد الشئيين يسدّ مسد الآخر في حس أو عقل. أو نوع من " الوصف " بأن ينوب أحد الموصوفين مناب الآخر. أو نوع من " الإثبات " أن تثبت لهذا معنى من معاني ذلك، أو حكما من أحكامه. وأنه يقع دوما على الأعراض دون الجواهر. كما أنّ اقتتران طرفيه معا إنّما هو أمر يعتمد على المسامحة والاصطلاح، لا على الحقيقة. أو على سبيل الإيهام والمبالغة.

التشبيه في التمثيلات الدنيّة

التشبيه القرآني ذو صورة دائبة الحركة والتلوين، وتهدف صورته إلى ضمّ بعضها إلى البعض الآخر، وتقريب الأشياء، وإبراز الحقائق، واستخلاص العبر فيما تنبته الأرض، وما تدرّه السماء، وفيما تتقاذفه الرياح، وفيما يطراً عليها من تقلبات المناخ وتصريف الأجواء، وما يصاحب ذلك من نور وظلام، ورعد وبرق، وليل ونهار، وموج وسحاب وضباب، وأصداء وأصوات، وما تثير هذه العوالم مجتمعة أو متفرقة من رعب أو أمن. وسارت أمثال الحديث النبويّ الشريف على هدي أمثال القرآن الكريم، ماعدا تلك التي جاءت شرحا وتفسيرا لما أشكل فهمه على الناس.

بينما كانت أمثال التوراة والإنجيل، كما يفهم من أمثال العهد القديم والعهد الجديد، ذات بعد تربوي هي الأخرى، لكنّها لا ترق إلى مستوى أمثال القرآن الكريم ولا أمثال الحديث النبويّ الشريف ولذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعضها في هذا الفصل دون غيره لأنها أكثر الصور وضوحا بينما تقل الاستعارات والمجازات والكنائيات، والسبب في ذلك بيّن كما ذكرناه في السّابق وهو أنّ النصّ الموجود الآن لهذين الكتابين دخله الكثير من التحريف، من جهة ولكون معجزة الرسولين الذين أنزلا عليهما لم يكن الإعجاز البياني واللغوي مطلبا فيهما.

التشبيه في أمثال القرآن

اعتمد التمثيل القرآني التشبيه وتراكب معه، فما من تمثيل قرآني إلا ويعقبه تشبيه، لذا أطلق عليه علماء البيان التشبيه المركب أو التشبيه التمثيلي.

ومن خصائص التشبيه القرآني إبراز المعنى في صورة رائعة لها وقعها في النفس، إذ التمثيل القرآني مصرّح، في غالبه، بلفظ التشبيه سواء الكاف أو مثل وإذا كان التشبيه أنجع وسيلة أسلوبية يتخذها المثل لتحقيق مراميه في الكشف عن المعنى الذي يحيل إليه النص، فالوظيف المكثف له في المثل القرآني لم يأت، إلا لكونه عنصرا ضروريًا لأداء المعنى القرآني متكاملًا من جميع الوجوه.

كما جاء التشبيه القرآني لخدمة التمثيل القرآني بغرض إيضاح المعاني عن طريق تصويرها في صورة حسية، والآلية المتبعة في التشبيه جعلتها تمدّ جسورا تواسج بينها وبين المثل، بوصفه تشكلا نصيًا ذا مهام مضاعفة، من شأنها أن تكشف الثقاب عن مساره الدلالي. وهذا كله وسواه أدى إلى تداخل مصطلحي المثل والتشبيه تداخلا كبيرا، ولاسيما أنّ الجذر اللغوي لكلمة مثل يحيل في أصل كلام العرب إلى الثبّه، كما نجد ذلك في المعاجم التي بين أيدينا.

وظهر مصطلح آخر، يتجاور من حيث المفهوم كليهما هو التمثيل، إذ : أنّ التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي، وكان منتزعا من عدة أمور، خصّ باسم التمثيل "، فمتى كان التشبيه تمثليا أمكن أن يصبح مثلا، شريطة أن تتوفر فيه بقية خصائص المثل.

وقد اتّبع علماء البيان في دراسة التمثيل طريقتين؛ أولاهما طريقة التشبيه المركب، وثانيتهما طريقة التشبيه المفصل.

التشبيه المركب أو التمثيلي؛ قال السكاكي: " التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي، وكان منتزعا من عدة أمور، خصّ باسم التمثيل.¹ ويرى القزويني أنّ التشبيه المركب هو ما وجهه منتزع من متعدّد، أمرين أو أمور، ولم يقيد بكونه غير حقيقي كما فعل السكاكي، والأصل في التشبيه المركب أن ينظر إلى أكثر من شيء في تكوين الصورة، حيث تمتزج العناصر وتتألف ويؤخذ ممّا بينهما من علاقات، ويكون إمّا حسيا أو عقليا. وهو عنده ما يطلق عليه اسم التمثيل²، خلافا لعبد القاهر الذي يرى أنّ التشبيه التمثيلي

¹ مفتاح العلوم. ص 346.

² بغية الإيضاح. 02 / 50.

هو الذي يحتاج وجهه إلى تأول سواء كان مفردا أو مركبا.¹ قال القزويني في تعريفه: " هو التشبيه الذي يتحد فيه المشبه والمشبه به ... ويكون مركبا من شيئين أو أكثر، وهو غير التشبيه المتعدد الذي يكون جمعا للصور التشبيهية من غير تركيب. وقد مرّ بحثنا القول على التشبيه المتعدد."²

وطريقته أقرب مأخذا، وأسلم من التكلف، وعليه غالبية أمثال القرآن الكريم، وله فيها موقعان:

- أن يكون في مفتاح الكلام، فيكون قياسا موضحا، وبرهانا مصاحبا، وهو كثير جدًا في القرآن، نحو قوله تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم).³

- أو يأتي في أعقاب المعنى لإيضاحه وتقريره في النفس وترك أثر مخصوص، نحو قوله تعالى: (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون).⁴ وقوله تعالى: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستويون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون).⁵

التشبيه المفصل، عرفه القزويني بالقول: " والمفصل ما ذكر وجهه ... وقد يتسامح بذكر ما يستتبعه مكانه."⁶ وقال عبد المتعال الصّعيدي في شرحه لقوله هذا: " ذهب السبكي إلى أنّ المذكور هو وجه الشبه، ولا داعي إلى ذلك التأول، لأنه إذا لم يكن موجودا في المشبه حقيقة فهو موجود بالتخيّل، ولكن هذا التأول، لا بدّ منه عند عبد القاهر، لأنه هو المعول عليه عنده في الفرق بين التمثيل والتشبيه."

¹ أسرار البلاغة. ص 90.

² بغية الإيضاح. 02 / 45.

³ البقرة / 260.

⁴ الزمر / 28.

⁵ النحل / 75.

⁶ بغية الإيضاح. 02 / 53 - 54.

لهذا من المهمّ استطلاع رأي عبد القاهر في دلالة التفصيل، قال: " قولنا التفصيل عبارة جامعة، ومحصولها على الجملة أنّ معك وصفين أو أوصافا، فأنت تنظر فيها واحدا واحدا، وتفصل بالتأمل بعضها من بعض، وأنّ بك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة."¹ ويظهر أنّها دراسة تفصيلية لكل احتمالات أوجه المثل، تبين خاصية الأمثال في دقة التصوير وسرعة التفهيم، وإصابة المعاني، وإزالة الإشكال، وإبراز الفوائد. كما سيظهر معنا عند استخراج التشبيهات الموجودة في التّمثيلات موضوع الدراسة.

من هنا فوظيفة التشبيه كانت أول الأمر تتمثل في نقل ما يقع في دائرة الحسّ، ثم صار إلى دائرة الاستمتاع بالصورة المنقولة كما هو الحال عند ابن المعتزّ، وسار التشبيه على هذا النهج إلى أن خرج من دائرة الحس إلى سعة الفكر ورحابة الدّهن، فحلّ الاستمتاع العقلي الصورة مكان الاستمتاع الحسيّ، إلى أن صار فلسفة فنيّة لها قواعدها الخاصّة على يد عبد القاهر الجرجاني.

وفي القرآن الكريم ضربان فقط من ضروب التشبيه المستعملة عند العرب هما؛ تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمحسوس.

من خصائص التشبيه في القرآن الكريم أنّه يستمدّ عناصره من الطبيعة، وهو السرّ في خلود هذه التشبيهات، إذ تأثيرها باق ما بقيت هذه الطبيعة؛ تؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصرها، ويرونها في متناولهم وقريبة منهم، لهذا لا نجد في القرآن التشبيه الذي يؤثر في فرد دون آخر.

ومن مظاهر الطبيعة النباتيّة التي استعملها القرآن الكريم في تشبيهه " الزرع " قال تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التّوراة ومثلهم في الإنجيل

¹ أسرار البلاغة. ص 166.

كزّرع أخرج شطئه فأزره فأستغلظ فأستوى على سوقه يعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما.¹

إنّ صورة الزّرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا ثم تقوى ساقه بما ينبت حوله من البراعم، فيشتدّ بها ساعده ويغلظ حتّى يصبح بهجة الزّراع ومحط إعجابه، لشديدة الشّبه لصورة الرسول ﷺ وصحابته الذين بدّءوا الدّعوة وهم قلة ضعاف، ثم راحوا يكثرون وينمون إلى أن قوي عضدهم، وصاروا قوّة لا يستهان بها، ففرح لذلك رسول الله ﷺ واغتاظ له الكفار.

وبالإضافة إلى التشبيه بالظواهر الطبيعية، والسنن الكونية، لجأ القرآن إلى الكائنات الحية من الحيوانات فوجد فيها ملاءمة لضرب الأمثال وتصوير الأحداث، وصدق التشبيه، ومسايرة الواقع المعاصر في الحال والاستقبال، فاختر أضعفها: لتشبيه ضعف العبادة ووهنها، وهو العنكبوت، وأغباها: لمن يحمل العلم ولا ينتفع به، وهو الحمار، وأعجزها: لمن حالفه العجز والاستحالة وهو الذباب. وأتعبها: لمن يشتد لهائه لا إلى غاية مجدية معينة، وهو الكلب. وأصغرها لمن يستنكر ضرب الأمثال بالمخلوقات الضعيفة، وهو البعوض. وهكذا.

ومن مظاهر الطبيعة الحيوانية التي استعملها القرآن الكريم في تشبيهه " العنكبوت" قال تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتا وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).² قال الرماني: " فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا في ضعف المعتمد، ووهاء المستند، وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع الشعور بما فيه التّوهين."³ قال بن عاشور: " لما بينت لهم الأشباه والأمثال من الأمم التي اتّخذت الأصنام من دون الله فما أغنت عنهم أصنامهم، لما جاء عذاب الله أعقب ذلك بضرب المثل لحال

¹ الفتح / 29.

² العنكبوت / 41.

³ الرماني. السابق. ص 84.

جميع أنك وحال من مائلهم من مشركي قريش في اتّخاذهم ما يحسبونه دافعا عنهم وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتا تحسب أنّها تعتمصم به من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمرّق. والمقصود بهذا الكلام مشركو قريش، وتعلم مساواة غيرهم لهم في ذلك بدلالة لحن الخطاب، والقرينة قوله " إنّ الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء " فضمير " اتّخذوا " عائد إلى معلوم من سياق الكلام وهم كفار قريش.¹

ومن مظاهر الطبيعة الجمادية التي استعملها القرآن الكريم في تشبيهه " الرماد " قال تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرّون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد).²

قال الرماني: " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه، فقد اجتمع المشبّه والمشبّه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة.³ وقال بن عاشور: " من لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمّع، لأنّ الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتّى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.⁴

من هذا ومثله كثير في كتاب الله، نجد أنّ القرآن الكريم يتّخذ الطبيعة ميدانا يقنّبس منه صور تشبيهاته، من الثّبات والحيوان والجماد؛ فمّمّا اتّخذ مشبّها به من الثّبات؛ العرجون وأعجاز النّخل والشجرة الطّيبة والشجرة الخبيثة والحبة التي تنبت سبع سنابل وغير ذلك. ومّمّا اتّخذ مشبّها به من الحيوان؛ الكلب والحمّار والفراش والجراد والأنعام. ومّمّا اتّخذ مشبّها به من الجماد؛ الصّيب والجبال والحجارة والرماد وما إلى ذلك. ومثّل

¹ تفسير التحرير والتنوير. 20 / 252.

² إبراهيم / 21.

³ الرماني. النكت. ص 82.

⁴ تفسير التحرير والتنوير. 13 / 213.

هذا الاقتباس من الطبيعة يبيّن أنّ القرآن إنّما يعنى في التشبيه باقتراب صورة المشبّه والمشبّه به في النفس وشدّة وضوحها وتأثيرها.

والتشبيه في القرآن الكريم عنصر أساسي في الجملة لا يتم معناها إلا به، وإسقاطه منها يجعل معناها ينهار من الأساس، لأنه يعطي الفكرة في صورة واضحة مؤثرة تجعل التشبيه يأتي في الجملة ضرورة يتطلّبها المعنى ليصبح واضحاً جلياً.

ويمتاز التشبيه القرآني كذلك بدقّة الصورة التي يرسمها في الدّهن، فهو يصف ويدقّق حتّى تصبح الصورة واضحة أخاذة، كما يظهر بجلاء في قوله تعالى: (مثل الذين حملوا التّوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين).¹

قال ابن ناقياً: " قوله تعالى: " ثم لم يحملوها " أي تعاملوا عنها، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها، حتّى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها ... والتشبيه في الآية يجوز أيضاً على تالي القرآن من غير أن يفهمه، إلا أن يكون طالبا لعلمه، وقد قدّم حفظه ليكون ذلك طريقاً إلى علم ما فيه؛ فإن أعرض عن ذلك إعرض من لا يحتاج إليه، كان التشبيه واقعا عليه، والمثل لاحقاً به."²

وقال الرماني: " وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بالبدئية، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية."³

قد يتراءى لنا أنّه يكفي في هذا التشبيه القول: مثلهم كمثل الحمار لا يعقل ولا يفهم، لكنّ الصورة تكون أقوى حين يجمع بين الذين يقرؤون التوراة ولم ينتفعوا بما فيها، وبين الحمار الذي يحمل أسفار العلم لا يدري ممّا حوته شيئاً.

¹ الجمعة / 05.

² ابن ناقياً. الجمال في التشبيهات. ص 386.

³ الرماني. السابق. ص 84.

يهدف التشبيه القرآني إلى تحقيق ما يسعى إليه كل فنّ بلاغيّ من التأثير في العواطف، ترغيباً وترهيباً، ولذلك كان للمناققين والكافرين وغيرهم حظّ وافر من التشبيهات، لأنها توضح نفسيّاتهم وتصور وقع الدّعوة عليهم. قال تعالى:

(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون.)¹

قال ابن ناقياً: " أضاف المثل إلى الذين كفروا ثمّ شبّهه بالرّاعي ولم يقل الغنم؛ لأنّ المعنى: ومثل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصّوت. فالنقدير: ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع. والعرب تحذف إذا دلّ المعنى على ما يريدون."²

وقال أبو عبيدة: " إنّما الذي ينعق الراعي، ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم؛ تقول: كالغنم التي لا تسمع التي ينعق بها راعيها؛ والعرب تريد الشيء فتحوّله إلى شيء من سببه، يقولون: أعرض الحوض على النّاقة وإنّما تعرض النّاقة على الحوض... "³

قال العلوي " في بيان الأمثلة الواردة في التشبيه؛ اعلم أنّ التشبيه هو بحر البلاغة وأبو عذرتها، وسرّها ولبابها، وإنسان مقلتها، ونورد من أمثله أنواعاً خمسة؛ النوع الأول من الآي القرآنيّة وهذا كقوله تعالى في الحيوانات (كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ

أوهن البيوت لبيت العنكبوت)⁴ وقوله تعالى (كمثل الحمار يحمل أسفارا)⁵ وقوله تعالى: (

كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث)⁶ الآية. وقوله تعالى (إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما

بعوضة فما فوقها)⁷

¹ البقرة / 170.

² ابن ناقياً، السابق، ص 95-96.

³ أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي. مجاز القرآن. تعليق د / محمد فؤاد سزكين. مكتبة الحنجي. القاهرة. ص 63.

⁴ العنكبوت / من الآية 41.

⁵ الجمعة / من الآية 05.

⁶ الأعراف / من الآية 175.

⁷ البقرة / من الآية 25.

وفي غير الحيوانات كقوله تعالى (كمثل صفوان عليه تراب)¹ وقوله تعالى (كمثل ريح فيها صر)² وقوله تعالى (أو كصيب من السماء)³ وقوله تعالى (أو كظلمات في بحر لجي)⁴ وقوله تعالى (كماء أنزلناه من السماء)⁵ وقوله تعالى (كرماد اشتدت به الريح)⁶ وقوله تعالى (كسراب ببيعة)⁷

وفي العقلاء كقوله: (واضرب لهم مثلا رجلين)⁸ وقوله تعالى: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا مملوكا)⁹ وقوله تعالى: (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية)¹⁰ وقوله تعالى: (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون)¹¹

فهذا وأمثاله إنما ورد في التشبيهات المفردة وأما المركبة فقد مثلناها في التقسيم فأغنى عن إيرادها، ومن هذا قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة)¹² وقوله تعالى (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته)¹³ فجميع ما أوردناه ههنا من الأمثلة المفردة والمركبة، وفي القرآن الكريم أمثال كثيرة ...¹⁴

1 البقرة / من الآية 263.

2 آل عمران / من الآية 117.

3 البقرة / من الآية 18.

4 النور / من الآية 39.

5 الكهف / من الآية 44.

6 إبراهيم / من الآية 21.

7 النور / من الآية 38.

8 الكهف / من الآية 32.

9 النحل / من الآية 75.

10 يس / من الآية 12.

11 الزمر / من الآية 28.

12 البقرة / من الآية 260.

13 آل عمران / من الآية 117.

14 الطراز للعلوي 1 / 327 . 328.

التشبيه في الحديث النبوي

شيوخ التشبيه في تراثنا الفكري، وبخاصة في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، جعل الحديث عنه في البيان النبوي يحظى بعناية علماء البلاغة واهتمامهم، ويعدّ الجاحظ من أوائل الذين تحدثوا عنه في مواضع كثيرة ومتفرقة من كتبه، وبخاصة في كتابه "البيان والتبيين" حيث عقد موازنة بين قوله ﷺ: "الناس كلهم سواء كأسنان المشط" وقول الشاعر:

سواء كأسنان المشط لا ترى لذي شبيهة منهم على ناشئ فضلا

وقال آخر:

شبابهم وشبيهم سواء فهم في اللؤم أسنان الحمار

ويرى الجاحظ أنّ الفرق بين التشبيهين هو ممّا يتفاضل به الكلام بعضه على بعض، فقال: "وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته وعرفت فضل ما بين الكلامين".¹

وجاء في الطراز عن النوع الثاني من الأخبار النبوية قوله: "فأما التشبيهات المفردة فهي كثيرة كقوله ﷺ: "كأنّ الموت فيها على غير ما كتب، وكأنّ الحقّ فيها على غير ما وجب، وكأنّ الذي تشيع من الأموات سفر، عمّا قليل إلينا راجعون. وقوله ﷺ: كأنّا مخذلون بعدهم." وقوله ﷺ: "العلم الذي لا ينفق منه صاحبه كالكنز الذي لا ينفق منه." وقوله عليه السّلام: "مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى." وقوله ﷺ: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم." وقوله ﷺ: "المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضه بعضا." وقوله عليه السّلام: "المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر أعضائه بالسّهر والحمى." وقوله: "الحياء من الإيمان، كالرأس من الجسد." وقوله ﷺ: "الناس كأسنان المشط في الإستواء."² وقوله ﷺ: "مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين." وقوله: "مثل هذه الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم ينغمس فيه كلّ يوم خمس مرّات، ما عسى أن يبقى عليه من الدرن." وقوله

¹ الجاحظ. البيان والتبيين. تح عبد السلام هارون. 19 / 2.

² أبو حيان. أمثال الحديث النبوي. ص 118 وله روايات مختلفة ليس فيها قوله "في الاستواء".

ﷺ: " أمّتي كالمطر، لا يدرى أوّله خير أم آخره." وقوله عليه السّلام: " التائب من الذنب كمن لا ذنب له." وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا استبشر فكأنّ وجهه قطعة قمر، وفي الحديث عن النبيّ ﷺ أنّه كان إذا دخل رمضان كان أجود من الرّيح العاصف. وقوله عليه السّلام: " فكأنكم بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل." وأمّا التّشبيّهات المركّبة فهي كثيرة في كلامه عليه السّلام كقوله: " إنّه لم يبق من الدّنيا إلا كإناخة راكب أو صرّ حالب." لأنّ التّقدير فيما هذا حاله إلا كراكب أناخ راحلته أو صرّ حالب، والصرّ وضع الخيط على ثدي النّاقة لنلّا يرضعها ولدها، والمراد لم يبق من الدّنيا في القلّة إلا مقدار صرّة، لأنّه عن قريب ينقضه للحلب، وكقوله عليه السّلام: " فكأن قد كشف القناع، وارتفع الارتياح." وتقرير وجه التّشبيه أنّه شبّه وضوح الأمر في الآخرة وتحقيق الحال فيها، بشيء كان مغطى فكشف قناعه، فظهر حاله، وبان أمره، واتّضحت حقيقته، وأكثر ما ذكرناه في أحاديث التّشبيّهات المفردة يمكن إيرادها في المركّبة وهذا كقوله: " مثل الصّلاة كمثّل نهر جار " فإنّ هذا يمكن أن يكون من المركّبة، لأنّ التّركيب قد قرّناه من قبل أنّ كلّ ما كان من وصفين أو أكثر من ذلك، فهو مركّب، فأنت إذا تصفّحت ما ورد من الأحاديث، وجدت أكثرها مركّبا، وأمّا التّشبيّهات التي أضمر فيها أداة التّشبيه فهي واسعة أيضا وهذا كقوله عليه السّلام: " إنّ من في الدّنيا ضيف وما في يده عارية." والضّيف مرتحل، والعارية مردودة، فالإضمار لأداة التّشبيه في هذا سهل متيسّر من غير تكلف، كأنّه قال النّاس كالضّيف في الدّنيا لسرعة انتقالهم، وما في أيديهم من الأموال عارية، وعن قريب تردّ العارية، ويأخذها مالكها، ولا يكاد يخفى التّشبيه على من له أدنى ذوق وفتانة. وكقوله عليه السّلام: " الدّنيا دار التّواء، لا دار انتواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح." فأداة التّشبيه يمكن إظهارها من غير تكلف، ولا تعسر كما ترى، وقد يخفى تقدير أداة التّشبيه بعض خفاء فيحتاج إلى مزيد تفطن ومزيد خبرة ودقّة نظر، ومن هذا قوله عليه الصّلاة والسّلام: " ما سكن حبّ الدّنيا قلب عبد إلا التّاط منها بثلاث؛ شغل لا ينفكّ عناؤه، وفقر لا يدرك غناه، وأمل لا ينال منتهاه." فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا الكلام من بالغ الحكمة وعظيم الزّجر ونافع الوعظ، ونتطّقل على تقرير التّشبيه فيه بنوع احتيال وتلطف، كأنّه قال إذا تمكّن حبّ الدّنيا من قلب العبد فكأنّه كالحالّ

السّاكِن فيه، ثمّ إذا كان ساكنا فيه، فهذه الخصال الثلاث كالملتاطة لعظم شغفهم بها وتمكّنها من سويداء قلوبهم، وقوله: " ما دام رسنه مرخي، وحبله على غاربه ملقى." فهذا وأمثاله ممّا يدقّ تقرير الأداة فيه إلا بنوع تقدير كما أسلفنا تقريره.¹

صور البيان في العهد القديم والعهد الجديد

تكثر في العهد القديم والعهد الجديد النماذج البيانيّة، والتي نجدها في سفر الأمثال، أو في أقوال المسيح عليه السّلام، الذي استعمل عبارات مجازيّة لأثها " تفاح من ذهب مصوغ من فضة."² ومنها الاستعارة في قوله: " أنا هو الكرمة الحقيقيّة وأنتم الأغصان."³ وقوله: " وحيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا."⁴ واستخدم بعض صور التّشبيه كما في قوله: " كم مرّة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدّجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا."⁵ ومن الصّور الكنائيّة قوله عليه السّلام: " بالكيل الذي تكيلون يكال لكم."⁶

وكان التّشبيه في أمثال المسيح هي القضيّة التي بنى عليها الدكتور القس منيس عبد الثّور كتابه " أمثال المسيح " حيث عقد فيه فصلا للحديث عن تشبيهات لملكوت الله أخذها من مختلف الأناجيل المعتمدة عند النّصارى اليوم؛ فيذكر ويشرح فيها مجموعة من الأمثال التي جاءت على لسان المسيح عليه السلام منها؛ مثل الزارع،⁷ ومثلا الزّوان وسط الحنطة والشبكة في البحر،⁸ ومثل البذور التي تنمو سرّا،⁹ ومثلا حبة الخردل والخميرة،¹⁰ والخميرة،¹⁰ ومثلا الكنز المخفي واللؤلؤة الثمينة.¹¹

¹ الطراز للعلوي. 1 / 330 . 333.

² سفر الأمثال 11 / 25

³ يوحنا 15 / 1 . 10.

⁴ متى 06 / 21.

⁵ متى 23 / 37.

⁶ مرقس 04 / 24.

⁷ متى 13 / 03 . 09.

⁸ متى 13 / 24 . 30.

⁹ مرقس 04 / 26 . 29.

¹⁰ متى 13 / 31 . 33.

¹¹ متى 13 / 44 . 46.

ويذكر عند شرحه لهذه الأمثال أنّ المسيح عليه السلام قد ذكر جملة من التشبيهات، بما يكشف عن توظيفه لهذه الصيغة البيانية في تقريب دلالة التعاليم لحوارييه وعامة الناس، وسنتعرض بعض الأمثال عند التحليل والدراسة البيانية.

أمّا بقية الصّور؛ المجاز والاستعارة والكناية، فلم أجد من عني بها، وقد قمت بذكر بعضها عند تحليلي لبعض أمثال العهد القديم والعهد الجديد.

المبحث الثالث المجاز والاستعارة في النصوص الدينية.

توطئة

يستعمل اللفظ في اللغة العربية فيما وضع له، ولا يحتاج لدليل كي يفهم معناه، وهو ما يطلق عليه علماء اللغة حقيقة، وقد يطلق اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة لعلاقة بين اللفظ والمعنى المراد، فيحتاج، عندئذ، هذا اللفظ إلى دليل يدلّ على معناه، ويسمّي علماء البيان هذا الضرب بالمجاز.

لذلك فإنّ الحقيقة هي ما سبق إلى الفهم من معنى اللفظ دون الحاجة إلى دليل أو قرينة تدلّ عليه، بينما المجاز هو ما لا يسبق إلى الفهم من معنى اللفظ إلا بوجود دليل يدلّ عليه؛ فقولنا رأيت رجلاً يتكلم، ظاهر الدلالة على أنه حقيقة، أمّا قولنا رأيت البدر يتكلم ظاهر الدلالة على أنه ليس حقيقة لأنّ الكلام من صفات البشر ومن غير المعقول للبدر أن يكون متكلماً، وعليه ففي هذه العبارة مجاز حيث شبه البدر بالإنسان لوجود علاقة بينه وبين البدر وهي الجمال، وهكذا بقية الكلام الذي يسير في هذا المضمار.

والحديث عن المجاز عند العرب حديث عن حقبة زمنية واسعة من تاريخ البيان العربيّ، إذ ارتبط الحديث عنه بقضية إعجاز القرآن، هذه القضية التي استنفرت علماء الأمة فهبّوا للدفاع عنه، وكان المجاز في القرآن هو التحديّ الأكبر أمامهم، فانفتح الباب بذلك أمام عالم اللغة والمفسّر والفقهاء والأصولي والأديب والبلاغيّ ليعالج كلّ واحد منهم الموضوع بأسلوبه الخاصّ ووسائله الخاصّة، فأتسع الحديث في الموضوع، وتعدّدت المناهج، وتشعبت النتائج.

ولعلّ المجاز في قيمته الفنيّة لا يختلف عن الحقيقة، فكلاهما يستهدف الفائدة المتوخّاة من الكلام، ولئن كانت الحقيقة هي الأصل والمجاز هو الفرع، فإنه لا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة، والتعبير المجازي يعجب بما فيه من تلوين للأفكار، وتوكيد للصور، وبعث للإيحاء بما هو ملائم لطبيعة المعاني، وهو بذلك يفسر لنا تطور اللغة بتطور دلالة ألفاظها على المعاني الجديدة. ومع هذا فالملاحظ أنّ الاستعمال الحقيقي في اللفظ الدالّ على موضوعه الأصلي في اللغة أكثر شيوعاً في أمثال القرآن، لأنّه الأصل في الكلام، ولا ينتقل المثل القرآني عن هذا الأصل إلا لإثارة آفاق جديدة ومشاهد متناسقة لا تتأتّى إلا باستعمال المجاز.

والاستعارة ضرب من المجاز، وهي أجلّ صور البيان وأجملها، لأنها تحقق المبالغة التي مبناهما التّشبيه، فإذا أريدت المبالغة في التّشبيه أمكن البلوغ إلى أقصى درجات المبالغة بإطلاق اسم المشبّه به على المشبّه على سبيل الاستعارة، فالمبالغة أهمّ أغراض الاستعارة، وهي التي تكسبها جمالا ورونقا، يقول الجرجاني: " فالتّشبيه ليس هو الاستعارة، ولكن الاستعارة كانت من أجل التّشبيه، وهو كالغرض فيها، وكالعلة والسبب في فعلها، فإن قلت: كيف تكون الاستعارة من أجل التّشبيه، والتّشبيه يكون ولا استعارة، وذلك إذا جنّت بحرفه الظاهر فقلت: " زيد كالأسد. فالجواب أنّ الأمر كما قلت، ولكن التّشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاصّ وهو المبالغة.¹ ومن هنا جاء حديثنا عنها باعتبارها جزءاً من المجاز تقع عليها أحكامه، أمّا تفصيل مسائل كلّ منهما على حدة فيمكن الرجوع فيه إلى كتب البلاغة بشكل خاص.

المجاز والاستعارة في البيان القرآني

يعتبر الخليل بن أحمد من أوائل الذين ذكروا مصطلح " المجاز " في مصنّفاتهم، فقد ذكره في كتابه " الجمل في النحو " حين قال في باب التّصّب من الظرف: " وكذلك يلزمون الشيء الفعل ولا فعل، وإنّما هذا على المجاز؛ كقول الله جلّ وعز في البقرة (فَمَا رَیَبَتْ تِجَارَتُهُمْ)² والتجارة لا تریب، فلمّا كان الریج فيها نسب الفعل إليها، ومثله: (

¹ أسرار البلاغة. ص 239.

² البقرة من الآية 16

جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ¹) ولا إرادة للجدار.² تعليقا على قوله تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ، إخوانا.) في باب النَّصْب من خلاف المضاف فقال: " نصب " إخوانا " للتَّوِين، ومجازه من غلٍّ إخوان.³

وفي كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة الذي بيّن أنّ فهم معاني القرآن الكريم يكون باحتذاء أساليب العرب وسننهم في الكلام، وكلمة مجاز التي استعملها لم يكن يقصد بها حقيقته كما عرفه بها علماء البلاغة لاحقا، بل أطلقها وأراد بها " الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته " وتشمل هذه الطرق الكلمات التي كان أبو عبيدة يستعملها في تفسيره للآيات وهي؛ مجازه كذا، وتفسيره كذا، ومعناه كذا، وغريبه، وتقديره، وتأويله.⁴ وعقد ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن " بابا لـ " ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز " جاء فيه: " وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الإستعارة والتَّمثيل ... مع أشياء كثيرة سترها في أبواب المجاز إن شاء الله."⁵

والظاهر أنّ الرّعيّل الأول من العلماء نظروا إلى المجاز على أنّه التّوسّع في القول باستخدام هذه الأساليب المختلفة، للوصول إلى التعبير العربيّ، لأنّ هذه هي السبيل التي سارت عليها العرب في أشعارها وهكذا جاء في القرآن الكريم، ومن لم يضع هذا الجانب في الاعتبار وقع في التّأويل الخاطئ.

والمجاز عند البيهقيين نوعان؛ مجاز عقلي، ومجاز لغوي. فالمجاز العقلي هو ما كان إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الحقيقة، ففي قوله تعالى: (إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذّبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنّّه كان من

¹ الكهف من الآية 77

² الفراهيدي: الخليل بن أحمد. كتاب الجمل في النحو، تحقيق د. فخر الدين قباد. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط 01. 1985. ص 44.

³ الفراهيدي. نفسه. ص 71.

⁴ أبو عبيدة. نقائض جرير والفرزدق. من مقدمة المحقق ص 18 . 19.

⁵ ابن قتيبة. تأويل مشكل القرآن. ص 22.

المفسدين.¹) أسند الدّبح إلى فرعون، وليس هو الفاعل الحقيقي، إذ هو أمر به وجنوده هم الفاعل الحقيقي، والمجاز هنا ليس في الكلمة المفردة؛ الدّبح وحدها أو فرعون وحدها بل المجاز في إسناد كلمة الدّبح إلى فرعون. ومن هذا الضرب كثير في كتاب الله. ومجاز لغوي، وهو ما استعمل فيه اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي؛ فما كانت علاقته المشابهة هو الاستعارة، وما كانت علاقته غير المشابهة هو المجاز المرسل.

وسبقت الإشارة إلى أنّ الجاحظ أسهم إسهامات مشكورة في بعض قضايا البلاغة، لكن ما قدّمه لا يتجاوز التّفنّف، وهي، إنصافاً للجاحظ وتقديراً لعلمه، مساهمات مشكورة، فتحت باب البحث للذين جاؤوا من بعده.

تطرق الجاحظ إلى ذكر المجاز عند تعليقه على قوله تعالى: (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً).² حيث قال: " وقولهم أنّها من باب المجاز والتّشبيه على شاكلة قوله تعالى: " أكلون للسحت."³ وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبيذة ولبسوا الحلل وركبوا الدوابّ ولم ينفقوا منها درهما واحداً في سبيل الأكل، وقال الله عزّ وجلّ في تمام الآية: " إنّما يأكلون في بطونهم نارا." وهذا مجاز آخر. ثم ذكر بعد ذلك مجموعة من الآيات والأشعار التي تجري مجراها وعقب عليها بالقول: " فهذا كلّه مختلف، وهو كلّه مجاز."⁴ وقال في موطن آخر عن المجاز: " وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم وبه وبأشباهه اتّسعت."⁵

ويظهر من كلامه عن المجاز ومن الشواهد التي ساقها أنّه لا يقصد المجاز بالمعنى الذي ارتأه أبو عبيدة، بل المجاز عنده هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له على سبيل

¹ القصص / 03

² النساء / 10.

³ المائدة / 42.

⁴ الجاحظ. الحيوان. تحقيق هارون. 5 / 25 - 28.

⁵ نفسه. 5 / 426.

التوسّع من أهل اللغة ثقة منهم بفهم السامع، وهي من أوّل الإشارات البيانيّة في المصنّفات العربيّة، وهو ما يجعله من رواد البلاغة العربيّة بمعناها الاصطلاحي.

وما قاله الجاحظ في هذا الباب، على بساطته إذا ما قورن بما قدّمه البلاغيون من بعده، يعد خطوة هامّة في مجال البحث البلاغي أفاد منها الذين جاؤوا من بعده.

والمتنبّ لأقوال علماء البيان في الاستعارة، وهي ضرب من المجاز، سيجد أنّهم قالوا عنها أقوالاً قريبة ممّا قالوه عن التشبيه، وهي لا تتعدى كونها عمليّة نقل اللفظة من حيث الاستعمال من معنى إلى معنى آخر. فهي كل صورة تشبيهيّة لا يصلح دخول أداة التشبيه عليها بعد حذف أحد طرفيها. وتأتي الصورة الاستعارية للتعبير عن المدركات الحسية بمثلها، أو العقلية بمثلها، أو الحسية بالعقلية، والعقلية بالحسية.

كما تقوم الاستعارة، في أصل هو المستعار منه، وفرع هو المستعار له. ولكن يجب أن يكون الأصل أقوى تمكينا في الصّفات المراد إثباتها من المستعار له. ومن جملة ما تفيده الاستعارة توكيد المعنى والمبالغة فيه. على أن تتوفر على عنصر الملاءمة.

ومثل هذه الأقوال تبين أنّ الاستعارة لا تتجاوز "نقل" اللفظة من حيث الاستعمال من معنى إلى معنى آخر، وهذا الحال منها، في تقديري، قصور وعيب باللّغة ودلالاتها، لأننا في إجراء الاستعارة لا نقوم بنقل لفظة من مكان إلى مكان آخر، ولا نستعيرها لتأدية معنى جديد فحسب، كما أنّها ليست ذلك التشبيه الذي لا يصلح فيه وجود الأداة أو عدمها. بل الإستعارة تعبير، على درجة عالية من الاقتدار، يمحو الحدود بين عناصر العالم وأصنافه، بحيث تمكّن مستعملها من إجراء عمليات تحويلية يهدم أمام المشاهد طبيعة الأشياء، ويبطل في عقله قوانين المادة فيها.

المجاز والاستعارة في اللغة والتّصوُّص الدّينيّة

اختلف العلماء قديما وحديثا في المجاز في بين مثبت لوجوده في القرآن ومنكر لذلك؛ فمن المثبتين لوجوده في القرآن؛ ابن الحاجب من المالكيّة في مختصره، وشارح المختصر تاج الدّين السبكي وهو شافعي. والقائلون بالمنع أغلبهم من الظاهريّة؛ كأبي

بكر بن داود وابن حزم، وبعض الشافعية كأبي العباس بن القاصّ وجماعة.¹ وأبي إسحاق الإسفراييني وأبي عليّ الفارسي.²

كما أجازوه وجوده في القرآن والسنة، على السواء، تاج الدين السبكي ونقل الجواز عن جماعة.³ وأبو بكر الرازي حين قرّر في "المسألة السابعة: يجوز دخول المجاز في الكتاب والسنة."⁴

وامتدّ الخلاف حوله إلى علماء اللغة الذين شغلهم، هم كذلك، قضية وقوع المجاز في اللغة، فأنحاز فريق منهم إلى صفّ القائلين بوجوده في العربية، بل منهم من بالغ في تعصّبه وادّعى أنّ الغالب على اللغة المجاز، وأنكر فريق آخر وجوده في اللغة البتّة.

نقل السيوطي في المزهري عن ابن جني قوله: "واعلم أنّ أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة...⁵ وهو قول خالف به ابن جني جمهور العلماء، قال الرازي: "المجاز غير غالب على اللغات."⁶ وذكر الشوكاني أنّ "المجاز واقع في لغة العرب، عند جمهور أهل أهل العلم، وخالف في ذلك أبو إسحاق الإسفراييني... فقال: لو كان المجاز واقعا في لغة العرب لزم الإخلال بالتفاهم، إذ قد تخفى القرينة."⁷ وكلامه قائلا: "وعلى كلّ حال فهذا القول لا ينبغي الاشتغال بدفعه، ولا التّطويل في ردّه، فإنّ وقوع المجاز وكثرته في اللغة العربية أشهر من نار على علم، وأوضح من شمس النهار."⁸

والظاهر أنّ الخلاف في هذه المسألة امتداد للصراع الفكري الذي دار بين المعتزلة وعلماء أهل السنة والجماعة، إذ معظم القائلين بأنّ اللغة مجاز كله كابن جني وشيخه أبي عليّ الفارسي كانوا معتزلة، والصواب، في تقديري، في هذه المسألة هو ما ذهب إليه

¹ السبكي: عبد الوهاب بن علي بن بن عبد الكافي، تاج الدين أبي نصر. رفع الحاجب عن مختصر بن الحاجب. تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود. عالم الكتب. 1/ 411.

² نفسه. 1/ 409.

³ السابق. 1/ 413. 414.

⁴ القراني: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، شهاب الدين أبو العباس. نفائس الأصول في شرح المحصول. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. مكتبة نزار مصطفى الباز. 2/ 925.

⁵ السيوطي. المزهري في علوم اللغة. تحقيق فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية، بيروت. ط 01. 1998. 1/ 284

⁶ القراني: السابق. 2/ 876

⁷ الشوكاني. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول. ط 01. 2000. 1/ 140. 141.

⁸ نفسه. 1/ 141.

طائفة من أهل السنة؛ وهو أن الكلام لا يحمل على المجاز إلا عند امتناع حمل اللفظ على الحقيقة، مع وجود قرينة دالة على هذا الامتناع. قال ابن النجار: " كالأسد مثلا فإنه للحيوان المفترس حقيقة، وللرجل الشجاع مجازاً؛ فإذا أطلق ولا قرينة كان للحيوان المفترس، لأن الأصل الحقيقة، والمجاز خلاف الأصل."¹

المجاز والاستعارة في تمثيلات القرآن والحديث

وصفوة القول، فيما سبق ذكره، فالاستعمال الحقيقي في اللفظ الدال على موضوعه الأصلي في اللغة أكثر شيوعاً في أمثال القرآن، لأنه الأصل في الكلام، ولا ينتقل المثل القرآني عن هذا الأصل إلا لإثارة آفاق جديدة ومشاهد متناسقة لا تتأى إلا باستعمال المجاز، كالذي نجده عند الرمخشري في الكشاف² عندما أخرج المعنى الكامل مخرج المجاز الحكمي، كما في قوله تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).³

ومن هنا فالمجاز والاستعارة من الصور البيانية الظاهرة في أمثال القرآن، إذ الأمثال لا تغير، لأن الاستعارة يجب أن تكون لفظ المشبه به المستعمل في المشبه، فلو غير المثل لما كان لفظ المشبه به فلا يكون استعارة فلا يكون تمثيلاً، ولهذا لا ينظر في الأمثال إلى مضاربيها تذكيراً وتأييماً وإفراداً وتثنيةً وجمعاً، بل ينظر إلى مواردها، فالمثل: الصيف ضيعت اللبن، بكسر تاء وإن كان الخطاب لرجل، لأنه قيل أول مرة لامرأة. والمستعار منه في التمثيل، والمثل قد يكون محققاً واقعاً، وقد يكون مقدرًا مفروضاً، فالأول من التمثيل كقوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً)⁴ شبه استظهاره بحبل الله تعالى ووثوقه بحمايته والنجاة من المكاره باستمسك الواقع في مهواة بحبل وثيق مدلى من مكان مرتفع يؤمن انقطاعه، والثاني من التمثيل كقوله تعالى: (إنا عرضنا

¹ الجيزاني: محمد بن حسين بن حسن. معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة. دار ابن الجوزي. الرياض. ط 01. 1996. ص 114.

² الرمخشري. الكشاف. 04 / 549.

³ العنكبوت / 41.

⁴ آل عمران / من الآية 103.

الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.¹ مثلت حال التكليف في صعوبتها وثل حملها بحال معروضة.

وجاءت الاستعارة في مواطن كثيرة، كما سنبينه في الفصل الموالي، من أحاديث رسول الله ﷺ؛ أقتصر من ذلك على ذكر قوله ﷺ: " يهرم ابن آدم، وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر."² قال الشريف الرضا: " وهذه استعارة، كأنه عليه الصلاة والسلام، جعل زيادة هاتين الخلتين في الإنسان مع نقصان عمره وتداني أجله، بمنزلة الشبَاب المقبل، والعمر المستقبل، فكأما ازدادت حوامل جسمه ضعفا وانتقاضا، زادت جواذب أمله قوّة واستحصافا، فيكون أضعف ما كان بدنا وشخصا أقوى ما يكون أملا وحرصا."³ وقال الطيّبي: " قوله: ويشبّ: هو استعارة، ومعناه أنّ قلب الشيخ كامل الحبّ للمال يحتكم احتكاما مثل احتكام قوّة الشبَاب في شبابه."⁴

منزلة الاستعارة من التمثيل

بلاغة الاستعارة في موضعها من التمثيل كبلاغة التشبيه في موضعه، لا تفضله ولا يفضلها، خلافا لما هو شائع في كتب القدماء الذين يقولون بأفضليّة الاستعارة على التشبيه، إذ لو كان القول كذلك لوجب العدول عنه إليها في الكلام كله، ونظرة في القرآن تبين أنّه استعمل التشبيهات بأنواعها والاستعارات بأفنانها، ولا يقال هذا أبلغ من ذلك، لأنّه بكلّ وقع الإعجاز، وإنّما يقع في كلام الناس، فيخطئ بعضهم في تقدير المقتضى فيضع التشبيه موضع الاستعارة فيقال في هذا الموضع أو ذلك الاستعارة أبلغ من التشبيه وليس بإطلاق القول.

والعلاقة بينهما وثيقة؛ وبيان ذلك أنّ الاستعارة تقوم على ثلاثة أصول ذكرها الزركشي، قال: " لا بدّ فيها من ثلاثة أشياء أصول؛ مستعار، ومستعار منه وهو اللفظ،

¹ الأحزاب / من الآية 72.

² صحيح مسلم ص 474 حيث رقم 2301. وفي شرح المشكاة للطيّبي. 10 / 3322. حديث رقم 5270. والمجازات النبوية للرّضا ص 226.

³ الشريف الرضا. المجازات. ص 226. 227.

⁴ الطيّبي. الكاشف على حقائق السنن. 10 / 3322.

ومستعار له وهو المعنى "؛¹ فالمستعار منه هو المشبّه به، والمستعار له هو المشبّه،
والمستعار وهو اللفظ المنقول، ففي قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيباً)² ثمة استعارة،
أركانها هي المستعار منه وهو النار لأنه مشبّه به، والمستعار له هو الشيب لأنه مشبّه
به، والمستعار هو لفظ النار.

المبحث الرابع الكناية في النصوص الدينية.

بلغت الكناية من الكثرة، في كلام العرب، حدًا لافتًا للنظر، جعل العلماء يولعون بها
شديد الولع، فخصّ بعضهم كنايات القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب شعره
ونثره بالتصنيف؛ كالثعالبي في كتابه الكناية والتعريض، ويبقى، في تقديري، كتاب³

¹ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 03 / 435.

² مريم / 09.

³ أطلت على هذا الكتاب، وفي حوزتي الطبعة الأولى من النسخة التي صحّحها محمد بدر الدين النعساني الحلبي. وطبعت بمطبعة السعادة.

عام 1908.

المنتخب من كُنَايَات الأَدْبَاء وإِشَارَات البُلْغَاء للقَاضِي أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدِ الجَرَجَانِي أَحْسَنَ مَا صَنَّفَ فِي هَذَا البَابِ.

الكناية في البيان القرآني

ذَكَرَ أَبُو عَبيدَةَ فِي "مَجَازِ القُرْآنِ" أَنَّ مُصْطَلِحَ الكُنَايَةِ ذَكَرَ عَنِ أَبِي عَمْرٍو بنِ العَلَاءِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ﴾¹ قَالَ: "وَزَعَمَ يُونُسُ عَنِ أَبِي عَمْرٍو أَنَّ خَاضِعِينَ لَيْسَ مِنْ صِفَةِ الأَعْنَاقِ وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ صِفَةِ الكُنَايَةِ عَنِ القَوْمِ الَّتِي فِي آخِرِ الأَعْنَاقِ فَكَأَنَّ فِي التَّمثِيلِ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُ القَوْمِ فِي مَوْضِعِ "هَمْ" وَالعَرَبُ قَدْ تَتْرَكَ الخَبَرَ عَنِ الأَوَّلِ وَتَجَعَلَ الخَبَرَ لِلاَخِرِ مِنْهُمَا."²

وَذَكَرَهَا سَبِيوِيهِ فِي بَابِ "هَذَا بَابٌ مِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُضَافَ لَكَ مِنْ تَسْأَلِ عَنْهُ" قَالَ: "لَأَنَّ ذَلِكَ كُنَايَةٌ عَنِ غَيْرِ الأَدْمِيَّيْنَ."³ وَذَكَرَهَا فِي "بَابِ الأَلْقَابِ" قَالَ: "وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا مَفْرَقًا وَالأَوَّلُ لِأَنَّ أَصْلَ التَّسْمِيَةِ وَالَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الأَسْمَاءُ، أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ اسْمَانِ: أَحَدُهُمَا مُضَافٌ، وَالأَخَرُ مَفْرَدٌ أَوْ مُضَافٌ، وَيَكُونُ أَحَدُهُمَا وَصْفًا لِلاَخِرِ؛ وَذَلِكَ الأِسْمُ وَالكُنْيَةُ."⁴

وَالكُنْيَةُ عِنْدَ أَبِي عَبيدَةَ فِي كِتَابِهِ مَجَازِ القُرْآنِ؛ مَا يَفْهَمُ مِنَ الكَلَامِ وَمِنَ السِّيَاقِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذَكَرَ اسْمَهُ صَرِيحًا فِي العِبَارَةِ فَهِيَ تَسْتَعْمَلُ قَرِيبَةً مِنَ المَعْنَى البَلَاغِي كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرِثٌ لَكُمْ﴾⁵ فَهُوَ كُنَايَةٌ وَتَشْبِيهٌ⁶، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ﴾⁷ كُنَايَةٌ عَنِ إِظْهَارِ لَفْظِ قِضَاءِ الحَاجَةِ فِي البَطْنِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿

أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾⁸ كُنَايَةٌ عَنِ الغَشْيَانِ.¹

¹ الشعراء / 04.

² أبو عبيدة. مجاز القرآن / 2 / 83.

³ الكتاب لسبيويه. 415 / 2.

⁴ نغسه. 295 / 3.

⁵ البقرة / 223.

⁶ مجاز القرآن. 73 / 1.

⁷ المائة / 6.

⁸ المائة / 6.

والكلام عند المبرّد " يجري على ضروب؛ فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يكتى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلا فيكون أبلغ في الوصف.² ويعدّ هذا التعريف لضروب الكلام من الاعتبار النظرية العامة التي ساهم بها المبرّد في صياغة مفهوم الكناية صياغة دقيقة لم يسبقه إليها الذين تقدّموه، بحديثه عن ضروبها؛ وذكره أنواعها.³ والكناية عند علماء البيان أن يعبر عن شيء بلفظ غير صريح في الدلالة عليه لغرض من الأغراض كالإبهام على السامع أو لنوع فصاحة، قال الزركشي بـ " أنّ العرب تعدّ الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح.⁴ وعرفها بالقول: " والكناية عن الشيء الدلالة عليه من غير تصريح باسمه.⁵

اختلف علماء البلاغة في تحديد دلالتها وبيان الأساليب والظواهر التي تندرج تحت لواءها، فذكرها ثعلب في " قواعد الشعر " وسمّاها لطافة المعنى وعرفها بالقول: " هي الدلالة بالتعرض عن التصريح.⁶

وعرفها ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر بأنّها " التعريض الذي ينوب عن التصريح، والاختصار الذي ينوب عن الإطالة، ومثّل لها بقول عمرو بن معدي كرب:

فلو أنّ قومي أنطقني رماحهم نطقت، ولكنّ الرّماح أجرت

أي لو أنّ قومي اعتنوا في القتال، وصدقوا المصاع، وطعنوا أعداءهم برماحهم فأنطقني بمدحهم وذكر حسن بلائهم نطقت، ولكنّ الرّماح أجرت أي شقت لساني كما يجرّ لسان الفصيل، يريد أسكتتني.⁷ وليس بخاف على الناظر أنّ في البيت كناية عن صفة، وفي سياق حديثه عن الفن نجده من أوائل الذين أشاروا إلى علاقة الكناية بالتشبيه من جهة وبالمجاز من جهة ثانية.

¹ مجاز القرآن. 1 / 155.

² المبرّد. الكامل. 2 / 855.

³ نفسه. 2 / 855 إلى 858.

⁴ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. 2 / 300.

⁵ نفسه. 2 / 300.

⁶ ثعلب. قواعد الشعر. 49.

⁷ ابن طباطبا: محمد بن أحمد بن محمد، أبو الحسن. عيار الشعر. تحقيق عبّاس عبد السّاتر. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1982.

وذكرها قدامة في كتابه " نقد الشعر " باسم الإرداف " وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدالّ على ذلك المعنى بل بلفظ يدلّ على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع بمنزلة قول الشاعر:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما لعبد شمس فهاشم.¹

وذكرها في " نقد النثر " باسم اللحن، قال: " وأما اللحن فهو التعريض بالشيء من غير تصريح، أو الكناية عنه بغيره.²

وجمع العسكري بينها وبين التعريض، قال: " وهو أن يكئى عن الشيء ويعرّض به " ثم لا يلبث أن يقرنه بالتورية بعد ذلك حين يقول " ولا يصرّح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء.³ ثم يستشهد لذلك بشواهد من القرآن الكريم ونتاج من كلام الفصحاء، أما الشواهد الشعرية فقد توسّع فيها مع التعليق عليها مرّة بعد مرّة.

ويبقى ابن رشيق أبرز الذين توسّعوا في تسمياتها، حيث عقد في العمدة بابا للإشارة وعرفها بالقول " والإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة، تدلّ على بعد المرمى وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر، وهي في كلّ نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه.⁴ ثم ذكر بعد أنواع الإشارة مع شرحها والتمثيل لها، ومما ذكره من أنواعها؛ التّفخيم والإيماء، والتّعريض، والتلويح، والكناية والتمثيل، والرّمز، واللّحة، واللّغز، واللحن، والتعمية.⁵

وهذا التّوسّع من ابن رشيق يؤكّد أنّ دلالة الكناية بقيت لزمن طويل غير واضحة، وأغلب هذه التسميات أدخلها المتأخرون من علماء البلاغة في باب البديع، أمّا عملية تدقيق المصطلح فتمّت على يد البلاغيين المتأخرين وعلى رأسهم الجرجاني. الكناية في التّمثيلات الدينية.

¹ قدامة بن جعفر. نقد الشعر. ص 57.

² قدامة بن جعفر. نقد النثر. ص 59.

³ العسكري: أبو هلال بن سهل. محاسن النثر والنظم. طبع في حيدرآباد. د.ت. ص 90.

⁴ نقد النثر. ص 90.

⁵ ابن رشيق. العمدة. 1 / 302.

⁶ نفسه. 1 / 303. 309..

كنايات تمثيلات القرآن الكريم

للكناية صلة وثيقة بالأمثال، ذكرها أبو عبيد في تعريفه المثل فقال: " الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح."¹

وقال الطرسوسي: " وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات، وقد ألف أبو عبيد وغيره كتباً في الأمثال؛ ومنها قولهم: فلان عفيف الإزار، طاهر الدليل، ولم يحسن فرجه."² فنكون، بضربنا الأمثال، قد عدلنا في التعبير عن المعنى المراد إلى استعمال ألفاظ المثل بدلاً من الألفاظ الموضوعية لهذا المعنى في اللغة.

وذكر غير واحد من العلماء أنّ " كنى الرؤيا؛ هي الأمثال التي يضربها ملك الرؤيا، يبنى بها عن أعيان الأمور، وفي الحديث: إنّ للرؤيا كنى ولها أسماء فكأنها بكنائها واعتبروا بأسمائها، الكنى جمع كنية من قولك كنييت عن الأمر وكنوت عنه إذا ورّيت عنه بغيره، أراد مثلاً لها أمثالاً إذا عبّرتموها، وهي التي يضربها ملك الرؤيا للرجل في منامه، لأنه يبنى بها عن أعيان الأمور، كقولك في تعبير النخل: إنّها رجال ذوو أحساب من العرب، وفي الجوز: أنّها رجال من العجم، لأنّ النخل أكثر ما يكون في بلاد العرب، والجوز أكثر ما يكون في بلاد العجم، وقوله فاعتبروا بأسمائها أي اجعلوا أسماء ما يرى في المنام عبرة وقياساً، كأن رأى رجلاً يسمّى سالماً فأؤله بالسلامة، وغانماً فأؤله بالغنمة."³

وتحدّث ابن القيم عن الدور المهمّ للأمثال، قال: " وبالجملة فما تقدّم من أمثال القرآن كلّها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال بها، وكذلك من فهم القرآن فأبّه تعبّر به الرؤيا أحسن تعبير ... فالسّفينة تعبّر بالنّجاة لقوله تعالى: ﴿فأنجيناه وأصحاب

¹ البكري . فصل المقال ص4

² الزركشي . البرهان في علوم القرآن . 2 / 300.

³ ابن منظور . لسان العرب . 05 / 3945 . والنص بلفظه تقريباً في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير . 04 / 207 . وفي المجموع المغيث

في غريب القرآن والحديث للمدني الاصبهاني 03 / 81.

السّفينة وجعلناها آية للعالمين.)¹ وتعبّر بالتجارة ... والطفّل الرّضيع يعبّر بالعدوّ، لقوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين.﴾² والرّماد بالعمل الباطل لقوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الرياح في يومٍ عاصف لا يقدرّون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد.)³ ...⁴

ثم ساق ابن القيم مجموعة كبيرة من الشّواهد الكنائيّة، مستعملاً فيها صيغة " عبّر " ومشتقاتها، غير أنّ تدبّر معاني تلك الشواهد يبيّن أنّها كنايات، وقد شاع في كلام بعض علماء البيان استعمال هذه الصّيغة للدلالة على الكناية، ومنهم الرّمخشري الذي استعملها في الكشّاف عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً.﴾⁵ قال: " جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال، لأنّه كناية عنه."⁶

وذكرت الكناية في مواطن متفرّقة من الآيات، وجاء تفصيل الحديث عنها في كتب التفسير، وكمثال لذلك نقف عند ما ذكره الثعالبي في كتابه " الكناية والتّعريض " حيث قال: العرب تكّى عن المرأة بالنعجة.. فأما الكناية بالنعجة فقد أوضح عنها القرآن في قصّة داود عليه السلام ﴿ إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴾⁷ أي امرأة.⁸

لقد ذكر الكثير من المفسّرين وعلماء البلاغة بأنّ لفظ " نعجة " المذكور في هذه الآية بأنّه كناية عن المرأة. قال البيضاوي في تفسير الآية: " النعجة هي الأنثى من الضأن وقد يكّى بها عن المرأة."⁹ وفي التفسير المحيط لابن حبان " قيل: وكّى بالنعجة عن

¹ العنكبوت / 14.

² القصص / 07.

³ إبراهيم / 21.

⁴ ابن القيم. إعلام الموقعين. 02 / 327.

⁵ مريم / 19.

⁶ الرّمخشري. الكشّاف. 04 / 12.

⁷ ص / من الآية 22.

⁸ الثعالبي: عبد الملك بن محمد. كتاب الكناية و التعريض. طبع آخر كتاب المنتخب للجرجاني. ص 03.

⁹ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي. دار صادر. بيروت. 7 / 350.

الرّوْجة.¹ وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي " والعرب تكني عن المرأة بالنّعجة والشاة
والشاة...² ونقل الرازي عن الليث أنّ " النّعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشيّة
والشاة الجبليّة، والجمع النّعجات، والعرب جرت عاداتهم بجعل النّعجة والظبية كناية عن
المرأة.³

وإلى مثل قولهم ذهب الكثير من علماء البلاغة؛ قال ابن الأثير: " فكّى بذلك عن
النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ... وقيل هذه كناية عن النساء.⁴ وقال
العلوي: " فالمراد بالنّعجة في كلا الموضعين، المرأة، وإنما كنى بالنّعجة عن المرأة لما
بينهما من الملائمة في التذلل والضعف والرحمة وكثرة التآلف.⁵

وعقد القاضي أبو العباس الجرجاني في كتابه المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات
البلغاء بابا للكنايات الواردة في القرآن والآثار؛ منها قال تعالى: في صفة المسيح عليه
السلام: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. ﴾⁶
فكّى بأكل الطعام عن الغائط والبول لأنها بسبب منه إذ لا بدّ منه لكلّ منهما، والعرب
تسمّي الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب، فتسمّي النّبت النّدى لأنه به يكون وتسمّي
الشّحم النّدى لأنه من الكلاء، قال الشاعر:

كنور الفرات الفرد يضربه النّدى تعلي النّدي في متنه وتحذرا

وفي قوله تعالى: ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا. ﴾ أي لفروجهم، فكّى عنها بالجلود

على ما ذكره أهل التفسير.

وقال تعالى: ﴿ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمّموا. ﴾⁷ فكّى باللامسة عن الجماع إذ

لا يخلو منها غالبا.

¹ أبو حيان. التفسير المحيط. 7 / 376.

² تفسير القرطبي. 18 / 163.

³ الرازي. مفاتيح الغيب. 26 / 196.

⁴ ابن الأثير. المثل السائر. 2 / 183.

⁵ العلوي. الطراز. 1 / 427.

⁶ المائدة / من الآية 77.

⁷ النساء / من الآية 43. المائدة / من الآية 07.

وروي عن ابن عباس أنه قال: إنّ الله حيّ كريم يعفو ويكفي عن الجماع بالملامسة وكذلك الغائط كفى به عن النجوى وهو اسم المكان المنخفض من الأرض، وكانت العرب إذا أرادت قضاء حاجتها أبعدت عن العيون إلى منخفض فسمي بذلك لكثرة استعماله، فصار بمنزلة الصريح كالمباشرة كفى بها عن الجماع لما فيه من التقاء البشريتين.

وقال تعالى في آية الصّدّاق: ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾¹ فكفى بالإفشاء عن الدخول وقيل عن الخلوة والأول أصحّ لأنّ العرب إنّما تكفي عمّا يقبح ذكره في اللفظ ولا يقبح ذكر الخلوة...² كما كان " يكفى عن النّساء باللباس كما في الآية لما فيه من الملابسة وهو الجماع والاختلاط، أنشد ابن عرفة للجعدي:

إذا ما الضّجيج نثى عطفه تثنتت وكانت عليه لباسا

وبالحرث أيضا كما في الآية وكما في قوله:

إذا أكل الجراد حروث قوم فحرثي همّه أكل الجراد³

" وقيل في قوله تعالى: ﴿ ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ﴾ كناية عن الرّنا، وقيل طرح الولد على زوجها من غيره لأنّ بطنها بين يديها وفيه الحمل.

وكفى عن التّميمة بحمل الحطب قال تعالى: ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ أي نمامة ذكره المفسّرون والعرب تقول فلان يحمل الحطب إذا كان نماما وقالوا هو يوقد بين الناس الحطب الرّطب وفي معناه يمشي بالحطب الرّطب. قال الشاعر يذكر امرأة بعدم التّميمة من البيض لم تقبل على حبل لامة ولم تمش بين الناس بالحطب الرّطب

ويكفى عن الموت باليقين كما في قوله تعالى: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾. لأنّه واقع لا محالة ولذلك قال الحسن البصري ما رأيت يقينا لا شكّ فيه من الموت.

ويكفى عن القلب بالثياب كقوله تعالى: ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال عنتره:

¹ النساء / 21.

² الجرجاني: أحمد بن محمد، أبو العباس. المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء. تصحيح السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي. مطبعة السعادة. مصر. ط 01. 1908. ص 06.

³ نفسه. ص 07.

فشكتك بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

قال القاضي أبو العباس الجرجاني قرأت في أمالي أبي علي الحاتمي اللغوي قال تكني العرب عن القلب بالثياب مرّة وبالجبب أخرى.¹ "العرب تكني عن المرأة بالتعجة.. فأما الكناية بالتعجة فقد أوضح عنها القرآن في قصة داود عليه السلام ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾² أي امرأة.³"

كنايات تمثيلات الحديث النبوي الشريف

أفرد الرامهرمزي في كتابه " أمثال الحديث " بابا للكناية ذكر فيه مجموعة من أحاديث الرسول ﷺ التي سارت أمثالا ذكر منها قوله: " من شقّ عصا المسلمين فقد خلع ربة الإسلام من عنقه." وهو كناية عن مخالفة الإسلام والخروج على أهله بالعصيان.⁴ وقوله: " إنّ الجنة تحت ظلال السيوف."⁵ وهو كناية عن الجهاد والشهادة. وقوله: " لا تطرحوا الدرّ في أفواه الكلاب."⁶ وفيه كناية عن العلم والفقّه. وغير ذلك من الأحاديث. وذكر الجرجاني في كتابه المنتخب من كنايات الأدباء بعضا من كنايات الحديث الشريف فقال: " وورد عنه ﷺ أنه قال: " من كشف قناع امرأة وجب لها المهر." يکني عن الدخول بكشف القناع لأنه يكشف في تلك الحالة غالبا، والعرب تقول في عفة الإنسان ما وقعت مومسة عنده قناعا ... وروي أيضا أنّ امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إنّ رفاعة طلقني وبتّ طلاقي، وتزوّجت بعبد الرحمن بن الزبير وليس معه إلا مثل هدبة التوب، فقال لها النبي ﷺ: تريدين أن ترجعي إلى رفاعة لا حتّى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك." فكنى بذلك عن الجماع وقيل أراد قطعة من عسل كما قيل ذو الثدية وأريد قطعة من ثدي...⁷

¹ السابق. ص 08.

² سورة ص / من الآية 22.

³ الثعالبي: عبد الملك بن محمد. كتاب الكناية و التعريض. طبع آخر كتاب المنتخب للجرجاني. ص 03.

⁴ الرامهرمزي. أمثال الحديث. ص 183.

⁵ نفسه. ص 184.

⁶ نفسه. ص 191.

⁷ الجرجاني. المنتخب من كنايات الأدباء. ص 06.

وفي حديث عائشة أنّ النبي ﷺ كان يصيب من الرأس وهو صائم وإِذَا كُنْتَ عَنِ الْقَبْلَةِ. وروى أيضا قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم وكان أملككم لإربه.¹ وكان يكنى " بالقوارير كما روى أنه مرّ ﷺ بأنجشة وهو يحدو بنساء العرب وكان حسن الصوت فقال: يا أنجشة رفقا بالقوارير، قال ابن دريد أي لا تحسن صوتك فإنّ النساء قلوبهنّ في رقة القوارير.

وروي عنه ﷺ أنّه قال لخوات بن جبير الأنصاري ﷺ وهو صاحب ذات النّحيين وقصته معروفة ما فعل بعيرك أيشرد عليك اليوم فقال: أما منذ قيده الإسلام فلا يا رسول الله.² وقصة خوات مع المرأة التّيميّة مشهورة، تجدها في قصة المثل " أشغل من ذات النّحيين " قال العلوي:³ " وقد كان خوات كثيرا ما يرد، على النساء في مجامعهنّ، فيقول إنّ معي بعيرا شرودا، فمن يفتل له منكنّ قيدا أقيده به، فكئى بالبعير عن ذكره... " وفي حديث عمر إذا التقى الرّفغان وجب الغسل.⁴ والأصل رفع الفخذ وأراد به إذا التقى ذلك من الرّجل والمرأة فكئى به عن الجماع.⁵

وروي أنّ امرأة شكت لعمر ﷺ قلة غشيان زوجها لها فقال الرّوج: أنا أغتسل عنها في كلّ شهر مرّة، فقال عمر في دون ذلك شفاء للعاشق وحمل للنائق.⁶ ومما يجري مجرى الكنايات ما روي عنه ﷺ أنّه قال:⁷ " أفضل الأعمال الحالّ المرتحل، قال أن تختم القرآن ثم تفتتحة ... ومنها قوله ﷺ: بنست المرضعة وبنست الفاطمة؛ كئى بالمرضعة عن الإمارة، وبالفاطمة عن الموت.⁸

1 نفسه. ص 07.

2 نفسه. ص 07.

3 الميداني. مجمع الأمثال. 1 / 463.

4 العلوي. الطراز. 1 / 408.

5 الرّمحشري. الفائق في غريب الحديث. 2 / 72. الهروي. الغريبين في القرآن والحديث. ص 761.

6 الجرجاني. السابق. ص 07.

7 نفسه. ص 07.

8 الحديث في كتاب أمثال الحديث للرامهرمزي بلفظ قريب. ص 190.

9 الجرجاني. السابق. ص 09.

المبحث الخامس التمثيل في النصوص الدينية

توطئة

يرى كثير من علماء اللغة أنّ التشبيه والتمثيل وجهان لعملة واحدة، بينما يرى غالبية علماء البيان أنّ التمثيل ضرب خاص من ضروب الأساليب البلاغية. ذكر التمثيل عند القدماء، قال أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن عند تفسيره " شفا جرف " من قوله تعالى: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين).¹ " ... ومجاز الآية؛ مجاز التمثيل لأنّ ما بنوه على التقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنوه على الكفر والتفاق فهو على شفا جرف، وهو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه."² وعرفه قدامة في كتابه " نقد الشعر " بالقول: " التمثيل وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدلّ على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عمّا أراد أن يشير إليه."³ وبمثل هذا التفسير فسّره ابن أبي الأصبع.⁴ وهو عند الجرجاني والسكاكي والقزويني ومن سار على نهجه من شراح التلخيص " التشبيه التمثيلي أو المركب.

¹ التوبة / 110.

² أبو عبيدة. مجاز القرآن. 01 / 269.

³ قدامة بن جعفر. نقد الشعر. مطبعة الجوائب. قسطنطينية. ط 01. 1302 هـ. ص 58. 59.

⁴ ابن أبي الأصبع. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. ص 214. وبديع القرآن للمصنف والمحقق نفسه. ص 85.

والتَّمثيل و إن كان قائما على التَّشبيه فهو أخصّ منه، لأنَّ التَّشبيه أعمّ من التَّمثيل، وقد صرّح بذلك الجرجاني بقوله: " التَّشبيه عامّ والتَّمثيل أخصّ منه، فكلّ تمثيل تشبيه، وليس كلّ تشبيه تمثيلا."¹

لذلك وقبل أن يشرع الجرجاني في تعريف التَّشبيه يقسمه إلى قسمين؛ " أحدهما أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأوّل. والآخر؛ أن يكون التَّشبه محصّلا بضرب من التأوّل".² فالضرب الأول هو التَّشبيه غير التَّمثيلي الذي لا يحوج النَّفس إلى أعمال الدَّهن وكدّ الفكر لأنه واضح جليّ فالمشبه يشارك المشبه به في الصّفات والسّكنات سواء كان وجه الشبه حسيّا أو عقليّا، أما الضرب الثاني؛ فهو تشبيه التَّمثيل الذي يحتاج فيه إلى شحذ الدَّهن وإعمال الفكر، لأنّه ليس بيّنا بنفسه بل يتطلّب تحصيله لضرب من التأويل، والسبب في ذلك أنّ المشبه لم يشارك المشبه به في الصّفات.

ويتفاوت تشبيه التَّمثيل تفاوتاً شديداً على حد وصف الجرجاني، فمنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمّل، ومنه ما يدقّ ويغمض حتى يحتاج في استخراجِه إلى فضل رويّة ولطف فكرة.

ويوضّح الجرجاني أنّ " التَّمثيل والاستعارة من التَّشبيه إلا أنّهما بغير أدواته، وعلى غير أسلوبه."³ ويأتي التَّمثيل في بعض الأحيان على نحو المجاز كما في الاستعارة التَّمثيليّة، وقال صاحب تفسير المنار: " ومنه [أي من التَّمثيل] ما يسمّيه البيانيون الاستعارة التَّمثيليّة وهو خاص بالمجاز."⁴

والتَّمثيل عند ابن رشيق التَّشبيه الذي يكون وجه التَّشبه فيه عقليّا مبنياً على ضرب من التأوّل، قال: " ومن من ضروب الاستعارة التَّمثيل، وهو المماثلة عند بعضهم."⁵ ويكون بـ " أن تمثّل شيئاً بشيء فيه إشارة."⁶ ويقول الباقلاني: " المماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى فيضع ألفاظاً تدلّ عليه وذلك المعنى بألفاظه

¹ الجرجاني. أسرار البلاغة. تح شاكراً. ص 95.

² الجرجاني. السابق. ص 75.

³ ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. 1 / 280.

⁴ رضا: محمد رشيد. تفسير المنار. دار المنار. القاهرة. ط 02. 1947. 1 / 167.

⁵ ابن رشيق. السابق. 1 / 277.

⁶ نفسه. 1 / 277.

مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه، نظيره من المنثور أنّ يزيد بن الوليد بلغه أنّ مروان بن محمد يتلّكاً عن بيعته فكتب إليه أمّا بعد فإنّي أراك تقدّم رجلاً تؤخّر أخرى فاعتمد على أيّهما شئت والسلام.¹ وذكر الجرجاني أنّ أبا أحمد العسكري يسمّي هذا النوع من الكلام بالمماثلة.²

ويقترّب ابن رشيق في بلورة مفهوم التمثيل ممّا قال به الجرجاني؛ الذي هو عنده صورة قائمة على التشبيه، وجه الشبّه فيها عقليّ يدرك بضرب من التّأول مخالفاً بقيّة التشبيهات التي يكون وجه الشبّه فيها مدركاً من قبل الحسّ.

ولمّا كانت الإستعارة قائمة على التشبيه، فما يقوم منها على ما كان وجه الشبه فيه مدركاً بضرب من التّأول داخل في التمثيل؛ إذ هو تمثيل جاء على حدّ الإستعارة فهو بذلك التمثيل بالاستعارة أو الإستعارة التمثيليّة.³

قال عنه الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير: " والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصّتهم، وهو هنا من قبيل التشبيه لا من الإستعارة لأنّ فيه ذكر المشبّه والمشبّه به وأداة التشبيه وهي لفظ مثل." بين التمثيل والتشبيه

مرّ بنا أنّ " التشبيه " من دلالات المثل، ومع هذا فعلماء البلاغة في التفريق بينهما أقوال مختلفة يمكن حصرها في ثلاثة مذاهب:

1 - مذهب عدم التفريق بينهما وهو قول الرّمخشري وابن الأثير، فالأول يقول في تفسيره لقوله تعالى: (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير.)⁴

¹ الباقلاني: إعجاز القرآن. مطبوع على هامش الإتيقان للسيوطي. عالم الكتب. بيروت. 01 / 115.

² الجرجاني. أسرار البلاغة. ص 113.

³ الجرجاني: عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تعليق شاکر. مكتبة الخانجي. القاهرة. ص 68. و الاستعارة المركّبة أو التمثيليّة، عند علماء البلاغة،

هي اللفظ المركّب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبّه في جنس المشبّه بما للمبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه. وسميت بذلك لعظم شأنها وكان ليس في غيرها تمثيل أصلاً، وهي من أبلغ الاستعارة وهي غرض البلغاء وإذا فشت وشاعت الاستعارة التمثيلية وكذا استعمالها تكون

مثلاً لا يغير مطلقاً. جواهر البلاغة ص 333

⁴ ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير. ص 302.

الحمير).¹ فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة، وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا، مبالغة شديدة في الدّم والتهجين، وإفراط في التثبيط عن رفع الصّوت والترغيب عنه.² ومع أنّ تشبيه الرافعين صوتهم بالحمير، وكذلك تشبيه أصواتهم بالنهاق ليس تمثيلا، فالزّمخشري يسميه تمثيلا، ممّا جعل بعض الدّارسين يميلون إلى القول بأنّه لا يفرّق بينهما، وأنّ للتمثيل في بلاغة الكشّاف مدلولات كثيرة، وهي أقرب إلى الاستعمال اللغوي. وذهب أبو موسى إلى أنّ " هذا الإطلاق يشمل التشبيه، والاستعارة في المفرد، والاستعارة بالكناية والكناية، والتمثيل بالأفعال، والكلام الوارد على سبيل الفرض والتقدير."³

ويصرّح ابن الأثير بعدم التفرقة بينهما، قال: " وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابا مفردا، ولهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد، لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبّهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال مثله به، وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه."⁴

وعرّف الخوارزمي التشبيه بأنّه " تمثيل الشيء بالشيء كقول امرئ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العنّاب والحشف البالي."

2 - مذهب التفريق بينهما وهو قول عبد القاهر الجرجاني؛ فالتفريق بينهما مبنيّ على أساس وضوح وجه الشبه أو عدمه، وكذا مدى تحقّقه في الطرفين، قال: " اعلم أنّ الشيّئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين؛ أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج إلى تأوّل. والآخر أن يكون الشّبه محصلا بضرب من التّأوّل. فمثال الأوّل

¹ لقمان / 19.

² الزّمخشري. الكشاف. 5 / 18.

³ أبو موسى: محمد حسنين. البلاغة القرآنيّة في تفسير الزّمخشري وأثرها في الدراسات البلاغيّة. دار الفكر العربي. ص 645.

⁴ ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. 1 / 373.

⁵ الخوارزمي: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف. كتاب مفاتيح العلوم. تحقيق فان فلوتان. مطبعة بريل. 1895. ص 94.

تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ... ومثال الثاني وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول...¹

والتشبيه التمثيلي عنده ليس شيئاً واحداً من حيث حاجته إلى التأول، إذ يتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، ويعطي المقادة طوعاً، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأوّل الذي ليس من التأول في شيء... [نحو] قولهم في صفة الكلام ألفاظه كالماء في السلاسة² وهناك من التشبيه ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السّماع، فنحو قول كعب الأشقري عن بني المهلب في مجلس الحجّاج ... كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها³.

بعد ذلك يقرّر العلاقة بينهما من حيث العموم والخصوص، فيقول: " وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أنّ التشبيه عامّ والتمثيل أخصّ منه، فكلّ تمثيل تشبيه، وليس كلّ تشبيه تمثيلاً."⁴

بهذا يكون تشبيه التمثيل عند عبد القاهر هو ما كان وجه الشبه فيه ظاهر الخفاء، لا يتمّ تحصيله إلا بتأول، لأنّ أحد طرفيه لم يتشارك مع الطرف الآخر في صفته الظاهرة ذاتها بل في حكمها ومقتضاها. ويتحقّق هذا الأمر عنده متى كان وجه الشبه غير حسّي، ولا من الأخلاق والغرائز والطباع، وليس عقلياً حقيقياً بل عقلياً غير حقيقي، مفرداً كان أو مركباً، وعدا ذلك فهو التشبيه الصّريح.

3 - مذهب القائلين بالتفريق بينهما ولكن بشروط؛ وأبرز القائلين به السكاكي والقزويني؛ فالسكاكي يفرّق بينهما بالقول: " واعلم أنّ التشبيه متى كان وجهه وصفاً منتزعا من عدّة أمور، خصّ باسم التمثيل، كالذي من قوله عزّ وجلّ من قائل: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون)⁵ فإنّ وجه تشبيه المنافقين بالذين شبّهوا بهم في الآية، هو رفع الطمع إلى تسني مطلوب بسبب مباشرة

¹ الجرجاني. أسرار البلاغة. ص 90.

² السابق. ص 93.

³ نفسه. ص 94.

⁴ نفسه. ص 95.

⁵ البقرة / 17.

أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة، لانقلاب الأسباب، وأنه أمر توهمي كما ترى منتزع من أمور كثيرة.¹ وبهذا فالتمثيل عنده ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي، مركباً من عدة أمور، أما ما عداه فليس تمثيلاً.

أما القرويني فإنه لا يبتعد في تفريقه بينهما عما يقول به السكاكي، إذ يرى أن " التمثيل ما وجهه وصف منتزع من متعدّد؛ أمرين أو أمور، وقيد السكاكي بكونه غير حقيقي، ومثل بصور مثل بها غيره أيضاً، منها قول ابن المعتز:

اصبر على مضمض الحسو د فإنّ صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فإنّ تشبيه الحسود المتروك مقاولته مع تطلبه إليها لينال بها نفثة مصدر بالنار التي لا تمدّ بالحطب في أمر غير حقيقي منتزع من متعدّد، وهو إسراع الفناء لانقطاع ما فيه مدد البقاء.²

وعقد الرازي في كتابه الإيجاز الفصل السادس لبيان أنّ المقيدات كلما كانت أكثر، كان التشبيه أو غل في كونه عقلياً، واستشهد لذلك بقوله تعالى: (إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكّرون.)³ ثم قال: " فترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن تقيد بعضها ببعض حتّى صارت جملة واحدة. فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معناها حاصلها بحيث يمكن أن يشار إليها واحدة واحدة. ثمّ إنّ الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، فإنّك لو حذفتم منها جملة واحدة من أيّ موضع كان، لأخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه."⁴

¹ مفتاح العلوم، ص 346 .347.

² بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، 2 / 50.

³ يونس / 24.

⁴ الرازي، تحفة الإيجاز، ص 115.

وقال عبد القاهر في الأسرار: " وعلى الجملة، فينبغي أن تعلم أنّ المثل الحقيقي، والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمّى " تمثيلاً " لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى أنّ التشبيه كلما أوغل في كونه عقلياً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر.

ألا ترى إلى نحو قوله عزّ وجلّ: (إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممّا ياكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أنّها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يفتكرون).¹ كيف كثرت الجمل فيه ؟ حتى إنّك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصلّة تشير إليها واحدة واحدة، ثمّ إنّ الشّبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنّك لو حذفتم منها جملة واحدة من أيّ موضع كان، أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه.

وينبغي ألاّ تعدّ الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات، التي يضمّ بعضها إلى بعض، والأغراض الكثيرة التي كلّ واحد منها منفرد بنفسه، بل بعدّ جمل تنسق ثانیة منها على أوّلة، وثالثة على ثانیة، وهكذا فإنّ ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالیة والثالثة بعدهما. ألا ترى أنّك إذا قلت: " زيد كالأسد بأساً، والبحر جوداً، والسيف مضاء، والبدر بهاء " لم يجب عليك أن تحفظ في هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً ؟ بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به في الحسن، وأخرت تشبيهه بالأسد، كان المعنى بحاله، وقوله:

النّشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

¹ يونس / 24.

إنّما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشّعْر، فأما أن تكون هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل في الآية، وواجبا فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق في الأشياء إذا رتبت ترتيبا مخصوصا كان لمجموعها صورة خاصّة مقرّرة فلا.¹ بين التمثيل والمجاز والإستعارة.

ثمّة علاقة وثيقة بين التّمثيل والمجاز؛ بل إنّ التّمثيل أحد صور المجاز، قال الجرجاني: " وإنّما يكون التّمثيل مجازا إذا جاء على حدّ الاستعارة."² ويقسم علماء البلاغة الاستعارة من حيث الأفراد والتركيب إلى قسمين: استعارة مفردة: وهي ما كان المستعار فيها لفظا مفردا كما هو الشأن في الاستعارات السابقة.

استعارة مركبة: أو " استعارة تمثيلية " وهي ما كان المستعار له [المشبه به] تركيبا لا لفظا مفردا، كما سنرى، في الاستعارة التّصريحية والاستعارة المكنية، وهي أبلغ أنواع الاستعارات كما يؤخذ من الكشّاف،³ ومن أمثلتها: (أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِثْمَا فَكَرِهْتُمُوهُ.) فقد شبهت حال من تناول عرض رجل من أصحابه بالغيبة كحال من شرع في أكل لحم أخيه الميت، بجامع الشناعة والفظاعة المتعلقة في هذين الفعلين. أو كقوله تعالى: (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليه السقف من فوقهم.) فقد شبه الله عز وجل حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنيانا شديدا فدعاهم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم، واستعير التركيب الدال على حال المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والقرينة الحالية " ومتى اشتهرت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها صارت مثلا، والأمثال لا تغير، كما مرّ بنا.

وللصلة الوثيقة بينهما يرى العلوي أنّ التمثيل ضرب من الإستعارة، وهو مخالف للتشبيه، قال: " اعلم أنّ التّمثيل نوع من أنواع البيان، وهو مخالف للتشبيه، فإنّ التشبيه إنّما يكون في المظهر الأداة، وهذا نوع من الإستعارة، وهو معدود من أنواع المجاز،

¹ الجرجاني. أسرار البلاغة. ص 108 . 110.

² الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص 67.

³ السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. 46 / 02.

وإنما قلنا أنه من الإستعارة من جهة أنّ الإستعارة حاصلة فيه، وإنّما تقع التفرقة من جهة أنّ الوجه الجامع، إن كان منتزعا من عدّة أمور فهو التّمثيل، وإن كان مأخوذا من أمر واحد فهو الإستعارة.¹ بعد ذلك يمثل له من القرآن، فيقول: " والتّمثيل في القرآن كقوله تعالى: (صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون.) فالآية إنّما جاءت مسوقة على أنّ حال هؤلاء الكفّار قد بلغوا في الجهل المفرط والعمى المستحكم في الإصرار والجحود على ما هم عليه من الكفر والعناد، بمنزلة من هو أصمّ أبكم أعمى، فلا يهتدي إلى الحقّ ولا يرعوي عمّا هو عليه من الباطل."²

قال صاحب المنار: " ومثل الشيء، بالتحريك، صفته التي توضّحه وتكشف عن حقيقته أو ما يراد بيانه من نعوته وأحواله. ويكون حقيقة ومجازا، وأبلغه: تمثيل المعاني المعقولة بالصوّر الحسيّة وعكسه، ومنه الأمثال المضروبة وتسمّى الأمثال السائرة ... ومنه ما يسمّى البيانون الاستعارة التمثيلية وهو خاص بالمجاز. والتّمثيل أمثل أساليب البلاغة وأشدّها تأثيرا في النفس وإقناعا للعقل."³

ويذهب الجرجاني إلى أنّ الاستعارة يجب أن تفيد حكما زائدا على المراد بالتّمثيل، إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتّمثيل، لوجب أن يصحّ إطلاقها في كلّ شيء يقال فيه إنّه تمثيل ومثل.

والقول فيها أنّها دلالة على حكم يثبت للفظ، وهو نقله عن الأصل اللغويّ وإجراؤه على ما لم يوضع له، ثمّ إنّ هذا النّقل يكون في الغالب من أجل شبه بين ما نقل إليه وما نقل عنه، " وبيان ذلك ما مضى من أنّك تقول: رأيت أسدا تريد رجلا شبيها به في الشّجاعة، وظيفية تريد امرأة شبيهة بالظّبية، فالتشبيه ليس هو الاستعارة، ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه، وهو كالغرض فيها، وكالعلّة والسبب في فعلها."⁴

ثم يواصل التّحليل فيقول: " فكما لا يصحّ أن يقال: إنّ الاستعارة هي الاختصار والإيجاز على الحقيقة، وأنّ حقيقتها وحقيقتها واحدة، ولكن يقال: إنّ الاختصار

¹ العلوي. الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز. 3 / 344.

² نفسه. 3 / 345.

³ رضا: محمد رشيد. تفسير المنار. دار المنار. القاهرة. ط 02. 1947. 1 / 167.

⁴ أسرار البلاغة. ص 239

والإيجاز يحصلان بها، أو هما غرضان فيها، ومن جملة ما دعا إلى فعلها، كذلك حكم التشبيه معها. فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة، كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة، لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً.¹

وإذ تقررت هذه الجملة، فإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجري مجراها من الأوصاف المعروفة، كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه، ولا يقال إن فيها تمثيلاً وضرب مثل. وإذا كان الشبه عقلياً جاز إطلاق التمثيل فيها، وأن يقال: ضرب الاسم مثلاً لكذا، كقولنا: ضرب النور مثلاً للقرآن، والحياة مثلاً للعلم.²

بين الكناية والتمثيل

ذكر ابن الأثير الحلبي في أقسام الكناية قسماً سماه التمثيل " وهو التشبيه على سبيل الكناية وبيانه أنك تشير إلى معنى من المعاني، فتضع له ألفاظاً تدلّ على معنى آخر على سبيل ضرب المثال للمعنى الذي قصدته، كقولك فلان نقيّ الثوب تعني به تنزيهه عن العيوب، وفائدة ذلك أنّ السامع يحصل له زيادة التصوّر بهذا المثال على المدلول عليه، فكان أسرع إلى الرغبة فيه، كقوله تعالى: (أَيْحَبُّ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً)³ فلما كان الاغتياب هو تمزيق أعراض الناس شبهه بأكل اللحم الذي فيه تمزيق أجزاء الجسم، ثم لما كان ذلك مستهجناً شبهه بلحم الأخ، إلا أنّ أكل لحم الأجنبي أقلّ كراهة من أكل لحم الأخ، ثم لما كان لحم الميت لا يحسن، وكذلك المغتاب لا يحسن لغيبته فحسنت الكناية عن الغيبة بهذه الألفاظ.⁴

ملخص ما يراه علماء البلاغة في التمثيل.

وذكر علماء البلاغة للتمثيل مظهرين؛ أحدهما أن يظهر المعنى ابتداءً في التمثيل، وثانيهما ما يأتي في أعقاب المعاني لإيضاحها وتقريرها في النفوس.

¹ نفسه. ص 239

² نفسه. ص 240

³ الحجرات / من الآية 12.

⁴ ابن الأثير الحلبي. جواهر الكنز. ص 103.

وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه.

ذكر الخطيب القزويني المجاز المركب وشرحه وانتهى إلى أن " كلّ هذا يسمّى التمثيل على سبيل الإستعارة، وقد يسمّى التمثيل مطلقاً، ومتى فشا استعماله كذلك سمّي مثلاً، ولذلك لا تغير الأمثال."¹

قال الألويسي: " والأمثال تضرب للكشف البيان ... ثم أطلق على هذا الكلام البليغ الشائع الحسن المشتمل على إمّا على تشبيه بلا تشبيه، أو استعارة رائقة تمثيلية وغيرها، أو حكمة وموعظة نافعة، أو كناية بديعة، أو نظم من جوامع الكلم الموجز، ولا يشترط فيه أن يكون استعارة مركبة خلافاً لمن وهم، بل لا يشترط أن يكون مجازاً، وهذه أمثال العرب أفردت بالتأليف وكثرت فيها التصانيف وفيها الكثير مستعملاً في معناه الحقيقي ولكونه فريداً في باب، وقد قصد حكايته لم يجوّزوا تغييره لفوات المقصود وتفسيره بالقول السائر الممثل مضربه بمورده يرد عليه أمثال القرآن لأنّ الله تعالى ابتدأها وليس لها مورد من قبل. اللهم إلا أن يقال؛ إنّ هذا اصطلاح جديد أو أنّ الأغلب في المثل ذلك، ثم استعير لكلّ حال أو قصّة لها شأن وفيها غرابة."²

وقد تتبّع ما قاله العلماء في التمثيل فوجدته لا يخرج عن هذه الأصول وهي:

1 - ما يصرّح فيه بأداة التشبيه أو حذفته منه على طريقة التشبيه البليغ كما في قوله تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) إذا قدرنا أولئك كالذين اشتروا كما سنرى بعون الله عند دراسة التشبيه.

2 - ما كان على طريق الإستعارة التمثيلية المصرّحة بأن يذكروا اللفظ الدالّ بالمطابقة على الهيئة المشبّه بها ويحذف ما يدلّ على الهيئة المشبّهة، كما في المثال الذي تذكره أغلب كتب البلاغة، وهو ما كتب به الوليد بن يزيد إلى مروان بن محمد: " إني أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى."³

¹ بغية الإيضاح. 3 / 130.

² الألويسي. روح المعاني. 1 / 163.

³ بغية الإيضاح. 3 / 126.

3 - استعارة تمثيلية وهي أن تشبه هيئة بهيئة ولا يذكر اللفظ الدالّ على الهيئة المشبه بها بل يرمز إليه بما مشتهر من لوازمه. وينضوي تحت هذا القسم غالبية الأمثال العربية لإثبات ألقاب قيلت عن أحوال واشتهرت وسارت حتى صار ذكرها ينبئ بتلك الأحوال التي قيلت عندها وإن لم يذكر اللفظ الدالّ على الحالة.

4 - استعارة تمثيلية تبعية كقول أبي عطاء السّندي:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت مني المثقفة السمر

فأثبت النّهل للرّماح تشبيها لها بحالة التّأهل فيما تصيبه من دماء الجرحى المرّة بعد الأخرى كأنها لا يرويهما ما تصيبه أوّلا ثمّ أتى بـ " نهلت " على وجه التّبعية، ومن هذا القسم عند التّفنزي الإستهارة في " على " من قوله تعالى " أولئك على هدى من ربّهم " وقد تقدّم الكلام عليه هناك.¹

جعل صاحب المفتاح منع الأمثال من التّغيير لورودها على سبيل الإستهارة فقال: ثمّ إنّ التّشبيه التّمثيلي متى شاع واشتهر استعماله على سبيل الإستهارة صار يطلق عليه المثل لا غير، وإلى طريقته مال التّفنزي والسّيد.²

¹ تفسير ابن عاشور. 305 / 01.

² نفسه. 305 / 01.

الفصل

السادس

دراسات

بيانية

تطبيقية

جامعة الأمير
عبد القادر العلوم الإسلامية

لبعض الأمثال

الدينيّة

المبحث الأول تحليل ودراسة بيانية لبعض التمثيلات القرآنية

توطئة

تعددت نواحي الإعجاز البلاغي في الأمثال القرآنية، ذلك لأن القرآن بلغ الذروة في صياغته وأسلوبه، قال الباقلاني: " وهو، أي القرآن، بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه."¹ وقال ابن أبي الأصبع: " وإذا انتهيت إلى بلاغة الكتاب العزيز انتهيت إلى نهاية البلاغة."²

لذلك كتب العلماء في بلاغة القرآن وطرائق نظمه بصدق، وتعرضوا لمجازاته، وتشبيهاته، واستعاراته، وكنائياته، إلى غير ذلك من ضروب الأداء فيه، كما تحدثوا عن مراعاته لمقتضى الحال، واختلاف نظم الآيات المتحدة في معانيها، أو ما يعرف بالمتشابه اللفظي، فصنفت مصنّفات عديدة، منها النكت في إعجاز القرآن للرماني وبيان إعجاز القرآن الخطابي والرسالة الشافية و دلائل الإعجاز، كلاهما لعبد القاهر الجرجاني، وكلها كتب مطبوعة.

¹ الباقلاني. إعجاز القرآن 68.

² ابن أبي الأصبع. تحرير التحبير. ص 329.

أمّا كتب التفسير فقلما خلا كتاب منها من الحديث في بلاغة القرآن، فمن مقلّ منهم ومن أكثر، والغرض من كلّ ذلك هو الكشف عن مراد الله في أحكامه، وما يريده من العباد، ثم تلمّس مواضع الحسن، ومواطن الجمال في أسلوب الذكر الحكيم، ويأتي الكشّاف للرمخشري ومفاتيح الغيب للرازي وتفسير البحر المحيط لأبي حيّان في صدارة الكتب التي عنيت بهذا الجانب، ومن ثمّ كان رجوعي إليها في الغالب.

وبالنسبة لأحاديث المصطفى ﷺ فقد لقيت هي الأخرى عناية فائقة وظهر الاهتمام بقضايا البلاغة والبيان في كتب شرح الحديث كشرح العيني على صحيح البخاري وإكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي وعارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي لابن العربي والمجازات النبويّة للشّريف الرّضا وشرح الطّيبي على مشكاة المصابيح وغيرها من الكتب التي عدت إليها في تلمس مواطن الجمال في كلامه ﷺ.

أمّا تمثيلات العهد القديم والعهد الجديد، فتحدّثت عنها سابقا، وأغلب ما أذكره هو اجتهاد بسيط منّي لتقريب الفهم وأسأل الله السّداد.

ولذلك فمحاولة منّي المساهمة في خدمة كتاب الله، وخدمة سنّة نبيّه ﷺ رأيت أن أعرض لبعض التّمثيلات القرآنية بالدراسة، وقد عرضت هذه التّمثيلات دون اختيار أو مفاضلة بينها، لأنّ كلّ الأمثال القرآنيّة كلام الله، وهو سواء لا يفضل بعضه بعضا، وكذلك بالنسبة لأمثال الحديث الشّريف، لكنني حاولت أن أعرض الأمثال النبويّة التي وردت في كتب الصحيح، لأنّ غالبيّة الأحاديث المذكورة في مصنّفات الأمثال النبويّة من الضّعيف، وأحرص على أن يكون المثل ممّا ذكر فيهما، ولنبدأ بالتّمثيلات القرآنيّة.

التمثيل الأول

(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا

يبصرون.)¹

البحث اللغوي

استوقد: أي أوقدها، طلب وقودها بفعله أو فعل غيره.

أضاءت: يقال: ضاءت وأضاءت بمعنى أي استنارت.³

ذهب الله بنورهم: في اللسان؛ وذهب به وأذهبه غيره: أزاله.⁴ أذهب الله نورهم وأعدمه.

قال الزمخشري: " والفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً،

ويقال ذهب به إذا استصعبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله: أخذه."⁵

من مقاصد الآية

هذه الآية ذات صلة وثيقة بالآية التي سبقتها وهي قوله تعالى: (أولئك الذين اشتروا

الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.)¹ وقد بينت هذه الآية حقيقة صفات

¹ البقرة / 16.

² الهروي. الغريبين في القرآن والحديث. ص 2022.

³ لسان العرب. مادة ضوأ. 4 / 2618.

⁴ نفسه. مادة ذهب. 3 / 1522.

⁵ الكشاف. 01 / 193.

المؤمنين، ثم جاء بعدها مثلان، أحدهما المذكور في الآية موضوع الدراسة، وذلك زيادة في التوضيح والبيان.

والآية مثل ضربه الله عزّ وجلّ للمنافقين، الذين كانوا يظهرّون الإيمان فتثبت لهم به أحوال المسلمين من زواج وميراث وأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، فهم بمثابة من أوقد ناراً في ليلة مظلمة، فاستضاء بها، ورأى ما ينبغي أن يتّقيه، وأمن منه، فإذا طفئت عنه أو ذهبت، وصل إليه الأذى، وبقي متحيراً، فكذلك المنافقون؛ لما آمنوا اغتروا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم.

قال ابن عطية في تفسيره: " قال الحسن بن أبي الحسن وغيره: إنّ ما يظهر المنافق في الدنيا من الإيمان فيحرق به دمه ويحرق ماله وينكح ويخالط كالتار التي أضاعت ما حوله، فإذا مات صار إلى العذاب الأليم، فذلك بمنزلة انطفائها وبقائه في الظلمات." ² والصّرامة ظاهرة في المثل بوضوح، لأنّه مثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته، لأنّه سدّ على نفسه جميع منافذ الهداية فلا ثقة بعقله ولا بحواسه ولا بوجوده إذا خالفت تقاليد، وعدم الإبصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان، لجواز أن يلوح بارق أو يذر شارق، أو يصيح طارق، فتكون الهداية. وتنكشف الغواية. ³ البحث البياني

التشبيه التمثيلي في قوله (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) فقد شبّه المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وحقيقة التشبيه التمثيلي؛ أن يكون وجه الشبه صورة مركبة منتزعة من متعدّد، أي أنّ حال المنافقين في نفاقهم وإظهار خلاف ما يبطنون من كفر، كحال الذي استوقد ناراً ليستضيء بها ثم انطفأت فلم يعد يبصر شيئاً، وبهذا نرى أنّ التشبيه التمثيلي هنا قد أظهر الخفي وهو الكفر في صورة الجليّ وهو حال الحائر في الظلام بعد أن كان في النور. قال ابن

¹ البقرة / 15.

² ابن عطية. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. 100 / 01.

³ تفسير المنار. 1 / 171.

عاشور في التحرير والتنوير: " [والتمثيل] هنا من قبيل التشبيه لا من الإستعارة لأنّ فيه ذكر المشبّه والمشبّه به وأداة التشبيه وهي لفظ مثل.¹

قال ابن قانيا في كتابه " الجمان في تشبيهات القرآن " وبعد أن ذكر الآية الكريمة: يعني المنافقين. أي: إن مثلتموهم بالمستوقد فذلك مثلهم، وإن مثلتموهم بالصيّب فهو لهم مثل، أو مثلتموهم بهما جميعا فهما مثلاهما، فالتمثيل مباح لكم فيهم.

وهذا التشبيه للمنافقين في تجلّهم بظاهر الإسلام وحقنهم دماءهم بما أظهروا، فمثل ما تجلّوا به من الإسلام كالنار التي يستضيء بها المستوقد.²

وقال ابن الجوزي بعد شرحه للتشبيه الموجود في الآية وذكر أقوال العلماء فيه: " وفي ضرب المثل لهم بالنار ثلاث حكم؛ إحداهما أنّ المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة، فكأنهم لما أقرّوا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم؛ كان نور إيمانهم كالمستعار.

والثانية أنّ ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادّة الحطب، فهو له كغذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم.

والثالثة أنّ الظلمة الحادثة بعد الضوء أشدّ على الإنسان من ظلمة لم يجد معها ضياء، فشبه حالهم بذلك.³

¹ تفسير ابن عاشور. 1 / 302.

² ابن نايقا. الجمان في تشبيهات القرآن. ص 53.

³ ابن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير. 1 / 40 - 41.

التمثيل الثاني

(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون.)¹

البحث الغوي

ينعق: صوت الراعي لغنمه زجرا، يقال: نعق الراعي بالغنم، ينعق نعيقا، إذا صاح بها زجرا.²

دعاء: هو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول؛ دعوت أدعو دعاء.³
النداء: الدعاء بأرفع الصوت.⁴ جاء في تفسير القرطبي أنّ " النداء للبعيد، والدعاء للقريب، لذلك قيل للأذان بالصلاة نداء؛ لأنه للأبعد."⁵
من مقاصد الآية

جاء هذا المثل عقب آية ندد فيها الله عزّ وجلّ بكلّ تفكير غير سليم، وبالعادات الباليّة التي حجت النور والرؤية السليمة عن بصائر معتنقيها، فباعدت بينهم وبين الفطرة السليمة، حتّى أنّ رسول الله ﷺ عندما بذل لهم النصّح ليهدوا غابت عليهم شقوتهم فأعرضوا عن الحقّ، فاتبعوا فكرهم السقيم ومسخت فيهم الصورة الأدميّة التي كرّمها الله

¹ البقرة / 170.

² ابن فارس. مقاييس اللغة. 5 / 445.

³ نفسه. 2 / 279.

⁴ لسان العرب. مادة ندى. 6 / 4388.

⁵ تفسير القرطبي. 3 / 21.

بالتَّمييز والعقل، ولذلك كان هذا الرّد الذي عرضته الآية الكريمة: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما

أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.¹)

إنّ العناد الذي جبلت عليه النفوس المريضة؛ فألغت عقولها وعطلت تفكيرها واتّبعَت الهوى، ولذلك تجدهم يصرون على مواقفهم باتّباع سابقهم ولو أدّى بهم ذلك إلى الهلاك، فكفروا بالرّسول ورسالته، وجاهروا بمعاداته، فأنزلهم الله، في هذا المثل، منزلة الحيوان السّارح الذي لا يفقه ما يريد منه الراعي حين يصيح به، بل هو أهدى منهم لأنهم عطلوا حواسهم فهم كما وصفهم الله (صم بكم عمي فهم لا يعقلون.)

وهذه المقاصد هي التي ذهب إليها علماء التفسير، قال الفخر الرازي: " اعلم أنّه تعالى لما حكى عن الكفّار أنّهم عند الدّعاء إلى اتّباع ما أنزل الله تركوا النّظر والتدبّر، وأخذوا إلى التّقليد، وقالوا " بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا " ضرب لهم هذا المثل تنبيهاً للسّامعين لهم أنّهم إنّما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيّرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السّامع معرفة بأحوال الكفّار، ويحقّر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث صيّره كالبهيمة، فيكون في ذلك نهاية الرّجوع والرّدع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التّقليد.²

وحاصل المعنى عند الألوّسي: " أنّ الكفرة لأنهماكهم في التّقليد وإخلاصهم إلى ما هم عليه من الضّلالة لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ولا يتأمّلون فيما يقرّر معهم فهم في ذلك كالبهائم التي ينقع عليها وهي لا تسمع إلا جرس النّغمة ودويّ الصّوت، وقيل؛ المراد تمثيلهم في اتّباع آباءهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصّوت ولا تفهم ما تحته، أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالنّاعق في نعقه، وهذا يغني عن الإضمار لكن لا يساعده قوله تعالى: (إلاّ دعاء ونداء) لأنّ الأصنام بمعزل عن ذلك

¹ البقرة / 169.

² الرازي. مفاتيح الغيب. 5 / 08

فلا دخل للاستثناء في التشبيه إلا أن يجعل من التشبيه المركب ويلتزم كون مجموع (لا

يسمع إلا دعاء ونداء) كناية عن عدم الفهم والاستجابة.¹

البحث البياني

في الآية تشبيه مرجعه إلى أربع صور:

- المثل مضروب بتشبيه الكافر بالنّاعق.

- المثل مضروب بتشبيه الكافر بالمنعوق به.

- المثل مضروب بتشبيه داعي الكافر بالنّاعق.

- المثل مضروب بتشبيه الداعي والكافر بالنّاعق والمنعوق.

على القول الأوّل يكون التمثيل: مثل الذين كفروا في قلة فهمهم كمثل الرّعاة يكلمون الغنم، وهي لا تعقل شيئاً. " أو يكون التمثيل: مثل الذين كفروا في دعائهم ألّهتهم التي لا تفقه الدعاء كمثل النّاعق بغنمه لا ينتفع من نعيقه بشيء، غير التعب والعناب، وهو حال الكافر لا ينال من دعاء ألّهته سوى التعب والعناء.

وذكر الرّمخشري هذا القول في الكشاف ولكنّه وعقب عليه بالقول: " إلا أنّ قوله: " إلا دعاء ونداء " لا يساعد عليه لأنّ الأصنام لا تسمع شيئاً.² وعلى قوله هذا علق ابن حيّان قائلاً: " ولحظ الرّمخشري في هذا القول تمام التشبيه من كلّ جهة، فكما أنّ المنعوق به لا يسمع إلا ونداء فكذلك مدعو الكافر من الصنم لا يسمع فضعف عنده هذا القول.³ وعن رأيه يقول: " ونحن نقول: التشبيه وقع في مطلق الدّعاء لا في خصوصيات المدعو، فتشبيه الكافر في دعائه الصنم بالنّاعق بالبهيمة لا في خصوصيات المنعوق به.⁴

وعلى القول الثاني يكون التمثيل: ومثل الذين كفروا في دعائهم إلى الله وعدم سماعهم إيّاه كمثل غنم الذي ينعق، أو هو؛ ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن ربّهم كمثل

¹ تفسير الألويسي. 41 / 2.

² الرّمخشري. الكشاف. 357 / 1.

³ أبو حيّان. تفسير البحر المحيط. 656 / 1.

⁴ نفسه. 656 / 1.

المنعوق به من الغنم التي لا تفهم من الأمر والنهي سوى الصّوت. ولذلك يراد بالذي ينعق الذي ينعق به ومحلّ ذلك القلب. ومن الذين ذهبوا هذا المذهب أبو عبيدة في قوله: " إنّما الذي ينعق الراعي، ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم؛ تقول: كالغنم التي لا تسمع التي ينعق بها راعيها؛ والعرب تريد الشيء فتحوّله إلى شيء من سببه، يقولون: أعرض الحوض على النّاقة وإنّما تعرض النّاقة على الحوض...¹ " وقال ابن نايقا: " أضاف المثل إلى الذين كفروا ثمّ شبّهه بالرّاعي ولم يقل الغنم؛ لأنّ المعنى: ومثل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصّوت. فالتقدير: ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع. والعرب تحذف إذا دلّ المعنى على ما يريدون.² "

وعلى القول الثالث يكون التّمثيل: ومثل داعي الذين كفروا كمثل النّاعق بغنمه، في كون الكافر لا يفهم ممّا يخاطب به داعيّه إلاّ الصوت دون فكر، كما أنّ الغنم كذلك. قال الرّمخشري: " ويجوز أن يراد بـ " ما لا يسمع الصمّ الأصليج الذي لا يسمع من كلام الرّافع صوته بكلامه إلاّ النّداء والصّوت لا غير من غير فهم الحروف.³ "

وعلى القول الرّابع فالتّمثيل، وهو مذهب سيوييه، كالتالي: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل النّاعق والمنعوق به الذي لا يسمع.⁴ فشبّه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لا يفهم عنه، وشبّه الكفار بالغنم في كونهم لا يسمعون ممّا دعوا إليه إلاّ صوتا لا يفهمون معناه. قال ابن عطية: " وقوله تعالى: " ومثل الذين كفروا " الآية، المراد تشبيهه واعظ الكافرين وداعيهم والكافرين الموعوظين بالرّاعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل فلا تسمع إلاّ دعاءه ونداءه ولا تفقه ما يقول، هكذا فسّر ابن عباس وعكرمة والسديّ وسيوييه.⁵ " وقال صاحب تفسير المنار: " ومعنى المثل هنا كما قال سيوييه: " أنّ صفة الكفار وشأنهم كشأن النّاعق بالغنم ولا يفترض هذا أن يكون كلّ جزء من المشبّه كقابله

¹ أبو عبيدة. مجاز القرآن. ص 63.

² ابن نايقا. التشبيهات. ص 95-96.

³ الرّمخشري. الكشاف. 1 / 357.

⁴ سيوييه. الكتاب. 1 / 212.

⁵ تفسير ابن عطية. 1 / 238.

من المشبّه به، وهو ما سمّاه علماء البيان بعد سيبويه بالتمثيل، وفرّقوا بينه وبين تشبيهه متعدّد بمتعدّد.¹

ويكون التشبيه على هذه الصور المذكورة متى نظرنا إليه على أساس تشبيه مفرد بمفرد، أمّا إذا نظرنا إليه من باب تشبيه جملة بجملة فلا ننظر إلى الألفاظ بل الواجب النظر إلى المعنى، ولعلّ هذا ما أشار ابن حيّان فيما نقله عن الرّاعب وهو قوله: " فلما شبّه قصّة الكافرين في إعراضهم عن الدّاعي لهم إلى الحقّ بقصّة النّاعق لينبني عليه ما يكون منه ومن المنعوق."²

الإستعارة التصريحيّة في تشبيه الكافرين بالصمّ البكم العمي، فحذف المشبه وأبقى على المشبّه به.

الكناية عن صفة؛ وهي عدم الفهم والاستجابة في قوله " لا يسمع إلا دعاء ونداء."

¹ تفسير المنار. 2 / 94.

² أبو حيّان. تفسير البحر المحيط. 1 / 658..

التمثيل الثالث

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون.¹)

البحث اللغوي

أخذت الأرض زخرفها: جاء في اللسان أنّ الزخرف هو الزينة،² وفي الصحاح الزخرف هو الذهب، ثم يشبهه به كلّ ممّوه مزور.³ والمعنى أنّ الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب وبعضه للون بقية الجواهر. ازيّنت: حسنت وبهجت.⁴ كأن لم تغن بالأمس: قال الليث: يقال للشيء إذا فني: كأن لم يغن بالأمس، أي كأن لم يكن.⁵ والمعنى كأنّ زرعها لم يكن موجوداً بالأمس مخضراً طرياً.

من مقاصد الآية

هذا المثل دعوة صريحة إلى علاج النفوس التي تغترّ بالعرض الزائل من الدنيا، فهو يحدرّ المؤمن من الاغترار بما تزخر به الدنيا من متع زائلة وشهوات فانية، ممّا قد يشغله عن التفكير في مآله ونسيان حقيقة نفسه. فالدنيا بما فيها سرعان ما تزول بهجتها وزخرفها، فهي شبيهة بحال أرض أرسل عليها الله المطر، فأنبئت ما يسرّ الناظرين، وما زال ذلك النبات ينمو ويزهر ويكبر، حتى إذا استوفت الأرض إنباتها واستكملته، وأظهرت زخرفها، وتزيّنت بذلك الزخرف والنبات كالعروس التي ازيّنت في ليلة زفافها، وظنّ أهلها أنهم قادرون على التمتع

¹ يونس / 24.

² لسان العرب. مادة زخرف. 3 / 1821.

³ الجوهري. الصحاح. 4 / 1369.

⁴ لسان العرب. مادة زين. 3 / 1903.

⁵ نفسه. مادة غنا. 5 / 3310..

بثمراتها، متمكنون من تحصيلها، أتاها أمر الله فهلك الزرع والنبات فصارت كالحصيد، وإذا بها كأثها لم توجد، ولم تنبت على تلك الأرض يوماً ما.

والآية وثيقة الصلة بالتي قبلها وهي قوله تعالى: (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون)¹

وثمة الكثير من الأمثال القرآنية التي تسير في نسق التيار الذي سار فيه هذا المثل، من ذلك قوله تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا)²

وقوله: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)³

والتشبيهات التمثيلية المذكورة للحياة الدنيا فيها جاءت بمنزلة البيان لجملته (متاع الحياة الدنيا) في الآية التي سبقت، فبيّنت أنّ هذا التمتع زمنه قصير ثم يزول. وشبّهت حال التمتع بالدنيا بحال الزرع في نضارته ثم تحوّلته إلى أن يصير حصاداً. كما يراد به تبين صفة الحياة الدنيا في صورتها الآنية أو الصورة التي ستؤول إليها، كصفة نبات ماء نزل من السماء، فأنبتت به الأرض نباتاً تشابك وتراكم والتف واختلط بعضه ببعض لكثرتة مع اختلاف ألوانه وأنواعه من أصناف شتى تكفي الناس في أقواتهم ومراعي أنعامهم.

¹ يونس / 23.

² الكهف / 44.

³ الحديد / 19.

والمثل مضروب لمنكري البعث، فمثل لهم حال الدنيا بالنبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به، وقع اليأس منه بالهلاك؛ والمتشبهت بالدنيا إذا نال منها مبتغاه أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم وملذات. ولذلك قال الرماني: " وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمع والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر في أنّ كلّ فان حقير وإن طالت مدّته، وصغير وإن كبر قدره."¹

البحث البياني

التشبيه في قوله: (إنّما مثل الحياة الدنيا كماء) وقد جاء التشبيه في الآية مبتدأ بصيغة القصر، وهو قصر مقلوب حيث قصر حالة الدنيا على مشابهة حالة النبات، وأنزل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة، وهو دالّ على غرضين؛ تأكيد المقصود من التشبيه، ويتمثل في سرعة انتهاء التمتع، تنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة ونضارة الحياة الدنيا.

قال ابن نايقا: " شبه الحياة الدنيا بالنبات على تلك الأوصاف من الاغترار والمصير إلى الرّوال. ويجوز أن يكون شبهها بالماء فيما يكون به من الامتناع ثم الانقطاع ... والتشبيه في الآية أحسن موقعا وأبلغ معنى من جميع ما وصف به حال الدنيا، وميل النفوس إليها مع قلة صحبتها والاستمتاع بلذتها، فكذلك حال النبات والماء في النضارة والحسن، ثمّ العود إلى الجفاف واليبس."²

وهذا الضرب من التشبيه، تشبيه مركّب؛ حيث شبه حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما، بعدما التفت وتكاثف وزين الأرض بخضرتة ورفيفه.³

الإستعارة المكنية في قوله: (حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها) حيث جعلت الأرض في زينتها، بما عليها من أنواع النباتات، كالعروس التي أخذت من ضروب الثياب والزينة

¹ الرماني. النكت في إعجاز القرآن. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص 83.

² ابن نايقا. التشبيهات. ص 99. 100.

³ الزمخشري. الكشاف. 3 / 127.

وتزيّنت بها. قال الشريف الرضا في تلخيص البيان موضّحا لها: " وهذه من أحسن الاستعارات لأنّ الرّخرف في كلامهم اسم للزينة واختلاف الألوان المونقة وقوله تعالى (أخذت الأرض زخرفها.) أي لبست زينتها بألوان الأزهار وأصابع الرّياض كما يقال أخذت المرأة قناعها إذا لبسته، ويقال لها خذي عليك ثوبك أي البسيه ومنه قوله تعالى: (خذوا زينكم عند كلّ مسجد)¹ أي البسوا ثيابكم."² وبين الألوّسي في روح المعاني نوع هذه الإستعارة حيث قال بعد ذكره لمعاني الآية: " وقد ذكر غير واحد أنّ في الكلام استعارة بالكناية حيث شبّهت الأرض بالعروس وحذف المشبّه به وأقيم المشبّه مقامه، وإثبات أخذ الرّخرف لها تخييل وما بعده ترشيح، وقيل الرّخرف الذهب استعير النضارة والمنظر السرّ."³ وعلّق صاحب تفسير المنار على هذه الصورة بالقول: " ولا تغفل عن حسن الإستعارة في أخذ الأرض زينتها، حتّى كان استكمال جمالها، كأنه فعل عاقل حريص على منتهى الإبداع والإتقان فيها."⁴

التشبيه أو الإستعارة في قوله: (فجعلناها حصيدا) أي كالمحصول؛ وهو ما حذف فيه الأداة ووجه الشبّه. قال الألوّسي مبينا التشبيه في [هذا المقطع من الآية]: " فجعلناها أي فجعلنا نباتها حصيدا أي شبيها بما حصد من أصله، والظاهر أنّ هذا من التشبيه لذكر الطرفين فيه فإنّ المحذوف في قوّة المذكور."⁵

أمّا الشريف الرّضا فيرى أنّ الصورة البيانيّة الموجودة في الآية هي الإستعارة؛ قال [عن هذا المقطع]: " استعارة أخرى لأنّ الحصيد من صفة الثّبات لا من صفة الأرض، والمعنى فجعلنا نباتها كذلك فاكتفى بذكر الأرض من ذكر الثّبات لأنّ الثّبات فيها ومنشؤه

¹ الأعراف / 31.

² الشريف الرضا، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تح د علي محمود مقلد، دار مكتبة الحياة، لبنان، د ت. ص 98.

³ الألوّسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 11 / 100.

⁴ تفسير المنار 11 / 347.

⁵ الألوّسي، السابق، 11 / 101.

منها.¹ وهو قول آخر للألوسي في تفسيره حيث قال: " وجوز أن يكون هناك استعارة مصرحة، والأصل جعلنا نباتها هالكا؛ فشبه الهالك بالحصيد أقيم اسم المشبه به مقامه، ولا ينافيه تقدير المضاف لأنه لم يشبه الزرع بالحصيد بل الهالك به."²

وللسكاكي رأي آخر في نوع الإستعارة هنا، فقد ذهب " إلى أنّ في الكلام استعارة بالكناية حيث شُبّهت الأرض المزخرفة والمزينة بالنبات الناضر المونق الذي ورد عليه ما يزيله ويفنيه وجعل الحصيد تخيلاً ولا يخفى بعده."³

الكناية في قوله: (أتاها أمرنا) لأنّ الأمر في هذا المقام كناية عن العذاب والدمار.

وبالنظر إلى التمثيل في هذه الآية نراه لا يحصل إلا من جملة الكلام، فهذه الآية كثرت فيها الجمل حتى بلغت عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كانت قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثمّ إنّ الشبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنّك لو حذفتم منها جملة واحدة من أيّ موضع كان، أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه.⁴

التمثيل الرابع

¹ الشريف الرضا. تلخيص البيان. ص 98.

² الألوسي. روح المعاني. 11 / 101.

³ نفسه. 11 / 101.

⁴ أسرار البلاغة. ص 87.

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على

شيء ذلك هو الضلال البعيد.)¹

البحث اللغوي

عاصف: الريح العاصف: الشديدة.² وقال: الهروي في الغريبين: " وقوله تعالى: (

اشتدت به الرياح في يوم عاصف.) العصوف للرياح فجعله تابعا لليوم على وجهين أحدهما أن

العصوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به لأنّ الريح تكون فيه فجاز أن يقال يوم

عاصف كما يقال يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيهما. والوجه الآخر أن يريد في

يوم عاصف الريح لأئها ذكرت في أول الكلمة.³

من مقاصد الآية

يبين الله عزّ وجلّ أنّ أعمال الكافرين ليست بمانعتهم من العذاب، بل مثل هذه

الأعمال مثل الرماد ذرّ في يوم عاصف، فأطارته الرياح الشديدة وفرّقتة في كلّ مكان

وكلّ اتجاه، ويبين لهم أنّ هذا اليوم آت وريب فيه.

البحث البياني

الإستعارة في قوله تعالى (اشتدت به الريح) قال الشريف الرضا: " وأصل الاشتداد عندهم

العدو والإسراع يقولون اشتدّ القوم إذا عدوا مسرعين فشبه سبحانه إسراع الريح في

تذرية الرماد بإسراع العادي الذي بعد شأوه وامتدّت غلواؤه.⁴

الإستعارة في قوله تعالى (في يوم عاصف) قال الرضا: " والإستعارة الأخرى قوله تعالى

" في يوم عاصف " وإيما الريح هي العاصفة لاشتدادها وقوتها ولكن عصوف الريح لمّا

كان واقعا في اليوم جاز على طريق الاتساع أن يوصف اليوم بالعصوف كما تقدّم قولنا

في النهار الصائم والليل القائم.⁵

¹ إبراهيم / 21.

² ابن فارس مقاييس اللغة. 4 / 328.

³ الهروي. الغريبين في القرآن والحديث. ص 1285.

⁴ الشريف الرضا. السابق. ص 129.

⁵ الشريف الرضا. نفسه. 130.

المجاز يرى الألوسي أنّ الصورة في قوله تعالى " في يوم عاصف " مجاز، إذ العصف اشتداد الرّيح، وصف به زمان هبوبها على الإسناد المجازي؛ كنهاره صائم وليله قائم للمبالغة¹.

التشبيه في الآية وبه يقول الرّماني والرازي وابن عاشور؛ قال الرّماني: " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه، فقد اجتمع المشبّه والمشبّه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة"² وقال ابن عاشور: " من لطائف هذا التمثيل أن اختيار له التشبيه بهيئة الرّماد المتجمّع، لأنّ الرّماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرة الرّماد كناية في لسانهم عن الكرم."³ وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس⁴.

والظاهر أنّ التشبيه التمثيلي هو أظهر الصور في الآية؛ لأنّ وجه الشّبّه فيها صورة مركبة ومنتزعة من متعدّد، حيث شّبّه الله حبوط عمل الكافرين برّه وفاجره قليله وكثيره لأنّه مبني على أساس واه وهو الشرك والكفر بالرّماد التي طيّرتّه الرّيح في يوم عاصف وفرّقته في كل الجهات ولم تبق له أثرا.

التمثيل الخامس

(ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتتعد ملوماً محسوراً)⁵

البحث اللغوي

لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك: تأويله لا تمسكها عن الإنفاق¹.

¹ تفسير الألوسي . 13 / 204.

² الرماني . النكت . ص 82.

³ ابن عاشور . تفسير التحرير والتنوير . 13 / 213.

⁴ الرازي . تحفة الإيجاز . ص 104.

⁵ الإسراء / 29

ولا تبسطها كلّ البسط: لا تسرف، ويقال بسط يده بالسّطوة² وفي الأساس: ومن المجاز بسط رجله وقبضها، وإنه ليبسطني ما بسطك ويقبضني ما قبضك أي يسرّني ويطيّب نفسي ما سرّك ويسوءني ما ساءك، وبسط إلينا يده ولسانه بما نحبّ أو بما نكره³. فتقعد: تصير، وهو من المجاز. جاء في الأساس: ومن المجاز وقعد عن الأمر: تركه، وقعد له: اهتمّ به، وقعد يشتمني: أقبل، وأرهف شفرته حتى قعدت كأنها حربة: صارت، وقال الديان الحارثي:

لأصبحنّ ظالما حربا رباعيّة فاقعد لها ودعن عنك الأظانينا

وتقاعد عن الأمر وتقعد، وما قعد به عن نيل المساعي، وما تقعد، وما أقعده إلا لؤم عنصره، وقال:

بنو المجد لم تقعد بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا⁴

فتقعد ملوما محسورا: قال ابن عرفة: يقول: لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرّف كما يكون البعير الحسير وهو الذي ذهب قوّته فلا انبعاث به⁵. وفي الأساس: محسورا: منقطعا لاشيء عندك، من حسر بمعنى كشف⁶.

من مقاصد الآية

ومن أروع ما قيل في تفسير هذه الآية ما قاله ابن عاشور: " وقد أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدّقيقة فكانت من الحكمة، وجاء نظمها على سبيل التّمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة.

فأمّا الحكمة فإنّ بيّنت أنّ المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتّفريط، وهذه الأوساط هي حدود المحامد بين المذام من كلّ حقيقة لها طرفان. وقد تقرّر في حكمة الأخلاق أنّ لكلّ خلق طرفين ووسطا، فالطرفان إفراط وتّفريط وكلاهما

¹ لسان العرب. مادّة غلل. 5 / 3288.

² الهروي. الغريبين في القرآن والحديث. 1 / 176.

³ الزمخشري. أساس البلاغة. ص 39

⁴ الأساس. ص 515.

⁵ الغريبين في القرآن والحديث. 2 / 438.

⁶ الأساس. ص 126.

مقرّ مفسد للمصدر وللمورد، وأنّ الوسط هو العدل، فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها الشخّ وهو مفسدة للمحاويج ولصاحب المال إذ يجرّ إليه كراهية الناس إياه وكراهيته إياهم. والطرف الآخر التّبذير والإسراف، وفيه مفسد لذي المال وعشيرته لأنّه يصرف ماله عن مستحقّيه إلى مصارف غير جديرة بالصّرف، والوسط هو وضع المال في مواضعه وهو الحدّ الذي عبّر عنه في الآية بنفي حالين بين لا ولا.¹

البحث البياني

الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط.) حيث شبّه الله عزّ وجلّ حال البخيل في امتناعه عن الإنفاق بحال من يده مغلولة إلى عنقه، فهو لا يقدر على التصرف في شيء، وشبّه حال المسرف المبدّر المتلاف بحال من يبسط يده كلّ فلا يبقى على شيء ممّا فيا، ولا يدّخر شيئاً ينفعه في حال الحاجة، ليخلص في نتيجة حتمية وهي الوسطية في كلّ الأمور، والاقتصاد الذي هو وسط بين الإسراف والتقتير، وقد طابق في الإستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى، لأنّ جعل اليد مغلولة هو قبضها وغلّها أبلغ في القبض.

وقد ذكر الزمخشري أنّ " هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، أمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والإقتار."²

وشرح أبو حيّان الصورة البيانية الموجودة في هذا التمثيل بالقول: " وهذه استعارة استعير فيها المحسوس للمعقول، وذلك أنّ البخل معنى قائم بالإنسان يمنعه من التصرف في ماله، فاستعير الذي هو ضمّ اليد إلى العنق، فامتنع عن تصرف يده وإجالتها حيث تريد، وذكر اليد لأنّ بها الأخذ والإعطاء، واستعير بسط اليد لإذهاب المال، وذلك أنّ بسط اليد يذهب ما فيها، وطابق في الإستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى، لأنّ جعل اليد مغلولة هو قبضها، وغلّها أبلغ في القبض، وقد طابق بينهما أبو تمام فقال في المعتصم:

تعوّد بسط الكفّ حتّى لو أنّه ثناها لقبض لم تجبه أنامله.¹

¹ ابن عاشور . تفسير التحرير والتنوير . 15 / 84 .

² الزمخشري . الكشّاف . 3 / 514 .

وقال الشريف الرضا: " وهذه استعارة، وليس المراد بها اليد التي هي الجارحة على الحقيقة وإنما الكلام الأوّل كناية عن التّقدير، والكلام الآخر كناية عن التّبذير وكلاهما مذموم حتّى يقف كلّ منهما عند حدّه ولا يجري إلا إلى أمله، وقد فسّر هذا قوله تعالى: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما).²

أمّا القرطبي فيذكر أنّ الصورة الموجودة في قوله تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك) مجاز؛ قال: " هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله، فضرب له مثل الغلّ الذي يمنع من التصرّف باليد."³

التمثيل السادس

(مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).⁴

البحث اللغوي

أوهن: صيغة مبالغة من وهن الشيء يهن وهنا: ضعف.⁵
من مقاصد الآية

¹ أبو حيان. تفسير البحر المحيط. 6 / 29.

² الشريف الرضا. تلخيص البيان. ص 150.

³ القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. 13 / 67.

⁴ العنكبوت / 41.

⁵ مقاييس اللغة. 6 / 149.

يمثل الله عزّ وجلّ في الآية حال الكافرين الذين اتّخذوا من الله آلهة يعبدونها، بحال العنكبوت التي اتّخذت لها بيتا لكنّه بيت لا يجيرها من حرّ أو برد، لأنّ هذا البيت من أضعف البيوت التي تلجأ إليها الكائنات.

قال ابن عاشور: " لَمَّا بَيَّنَّتْ لَهُمُ الْأَشْبَاهُ وَالْأَمْثَالَ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي اتَّخَذَتْ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أَصْنَامَهُمْ، لَمَّا جَاءَ عَذَابُ اللَّهِ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِضَرْبِ الْمَثَلِ لِحَالِ جَمِيعِ النَّاسِ وَحَالِ مَنْ مَاتَلَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي اتِّخَاذِهِمْ مَا يُحْسِبُونَهُ دَافِعًا عَنْهُمْ وَهُوَ أَوْجَعُ مِنْ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ، بِحَالِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي تَتَّخِذُ لِنَفْسِهَا بَيْتًا تَحْسِبُ أَنَّهَا تَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْمَعْتَدِي عَلَيْهَا فَإِذَا هُوَ لَا يَصْمَدُ وَلَا يَنْبُتُ لِأَضْعَفِ تَحْرِيكِ فَيَسْقُطُ وَيَتَمَرَّقُ. وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الْكَلَامِ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ، وَتَعَلَّمَ مَسَاوَاةَ غَيْرِهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ بِدَلَالَةِ لِحْنِ الْخَطَابِ، وَالْقَرِينَةُ قَوْلُهُ " إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ " فَضْمِيرٌ " اتَّخَذُوا " عَائِدٌ إِلَى مَعْلُومٍ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ وَهُمْ كَفَارُ قُرَيْشٍ."¹

البحث البياني

يمثل الله عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة حال الذين اتّخذوا من دون الله معتمدا ومُكلا في دينهم وتولّوه من دون الله بحال العنكبوت فيما نسجته واتّخذته بيتا لها، والتشبيه على هذا من المركّب فيعتبر في جانب المشبّه اتّخاذ ومُتّخذ واتّكال عليه، وكذلك في الجانب الآخر ما يناسبه ويعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كلّهُ بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر، والغرض تقرير وهن أمر دينهم وأنّه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها، ومدار قطب التشبيه أنّ أولياءهم بمنزلة منسوج العنكبوت ضعف حال وعدم صلوح اعتماد، وعلى هذا يكون قوله تعالى: " إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ " تذييلا يقرّر الغرض من التشبيه.

قال الرّمخشري: " الغرض تشبيه ما اتّخذوه مُكلا ومعتمدا في دينهم وتولّوه من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوّة؛ وهو نسج العنكبوت، ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله: " إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ " ويرى الرّمخشري أنّ هذا التمثيل يمكن أن نخرجه على المجاز وذلك في قوله: " إِذَا صَحَّ تَشْبِيهِهُ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي

¹ تفسير التحرير والتنوير. 20 / 252.

² الرّمخشري. الكشاف. 4 / 549.

دينهم ببيت العنكبوت، وقد صحَّ أنّ أو هن البيوت بيت العنكبوت، فقد تبين أنّ دينهم أو هن الأديان لو كانوا يعلمون، أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز، فكأنه قال: وإنّ أو هن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.¹

ويرى الرماني أنّ الصورة هنا تشبيه وذلك في قوله: " فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا في ضعف المعتمد، ووهاء المستند، وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع الشعور بما فيه التوهين.² وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.³

بينما يضيف الألوسي جديدا على التشبيه وهو الإستعارة التمثيلية وهذا في قوله: " وجوّز أن يكون المعنى والغرض من التشبيه ما سمعت إلا أنّه يجعل التذليل استعارة تمثيلية ويكون ما تقدّم كالتوطئة لها، فكأنه قيل: وإنّ أو هن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان، وهي تقرّر الغرض من التشبيه بتبعية تقرير المشبه، وكأنّ التقرير في الوجه السابق بتبعية تقرير المشبه به، وهذا قريب من تجريد الإستعارة وترشيحها.⁴

لذلك فالتشبيه التمثيلي هو الأظهر في الآية؛ حيث شبه حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها راجيا نفعها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا، فكما أنّ بيتها لا ينفعها ولا يردّ عنها حرّا ولا بردا، بل ويتهاوى أمام أبسط عارض، كذلك الأصنام لا تملك لمن عبدها ضرّا ونفعا، فالتشبيه قائم على تشبيه حال الكفار بحال العنكبوت ووجه الشبه فيه مركّب لأنّه منتزِع من متعدّد.

¹ نفسه. 4 / 549.

² الرماني. النكت. ص 84.

³ تحاية الإيجاز. ص 104.

⁴ تفسير الألوسي. 20 / 161.

التمثيل السابع

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله

لا يهدي القوم الظالمين.)¹

البحث اللغوي

أسفارا: أي كتباً، الواحد سفر.²

من مقاصد الآية

المثل دعوة لكل عاقل ليستوعب علم ما يحمل، وأن يتفهم جوانبه وأهدافه ومراميها، ويعمل بمقتضى ما فيه من هدى وصلاح، حتى لا يلحقه الندم من جراء جهله قيمة ما معه، فهو يعطينا صورة واضحة للذي يعطل حواسه، فتعمى بصيرته، ومن يحسن استغلال ما حباه الله، فلا يكون من الذين (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير

فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير.)³

يعيب الله عزّ وجلّ على اليهود عنادهم ومكابرتهم بإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، وأنهم لو فهموا التوراة الحقيقية المنزلة وعملوا لرأوا أنه النبيّ المبشّر به، لذلك فحملهم للتوراة من دون العمل بها شبيه بحمل الحمار للكتب الكثيرة دون أن يجديه حملها نفعاً. قال الطاهر

¹ الجمعة / 05.

² الهروي. الغريبين. ص 900.

³ الملك / 11 . 10.

بن عاشور: " بعد أن تبين أنه تعالى أتى فضله قوما أميين أعقبه بأنه قد أتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء الذين اقتنعوا من يحملوا التوراة دون فهم وهم يحسبون أنّ ادّخار أسفار التوراة وانتقالها من بيت إلى بيت كاف في التبجّح بها وتحقير من لم تكن التوراة بأيديهم، فالمراد اليهود الذين قاوموا دعوة محمد ﷺ وظاهروا المشركين.¹"

البحث البياني

قال الرماني: " وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بالبدئية، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية.²"

وقال ابن عاشور: " وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك ذيل بدمّ حالهم (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) ومثل القوم فاعل بئس، وأفنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالدمّ لحصول العلم بأنّ المذموم هو حال القوم المكذبين فلم يسلك في هذا التركيب طريق الإبهام على شرط التفسير لأنه قد سبقه ما بينه بالمثل المذكور قبله في قوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) فصار إعادة لفظ المثل ثقيلًا في الكلام أكثر من ثلاث مرّات، وهذا من تفتّات القرآن، والذين كذبوا صفة القوم.³"

والظاهر أنّ الصورة جليّة الوضوح في الآية هي التشبيه التمثيلي؛ حيث شبه الله عزّ وجلّ اليهود في عدم انتفاعهم بالتوراة وما فيها عندما كذبوا محمداً ﷺ بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعرف قيمتها، وفي تشبيههم بالحمار، وهو رمز الجهل والبلادة، مبالغة في التحقير لعقولهم وفهمهم. وإلى هذا ذهب الرازي حين رأى أنّ المشابهة في هذه الآية وردت في أمور كثيرة إذ قوله تعالى: (كمثل الحمار يحمل أسفارا) تضمّن التشبيه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل المطلق، بل لأمرين آخرين مع ذلك، أحدهما؛ تعدّيته

¹ تفسير ابن عاشور. 28 / 213.

² الرماني. السابق. ص 84.

³ تفسير ابن عاشور. 28 / 213.

إلى الأسفار، والآخر؛ اقتران الجهل بما فيها، لأنَّ الغرض توجيه الدّم إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمّن المنافع العظيمة ثم لا ينتفع به لجهله، وهذا المقصود غير حاصل من الحمل المطلق، بل من الحمل المشروط بالشرطين الآخرين.¹

وقال ابن ناقياً: " قوله تعالى: (ثم لم يملوها) أي تعاملوا عنها، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيتها، حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها... والتشبيه في الآية يجوز أيضا على تالي القرآن من غير أن يفهمه، إلا أن يكون طالبا لعلمه، وقد قدّم حفظه ليكون ذلك طريقا إلى علم ما فيه؛ فإن أعرض عن ذلك إعراض من لا يحتاج إليه، كان التشبيه واقعا عليه، والمثل لاحقا به."²

وصفوة الكلام ففي المثل صورة رائعة شبّه فيها اليهود الذين أعطوا التّوراة ولم ينتفعوا بها، بالحمار الذي كتبنا كثيرة نافعة فوق ظهره، لكنّه لا يستفيد منها ولم ينتفع بما فيها؛ فالمشبّه في الآية مرگب من حامل وهم اليهود، ومحمول نافع وهو التّوراة، وعدم انتفاع بهذا المحمول لإعراضهم عنها وعدم العمل بما فيها. أمّا المشبّه به فمرگب، هو الآخر، من حمار حامل، ومحمول نافع وهو كتب العلم، وعدم انتفاع الحمار بها، لأنّه لا يدرك قيمة ما يحمل مع تكلفه المشقّة في الحمل.

¹ الرازي. تحفة الإجاز ص 114

² ابن ناقياً الجمال في تشبيهات القرآن. ص 386.

التمثيل الثامن

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين.)¹

البحث المعجمي

برئ: في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما دعاه عمر إلى العمل فأبي، فقال عمر: إن يوسف قد سأل العمل، فقال إن يوسف مئى بريء وأنا منه براء. " أي بريء عن مساواته في الحكم، وأن أفاًس به، ولم يرد براءة الولاية والمحبة، لأنه مأمور بالإيمان به، والبراء والبريء سواء.²

من مقاصد الآية

هذه الآية أيضاً ناظرة إلى قصة بني النضير، فلما تأمروا على النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجلء، ولكن المنافقين وعدوهم بالنصر، فقالوا لهم: " لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم " ولكن كان ذلك الوعد كاذباً، ولذلك يقول سبحانه: " والله يشهد أنهم لكاذبون " وآية كذبهم: (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصروهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون.)³

ولقد صدق الخبر، فأجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوة وشدة، فما ظهر منهم أي نصر أو مؤازرة أو دعم، وكان وعدهم كوعد الشيطان، إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، بمعنى أنه أمره بالكفر ولكنه تبرأ منه في النهاية.

وهل المخاطب في قوله: " اكفر " مطلق الإنسان الذي ينخدع بأحابيل الشيطان ووعوده الكاذبة ثم يتركه و يتبرأ منه، أو المراد شخص معين؟ وجهان.

¹ الحشر / 16.

² ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر. 01 / 112.

³ الحشر / 12.

فلو قلنا بالثاني، فقد وعد الشيطان قريشا بالنصر في غزوة بدر، كما يحكي عنه سبحانه،
و يقول (وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَأَغْلِبَنَّ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ
الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)¹

البحث البياني

التشبيه التمثيلي في قوله تعالى: (كمثل الشيطان إذ قال للشيطان اكفر) وجه التشبه منتزع من
مركب والصورة منتزعة من متعدّد.
المجاز المرسل في قوله: (إذ قال للإنسان اكفر) لأنّ الكفر مجاز عن الإغواء والإغراء،
ففيه إطلاق المسبّب وإرادة السبب؛ لأنّ الإغواء سبب للكفر.

المبحث الثاني تحليل ودراسة بيانية لبعض تمثيلات الحديث الشريف
توطئة

¹ الأنفال / 48.

الحديث النبوي نص أدبي، في الذروة من البيان، لا يرتفع فوقه في مجالات الأدب الرفيع إلا كتاب الله، بلاغة، وفصاحة، وذرورة، والنص الأدبي ينفرد عن بقية النصوص الإبداعية بمزايا خاصة سواء أكانت تعبيرية، أو صوتية، أو تصويرية. ترقى بهذا النص إلى مرتبة الذروة في البلاغة والفصاحة.

وقد اجتمعت هذه الخصائص الفنية الممتازة في حديث الرسول ﷺ فكانت له فنيته الخاصة، التي ارتفعت بأمثاله عن لغة الأمثال العادية، فاستحقت بذلك أن تحتل تلك المنزلة السامية والرتبة الرفيعة من الأدب والبلاغة والفصاحة.

وسأحاول، في هذه الدراسة، جاهدا أن أستقصي بعض الخصائص البيانية التي تظهر في أمثال الحديث الشريف، على الصورة التي مرّت بنا مع أمثال القرآن الكريم، قصد بيان أنّ الأمثال النبوية خرجت من المشكاة التي أوتيتها الرسول ﷺ ولتحقيق هذه الغاية قصرت الدراسة على بعض الأحاديث فقمت بذكر نصوص الأحاديث ثم قمت بتخريجها وأقال علماء الحديث فيها، واجتهدت أن تكون هذه الأحاديث من كتب الصحيح المعتمدة، وبيّنت معناها الإجمالي، ثم قمت بشرح بعض مفرداتها ثم ذكرت بعض مقاصدها، ثم بينت ما في كلّ حديث، موضوع الدراسة، من الجوانب البيانية، سائلا الله عزّ وجلّ العون والسداد. ولتكن البداية مع:

التمثيل الأول

نص الحديث الشريف

عن النّعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقتنا ولم يؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا." ¹

تخريج الحديث

المثل في أمثال الحديث للرامهرمزي ص 156. والحديث أخرجه البخاري في كتاب الشركة تحت رقم 2493. وأخرجه كذلك في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات تحت رقم 2686 بلفظ: " مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها ... " وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن [مع بعض التغيير في اللفظ] تحت رقم 2180. وأخرجه أحمد تحت أرقام 18277 / 18286 / 18324. بألفاظ مختلفة بعض الشيء. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب العتق باب إثبات استعمال القرعة تحت رقم 21410. وأخرجه ابن حبان تحت رقم 297 و 298. بألفاظ مختلفة وزيادات في الحديث. وفي شرح السنة للبخاري تحت رقم 4151. وهو عند الحميدي تحت رقم 946.

معاني مفردات الحديث بمختلف الروايات والألفاظ من كلام أهل اللغة وشرح الحديث. القائم على حدود الله: أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ¹ المراد بالحدود محارم الله وعقوباته التي قرنها بالذنوب، وأصل الحد المنع والفصل بين الشئيين. ² المدهن: أي المحابي والمدهن والمداهن واحد، والمراد به من يرأى ويضيع الحقوق ولا يغيّر المنكر. ³ والمداهنة والإدعان: المقاربة في الكلام والتلّين. ⁴ ومنه قوله عز وجل: " ودّوا لو تدهن فيدهنون." ⁵

¹ المباركفوري. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي. 6 / 394.

² ابن منظور. لسان العرب. مادة حدد. 02 / 800.

³ فتح الباري 5 / 348.

⁴ البخاري. شرح السنة. 14 / 343.

⁵ القلم / 09.

استهـموا: اقـترعوا، والسهم في الأصل واحد السهام التي يضرب بها في الميسر وهي القـداح، ثم سمي به ما يفوز به الفالج سهمه، ثم كثر حتى سمي كل نصيب سهما¹.
خرقنا في نصيبنا خرقا: الخرق هو الفرجة أو الشق في الحائط والثوب ونحوه².
ينقر: من النقر وهو الحفر سواء كان في الخشب أو الحجر أو نحوهما، ونقر الشيء ثقبه بالمنقار³.

أخذوا على أيديهم: أي منعوهم من النقر⁴.

شرح مجمل للحديث

هذا مثل، يُشبه فيه الرسول ﷺ حال الناس وموقفهم مما يكون في المجتمع من منكرات بحال قوم ركبوا سفينة، فاقـتسموا أماكنهم فيها بالقرعة، فكان الجزء الأعلى من السفينة من نصيب بعضهم، وكان الجزء السفلي من نصيب آخرين، ولما كان لا بدّ للمقيمين بالأسفل من الماء، فقد كانوا يصعدون لأعلى السفينة ليستقوا، ولما كان ممرهم على القاطنين بأعلى السفينة، فقد تأدّوا بهم؛ إذ ربّما أصابهم شيء من رشاش الماء أو ألقوا وقت راحتهم أو غير ذلك، ولما رأى القاطنون بالأسفل ذلك عزموا على أن ينقبوا في نصيبهم نقبا يحصلون منه على الماء دون الحاجة إلى إيذاء من فوقهم، ولم يعلموا أنّ هذا الخرق الصغير سيؤدي، إن تركوا، إلى هلاكهم بل هلاك الجميع.

وبيّن النبي ﷺ أنّ الأمر لا يخلو حينئذ من إحدى نتيجتين: إمّا أن يقوم القاطنون بأعلى السفينة بمنعهم فينجو الجميع من الغرق، وإمّا أن يتركوهم وما أرادوا بدعوى أن هذا نصيبهم يفعلون فيه ما يشاءون وحينئذ تنزل الكارثة على الجميع فيغرقوا.

كما يشير إلى أنّ هذا هو حال الناس في المجتمع، إذ لا يخلو أيّ مجتمع من بعض صور المنكر والفساد التي يقدم عليها ضعاف الإيمان، وقد يلتمس بعضهم لنفسه مبررا فيما يفعله؛ كأن يقول هذه حرية شخصية، وأنا حر في ملكي أفعل فيه ما أشاء، فإن أدّى صالحو الأمة وأهل الرشـد منهم واجبهم؛ فأنكروا المنكر، وأخذوا على أيدي الظالمين

¹ لسان العرب. مادة سهم. 03 / 2135.

² نفسه. مادة خرق. 02 / 1141.

³ نفسه. مادة نقر. 06 / 4518.

⁴ العيني. عمدة القاري بشرح البخاري. 13 / 375.

صلح المجتمع ونجا الجميع، أما إذا تقاعسوا عن أداء واجبهم، وغلبت كلمة المداهنيين، فالعقوبة نازلة بالجميع، وتلك سنة الله في الخلق. ولعل هذا ما جعل الحافظ ابن حجر يغلق على قوله ﷺ " أنجوه ونجّوا أنفسهم: " هو تفسير للرواية الماضية في الشركة حيث قال نجوا ونجّوا أي كلّ من الآخذين والمأخوذين، وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها.¹ ومصدق ذلك قوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.)² وقوله ﷺ: " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب."³

الدقة في اختيار ألفاظ الحديث بمختلف رواياته وألفاظه:

لما كان الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، وقد أوتي جوامع الكلم، فإن من سمات حديثه ﷺ الدقة واختيار اللفظ المناسب في موضعه بحيث لا ترى في كلامه " حرفا مضطربا ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتمّ منها أداء للمعنى وتأتيا لسره في الاستعمال."⁴

وإنّ هذا الأمر ليتجلى في اختياره ﷺ للألفاظ التي وصف بها أهل السفينة، فقد جاءت تلك الألفاظ مطابقة لحال الناس حتى فيما لا يتعلق تعلقا مباشرا بالقضية الرئيسة التي هي موضع عناية الحدي.

فمن ذلك مثلا قوله " استهموا " فإنه لو اكتفى بذكر ركوبهم في السفينة لما أضر ذلك بالمعنى المقصود وهو أهمية الأخذ على أيدي العابثين، لكن ذكر الإستهام ليدلّ على أنّ مواضع القوم في السفينة إنّما جاءت عن طريق الاستحقاق، ففي عرف الشرع أن القرعة عند الاحتياج إليها وسيلة من وسائل إقامة الحق وإشاعة العدل، وعليه فليس للمقيمين بالأسفل أن يبدوا امتعاضهم من كون نصيبهم قد جاء في أسفل السفينة، فكأنّ الحديث يشير إلى أن اقتسام الحظوظ في هذه الدنيا إنّما هو بعدل الله وحكمته، وعلى المرء أن

¹ فتح الباري. 5 / 345.

² الأنفال / 25.

³ أخرجه أبو داود 4338 والترمذي 2168 و 3057 وقال: حسن صحيح، وابن ماجه 4005 وابن حبان 304، 305 - إحصان، وأبو يعلى 128، 131 والطبراني في الأوسط 1886. كلهم من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

⁴ الرفاعي: مصطفى صادق.. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الكتاب العربي. بيروت. ص. 325.

يسعى ويجتهد ثم ليرضَ بعد ذلك بما قدره الله له من متاع هذه الحياة، وليس له إن قدر عليه رزقه أن يعترض على قدر الله، أو أن يبيح لنفسه ارتكاب ما حرم الله بدعوى أنه لما حرم ممّا أوتي غيره، فله أن يصل إلى ما وصلوا إليه ولو بالحرام.

وإذا كان قوله " استهموا " يشير كما قدّمت إلى أن الوضع في السفينة بدأ بالقسمة العادلة، فإنّ ذلك يعني أن محاولة الإفساد هي محاولة طارئة لا أصلية، وذلك يخدم قضية إيمانية أخرى، وهي أن الخيريّة هي الأصل في البشرية، وأن الشرّ فيها طارئ.

وفي الحديث أيضا أن تأذي المقيمين بالأعلى وتأقّفهم من مرور المقيمين بالأسفل عليهم كان من الأمور التي حملتهم على خرق السفينة؛ ففي رواية الترمذي " فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا."¹ وعند البخاري في كتاب الشهادات² " قال: تأذيتم بي ولا بدّ لي من الماء " وفي هذا إشارة إلى صنف من أرباب الجرائم لا يكون الواحد منهم شريرا بطبعه، أو قد يكون ممّن تتنازعه دوافع الخير ودوافع الشرّ، فربما رجّح جانب الشرّ عنده تصرف غير رشيد من بعض من حوله، وهذا وإن لم يكن مانعا من الأخذ على يديه ومنعه من فعل الشرّ، فإنّه يلفت النظر إلى خطورة ما قد يبدو من البعض من تصرفات متعمّدة أو غير متعمّدة تدفع غيرهم إلى الوقوع في المعاصي والذنوب، وعليه فالمؤمن الحق يحرص على أن يعين غيره على فعل الخير فإن لم يفعل فلا أقل من أن لا يكون دافعا له إلى الشر.

وفي قوله حكاية عن المقيمين بالأسفل:³ " لو أنّا خرقتنا في نصيبنا خرقتنا ولم يؤذ من فوقنا " إشارة إلى صنف من الناس يبرّرون ارتكابهم لما يخالف الشرع بنبل مقصدهم وسموّ هدفهم، والحديث يرد هذا التفكير السقيم؛ فهو يوضّح أنّه مهما تعلل أولئك القوم بأن مقصدهم من خرق السفينة هو دفع الأذى عن فوقهم فإنّ ذلك ليس مصححا لعملهم، ولا مانعا من اعتباره منكرا يجب تغييره. والله عزّ وجلّ لا يعبد إلا بما شرع، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وصائبا.

البحث البياني في الحديث

¹ الترمذي. سنن الترمذي. ص 635.

² البخاري. صحيح البخاري. ص 649.

³ صحيح البخاري. ص 116.

لا يخفى على المتعلم، ناهيك عن العالم، أن الرسول ﷺ هو أفصح البشر لسانا وأبلغهم بيانا، فقد كان كلامه كما قال الجاحظ: " هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ... فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الحوشي ورغب عن الهجين السوقي ... لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ".¹

ووصف الرافعي رحمه الله كلامه ﷺ من الناحية البيانية بأنه: " حسن المعرض، بين الجملة، واضح التفضيل، ظاهر الحدود، جيد الرّصف،² متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللّحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها، ولا ترى اضطرابا، ولا خطلا، ولا استعانة من عجز، ولا توسّعا من ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه".³

لهذا وغيره حقّ علينا أن نرصد الظواهر البيانية في هذا الحديث الشريف، لنحاول أن نكشف بحول الله عن بعض ما تضمّنه من جوانب البلاغة الراقية التي تعجز عن أن تدانيها فصاحة الفصحاء وبلاغة البلغاء. وقد اشتمل الحديث من الصور البيانية على ما يلي:

الاستعارة في قوله ﷺ: " القائم على حدود الله " وهي استعارة مكنية، شبهت فيها المعاصي بوهدة من الأرض محدودة بحدود وحولها رجال يحرسونها، ويمنعون الناس من الوقوع فيها، ثم حذف المشبه به وأتى بلازمة من لوازمه وهي الحدود. ومثله يمكن أن يقال في قوله ﷺ " الواقع فيها " فهو تعبير يوحي بمدى الهوة السحيقة التي يهوي إليها أصحاب المنكر المخالفين لأمر الله، ومدى خطورة الواجب الملقى على

¹ البيان والتبيين. تح جويدي. 44/2.

² الرصف: الشد والضم، والمعنى أن كلامه ﷺ حسن التركيب، قد ضمَّ بعضه إلى بعض بحكمة وإتقان.

³ الرافعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص: 325.

عائق المصلحين في الأمة فهم حراس الفضيلة القائمون على حدود بئر الرذيلة، مانعين الناس من التساقط فيها.

الكناية في قوله ﷺ: " أخذوا على أيديهم " فإن الأخذ على اليد كناية عن استعمال الشدة والقوة، والتعبير بـ " على " يفيد الاستعلاء والوقية، كما ذكر الحافظ ابن حجر في حديث: " انصر أخاك ظالما أو مظلوما¹ " حيث قال: " قوله، فقال تأخذ فوق يديه، كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكفّ بالقول، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة."²

التشبيه التمثيلي في قوله ﷺ: " مثل القائم على حدود الله ... " وهو تشبيه معقول محسوس؛ شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء.

ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد فإن مجتمع المداهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم.

ومن أجل هذا قلنا إن هذا التشبيه هو من نوع تشبيه التمثيل، وذلك جريا على اصطلاح جمهور البلاغيين الذين يرون أن التشبيه التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد.

وهذا الحديث، كما هو ظاهر، من روائع الكلم والصورة فيه من التشبيه المركب، والذهاب إلى التفريق فيه بعد.

¹ صحيح البخاري. كتاب المظالم رقم 2443 و2444 ص 103. وفي كتاب الإكراه رقم 6952 ص 305.

² فتح الباري 5 / 118.

التمثيل الثاني

نص الحديث الشريف

عن أبي عنبه، قال سريج وله صحبة، قال: قال ﷺ: " إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبد خيرا عَسَلَهُ. قِيلَ: وما عَسَلَهُ؟ قال: يفتح الله عزّ وجلّ عملا صالحا قبل موته ثم يقبض عليه."

تخريج الحديث

الحديث في مسند أحمد تحت رقم 17712 وبرواية قريبة تحت رقم 17151. وفي المستدرک للحاکم تحت رقم 1259. وفي المجازات النبویة للشريف الرضا ص 10. معاني مفردات الحديث بمختلف الروايات والألفاظ من كلام أهل اللغة وشراح الحديث. عسله: قال ابن الأعرابي: العسل: طيب الثناء، وفي حديث آخر " إذا أراد الله بعبد خيرا عَسَلَهُ في النَّاسِ." أي طيب ثناءه¹ وقال صاحب أساس البلاغة: " فلان معسول الكلام

¹ الغريبين في القرآن والحديث. 4 / 1276.

إذا كان حلوه، ومعسول الكلام إذا كان صادقها، ومنه قوله عليه السلام: " إذا أراد الله
بعبد خيرا عسله." أي وقفه للعمل الطيب.¹

شرح مجمل للحديث

هذا مثل عظيم يُشبه فيه الرسول ﷺ أثر أعمال المؤمن الصالحة وموقف الناس منها
بالعسل، وهو ما أشار إليه أبو بكر حين قال:² " هذا مثل، أي وقفه الله لعمل صالح يتحفه
به كما يتحف الرجل أخاه إذا أطعمه العسل."

الدقة في اختيار ألفاظ الحديث بمختلف رواياته وألفاظه:

في قوله عسله إشارة إلى تسديد خطوات المؤمن وتوفيقه إلى العمل الطيب من جهة،
وإلى دفاع الله عن المؤمن وذوده عن عرضه بجعله صاحب نسب في المؤمنين معروف،
تقول العرب: ما يعرف لفلان مضرب عسلة أي منصب ومنكح، وما ترك له مضرب
عسلة أي شتمه حتى هدم نسبه ونفى منصبه.³ ولعل هذا يظهر بوضوح في الرواية
الأخرى للحديث، وذلك حين قال: " إذا أراد الله بعبد خيرا عسله. قيل: وما عسله ؟ قال:
يحببه إلى جيرانه."

وفي قوله يفتح؛ دلالة على كرم الله وجوده على عبده المؤمن، فإذا كان من معاني
الفتح؛ النصر من الله.⁴ فيه إشارة إلى أن الله منجز وعده لعباده المؤمنين، فهو لا يقبض
روح عبده حتى يقيم عليه الحجة ويسوق بين يديه عملا صالحا.

وأخيرا قوله عملا صالحا يرضي؛ وقد بين الرسول ﷺ هذا العمل، بالزيادة المذكورة
في إحدى روايات الحديث حين قال: " إذا أراد الله بعبد خيرا عسله. وهل تدرون ما
عسله ؟ يفتح له عملا صالحا بين يدي موته حتى يرضى عنه جيرانه." وفي المجازات

¹ الزمخشري. أساس البلاغة. ص 420.

² الغريبين. 4 / 1276.

³ الأساس. ص 420.

⁴ الصحاح. 1 / 389. والأساس ص 462.

قال ﷺ: " إذا أراد الله بعبد خيرا عَسَلَهُ. قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا عَسَلَهُ؟ قال: يفتح له بين يدي موته عملا صالحا يُرضي حتى يرضى عنه من حوله." القيمة الجمالية لهذا المثل النبوي:

لقد زاد هذا التشبيه المعنى المراد وضوحا وجمالا؛ حيث جعل رسول الله ﷺ العسل، وهو المادّة العزيرة عند العرب وسيلة للإيضاح؛ ونشير هنا إلى أنه ﷺ استعمل طعام ابن آدم مثلا ليقاس عليه حال الدنيا ومتاعها ومآلها، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: " إنّ مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا بما خرج من ابن آدم، وإن قرّحه وملّحه فانظر ما يصير إليه."¹ وفي هذا إشارة إلى أنّ الإنسان مهما اعتنى بطبخ طعامه وأضاف إليه الكثير من المطيبات كالتوابل فمصير هذا الطعام أن يصبح قذارة يطرحها الجسم. الظواهر البيانيّة في الحديث

قال الرضا في المجازات: قوله عليه الصلاة والسلام: " عَسَلَهُ " وهو مأخوذ من العسل، كما يقول القائل: " عسلت الطعام " إذا جعل فيه عسلا، و" سمّنته " إذا جعل فيه سمناء، و" زيّته " إذا جعل فيه زيتا، ومعنى " عَسَلَهُ ": أي جعل عمله حلوا يحمدّه الصالحون، ويرضاه المتّقون، فيكون كالشيء المعسول الذي يسوغ في اللّهوات، ويلدّ على المذاقات.²

وهو عند الزمخشري تشبيهه، قال: " هو من عسل الطعام يعسله، إذا جعل فيه العسل؛ كأنه شبّه ما رزقه الله من العمل الصّالح الذي به طاب ذكره بين قومه بالعسل الذي يجعل في الطّعام فيحلّو به ويطيب."³

وقال في المجازات: " والمجاز الآخر: قوله عليه الصلاة والسلام: " بين يدي موته " ولا يد للموت على الحقيقة، ولكنّها كناية عن الشيء الواقع أمام الشيء المتوقّع، وقد تكلمنا على هذا المعنى في كتاب " مجازات القرآن " عند قوله سبحانه في البقرة: (

¹ بلبان. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. 2 / 496. الحديث تحت رقم 702.

² الشريف الرضا. مجازات النبوة. ص 37.

³ الفائق في غريب الحديث. 2 / 429.

فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها.)¹ وعند قوله تعالى في سبأ: ² (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.)³ وذلك كما تقول لمن يسأل عن أحد بالعشيرة وهو سالك طريق وسائل عن رفيق: " ها هو ذا بين يديك " أي قد تقدّمك، ولا يقال ذلك إلا فيما إذا كنت وراءه، وهو أمامك، لا فيما كنت أمامه وهو وراءك، وكلّ ذلك إنّما يراد به، في الأكثر، تقريب الشيء من الإنسان ..."⁴

التمثيل الثالث

نص الحديث الشريف

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جبّان من حديد قد اضطرّت أيديهما إلى تديهما وتراقبيهما، فجعل المتصدّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما همّ بصدقة قلصت وأخذت كلّ حلقة بمكانها، قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيبه، فلو رأيتّه يوسّعها ولا تتوسّع."⁵ 5010

تخرج الحديث

المثل في كتاب أمثال الحديث للرامهرمزي ص 181. وكتاب الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ الاصبهاني ص 195 - 196. والمثل حديث شريف أخرجه البخاري في صحيحه بطرق مختلفة وروايات متقاربة ص 713 رقم 2917. وانظر ص 343 رقم 1443. و ص 1362 رقم 5299. و ص 1480 رقم 5797. وأخرجه مسلم في صحيحه بطرق مختلفة هو الآخر ص 464 رقم 2249. رقم 2248 ورقم 2250. معاني مفردات الحديث بمختلف الروايات والألفاظ من كلام أهل اللغة وشرح الحديث.

¹ البقرة / 66.

² سبأ / 46.

³ الشريف الرضا. تلخيص البيان في مجازات القرآن. ص 32 و ص 248.

⁴ الشريف الرضا. مجازات النبوة. ص 37 - 38.

⁵ صحيح البخاري. ص 1480 رقم 5797. وللحديث طرق أخرى بروايات متقاربة انظر ص 713 رقم 2917. وانظر ص 343

رقم 1443. و ص 1362 رقم 5299.

تعفو أثره: وفي رواية يقفو أثره: أي يمحو أثره بسوغها وكمالها.¹
قلصت: في صفة البخيل أي انقبضت.²

شرح مجمل الحديث

ذكر القاضي عياض أنّ هذا الحديث برواية مسلم " مثل المنفق والمتصدق كمثل رجل عليه جبتان أو جبتان. " قد وقعت فيه أوهام كثيرة من الرواة وتصحيف وتحريف وتقديم وتأخير، فمنه مثل المنفق والمتصدق، ومنه: كمثل رجل وصوابه رجلين عليهما جبتان، ومنه قوله: جبتان أو جبتان بالشك والصواب جبتان بلا شك.³ أما بقية الروايات فهي متقاربة. وهو كما قال النووي: " تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق والبخل بضد ذلك."⁴

وقال الخطابي في شرحه للحديث وتبيين مقاصده: " هذا مثل ضربه ﷺ للجواد والبخيل وشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعا يستجن بها، والدرع أول ما يلبس إنما يقع على موضع الصدر والتدين إلى أن يسلك لابسها يديه في كمّيه، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمرّ سفلا، فجعل النبي ﷺ مثل المنفق مثل من لبس درعا سابعة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وحصنته، وجعل البخيل كرجل يدها مغلولتان ما بين دون صدره فإذا أراد لبس الدرّع حالت يدها بينها وبين أن تمرّ سفلا على البدن، واجتمعت في عنقه ولزمت ترقوته، فكانت ثقلا ووبالا عليه من غير وقاية له وتحصين لبدنه، وحاصله أنّ الجواد إذا همّ بالنفقة اتسع لذلك صدره وطاوعت يدها فامتدّتا بالعطاء، وأنّ البخيل يضيق صدره وتنقبض يده عن الإنفاق. وقيل ضرب المثل بهما لأنّ المنفق يستره الله بنفقته ويستتر عوراته في الدنيا والآخرة كستر هذه الجبة

¹ عياض. إكمال المعلم. 3 / 546.

² نفسه. 3 / 546.

³ القاضي عياض. السابق. 3 / 545.

⁴ النووي. المنهاج. 7 / 109.

لابسها، والبخيل كمن لبس جبّة إلى ثدييه، فيبقى مكشوفاً ظاهر العورة مفتوحاً في الدارين.¹

الدراسة البيانيّة

الصورة البيانيّة الظاهرة في هذا الحديث هي التشبيه؛ وهو تشبيه مفرق، قال الطيّبي: " والأسلوب من التشبيه المفرق، شبه السخيّ الموفق إذا قصد التصدّق يسهل عليه ويطاوعه قلبه بمن عليه الدّرع ويده تحت الدّرع، فإذا أراد أن يخرجها منها وينزعها يسهل عليه، والبخيل على عكسه."²

وقال المهلب: المراد أنّ الله يسرّ المنفق في الدّنيا وفي الآخرة، بخلاف البخيل فإنّه يفضحه، ومعنى تعفو أثره تمحو خطاياها، واعترض عليه القاضي عياض بأنّ الخبر جاء على التّمثيل لا على الإخبار عن كائن، وقيل هو تمثيل لنماء المال بالصدّقة والبخل بضدّه. وقيل تمثيل لكثرة الجود والبخل، وأنّ المعطي إذا أعطى انبسطت يداها بالعطاء، وتعود ذلك، فإذا أمسك صار ذلك عادة.³

¹ العيني 8 / 445.

² الطيّبي. الكاشف عن حقائق السنن. 10 / 1525.

³ العيني 8 / 445.

التمثيل الرابع

نصّ الحديث

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " مثل أمّتي مثل المطر، لا يدرى أوّله خير أم آخره."

تخريج الحديث

المثل في كتاب أمثال الحديث للرامهرمزي ص 164. وكتاب الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ الاصبهاني ص 245. والمثل حديث في سنن الترمذي ص 814 رقم 2878. وفي مسند أحمد 10 / 465 رقم 12400. وعند ابن حبان 16 / 210. رقم 7226. وفي مسند الطياليسي 2 / 38 رقم 682. وفي مسند الشهاب للقضاعي ص 2 / 276 رقم 1349. واللفظ للترمذي وعند أحمد وابن حبان [أو] بدلا من [أم].

من مقاصد الآيات

أثار هذا الحديث اعتراض بعض العلماء، ولهم فيه أقوال، ويرونه يتعارض في مضمونه مع بعض النصوص الصحيحة؛ قال تعالى " لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة " وقال ﷺ لخالد بن الوليد عن عبد الرحمن بن عوف: " لو أنفق أحدكم كلّ يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ من أحدهم...".

وقد تعرّض أبو بكر بن العربي له بالشرح أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذى؛ فبيّن أنّ الصحابة أهل فضل وسبق على الذين جاؤوا من بعدهم، " وإلّا وجه الحديث على الاختصار أنّ معظم مقاصد الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ القانون الذي تقوم به رياسة الدين لسياسة العالمين فرض دائم إلى يوم القيامة وتكثر المناكر في آخر الزّمان ويقلّ المغيرون لها، ويذهب المعروف ويعدم الدّاعي إليه والأمر به، فإذا قام واحد بهذا أو من كان فله أضعاف ما كان للصحابة من الأجر في هذه

الخصلة وحدها ويفضلون الخلق بسائر الخصال العظيمة التي نظامها الصّحبة الكريمة ومشاهدة الغرّة الزاهرة وتلقي الأخلاق الطاهرة، فهذا إن صحّ وجهه ويشهد له قوله المتمسك بدينه عند فساد الناس كالقابض على الجمر.¹ ومثله قوله ﷺ: " أبشروا وأبشروا، إنّما مثل أمّتي مثل الغيث، لا يدرى آخره خير أم أوله، أو كحديقة أطعم منها فوج عاماء، ثم أطعم منها فوج عاماء، لعلّ آخرها فوجاً أن يكون أعرضها عرضاً، وأعمقها عمقاً، وأحسنها حسناً."

الدراسة البيانيّة

في هذا التمثيل تشبيه تامّ، حيث شبّه الرسول ﷺ أمّته بالمطر الذي ينزل من السماء، فكما لا يعلم آخر المطر خير أم أوله فكذلك الخيريّة في الأمة لا تزول إلى يوم القيامة، قال الطيّبي: " وتمثيل الأمة بالمطر إنّما يكون بالهدى والعلم كما أنّ تمثيله ﷺ الغيث بالهدى والعلم، فتختصّ هذه الأمة المشبّهة بالمطر بالعلماء الكاملين منهم المكملين لغيرهم فيستدعي هذا التفسير أو يراد بالخير النّفع فلا يلزم من هذا المساواة في الأفضليّة، ولو ذهب إلى الخيريّة فالمراد وصف الأمة قاطبة سابقها ولاحقها وأولها وآخرها بالخير، وأنها ملتحمة بعضها مع بعض، مرصوفة بالبنين، مفرغة كالحلقة التي لا يدرى أين طرفاها.²"

ومعنى هذا، على ما يقول الطيّبي، أنّ كميّة صفة أمّتي مشبّهة بكيفيتي المطر والحديقة، وأنهما سواء في استقلال كلّ منهما بوجه التمثيل، فبأيّهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك، فإن قلت: أيّ فرق بين التمثيلين؟ قلت: شبهت في التمثيل الأوّل بالمطر في نفع النّاس بالهدى والعلم، وفي الثاني بالاستنفاع من علم الرسول ﷺ وهداه في إنباته الكلاً والعشب الكثير وحصول الأخذ ثم انتفاع النّاس منهما بالرّعي والسّقي، والمعني بالفوج الذي أطعم من الحديقة عاماء."

¹ ابن العربي. عارضة الأحوذى. 10 / 317. 318.

² المباركفوري. تحفة الأحوذى بشرح الترمذى. 8 / 171.

التمثيل الخامس

نصّ الحديث

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هذا حين حمي الوطيس."

تخريج الحديث

ذكر هذا المثل عند الميداني في مجمع الأمثال 2 / 122، وابن دريد في المجتبي؛ باب ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع من غيره قبله ص 13. والجاحظ في كتابه البيان والتبيين عند ذكر " كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا لم يسبقه إليه عربي ولم يشاركه فيه عجمي ولم يدّع لأحد ولا ادّعاه أحد، ممّا صار مستعملاً ومثلاً سائراً."¹ وذكره الشريف الرضا في المجازات النبويّة ص 26. وهو جزء من حديث العباس بن عبد المطلب الصحيح في عزوة حنين، أخرجه مسلم في صحيح ص 897 ورقمه 4504، والإمام أحمد في مسنده 382 / 1 ورقمه 1775.

شرح مفردات الحديث

الوطيس: قال في الأساس: " حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب، وتواطست الأمواج: تلاطمت."²

وقال ابن فارس: " الوطيس: التثور، منه لأنه كالهزم في الأرض، ويعبّر به عن الأمر الشديد."³

وجاء في المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث: " هذا من أفصح الكلام، يعبّر به عن اشتباك الحرب، وقيامها على ساق. والوطيس: شبه التثور. وقيل الضراب في الحرب. وقال ابن الأعرابي: الوطيس: الوطء الذي يطس الناس؛ أي يدقهم. وأصل الوطس: الوطء، ووطسته: كسرتة. وقيل: هو التثور بعينه. وقيل جمع واحدته: وطيسة. وقال طس الشيء؛ أي احم الحجارة وضعها عليه. وقال الأصمعي: هو حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد الوطء عليها."⁴

¹ الجاحظ. البيان والتبيين. تح جويدي. 2 / 244.

² الزمخشري: أساس البلاغة. ص 681

³ ابن فارس. مقاييس اللغة. 6 / 122.

⁴ المدني الاصفهاني. المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث. 3 / 431.

وجاء في المجازات النبويّة: " الوطيس؛ في كلامهم حفيرة تحتفر فيوقد فيها النار للاشتواء، وتجمع على وطس [بضم الواو] فإن احتفرت للاختبار فهي إرة [بكسر الهمزة] وتجمع على إرين، ولا وطيس هناك على الحقيقة، وإنما المراد ما ذكرنا من حرّ القراع، وشدة المصاع، والتفاف الأبطال، واختلاط الرجال.¹"
شرح معاني الحديث

من المفيد أن أشير في بداية الحديث عن هذا المثل أنه ورد في كتب كصحيح مسلم ومسند الإمام كالتالي: " هذا حين حمي الوطيس." وورد في كتب الأمثال كالمجتبى بلفظ " حمي الوطيس " بينما جاء في كتب الغريب كالفائق، ومعجم اللغة كلسان العرب؛² كما يلي " الآن حمي الوطيس." وفي كتب الأمثال كمجمع الأمثال بلفظ " قد حمي الوطيس."

ولما كان الغرض من دراستنا هو الحديث الشريف، فسنتناوله في نصّه الوارد في كتب الحديث، مع التنبيه إلى ما قاله الشريف الرضا وهو أنّ " هذه اللفظة الأغلب عليها أنها من جملة الأمثال من كلامه عليه الصلاة والسلام."³

صدر هذا الحديث عن رسول الله ﷺ يوم حنين لما رأى صبر القوم وثباتهم في الحرب يوم حنين، " وهي كلمة لم تسمع إلا منه، وهو من فصيح الكلام عبّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق."⁴

للوطيس في كلام العرب دلالات مختلفة، ذكرنا بعضها في شرح مفردات الحديث، غير كلّ الذين ذكروا هذا المثل أكدوا على أنّه من كلامه ﷺ الذي لم يسبقه إليه أحد، وهي شهادة على إسهامه ﷺ الكبير في إثراء العربيّة.

ومعنى المثل على ما ذكره الرضا في المجازات أنّ قوله ﷺ:⁵ " الآن حمي الوطيس؛ وهو يعني حمس الحرب، وعظم الخطب... ولا وطيس هناك على الحقيقة، وإنما المراد

1 الرضا. المجازات النبويّة. ص 26.

2 لسان العرب. مادة وطس. 6 / 4866.

3 الرضا. السابق. ص 26.

4 لسان العرب. مادة وطس. 6 / 4866.

5 الرضا. المجازات النبويّة. ص 26.

ما ذكرنا من حر القراع، وشدة المصاع، والتفاف الأبطال، واختلاط الرجال، ومن هنا قالت العرب: " أوقدت نار الحرب بين آل فلان وآل فلان " وقال الله سبحانه مخرجا للكلام على مطارح لسانهم ومعارف أوضاعهم: (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله.)¹ وهو المعنى الذي شرح به كلام الإمام عليّ ؑ " الآن حين حمي الوطيس " أي حمي الضراب وجدّت الحرب واشتدّت.²

كلّ ما تقدّم يفيد أنّ الكلمة عربيّة فصيحة واستعمال العرب في السياق غير مألوف، وكان ؑ أول من استعملها في هذا الموطن، فكان له بهذا فضل سبق، ولذلك أكد الذين نقلوا العبارة من علماء اللغة على فصاحتها.

الدراسة البيانيّة

لا يختلف هذا الحديث عن غيره من كلام رسول الله ﷺ الحافل بمختلف الصور البيانيّة، وإن كان معظم دارسي الحديث من جانبه البلاغي يستشهدون به في باب الكناية في الحديث الشريف ومنهم

قال الشريف الرضا عن قوله ﷺ: " الآن حمي الوطيس " ... مجاز. " ثم قال بعد هذا الكلام: " وتشبيه الحرب بالنار يكون من وجهين؛ أحدهما: لحرّ مواقع السيوف، وكرب ملابس الدروع، وحمي المعترك؛ لشدة العراك، وكثرة الحركات. والوجه الآخر: أن يكون إنّما شبّهت بالنار؛ لأنّها تأكل رجالها، وتقني أبطالها، كما تأكل النار شُعْلها، وتحرق حطبها.³

وعلق الطيّبي على هذا الكلام بالقول: " ولم يسمع هذا الكلام من أحد قبل النبيّ ﷺ وهو من فصيح الكلام عبّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق.⁴ " وغير بعيد من هذا يذكر حديث البراء بن عازب: كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به، وإنّ الشجاع ممّا للذي يحاذيه، يعني النبيّ ﷺ. ويعلق عليه قائلا: " واحمرار البأس كناية عن اشتداد

¹ المائدة / من الآية 66.

² ابن منظور. لسان العرب. مادّة وطس. 6 / 4866.

³ الرضا. السابق. ص 26.

⁴ الطيّبي. الكاشف. 12 / 3769.

الحرب، فاستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة، أو لاستعار نار الحرب واشتعالها كما في الحديث السابق حمي الوطيس.¹

التمثيل السادس

نص الحديث

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " ارفق يا أنجشة، ويحك، بالقوارير."

تخريج الحديث

هذا المثل ذكره الشريف الرضا في المجازات النبوية ص 15. و أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني في كتابه المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء. ص 06. وهو حديث أخرجه البخاري ص 1570. رقم 6209، وص 1556 رقم 6149. وأخرجه مسلم بروايات مختلفة ص 1189 - 1190 وأرقام الأحاديث 5930 - 5931 - 5132 - 5133 - 5134 - 5135.

¹ نفسه. 12 / 3771.

شرح مفردات الحديث

ويحك: كلمة ترحم وتوجّع، تقال لمن يقع في أمر لا يستحقّه. قال الأزهري: وقد قال أكثر أهل اللغة؛ إنّ الويل كلمة تقال لمن وقع في هلكة أو بليّة لا يترحمّ عليه معها وويح تقال لمن وقع في بليّة يرثى له ويدعى له بالتخلّص منها.¹

القوارير: جمع قارورة، من الرّجاج، سمّيت بها لاستقرار الشراب فيها. وقال أبو عمرو: القوارى واحدها قارية طير خضر، وهي التي تدعى القوارير.²

شرح معاني الحديث

اختلف هنا أيضا في نص هذا الحديث بين علماء الحديث وعلماء الأدب واللغة؛ فقد جاء في صحيح البخاري بلفظ " ارفق يا أنجشة، ويحك، بالقوارير." ³ وفي رواية ثانية قال: أتى النبي ﷺ على بعض نساءه ومعهنّ أمّ سليم، فقال: " ويحك يا أنجشة رويدك سوقا بالقوارير." قال أبو قلابة: فتكلم النبي ﷺ بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه، قوله: سوقك بالقوارير.⁴ وروايات مسلم على اختلافها تطابق روايات البخاري ولا تطابق رواية علماء الأدب واللغة. وقد جاء في كتابي الشريف الرضا والقاضي أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني بلفظ " يا أنجشة رفا بالقوارير " ⁵

الدراسة البيانيّة

لا يختلف هذا الحديث هو الآخر عن غيره من كلام رسول الله ﷺ الحافل بمختلف الصور البيانيّة، وإن كان معظم دارسي الحديث من جانبه البلاغي يستشهدون به في باب الكناية في الحديث الشريف ومنهم القاضي أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني صاحب كتاب " المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء " وعقد فيه بابا للكنايات الواردة في القرآن والآثار، وذكر فيه بعض كنايات الحديث النبوي ومنها قوله: " وكان يكّي " بالقوارير كما روى أنّه مرّ ﷺ بأنجشة وهو يحدو بنساء العرب وكان حسن الصّوت

¹ الأزهري: محمد بن أحمد، أبو منصور. تحذیب اللغة. الدار المصرية للتأليف والترجمة. تح عبد السلام هارون. د ت. 5 / 295..

² نفسه. 9 / 279..

³ البخاري ص 1570. رقم 6209. وذكره الشريف الرضا في المجازات النبوية ص 15.

⁴ البخاري ص 1556. رقم 6149.

⁵ الشريف الرضا. المجازات النبوية ص 15 و الجرجاني. المنتخب من كنايات الأدباء. ص 07.

فقال: يا أنجشة رفقا بالقوارير، قال ابن دريد أي لا تحسن صوتك فإن النساء قلوبهن في رقة القوارير.

وقال الرامهرمزي: " فكئى عن ذكر النساء بالقوارير شبّهن بها لرقتهن وضعفهن عن الحركة."¹ ثم قال بعد ذلك: " وهذا قول أكثر العلماء أعني أنه كئى بالقوارير عن ذكر النساء وهو قول أبي عبيدة."²

وقال ابن الأثير: " قول النبي ﷺ: رويدك سوقك بالقوارير. يريد بذلك النساء، فكئى عنهن بالقوارير، وذلك أنه كان في بعض أسفاره وغلّام أسود يقال له أنجشة يحدو، فقال له: يا أنجشة، رويدك سوقك بالقوارير. وهذه كناية لطيفة."³

ويبقى ما ذكره العلوي في تبيين الكناية الموجودة في الحديث، في تقديري، من أحسن ما فسّر به الحديث، قال: " فهذه كناية لطيفة، وإنما كئى عنهن بالقوارير لأمر ثلاثة؛ أمّا أوّلا فلما هنّ عليه من حفظ الأجنّة، والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها، وأمّا ثانيا فالاختصاصهنّ بالصّفاء والصّقالّة، والحسن والنّضارة، وأمّا ثالثا فلما فيهنّ من الرّقة والمسارعة إلى التغيّر والانثلام، كما يتسارع الانكسار إلى القارورة لرقتهنّ، وهذا الوجه هو الذي يومئ إليه كلام الرسول ﷺ."⁴

أمّا الشريف الرّضا فيرى أنّ الصورة البيانيّة في الحديث هي الإستعارة، قال الشريف الرّضا: " وهذه استعارة عجيبة؛ لأنّه عليه الصّلاة والسّلام شبّه النساء، في ضعف النّحائز ووهن الغرائز، بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف، ويصدعها اللطيف، فهى عن أن يسمعن ذلك الحادي ما يحرك مواضع الصبوة، وينقض معاهد العفة."⁵

وقال الطيّبي: " القوارير استعارة لأنّ المشبّه غير مذكور، والقريضة حالية لا مقاليّة، والكسر ترشيح لها، ولما كانت الإستعارة مسبوقه بالتشبيه: قال شبّههن ..."⁶

¹ الرامهرمزي. أمثال الحديث النبوي. ص 193.

² نفسه. ص 194.

³ ابن الأثير. المثل السائر. 2 / 192.

⁴ العلوي. الطراز. 1 / 407.

⁵ الشريف الرضا. المجازات النبوية ص 15.

⁶ الطيّبي. الكاشف عن حقائق السنن. 10 / 3109.

وعن قول أبي قلابة [اسم التابعي الذي روى الحديث عن أنس]: تكلم النبي ﷺ بكلمة، هي سوق القوارير، لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه، قوله: سوقك بالقوارير، قال الكرمانى: " فإن قلت هذه استعارة لطيفة بليغة فلم تعاب ؟ قلت: لعله نظر إلى أنّ شرط الاستعارة أن يكون وجه الشبه جليًا بين الأقسام وليس بين القارورة والمرأة وجه الشبه ظاهراً، والحق أنّه كلام في غاية الحسن والسلامة عن العيوب ولا يلزم في الإستعارة أن يكون جلاء الوجه من حيث ذاتها بل يكفي الجلاء الحاصل من القرائن الجاعلة للوجه ظاهراً كما في المبحث، ويحتمل أن قصد أبي قلابة أنّ هذه الإستعارة تحسن من مثل رسول الله ﷺ في البلاغة، ولو صدرت ممّن لا بلاغة له لعبتموها، وهذا هو اللائق بمنصب أبي قلابة."¹

التمثيل السّابع

نص الحديث

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: " إياكم وخضراء الدّمن فقيل وما خضراء الدّمن، قال: المرأة الحسناء في منبت السّوء."²

تخريج الحديث

هذا المثل ذكره الرامهرمزي في الأمثال ص 188، وأبو عبيد في الأمثال ص 14. وابن دريد في المجتئى. ص 15. والقاضي الجرجاني في كتابه المنتخب من كنيات الأدباء وإشارات البلغاء ص 138. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب. 96 / 2.

شرح مفردات الحديث

الدمن: الدّمن جمع دمنة: وهي ما تدمّنه الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها: أي تلبدّه في مرابضها، فربّما نبت فيها الثّبات الحسن التّظير.² وقال الأصمعي: الدّمن ما سوّدوا من آثار البقر.³

شرح معاني الحديث

¹ عمدة القاري. 22 / 290.

² ابن الأثير الجزري. النهاية في غريب الحديث والأثر. 2 / 134.

³ الأزهرى. تهذيب اللغة. 14 / 146.

يحدّر الرسول ﷺ في هذا الحديث المقبل على الزواج من أن يتزوَّج ممّن كئى عنها بخضراء الدّمن، وهي المرأة الجميلة في المنبت السيئ، وكئى عنها النبيّ ﷺ بهذه الصّفة لما فيه من المناسبة للحقيقة والواقع، لأنّ أوّل عشرتها يكون حسنا ثم لا تلبث طويلا وتعود إلى أصلها وهو الفساد والرّداءة مثلها في ذلك مثل زرع المزابل؛ يعجبك مظهره أوّل الأمر ثمّ يذبل ويجفّ ويزول على القرب.

لذلك قال أبو عبيد: " أراد فساد النّسب إذا خيف أن تكون لغير رشدة، وإثما جعلها خضراء الدّمن تشبيها بالبقلة الناضرة في دمنة البعر، وأصل الدّمن ما تدمّنه الإبل والغنم من أبعارها وأبوالها، فلمّا نبت فيها الثّبات الحسن وأصله في دمنة، يقول: فمنظرها أنيق حسن."¹

وقال العاملي في المخلاة " قال بعضهم يريد كراهية الحسناء في المنبت السيء وتفسير ذلك أنّ الريح تجمع الدّمن وهو البعر في البقعة من الأرض ثم يركبه الساقى فإذا أصابه المطر نبت نباتا غضا يهتّر وتحتة الدّمن الخبيثة، يقول فلا تنكحوا هذه المرأة لجمالها ومنبتها خبيث كالدمن فإنّ أعراق السيء تنزع أولادها."² قال زفر بن الحارث:³

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفس كما هيا

الدراسة البيانية

الصّورة البيانية الموجودة في الحديث هي التّشبيه، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس الذي ورد لأجل الاشتراك في وصف معقول، فالشّبه في الحديث مأخوذ للمرأة من الثّبات، وهما محسوسان، غير أنّ وجه المشابهة؛ هو مقارنة الحسن الظاهر للقبح الباطن، وهو أمر عقليّ.

بينما يميل العلوي إلى القول بأنّ الصورة الموجودة في الحديث هي كناية وذلك في قوله: " وكئى بقوله خضراء الدّمن عن المرأة الحسناء في المنبت السيء، وإثما كئى بذلك عنها، لما فيه من المناسبة لأمرين؛ أمّا أوّلا فلأنّ أوّل عشرتها يكون حسنا موافقا موافقا، ومن بعد ذلك تعود إلى الفساد والرّداءة، كزرع المزابل، فإنّه يعجب أوّلا ثم يذبل ويجفّ

¹ الأزهرى: نفسه. 14 / 146.

² العاملي: محمد بن حسين، بحاء الدين. للمخلاة. طبع بالمطبعة الميمنية. مصر. ص 208. وانظر ابن دريد في المحتجى. ص 15. 16.

³ الجرجاني. المنتخب من كنايات الأدباء. ص 138.

ويزول على القرب، وأما ثانياً فلأنّ غضارتها ورونقها أيّاماً قليلة، وعن قريب وقد صارت مقحلة ذات ذبول.¹

التمثيل الثامن

نص الحديث

قال ﷺ: " لا يضع العصا عن كتفه."

تخريج الحديث

ذكره بهذا اللفظ العلوي في الطراز، ومعناه في بعض حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: " أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات " وذكر الحديث وفي آخره: " وأنفق على عيالك، من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأخفهم في الله." أخرجه أحمد في مسنده 16 / 188 رقم 21974. وذكره الشريف الرضا في المجازات النبويّة بلفظ: " لا ترفع عصاك عن أهلك." ص 194. وبهذا اللفظ ذكره الهروي في الغريبين 04 / 1288. والهندي في كنز العمال 16 / 380 رقم 44996 وعزاه للعسكري في الأمثال. وأبو عبيد في غريب الحديث 3 / 359. وفي حديث مسلم أنه ﷺ قال لفاطمة بنت قيس وقد أنته تستأذنه لمّا خطبها أبو جهم: " أمّا أبو جهم لا يضع عصاه عن عاتقه." ص 710 رقم 3588. وعند الترمذي قال ﷺ: " أمّا أبو جهم لا يرفع عصاه عن النساء." ص 345 رقم 1137. من مقاصد الحديث

ذكر غالبية الذين تعرّضوا لهذا الحديث بالشرح أنّ مقاصده لا تخرج عن أحد مقصدين هما؛ دعوته ﷺ ربّ الأسرة إلى المواظبة على رعايتهم وتأديبهم دون الغفلة عن ذلك، وأشاروا إلى أنّ المقصود ليس الضرب بالعصا على الحقيقة بل هو مجاز، قال الكسائي وغيره: إنّ لم يرد بها العصا التي يضرب بها، ولا أمر أحدا قطّ بذلك، ولكنّه أراد الأدب.² وذكر صاحب المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث حديث مسلم عندما جاءت فاطمة بنت قيس تستأذنه لمّا خطبها أبو جهم فقال لها: " إمّا أبو جهم لا

¹ العلوي. الطراز. 1 / 410.

² الهروي: القاسم بن سلام، أبو عبيد. غريب الحديث. تح د حسين محمد محمد شرف. الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة.

1984. 3 / 359.

يضع عصاه عن عاتقه." قال صاحب الجموع: " قيل: إنه أراد أنه يؤدّب أهله."¹
والمقصد الثاني هو الترغيب في وحدة الصفّ واجتماع الكلمة من قولهم: " فلان قد شقّ
عصا المسلمين." إذا فرّق جماعتهم وبّدّ ألفتهم. ومنه قول صِلَة بن أشيم رضي الله عنه لأبي
السليل:² " إيّاك وقتيل العصا." يقول: إيّاك أن تكون قاتلا أو مقتولا في شقّ عصا
المسلمين."³

الدراسة البيانيّة

قال ابن أبي الأصعب المصري: " وفي السنّة من الكناية ما لا يكاد يحصى كقوله رضي الله عنه:
" لا يضع العصا عن كتفه." كناية عن كثرة الضرب أو كثرة السّفْرِ.⁴
وقال الطيّبي: " وقوله: لا ترفع عنهم عصاك، وأخفهم في الله " كنايةتان عن تأديبهم
وإنذارهم."⁵

كما أشار الشريف الرّضا في كتابه المجازات النّبويّة إلى أسلوب الكناية في الحديث
وذلك عندما قال: " وهذا القول مجازٌ على أكثر الأقوال؛ وذلك أنّه عليه الصلاة والسلام
لم يرد الضرب بالعصا على الحقيقة؛ لأنّ ذلك مكروه عنده، ومذموم فاعله، ألا تراه عليه
الصلاة والسلام يوصي أمّته بأن يرفقوا بمن ملكت أيمانهم حنّوا عليهم، ورأفة بهم،
ونظرا إليهم، فكيف بالأحرار من الأهل والولد الذين حقّهم أوجب، والحنوّ عليهم أولى؟
وإنّما المراد: لا ترفع التأديب عنهم، ولا تغب التقويم لهم، فكئى عن ذلك بـ " العصا "
حملا للكلام على عرف العرب؛ لأنّ المتعارف بينها على أنّ التّأديب في الأكثر لا يكون
إلا بقرع العصا."⁶

وذكر الكناية في الحديث الخطّابي في كتابه غريب الحديث عند شرح قوله رضي الله عنه:
" إنّ أبا جهم لا يضع عصاه عن عاتقه." " وفيه وجه آخر؛ وهو أن يكون أراد بهذا القول
كثرة أسفاره ودوام غيبته عن أهله، يقول: لا حظّ لك في صحبتته، لأنّه يكثر الظعن ويقلّ

¹ الأصفهاني. المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث. 2 / 464.

² الزمخشري. الفائق. 02 / 440.

³ الشريف الرضا. مجازات النّبوة. ص 194.

⁴ ابن أبي الأصعب. تحرير التحبير. ص 144.

⁵ الطيّبي. الكاشف عن حقائق السنن. 2 / 515.

⁶ الشريف الرضا. السابق. ص 194.

المقام، كُنِيَ بالعصا عن نوى السّفَر، يقال: رفع فلان عصا السّفَر إذا سافر، وألقى عصاه إذا أقام.¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث تحليل ودراسة بيانية لبعض تمثيلات العهدين القديم والجديد
أولا / من تمثيلات العهد القديم
التمثيل الأوّل

¹ الخطابي. غريب الحديث. 1 / 97.

جاء في العهد القديم: " خلصني يا الله لأنّ المياه قد دخلت إلى نفسي."¹ وقد أشار الدكتور سيّد سليمان عليان في كتابه أمثال وأقوال في حياة اليهود إلى أنّه يستعمل عند اليهود كالتالي: " فاض به الكيل، بلغ السيل الرّبي."²

من مقاصد التمثيل

شرح الدكتور عليان هذا المثل فقال: " يفيد المعنى الحرفي لهذا المثل أنّ الماء وصلت لموضع التّنفس، فلم يعد الشّخص قادرا على إخراج أنفاسه."³ وأشار إلى أنّ هذا المثل مذکور بفعل آخر من العهد القديم وهو المذكور في سفر يونان كالتالي: " قد اكتنفتني مياه إلى النفس أحاط بي غمر التّفّ عشب البحر براسي."⁴

والمقطع الثاني من المثل " بلغ السيل الرّبي من أمثل العرب" وهو مثل تضربه العرب لما يجاوز الحدّ.

بعد هذا تأمل كيف عبّر القرآن الكريم عن حالة الضيق والضجر المذكورة هنا، بالصعود في السّماء ممّا يسبّب لصاحبه ضيقا في التّنفس وهو من بديع الوصف، قال تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السّماء كذلك يجعل الرّجس على الذين لا يؤمنون.)⁵

قال المراغي بعد تفسيره للآية: " إنّ الله ضرب مثلا لضيق النّفس المعنوي، يجده من دعي إلى الحقّ وقد أُلّف الباطل وركن إليه، بضيق التّنفس الذي يجد من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجوّ حتّى لقد يشعر بأنّه أشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجوّ إلى طبقات أسفل."⁷

الدراسة البيانيّة

¹ سفر المزامير 69 / 01.

² عليان: د سيد سليمان. أمثال وأقوال في حياة اليهود. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط 01. 1997. ص 29.

³ نفسه. ص 29.

⁴ سفر يونان 02 / 06.

⁵ الميداني. مجمع الأمثال 1 / 118. وكتاب الأمثال للمؤرج. ص 40.

⁶ الأنعام / 126.

⁷ تفسير المراغي. 8 / 25.

ذكر عليان أنّ المثل يدلّ على " كناية عن الضيق والحنق." ¹ وهي ظاهرة في قوله فاض به الكيل، وهي كناية عن صفة.

أمّا الآية القرآنيّة ففيها الكثير من الصور منها؛ الكناية في قوله (يشرح صدره للإسلام) لأنّ شرح الصدر كناية عن الانبساط وقبول النفس للحق والهدى. والتشبيه في قوله تعالى (كأنّما يصعد في السماء) لأنّه شبّه حال من جعل الله صدره ضيقاً حرجاً بحال من يصعد في السماء ويصيبه من ضيق في التنفس.

التمثيل الثاني

جاء في سفر الأمثال من العهد القديم: " الحديد بالحديد يحدد والإنسان يحدد وجه صاحبه." ²

وجاء في كتاب " أمثال وأقوال من حياة اليهود " أن: " لا يفلّ الحديد إلا الحديد." ³ من أمثال اليهود.

البحث اللغوي

¹ نفسه. ص 29.

² سفر الأمثال 17 / 27.

³ عليان. أمثال وأقوال في حياة اليهود. ص 31.

فلّ: جاء في اللسان: " الفلّ: التلم في السيف، وفي المحكم: التلم في أي شيء."¹ ومثله " فلح " في المثل العربي القديم، و" الفلح: الشقّ يقال: الحديد بالحديد يفلح أي يشقّ وبه سميّ الفلاح لأنّه يشقّ الأرض شقاً."² " الفلح والقطع. فلح الشيء يفلحه فلحاً، شقّه."³ من مقاصد التمثيل

يبين هذا المثل أنّ القوي لا يواجهه إلا من هو على شاكلته قوّة، ولا يستعان في الأمر الشّديد إلا بما يماثله شدة وقوّة.

وقد جاء معنى هذا المثل في بعض الأمثال العربيّة كقولهم: " إنّ الحديد بالحديد يفلح " وقولهم: " إن كنت ريحاً لاقيت إعصاراً."⁴ وهو مثل تضربه العرب للمدلّ بنفسه إذا صلي بمن هو أدهى منه وأشدّ.

ولعل وروده في أمثال العرب بقية من كلام قديم، ذكره حتّى الشعراء في أشعارهم، قال أحدهم:⁵

قومنا يقتل بعضهم بعضاً لا يفلّ الحديد إلا الحديد

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور عليان حين قال: " ويبدو أنّه من الأمثال التي كانت موجودة لدى الشعوب القديمة."⁶ الدراسة البيانيّة

في المثل تشبيه ضمني؛ لأننا من خلال التمثيل لا يمكن أن نرى المشبه والمشبه به، وإنّما نحس بهما من خلال الكلام، ونلاحظ أنّ المشبه يمكن أن يكون القوي الظالم والمشبه به هو من يماثله قوّة أو يفوقه فيتصدى وينتهي الصّراع إلى غلبة الظالم.

¹ ابن منظور. لسان العرب. مادة فلل. 5 / 3465.

² الغريبين في القرآن والحديث. ص 1472.

³ لسان العرب. مادة فلح. 5 / 3458.

⁴ الميداني. مجمع الأمثال. 1 / 26.

⁵ نفسه. 1 / 48.

⁶ البكري. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ص 134.

⁷ عليان. أمثال وأقوال في حياة اليهود. ص 31.

التمثيل الثالث

جاء في سفر نشيد الإنشاد: " اجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك لأنّ المحبة قوية كالموت، الغيرة قاسية كالهواية، لهيبها لهيب نار لظى الرب."¹

وجاء في كتاب " أمثال وأقوال من حياة اليهود " أن المقطع: " الغيرة قاسية كالهواية " من أمثالهم.²

البحث اللغوي

الغيرة: في اللسان: " الغيرة وهي الحميّة والأنفة."³

الهواية: في اللسان: " والمهواة والهوة والأهويّة والهويّة: كالهواء. قال الأزهري: المهواة موضع في الهواء مشرف ما دونه من جبل وغيره."⁴ وفيه أيضا: " والهويّة؛ كلّ كلّ مهواة لا يدرك قعرها."⁵

¹ سفر نشيد الإنشاد 08 / 06.

² عليان. السابق. ص 59.

³ ابن منظور. لسان العرب. مادة غير. 05 / 3326.

⁴ نفسه. مادة هوا. 06 / 4727.

⁵ نفسه. مادة هوا. 06 / 4728.

من مقاصد التمثيل

تكن خصوصية هذا المثل في استخدام كلمة هاوية، والتي تطلق عند اليهود على المكان الذي يذهب إليه الموتى تحت الأرض. ومثل هذا الاعتقاد الديني اليهودي مقتبس من المعتقدات الدينية القديمة.¹

وهذا المثل يعكس روح التشاؤم في المعتقد الديني اليهودي بخلاف ما نراه في المعتقد الإسلامي الذي يقرّر على لسان سيّد الخلق ﷺ أن: " القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار." وما على المؤمن سوى الاجتهاد في العمل الصالح. والمثل أخيرا يدعو إلى البعد عن الغيرة لأنها قاسية، وقسوتها كقسوة التردّي إلى الهلاك.

الدراسة البيانية

في المثل تشبيه تامّ؛ حيث ذكرت كلّ أركان التشبيه؛ فالمشبه هو الغيرة، والمشبه به هو الهاوية، وأداة التشبيه هي الكاف، ووجه الشبه هو القسوة. والتشبيه كما هو ملاحظ بسيط لا يحمل المسحة الجمالية التي وجدناها في تمثيلات القرآن الكريم بل ولم نلاحظها حتى في تمثيلات الرسول ﷺ، والسبب، في تقديري، راجع إلى كون الصورة قريبة من الحقيقة في التشبيه التام ولا يمكنه أن يؤدّي ما تؤدّيه بقية أنواع التشبيه الأخرى، وذلك راجع إلى كون الجانب البياني لم يكن من مقاصد التوراة أو الأمثال التي تنسب إليها.

¹ عليان. نفسه. ص 59.

من تمثيلات العهد الجديد

التمثيل الأول / مثل الزوان وسط الحنطة

جاء في العهد الجديد: " قدم لهم مثلا آخر قائلا يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زراعا جيّدا في حقله* وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانا في وسط الحنطة ومضى* فلما طلع الثّبات وصنع ثمرا حينئذ ظهر الزوان أيضا* فجاء عبّيد رب البيت وقالوا له يا سيد أليس زراعا جيّدا زرعت في حقلك فمن أين له زوان* فقال لهم إنسان عدو فعل هذا فقال له العبّيد أتريد أن نذهب ونجمعه* فقال لا لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه* دعوها ينميان كلاهما معا إلى الحصاد وفي وقت الحصاد أقول للحصّادين اجمعوا أولا الزوان و احزموه حزما ليحرق وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني* "1

البحث اللغوي

الزوان: جاء في اللسان: " الزّوان والزّوان ما يخرج من الطّعام فيرمى به. وفي الصّاح: هو حبّ يخالط البرّ، وخصّ بعضهم به الدّوسر. [وقال] الليث: الزّوان حبّ يكون في الحنطة تسمّيه أهل الشّام الشّيلم."2

الحنطة: جاء في اللسان: " الحنطة: البرّ."3

من مقاصد التمثيل

¹ إنجيل متى 13 / 25 - 31.

² ابن منظور. لسان العرب. مادة زون. 3 / 1893.

³ نفسه. مادة حنط. 2 / 1023.

ذكرت في الباب الأوّل من هذا البحث أنّ علماءنا قد بيّنوا عند تعريفهم للأمثال أنّها، ولأهمّيّتها، فشت في الكتب السماويّة، قال الرازي في تفسيره: " ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله".¹

ومن الثابت، في كتب التّصاري، أنّ المثل كان من أدوات المسيح عليه السلام في تبليغ رسالته وتعليم أتباعه، جاء في العهد الجديد: " وبأمثال كثيرة مثل هذه كان يكلمهم حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا* وبدون مثل لم يكن يكلمهم وأمّا على انفراد فكان يفسر لتلاميذه كل شيء*"²

يظهر لنا هذا النص؛ ثنائيّة الشرّ والخير في هذه الحياة الدّنيا، والصراع الدائم بينهما، غير الحسم في نهاية المطاف يكتب دوما للخير، فهذا الإنسان زرع في حقله زرعاً طيباً لكن أهل الشرّ أبوا إلا أن يفسدوا عليه عمله فزرعوا دون، علمه، زوانا مع زرعه. ولمّا نبت الزّرع وظهر ما فعلوا سأله الخدم أن يستأصلوا الزوان لكنّه طلب منهم ألا يتعجّلوا وليتركوا الزرع على حاله حتّى يبلغ حصاده فتكون عمليّة إتلاف الزوان بسيطة وفعّالة. الدراسة البيانيّة

يقول القسّ منيس عبد النور في كتابه أمثال المسيح: " فسّر المسيح لتلاميذه مثل الزوان وسط الحنطة، فقال إنّ الذي يزرع الزرع الجيّد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم، والزّرع الجيّد هو بنو الملكوت، والزّوان هم بنو الشرّير، والعدوّ الذي زرع الزوان هو إبليس، والحصاد هو اليوم الآخر، وإنّ الحصادين هم الملائكة، وفي اليوم الآخر يرسل ابن الإنسان ملائكته ليجمعوا من ملكوته كلّ فاعلي الإثم ويطرحونهم في النّار، بينما يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم. وختم المسيح شرحه للمثل بقوله: من له أذنان للسمع فليسمع."³

وقد ذكرت النصّ كما هو، على فيه من مأخذ، للأمانة العلميّة من جهة، ولأنّه نصّ يشير إلى الكثير من الصور البيانيّة في التمثيل والتشبيه، وهو تشبيه مركّب، إذ جمع فيه مجموعة من التشبيهات وتتلخص في تشبيهه:

¹ الرازي. مفاتيح الغيب. 80 / 02.

² إنجيل مرقس 4 / 34-35.

³ القس : منيس عبد النور. أمثال المسيح. شتوتغارت. ألمانيا ص 34.

الأنبياء والرسل بالزّارعين.

المجتمع بالحقل.

الرسالات والكتب المنزلة بالزرع الجيّد وهو الحنطة.

إبليس وجنوده من الكفرة وأهل الزّيغ بالعدوّ.

الضلال والكفر بالزّوان.

ويمكننا أن نلمس بعض الصور الكنائيّة في الأخير حيث، كُتّي عن عاقبة العمل الصالح

أو السيئ بالحصاد. وكُتّي عن العذاب بالحرق وعن النعيم ودخول الجنّة بالحفظ في

المخزن.

عبد القادر للعطوم الإسلامية

التمثيل الثاني / مثل الزّارع.

جاء في العهد الجديد: " فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر* فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرّياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسساً على الصخر* وكلّ من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يشبّهه برجل جاهل بنى بيته على الرّمْل* فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرّياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً*"¹

من مقاصد التمثيل

يتلخّص مضمون هذا التّمثيل في ترغيب المسيح ﷺ لأتباعه في العمل بما القاه على مسامعهم من وصايا وتعاليم، وبين أنّ العمل بها ينجي صاحبه بينما الإعراض عنها وعدم اتباعها يردي صاحبه في النّار؛ ولتبيين ذلك شبّه الأوّل بالإنسان الحكيم الذي يبني بيته على صخرة في مكان عال، لا يضرّه المطر بعدها ولا يجرفه السّيل، وشبّه الثاني بالإنسان العاصي الذي يبني بيته على الرّمْل، لكن هذا البيت لم يصمد أمام الرّياح والأمطار التي أحاطت به فتهدّم.

كما يصرّو لنا هذا التّمثيل أثر انتفاع الإنسان بما يسمع من هدي وخير، وقريب منه إلى حدّ كبير، بل أوضح منه ما قاله ﷺ: " مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثّل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس فشرّبوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثّل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به."²

¹ إنجيل متى 7 / 25-28.

² صحيح البخاري. ص 41 رقم 79.

الدراسة البيانيّة

في هذا التمثيل صرّح المسيح عليه السلام بالصورتين البيانيتين الموجودتين فيه وهما التشبيه في كليهما؛ الصورة الأولى تشبيه الرّجل العاقل المنتفع بما يسمع من هدي وتعاليم تحصّنه من مكائد الشيطان بالبيت الذي أحكم صاحبه بناءه وبناه على أساس متين لا يتأثر بعوامل الطبيعة، فالمشبه هنا هو الرّجل العاقل والمشبه به هو البيت الحصين ووجه الشبه هي التحصين الذي يؤول إليه حال كلّ منهما؛ فالرّجل العاقل لا يتأثر بوسوسة الشيطان ومكائده، والبيت الحصين يصمد أمام مظاهر الطبيعة فلا تؤثّر فيه. وعليه فالتشبيه تمثيلي.

والصورة الثانیة تشبيه الرّجل الجاهل الذي لم ينتفع بما سمع من هدي وتعاليم، ومن ثمّ لا حصانة له من مكائد الشيطان بالبيت الذي لم يحكم صاحبه بناءه، فبناه على الرّمّل، ومن ثمّ تأثر بعوامل الطبيعة، فالمشبه هو الرّجل الجاهل والمشبه به هو البيت الذي تداعى وتهاوى أمام مظاهر الطبيعة لأنّ صاحبه لم يحكم بناءه، ولم يختار له المكان المناسب بل بناه على الرّمّل فانهار. ووجه الشبه هو هشاشة وضعف كلّ منهما. والتشبيه تمثيلي.

التمثيل الثالث

جاء في العهد الجديد: " " فكلّمهم كثيرا بأمثال قائلًا هو ذا الزّارع قد خرج ليزرع* وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته* وسقط آخر على

الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالا إذ لم يكن له عمق أرض* ولكن لما أشرفت الشمس احترق وإذ لم يكن له أصل جف* وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه* وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرا بعض مئة وآخر ستين وآخر ثلاثين* من له أذنان للسمع فليسمع¹ من مقاصد التمثيل

يعرض علينا هذا التمثيل صورة الزرع، وهو المسيح عليه السلام كما يفهم من سياق الكلام، وقد خرج حملا زرعه ليزرعه، لكن الزرع آل أمره إلى أربعة حالات؛ قسم سقط في الطريق فأكلته الطيور، وقسم وقع على أرض هي حجارة وصخور أنبتت زرعاً ضعيفاً لضعف جذوره فاحترق من شدة حرّ الشمس، وقسم سقط على أرض شائكة، ومع صلاح الزرع لكن حصاده غير ممكن لأنّ الشوك خنق النبات الطيب، والقسم الرابع والأخير هو الزرع الذي وقع على الأرض الطيبة الصالحة للزراعة فنبت وربما أعطى بعضه مئة ضعف وآخر ستين ضعفاً وآخر ثلاثين ضعفاً. ومثل هذا الضرب من التمثيل يتكرّر في أمثلة الأنبياء والرسل، ولذلك ضرب الله عزّ وجلّ للمؤمنين مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فقال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.)² ولذلك قال لهم المسيح في نهاية المثل " من له أذنان للسمع فليسمع"³

وبيّن لنا هذا النصّ مراتب أصحاب المسيح عليه السلام، وأنهم، عند الله، بحسب موقفهم ممّا نزل على عيسى عليه السلام؛ وقد شرح المسيح هذه الأصناف وبينها؛ فقال: " فاسمعوا أنتم مثل الزارع* كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتي الشرير ويخطف ما قد زرع في قلبه هذا هو المزرع على الطريق* والمزرع على الأماكن المحجرة هو الذي يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح* ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر* والمزرع بين الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهم

¹ متى 10.04 / 13

² البقرة / 260.

³ متى 10 / 13.

هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر* وأما المزرور على الأرض
الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مئة وآخر ستين
وآخر ثلاثين*¹

فالأول من هذه الأصناف من حمل علمه ولم ينفعه بل انتفع به غيره، والثاني آمن
ولكن إيمانه فيه لين فلم يثبت، والثالث العالم المغتر لا ينفع ولا ينتفع رغم علمه، والرابع
فهو الذي ينفعه الله بعلمه ويضاعفه له أضعافا كثيرة، وهو الصنف المقصود في قوله
تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من
الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه
فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات
منهم مغفرة وأجرا عظيما.)²

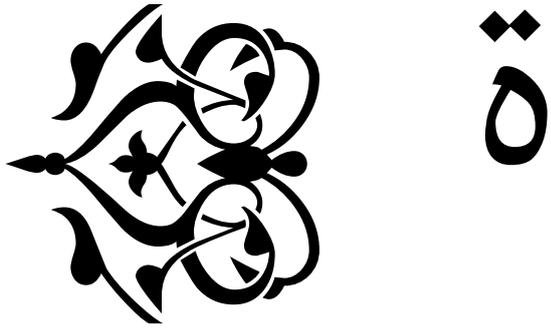
الدراسة البيانية

أبرز الصور البيانية في هذا التمثيل هي:
تشبيه المسيح عليه السلام لنفسه بالزراع، ثم تشبيهه لوصاياه وإرشاداته بالزراع، ولتفاوت
أتباعه في قبول دعوته بتفاوت الأرض في قبول الزرع الذي يترتب عليه بعد ذلك
الإنبات. ووجه الشبه هنا متعدد ومركب من صور متعددة لذلك فهو تشبيه تمثيلي.

¹ متى 13 / 19 .24.

² الفتح / 29.

الخطاب



جامعة الأميرة الأميرة
عبد القادر العلوم الإسلامية

وفي الختام

لن أدعي، أو أزعم أنني قد وفّيت الموضوع حقّه من البحث والدراسة، أو أنني استكملته من كلّ جوانبه، فلا يزال فيه متّسع لمن أراد أن يبحث، كما لا أدعي أنني قد أتيت فيه بالجديد المبتكر، بل أعترف أنّ ما قدّمته إنّما هو جهد المقلّ؛ حاولت من خلاله أن أسلط الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بالموضوع.

حاولت في هذا البحث أن أدرس الأمثال الدينيّة العربيّة وأخلص إلى جملة من النتائج، لا أعتبرها مسلمّات، بل هي في تقديري مقارنة بسيطة أردت أن من خلالها من الأمثال، ويبقى البحث في هذا الموضوع واسعاً، ودرره أكثر من أن يلمّ بها باحث واحد أو دراسة واحدة، وقد تبين لي في ختام هذا البحث ما يلي:

* إنّ المفاهيم الكثيرة والمختلفة التي قدّمها العلماء واللغويّون للمثل تظهر عنايتهم الشديدة بها، وبعدها ذكرت معناها العامّ، حاولت أن أعرض تصوّر البلاغيين لهذا الجنس الأدبي الرفيع.

* انصبّت العناية على أمثال القرآن الكريم، جمعا ودراسة، منذ القديم، ولم تحض الأمثال النبويّة إلا بالقليل منها، ذكرتها في ثنايا البحث، بينما الدّراسات التي تعنى بالمثل الإنجيلي أو التوراتي قليلة جدّاً، ولم أطلع عند المحدثين إلا على دراستين إحداهما لباحث مسلم والأخرى لنصراني، فكان عملي هذا محاولة متواضعة لتقريب هذا المثل ومحاولة التقرّب من الأسباب التي جعلت من سلفنا يلح على الإشارة إلى أمثال أهل الكتاب كلما تحدّث عن أمثال القرآن.

* أمثال القرآن الكريم ميدان واسع، وموضوع لقي عناية العلوم على مرّ العصور، ولذلك حاولت عند التطرّق إليها أن أرصد ظواهر بيانيّة ولغويّة بل وحتى فقهية ذات صلة بالموضوع، وضمّنتها في ثنايا الكتاب.

* من مطالعتي للفهارس، وبحثي عن مصادر الدّراسة ومراجعتها، اطّلت على إشارات لبعض كتب الأمثال التي ذكرها من سبقتي إلى البحث في هذا الموضوع وذكر أنّها ضاعت، فذكرت ما استطعت الوصول إليه مع ذكر المكتبات التي يوجد بها.

* احتلّ المثل النبوي، كشاهد لغوي منزلة رفيعة بالرغم من عزوف علماء النحو عن اعتماده كشاهد لتقعيد القواعد، ولذلك نلمس له حضوراً ظاهراً في كتب الغريب كالفائق والنهاية وغيرهما.

* غالبية الأمثال النبوية التي ذكرت في المصنّفات التي خصّصها أصحابها للأمثال كمسند الشهاب للقضاعي وأمثال الحديث النبوي للرامهرمزي والأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ أغلبها من الضّعيف بل وفيها المتروك عند علماء الحديث، أمّا الصّحيح منها فجاء مبنوثاً في كتب الحديث الصحيحة كصحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرهما.

* انفرد الترمذي، دون غيره من أئمّة الحديث، بتخصيص باب في جامعه الصحيح للأمثال الرسول ﷺ.

* هناك البعض المصنّفات التي لم أجد من أشار إلى أنّها من كتب الأمثال، وقد فعلت ذلك بعد دراستها، ومنها المجتني لابن دريد، والأمثال والحكم للماوردي، إذ غالباً ما يذكر على أنّه صنّف في أمثال القرآن، والكتاب الذي ذكرت في أمثال الحديث.

* قمت بتصحيح بعض الهنّات التي وقع فيها بعض المحقّقين في نسبة بعض الكتب لآخرين، كما حدث لكتاب أبي أحمد العسكري الذي نسبته بعض المعاصرين لأبي هلال، وقد بيّنت ذلك في موضعه من البحث.

* كتب غريب الحديث، بصورة خاصّة، تحتوي على مادّة مثليّة مهمّة قد لا تتيحها لها المصنّفات المتخصّصة.

* تبيّن لي من الرّجوع إلى مصادر البلاغة التطبيقية في القرآن الكريم والحديث الشريف أنّ المعتزلة قد أهتمّ هذا الجانب فانصرفوا إليه، وتركوا لنا كتباً هامّة في هذا الباب أبرزها تفسير الكشاف للزمخشري، والبيان في مجازات القرآن، والمجازات النبوية للشريف الرضا، وهو ما يفرض على المنشغل بالبيان في القرآن والحديث أن يتعامل مع

هذه الكتب بحذر، لأن أصحابها غالباً ما يخلطون بين ما هو عقائدي وبياني، وخاصة في باب التّشبيه والمجاز.

* الدراسة التطبيقية التي قدّمتها لبعض التّمثيلات القرآنية والنبوية، والتوسع الكبير في عرض هذا الجانب، حاولت من خلاله أن ألفت النظر إلى ثراء تراثنا، ويمكننا أن نقدّم في الدّرس البلاغيّ، الكثير من الشّواهد القرآنية والحديثية الجديدة على هذا الدّرس الذي بقي حبيس " زيد كالأسد " في التّشبيه، و " طويل النجاد " أو " بعيدة مهوى القرط " في الكناية وهكذا.

* أمثال العهد القديم والعهد الجديد لا تتوافر على المادّة البيانية التي نجدها في أمثال القرآن الكريم والحديث الشّريف، لأنّها لم يقصد بها البتّة إظهار الإعجاز، كانت معجزات موسى وعيسى، عليهما السلام، خارجة عن التّوراة والإنجيل بينما كانت معجزة محمد هي القرآن.

* لذلك درسنا في التّشبيه دون غيره من الصّور البيانية، لأنّ النصّ الموجود أقرب في بنائه إلى العمل البشري منه إلى الوحي السّماوي.

* بعض أمثال العهد الجديد فيها مضامين ممّا جاءت به رسالة الإسلام، ولعلّ ذلك بقية وحي لم تدنسه يد التحريف كما هو ظاهر في مثل الزارع من الإنجيل والمثل الذي ضربه الرسول للعلم وتشبيهه بالغيث.

* ومن هنا يظهر توظيف المثل في بناء المثلّ والقيم والأخلاق الاجتماعية الفاضلة حتى يصبح أداة صالحة ونافعة للمجتمع وحينها تبرز قيمته الأدبية ومدى تأثيره على المتلقي.

مصادر البحث

- * القرآن الكريم بقراءة ورش.
- * التوراة السامريّة. تعريب الكاهن السامريّ أبو الحسن إسحاق الصوري. نشر الدكتور أحمد حجازي السقا. دار الأنصار. عابدين. ط 01. 1978.
- * العهد القديم والعهد الجديد [الكتاب المقدّس].
- * أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود. ضبط صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت. ط 01. 2001.
- * الأصفهاني: أحمد بن عبد الله أبو نعيم. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1988.
- * الأصفهاني: محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى، أبو موسى المدني. المجموع المغيّب في غريب القرآن والحديث. تح عبد الكريم العزباوي. مركز البحث العلمي وإحياء التراث. مكة. ط 02. 2005.
- * الألوسي: شهاب الدّين السيد محمود. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. نشر وتصحيح دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- * أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي. تفسير البحر المحيط. دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ومشاركة مجموعة من العلماء. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1993.
- * أبو الشيخ الأصبهاني: أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان. كتاب الأمثال في الحديث النبوي. تح د عبد العلي عبد الحميد. دار السلفية. بومباي. الهند. ط 01. 1982.
- * أبو فيد: مؤرّج بن عمرو السدوسي. كتاب الأمثال. تحقيق د/ رمضان عبد التّواب. دار النهضة العربيّة بيروت 1983.
- * أبو عبيدة: معمر بن المثنى. مجاز القرآن. تحقيق د. محمد فؤاد سزكين. مكتبة الخانجي. مصر.
- * نقائض جرير والفرزدق. وضع حواشيه خليل عمران المنصور. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1998.
- * الأزهري: محمد بن أحمد، أبو منصور. تهذيب اللغة. دار المصرية للتأليف والترجمة. تح عبد السلام هارون. د ت.

* أبو عبيد: القاسم بن سلام. غريب الحديث. تح د حسين محمد محمد شرف. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة. 1984.

* الباقلائي: أبي بكر القاضي. إعجاز القرآن. عالم الكتب. مطبوع على هامش الإقتان في علوم القرآن للسيوطي.

* البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردربه، أبو عبد الله. الأدب المفرد. خرّج أحاديثه فؤاد عبد الباقي. خرّج أحاديثه رمزي دمشقية. ط 04. دار البشائر الإسلامية. بيروت. 1997.

* الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. المعروف بصحيح البخاري. تحقيق صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت. 2003.

* البكري: أبو عبيد. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. تحقيق الدكتورين إحسان عباس وعبد المجيد عابدين. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 3. 1983.

* ابن أبي الأصبغ: أبو محمد زكي الدين، عبد العظيم بن عبد الواحد المصري. تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. تحقيق د حفني محمد شرف. لجنة إحياء التراث الإسلامي. الجمهورية العربية المتحدة.

* ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين. الفلك الدائر على المثل السائر. تقديم وتحقيق وتعليق د أحمد الحوفي ود بدوي طبانة. دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة. مطبوع آخر كتاب " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " لابن الأثير.

* ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد. المصنف. تحقيق محمد عوّامة. دار قرطبة. بيروت. ط 01. 2006.

* ابن الأثير: أحمد بن إسماعيل، نجم الدين. جواهر الكنز. تحقيق د. محمد زغلول سلام. منشأة المعارف. الإسكندرية.

* ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، أبو الحسن الشيباني. الكامل في التاريخ. تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01. 1987.

* ابن الأثير: نصر بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفتح ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. 1995.

- * ابن الأثير : المبارك بن محمد، مجد الدين أبي السّاعات. منال الطالب في شرح طوال الغرائب. تح د محمود محمد الطّناحي. دار المأمون للتراث. دمشق / بيروت. د ت.
- * النهاية في غريب الحديث والأثر. تح طاهر أحمد زاوي و محمود محمد الطّناحي. المكتبة الإسلاميّة. ط 01. 1963.
- * ابن بلبان: الأمير علاء الدين علي. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. دمشق. ط 02. 1993.
- * ابن تيميّة: أحمد بن عبد الحليم، تقي الدين أبي العباس. التفسير الكبير. تح د عبد الرحمن عميرة. دار الكتب العلميّة. بيروت. د ت.
- * دقائق التفسير. تح محمد السيّد الجليند. مؤسسة علوم القرآن. دمشق. ط 02. 1984.
- * مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المدينة المنورة. 2004.
- * ابن جزي: محمد بن أحمد، أبو القاسم. التسهيل لعلوم التنزيل. ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1995.
- * ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين. زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي. بيروت. ط 03. 1984.
- * ابن حجر: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. فتح الباري بشرح البخاري. تحقيق عبد القادر شيبه الحمد. ط 01. 2001.
- * ابن حزم. علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون. مصر. دار المعارف. 1962.
- * ابن حنبل: أحمد بن محمد. المسند. شرح وفهرسة أحمد محمد شاكر وأكملة حمزة الزين. دار الحديث. القاهرة. ط 01. 1995.
- * ابن خير: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بخليفة الإشبيلي. فهرسة ابن خير. تحقيق محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 1. 1998.
- * ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي. كتاب المجتبي. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدرآباد. 1392 هـ.
- * الاشتقاق. تح عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. ط 01. 1991.

- * ابن رشيق: أبو علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل. لبنان.
- * ابن طباطبا: محمد بن أحمد بن محمد، أبو الحسن. عيار الشعر. تحقيق عباس عبد السّاتر. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1982.
- * ابن عادل: عمر بن علي، أبو حفص. اللباب في علوم الكتاب. تحقيق الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1998.
- * ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل. المحكم والمحيط الأعظم. تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 1. 2000.
- * ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله، أبو عمر. جامع بيان العلم وفضله. تصحيح إدارة الطباعة المنيريّة. المطبعة المنيريّة. مصر.
- * ابن عبد ربّه. أبو عمر أحمد بن محمد. العقد الفريد. تحقيق د عبد المجيد الرحيني. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1997.
- * ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله. أحكام القرآن. تحقيق علي محمد البجاوي. دار المعرفة. بيروت. 1987.
- * عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي. دار الكتب العلميّة. بيروت. د ت.
- * ابن عطية: عبد الحق بن غالب الأندلسي. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تح عبد السلام عبد الشّافي محمد. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 2001.
- ابن العماد: عبد الحيّ بن أحمد بن محمد العكري، أبو الفلاح. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق عبد القادر ومحمود الأرنؤوط. دار ابن كثير. دمشق. ط 01. 1986.
- * ابن فارس: أبو الحسين أحمد. معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون. دار الفكر. 1979.
- * الصاحبى في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها. تعليق أحمد حسن بسج. دار الكتب العلميّة بيروت. ط 01. 1997.
- * ابن قتيبة: أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. تأويل مشكل القرآن. تح إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 1. 2002.
- * ابن قيمّ الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب. الأمثال في القرآن الكريم. تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب. دار المعرفة. بيروت. 1981.

- * إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن جزى. المملكة العربية السعودية. طبعة 01. 1423 هـ.
- * الفوائد. تحقيق محمد عزيز شمس. دار عالم الفوائد. جدة. دت.
- * ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. تحقيق مجموعة من العلماء. مؤسسة قرطبة ومكتبة أولاد الشيخ التراث. جيزة.
- * تفسير القرآن العظيم. تصحيح لجنة من العلماء. ط 3. دار الأندلس. بيروت. 1981.
- * ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله. سنن ابن ماجه. ضبط صدقي جميل العطار. ط 1. دار الفكر. بيروت. ط 01. 2001.
- * ابن المعتز: عبد الله. كتاب البديع. تحقيق إغناطيوس كراتشوفسكي. دار المسيرة. الكويت. ط 03. 1982.
- * ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، جمال الدين أبو الفضل. لسان العرب. تحقيق جماعة من العلماء منهم عبد الله علي الكبير. دار المعارف.
- * ابن ناقياً: عبد الله بن محمد بن الحسين بن داود، أبو القاسم. الجمان في تشبيهات القرآن. تحقيق د. محمد رضوان الداية.
- * البغدادي: عبد القادر بن عمر. خزانة الأدب ولباب لسان العرب. تح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 04. 1997.
- * البغوي. أبو محمد الحسين بن مسعود. معالم التنزيل. ط 1. دار ابن حزم. بيروت.
- * شرح السنة. تح زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط. المكتب الإسلامي. بيروت. ط 02. 1983.
- * البيضاوي: أبو سعيد عبد الله بن عمر، ناصر الدين. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. ومعه حاشية محي الدين شيخ زادة. ضبط محمد عبد القادر شاهين. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 1. 1999.
- * البيهقي: أحمد بن الحسين، أبو بكر. الآداب. تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا. ط 1. دار الكتب العلمية. بيروت. 1986.
- * الجامع لشعب الإيمان. تح د عبد العليّ عبد الحميد حامد. مكتبة الرشد. الرياض. ط 01. 2003.
- * السنن الكبرى. تح محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 03. 2003.

- * الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى. الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل. المعروف بسنن الترمذي. ضبط صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت. ط1. 2002.
- * التميمي: أحمد بن علي بن المثنى. مسند أبي يعلى الموصلي. تحقيق حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث. دمشق. ط 02. 1989.
- * التهانوي: محمد علي. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تحقيق د علي دحروج. مكتبة لبنان. ط 01. 1996.
- * التوحيد: أبو حيان. الإمتاع والمؤانسة. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. دار مكتبة الحياة بيروت.
- * الثعالبي. أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. الإعجاز في الإيجاز. التزم شرحه وطبعه اسكندر آصاف. المطبعة العمومية. مصر. ط 01. 1867.
- * التمثيل والمحاضرة. أطروحة دكتوراه مقدمة من طرف زهية سعدو. جامعة الجزائر.
- * خاص الخاص. تقديم حسن الأمين. دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان.
- * فقه اللغة. المكتبة التجارية. مصر. 1938.
- * الكناية والتعريض. مطبوع في آخر كتاب المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء للجرجاني.
- * ثعلب: أبو العباس أحمد بن يحيى. قواعد الشعر. تحقيق د. رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي. ط 02. 1995.
- * الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق. الكشف والبيان. تح أبو محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي. لبنان. ط 01. 2002.
- * الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر العربي. بيروت. د. ت.
- تحقيق د درويش جويدي. المكتبة العصرية. بيروت. 2001.
- * الحيوان. تحقيق فوزي عطوي. بيروت. دار صعب. ط1. 1968.
- تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة البابي الحلبي. مصر. ط 02. 1965.
- * المختار في الرد على النصارى. تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي. دار الجيل. بيروت. ط 01. 1991.

- * الجرجاني: أحمد بن محمد، القاضي أبي العباس. المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء. تصحيح السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي. مطبعة السعادة. مصر. ط 01. 1908.
- * الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، أبو بكر. أسرار البلاغة. قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر. دار المدني بجدة.
- * دلائل الإعجاز. قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة. د ت.
- * الجرجاني (القاضي): علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي. المكتبة العصرية. صيدا. ط 01. 2006.
- * الجرجاني: علي بن محمد الشريف. التعريفات. مكتبة لبنان. بيروت. 1985.
- * الجرجاني (الشريف): علي بن محمد بن علي، أبو الحسن. الحاشية على المطول. تعليق د رشيد أعرضي. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 2007.
- * الجوهري: إسماعيل بن حماد. الصحاح. تحقيق احمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. ط 04. 1990.
- * حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. عناية محمد شرف الدين يالنتقايا ورفعت بيلكه الكليسي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- * الحاكم: أبو عبد الله النيسابوري. المستدرک على الصحيحين. دار الحرمين للطباعة والنشر. القاهرة. ط 01. 1997.
- * الحصري: إبراهيم بن علي، أبو إسحاق. زهر الآداب وثمر الألباب. ضبط وشرح د. صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية. صيدا. ط 01. 2001.
- * الحموي: ياقوت. معجم الأدباء. تحقيق د. إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. ط 01. 1993.
- * الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي. مسند الحميدي. تحقيق حسين سليم أسد. دار السقا. دمشق. ط 01. 1996.
- * الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم البستي. تح عبد الكريم العزباوي. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ط 02. 2001.

- * الخوارزمي: محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله. مفاتيح العلوم. طبعة باعتماد المستشرق فان فلوتن مطبعة بريل ليدن سنة 1895.
- * الخوارزمي: محمد بن العباس، أبو بكر. الأمثال. تحقيق محمد حسين الأعرجي. موفم للنشر. 1993.
- * الخويي: يوسف بن طاهر، أبي يعقوب. فرائد الخرائد في الأمثال. تحقيق د عبد الرزاق حسين. دار النفائس. الأردن.
- * الدامغاني: أبو عبد الله الحسين بن محمد. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. تحقيق عبد العزيز سيّد الأهل. دار العلم للملايين بيروت. 1985. ط 05.
- * الرازي: محمد فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. دار الفكر للطباعة والنشر. ط 01. 1981.
- * نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تح د نصر الله حاجي. دار صادر. بيروت. ط 01. 2004.
- * الراغب الأصفهاني: حسين بن محمد بن الفضل. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. تهذيب وإخراج إبراهيم زيدان. مطبعة الهلال. مصر. 1902.
- * مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق عدنان داودي. دار القلم دمشق. ط 02. 1997.
- * الرامهرمزي: القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد. أمثال الحديث. تح د / عبد العلي عبد الحميد. الدار السلفية. بومباي. الهند. ط 01. 1983.
- * الرمّاني: علي بن عيسى، أبي الحسن. النكت في إعجاز القرآن. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمّاني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام. دار المعارف. مصر. ط 03.
- * الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. ط حكومة الكويت. 1965.
- * الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث. القاهرة.
- * الزمخشري: محمود بن عمر، جار الله أبو القاسم. أساس البلاغة. دار صادر بيروت 1979.
- * شرح الفصيح. تحقيق ودراسة د. إبراهيم بن عبد الله بن جمهور الغامدي. معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي. مكة المكرمة. 1417 هـ.

- * الفائق في غريب الحديث. تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر. لبنان. 1993.
- * الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. مكتبة العبيكان. الرياض. ط 01. 1998.
- * المستقصى في أمثال العرب. عناية د محمد عبد المعيد خان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدرآباد. الهند. ط 01.
- * السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي. جمع الجوامع في أصول الفقه. تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 02. 2002.
- * رفع الحاجب عن مختصر بن الحاجب. تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود. عالم الكتب.
- * طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة.
- * السكاكي: يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، أبي يعقوب. مفتاح العلوم. ضبط وتعليق نعيم زرزور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 02. 1987.
- * السهارة نفوري: خليل أحمد. بذل المجهود في حلّ أبي داود. تعليق العلامة محمد زكريا الكاندهلوي. دار الكتب العلمية. بيروت. د ت.
- * سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر. الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 03. 1988.
- * السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان في علوم القرآن. علم الكتب. بيروت. د ت.
- * التوشيح شرح الجامع الصحيح. تحقيق رضوان جامع رضوان. مكتبة الرشد. الرياض. ط 01. 1998.
- * جامع الأحاديث: الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير. جمع وترتيب عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد. دار الفكر. بيروت. 1994.
- * المزهري في علوم اللغة و أنواعها. ضبط وتصحيح فؤاد علي منصور. ط 01.
- * الشريف الرضا: محمد بن حسين بن موسى. تلخيص البيان في مجازات القرآن. تحقيق علي محمود مقلد. دار مكتبة الحياة. بيروت. د ت.

- * المجازات النبوية. مطبعة الآداب. بغداد. 1323 هـ
- * الشوكاني: محمد بن علي. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. تحقيق أبي حفص سامي بن العربي الأثري. دار الفضيلة. الرياض. ط 01. 2000.
- * الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام. المصنف. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. منشورات المجلس العلمي. د ت.
- * الصعيدي: عبد المتعال. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. مكتبة الآداب. مصر. 1999.
- * الطبراني: سليمان بن أحمد، أبو القاسم. المعجم الكبير. تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي. مكتبة ابن تيمية. القاهرة.
- * المعجم الأوسط. قسم التحقيق بدار الحرمين. دار الحرمين للطباعة والنشر. 1995.
- * الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني. تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير. المكتب الإسلامي. بيروت. ط 01. 1985.
- * الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن. دار المعرفة. بيروت. 1986.
- * الطياليسي: سليمان بن داود بن الجارود. مسند أبي داود الطياليسي. تح محمد بن عبد المحسن التركي. دار هجر. مصر. ط 01. 1999.
- * الطيبي: الحسين بن عبد الله بن محمد، شرف الدين. الكاشف عن حقائق السنن المعروف بشرح الطيبي على مشكاة المصابيح. تح د عبد الحميد هنداوي. مكتبة نزار مصطفى الباز. مكة المكرمة. ط 01. 1997.
- * العاملي: محمد بن حسين، بهاء الدين. كتاب أسرار البلاغة. مطبوع آخر المخلاة.
- * المخلاة. طبع بالمطبعة الميمنية. مصر. د ت.
- * العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل. جمهرة أمثال العرب. نسخة مصورة من مخطوط الميرزا محمد ملك الكتاب الشيرازي. حيدرآباد.
- * الفروق اللغوية تح محمد إبراهيم سليم. دار العلم والثقافة. القاهرة. د ت.
- * العلوي: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. مطبعة المقتطف. مصر. 1914.

- * العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد. عمدة القاري شرح صحيح البخاري. دراسة عبد الله محمود محمد عمر. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01.
- * الغزالي: محمد بن محمد، أبو حامد. المستصفى من علم الأصول. تحقيق حمزة بن زهير حافظ.
- * الفراهيدي: الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن. كتاب الجمل في التحو، تحقيق د. فخر الدين قبادة. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 01. 1985.
- * كتاب العين. تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. سلسلة المعاجم والفهارس. دت.
- * الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. تقديم وتعليق الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني. ط 01. دار الكتب العلمية. 2004.
- * الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط. إعداد المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلاميّة. مؤسسة آل البيت. عمان. الأردن. 1987.
- * القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى. إكمال المعلم بفوائد مسلم. تحقيق د يحي إسماعيل. دار الوفاء للطباعة والنشر. مصر. ط 01. 1998.
- * الشفا بتعريف حقوق المصطفى. تح علي محمد البجاوي. دار الكتاب العربي. بيروت. 1984.
- * القرافي: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، شهاب الدين أبو العباس. نفائس الأصول في شرح المحصول. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. مكتبة نزار مصطفى الباز.
- * القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. التلخيص في علوم البلاغة. ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي. دار الفكر العربي.
- * قدامة: بن جعفر، أبي الفرج. نقد الشعر. مطبعة الجوائب. قسطنطينية. ط 01. 1302 هـ
- * نقد النثر. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1980.
- * القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر. الجامع لأحكام القرآن. تح د عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرّسالة. ط 01. 2006.
- * القضاءعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة. مسند الشهاب. تحقيق حمدي عبد المجيد السّلفي. مؤسسة الرسالة. ط 1. 1985.

* مخطوط كتاب شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث المروية عن الرسول المختار.

* الفلفشندي: الشيخ أبي العباس أحمد. كتاب صبح الأعشى. دار الكتب المصرية. القاهرة.
* الفوجوي: محمد بن مصلح الدين مصطفى. حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي. تحقيق محمد عبد القادر شاهين. دار الكتب العلمية. بيروت. ط 01.

* كراع النمل: علي بن الحسن النهائي، أبو الحسن. المنتخب من كلام العرب. تح محمد بن أحمد العمري. جامعة أم القرى. ط 01. 1989

* الكلبي: هشام بن محمد بن السائب. الأصنام. تحقيق أحمد زكي باشا. دار الكتب المصرية. ط 03. 1995.

* الكفوي: أيوب بن موسى أبو البقاء الحسيني. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1998.

* الماوردي: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب. كتاب أدب الدنيا والدين. المطبعة الأميرية. القاهرة. ط 16. 1925.

* الأمثال والحكم. تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد. دار الوطن للنشر. المملكة العربية السعودية. ط 1. 1999.

* المباركفوري. محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، أبو العلى. تحفة الأحوزي شرح جامع الترمذي. تح عبد الرحمن محمد عثمان. دار الفكر. دت.

* المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل. تحقيق د محمد أحمد الدالي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 03. 1997.

* المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة. القاهرة. 1994.

* المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. التنبيه والأشراف. مطبعة بريل. ليدن. 1893.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر. تح محي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت. دت

* مسلم: بن الحجاج القشيري النيسابوري، أبو الحسين. المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ. المعروف بصحيح مسلم. تحقيق ومقارنة صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت. ط 01. 2000.

- * المناوي: محمد المدعو بعبد الرؤوف. فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي. دار المعرفة. بيروت. ط 02. 1972.
- * الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة. إعداد مجموعة من العلماء منهم: وليد بن أحمد الحسين الزبيري. ط 01. 2003. إصدار سلسلة الحكمة.
- * الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. دولة الكويت. طبعة 2. 1983.
- * الميداني: أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم. أبو الفضل. مجمع الأمثال. تحقيق سعيد محمد اللّحّام. دار الفكر. بيروت. 2002.
- * النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق. كتاب الفهرست. تحقيق رضا تجدد.
- * النسائي: أحمد بن شعيب، أبو عبد الرحمن. سنن النسائي. المسمّى بالمجتبى أو المجتنبى. ضبط صدقي جميل العطار. دار الفكر. بيروت. ط 02. 2001.
- * النيسابوري. نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي. تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان. مطبوع على هامش تفسير الطبري.
- * الهروي: أبو عبيد أحمد بن محمد، صاحب الأزهرى. الغريبين في القرآن والحديث. تحقيق أحمد فريد المزيدي وآخرين. مكتبة مصطفى نزار الباز. مكة المكرمة. ط 01. 1999.
- * الهندي: علي المتقي بن حسام الدين، علاء الدين.
- * كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ضبط وتصحيح بكري حيّاني وصفوة السقا. مؤسسة الرسالة. د ت.
- * اليوسي: الحسن بن مسعود، أبو عليّ. زهر الأكم في الأمثال والحكم. تح د محمد حجي ود محمد الأخضر. دار الثقافة. الدار البيضاء. المغرب. ط 01. 1981.
- * فهرسة اليوسي. تحقيق زكريا الخثيري. جامعة محمد الخامس. الرباط.
- مراجع ودراسات حديثة
- * أبو موسى: محمد حسنين. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية. دار الفكر العربي.
- * الأعظمي: د. محمد مصطفى. دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه. المكتب الإسلامي. بيروت. 1980.
- * أمين: أحمد. فجر الإسلام. دار الكتاب العربي. بيروت. ط 11. 1979.

- * أبو زهرة: محمد. محاضرات في النصرانية. طبع الهيئة العامة للدراسات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض. ط 04. 1404 هـ.
- * ابن عاشور: محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. 1984.
- * بنت الشاطئ: د. عائشة عبد الرحمن. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. دار المعارف. ط 03.
- * بروكلمان: كارل. تاريخ الأدب العربي. تعريب الدكتور عبد الحليم النجار. طبعة دار المعارف. إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ط 06.
- * الجيزاني: محمد بن حسين بن حسن. معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة. دار ابن الجوزي. ط 01. 1996.
- * الحوفي: أحمد. حجية التوراة. مؤسسة الخليج العربي. القاهرة. ط 01. 1989.
- * خالد: رمضان حسن. معجم أصول الفقه. دار الحرباشي للدراسات الإنسانية.
- * الرافعي: مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الكتاب اللبناني. بيروت. د.ت.
- * رضا: محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار. دار المنار. القاهرة. ط 02. 1947.
- * الزركلي: خير الدين. الأعلام. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. ط 15. سنة 2002.
- * زغلول: محمد سلام. أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر ق 04 هـ. تقديم محمد خلف الله أحمد. مكتبة الشباب. ط 01.
- * زلهائم: رودلف. الأمثال العربية القديمة. ترجمة رمضان عبد التّواب. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 2. 1982.
- * سزكين: فؤاد. تاريخ التراث العربي. تعريب الدكتور محمود فهمي حجازي. طبعة سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز. 1991.
- * سعد: د. محمود. مباحث البيان عند الأصوليين والبلاغيين. منشأة المعارف. الإسكندرية. د.ت.
- * سليمان: د. سيد. أمثال وأقوال في حياة اليهود. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط 01. 1997.
- * شلبي: د. أحمد. اليهودية. مكتبة النهضة المصرية. ط 08. 1988.
- * شيخو: لويس. النصرانية وأدائها بين عرب الجاهلية. طبعة قديمة بدون تاريخ.

- * ضيف: شوقي. الفن و مذهبه في النثر العربي
- * طويلة: عبد الوهاب عبد السلام. الكتب المقدسة في ميزان التوثيق. دار السلام. القاهرة. ط 02. 200.
- * عامر: فتحي أحمد. بلاغة القرآن بين الفنّ والتاريخ. منشأة المعارف الإسكندرية. ط 01.
- * عبد الرحمن: د. عفيف. مكتبة العصر الجاهلي وأدبه. ط 1. دار الأندلس. بيروت. 1984.
- * عبد الوهاب: أحمد. اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامّة في المسيحية. مكتبة وهبة. مصر. ط 01.
- * العبدلي: د الشريف منصور بن عون. الأمثال في القرآن ط 1 . عالم المعرفة . جدّة 1985.
- * عزّ الدين: د. كمال. الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية. دار اقرأ. ط 01. 1984.
- * العلواني: د. محمد جابر فياض. الأمثال في القرآن الكريم. الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. ط 2. 1995.
- * الأمثال في الحديث النبوي الشريف. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن و م أ. ط 1. 1993.
- * العمري: أحمد جمال. المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 01. 1990.
- * العودات: حسين. العرب النصارى. الأهالي للطباعة والنشر. دمشق. ط 01. 1992.
- * غنيمه: يوسف رزق الله. نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق. مطبعة الفرات. بغداد. ط 01. 1924.
- * منيس عبد النور، د القس. أمثال المسيح. شتوتغارت. ألمانيا. د. ت.
- * ناجي. د مجيد عبد الحميد. الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية. ط 1. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. 1984.
- * وجدي: محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. دار المعرفة. بيروت. ط 03. 1971.
- المجلات والدوريات
- * مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية. عدد 0. 1991.
- * مجلة المورد العراقية. عدد 04. 1988.

المحتويات

ملخص البحث وترجمته

حمد لله والصلوة والسلام على رسوله ﷺ وبعد:

الأمثال عنصر مهم من العناصر المكوّنة للغة التراث الفكري العربيين، لأنها تمثل، كما هو حال أمثال غالبية الأمم، خلاصة تجارب أفرادها وخبراتهم في الحياة.

وتمتاز الأمثال ببساطة جملها ودقّة التعبير فيها مع قوّة الفكرة وسهولة النطق وشدّة التأثير للجونها إلى أرفع أساليب البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية مع اعتمادها على أدقّ الأساليب النحويّة، فحازت إعجاب العامّة ونالت عناية الخاصّة من العلماء، فانكبوا عليها جمعا ودراسة وشرحا.

ولما كان لها مثل هذه المنزلة وهذا التأثير، كان كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أولى باستعمالها من أجل الترغيب والترهيب والموعظة والاعتبار، لأنّ رسالة الإسلام جاءت لإخراج الناس من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، وكلّ وسيلة تبليغ الإنسان هذه الغاية كان كتاب الله يستعملها، ومنها الأمثال.

سارت أمثال الحديث النبوي الشريف على هدي أمثال القرآن الكريم، إذ ضرب الأمثال في البيان النبوي لم يأت، شأنها في ذلك شأن أمثال القرآن، لغاية فنية بحثة كغاية الأدباء في تزيين كلام وتحسينه، وإنما جاء لهدف أسمى؛ وهي كذلك أسلوب من أساليب التربية، وحثّ النفوس على العمل الخير، وحثّها على البرّ، كما يقوم بتربيّة العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم.

لت الأمثال عناية علماء البلاغة، لصلة مباحثها في الغالب بموضوع الإعجاز، وهو ما أوجد مادة ثريّة استثمرها الذين عنوا بالبلاغة التطبيقية في القرآن والحديث كالزّمخشري والطّيبي.

ذكرت أمثال أهل الكتاب النصوص التراثية التي عنيت بالمثل القرآني بشكل خاص، لكنّها لم تتل عناية الدارسين، ولعلّ تأخر ظهور نص معرّب للتوراة والإنجيل من جهة وبشرية أغلب النصّ الموجود بين أيدينا الآن هو ما خلق عزوفا في نفوس الدارسين وبقيت النصوص الدينيّة لهذه الكتب حبيسة المعابد، لذلك لم يتيسّر لي الاطلاع على دراسات عربيّة عنيت بالموضوع. في الختام فهذا البحث محاولة متواضعة منّي أسهم بها في إثراء حقل الدراسات حول القرآن والحديث. والله أسأل السّداد.

Louange à Dieu, prière et paix soient sur Son messager, et après:

Le proverbe résume l'ensemble des expériences vécues par des individus. C'est un facteur qui joue un rôle très important dans la fondation de la langue et du patrimoine idéologique.

Le proverbe se distingue par l'aisance de la phrase par laquelle il est exprimé, par la précision et la clarté de son expression, par l'efficacité de l'idée qu'il porte en soi et par son influence qu'il détient des figures de style comme les analogies, les expressions métaphoriques et les styles de grammaire utilisés. Ainsi il a occupé un espace capitale chez les savants et les chercheurs qui se sont intéressés à son étude.

Comme le proverbe a pris cette place et cette influence, le coran et le hadith l'ont pris en considération. Pour faire sortir les hommes de l'obscurité de l'ignorance à la lumière de la croyance, ils se sont servis de tous les moyens parmi lesquels l'emploi du proverbe, Ils l'ont utilisé pour impressionner et/ou intimider les croyants et les infidèles.

Le proverbe dans le hadith a pris le même chemin que celui du coran. Les grands écrivains et les poètes l'utilisent pour montrer leurs aptitudes dans la manipulation de la langue. Cependant dans le coran et le hadith, on vise par l'emploi du proverbe, l'éducation de l'esprit est de l'âme à faire le bien et l'aumône, à penser selon la logique authentique. Ainsi l'objectif du coran et du hadith est plus éminent et plus intéressant.

Le proverbe a attiré l'attention des savants et des chercheurs de la rhétorique comme Azamarchari et Taibi qui ont trouvé une matière fertile. Ils l'ont investi dans la rhétorique appliquée dans le coran et le hadith.

Les études sur les proverbes dans les textes divins ne se sont intéressés qu'à ceux qui existent dans le coran. L'apparition retard des versions arabes de l'évangile et du tawrat ont créé une réticence chez les chercheurs. C'est pourquoi je n'ai pas trouvé des recherches et des études en arabe qui ont traité ce sujet.

Enfin, nous voulons par cette modeste recherche enrichir le champs des études sur le coran et le hadith.